شعر الأسر والسجن

بين
أبى فراس الحمدانى والمعتمد بن عباد

الدكتور

مصطفى مصطفى البسطويسي عطا

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ ـــ ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ أوزِعْني أن أشكرَ نعمتَك التي أنعمتَ علـــيَّ وعلَى والديَّ، وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ ، وأصلِحْ لي في ذريَّتي، إنِّي تبتُ إليكَ ، وإنِّي مـــن المســـلمين ﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، والتابعين .

وبعد

فإن الأدب العرب أدب متجدد ، يزداد كل يوم طرافة ، ويكتسب في كل يوم مذاقا وطعما يمتعان القارىء ، ويبهجان خاطره ، ويثيران في نفسه الشهوة للوقوف أمام ظواهره ، والتنقيب عن دواخل هذا الأدب ، واستكناه بواطنه .

كما أن أعلام الأدب العربي متعددو المذاهب ، مختلفو المناهج والاتجاهات ، وجاء أدب كل منهم صورة صادقة لما يؤمن به من مذاهب ، وما يميل إليه من اتجاهات ، وما يجنح إليه من مناهج .

وقد ذاق الأسر والسجن عدد غير قليل من الشعراء العرب في المشرق والمغرب فلم يصمتوا أمام ما أصيبوا به ، ولم تخرس ألسنتهم كما قيدت حريتهم ، بل ترجموا بأشعارهم عن تجربة الأسر وما عانوه فيه من هموم وآلام.

ومن بين هؤلاء الشعراء الذين نكبوا في حريتهم وملكهم الشاعر العباسي الكبير أبو فراس الحمداني الذى أسر في بلاد الروم ، والشاعر

الأندلسي الشهير الملك المعتمد بن عباد الذى أسر في أغمات في بلاد المغرب قرب مراكش •

ومع كثرة الكتب التى تعرضت لدراسة الأدبين العباسي والأندلسي ، فإن أيا منها لم يخص شعر الأسر والسجن عند الشاعرين ، أو عند أحدهما بكتاب مستقل ، واكتفت بعض كتب الأدب التى تدرس أدب هذين العصرين بإشارات بسيطة إلى شعر الأسر والسجن عند كل من الشاعرين •مع ذكر بعض نماذج منه أثناء الحديث عن موضوعات الشعر ومعانيه وخصائصه في هذين العصرين ، مما دفعنى للقيام بهذه الدراسة حول شعر الأسر والسجن عند أبي فراس الحمدانى والمعتمد بن عباد والموازنة بينهما في الموضوعات والمعانى المتشابهة،لتكون محاولة أولى - على ما أعتقد - لدراسة هذا اللون من الشعر في ديوان كل منهما •

وقد وجدت كثيرا من أوجه الشبه بين الشاعرين جعلتنى أجمع بينهما في هذه الدراسة : فكلاهما ذاق مرارة الأسر والسجن ، وعاش مأساة الألم ،ومحنة الانهيار لسنوات عديدة من حياته ، وكلاهما أسر خارج حدود دولته التى كان يعيش فيها ، وكلاهما كان من ذوى السلطة والجاه في دولته ، فكان أبوفراس أميرا على جزء مهم من الدولة الحمدانية ، وكان قائدا هاما من قواد هذه الدولة ، وكان المعتمد بن عباد أميرا على جزء مهم من دولة بنى عباد بالأندلس في عهد والده المعتضد ، ثم كان ملكا على هذه الدولة بعد وفاة والده ، وقد انقلبت حياة المعتمد بأسره وسجنه ، فتحول أسيرا مكبلا بعد أن

كان ملكا حاكما ، كما انقلبت حياة أبي فراس - قبل ذلك - بأسره وسجنه فتحول إلى أسير مقيد بعد أن كان أميرا فارسا ، ولما كان كل من الشاعرين من أصحاب الأمزجة الفنية فقد استطاع كل منهما ان يضفي على مأساته في سجنه ثوبا من الجمال الفني ، ويصورها في شعر أخاذ يستولي على القلوب ويجعل كل من يقرأه يشارك الشاعر أحزانه ولواعجه . لأن كلا منهما قد وفق في التعبير عن آلام نفسه ، وحرقة قلبه ، وضيقه بقيود السجن وأغلاله . وهذا ما جعلني أجمع بينهما في هذه الدراسة التي جاءت مكونة - بعد المقدمة - من تمهيد وثلاثة فصول :

تحدثت في التمهيد عن مفهوم الأسر وعلاقته بالسجن ، وعن شعر الأسر والسجن ومكانته في الأدب العربي .

وتحدثت في الفصل الأول عما يتصل بحياة الشاعرين وشعرهما فقدمت صورة عن حياة أبي فراس ، وأهم أحداثها ، وأشهر موضوعات شعره، وخصائصه ، ثم قدمت صورة مماثلة عن حياة المعتمد ، وأهم أحداثها ، وأشهر موضوعات شعره وخصائصه .

أما الفصل الثاني فهو في موضوعات شعر الأسر والسجن عند الشاعرين. وجئت بها مرتبة حسب أهميتها ومكانتها في هذا الشعر ، ووازنت بين الشاعرين في بعض القصائد المماثلة في موضوعها ومعانيها .

وأما الفصل الثالث فبينت فيه أهم الخصائص الفنية لشعر الأسر والسجن عند الشاعرين ، مع الموازنة بينهما في بعض المواضع .ثم وضعت

فهرسا للمراجع التى اعتمدت عليها ، ثم فهرسا لموضوعات البحث • هذا وقد قرأت في شعر الأسر والسجن كتابين قبل أن أكتب هذا البحث ، كان كل منهما في أصله أطروحة للدكتوراة ، أما أحدهما فهو كتاب "الأسر والسجن في شعر العرب - تاريخ ودراسة " للدكتور أحمد مختار البرزة ، وهو يتناول شعر الأسر والسجن منذ الجاهلية حتى القرن التاسع الهجرى • ولم يقتصر فيه - رغم هذه المدة الزمنية الطويلة - على دراسة هذا اللون من الشعر في إقليم بعينه ، وإنما حاول الكشف عن الأسرى والسجناء من الشعراء العرب ، وخصائص ما أنشدوه من شعر ، وجلاء معالمه واتجاهاته البارزة في جميع الأقطار والبيئات التى عاش فيها العرب والمسلمون من خراسان شرقا إلى الأندلس غربا • ولذا فقد جاء البحث بعيدا عن التعمق في الدراسة بالدرجة الكافية ، وكان نصيب الشاعرين أبى فراس الحمدانى ، والمعتمد بن عباد من هذه الدراسة ضئيلا رغم أهمية شعرهما في الأسر •

وأما الكتاب الثانى : فهو (شعر الأسر والسجن في الأندلس - جمع وتوثيق ودراسة) للدكتور بسيم عبد العظيم إبراهيم : وهو - كما يظهر من عنوانه - يتناول هذا اللون الشعري في بلاد الأندلس وحدها : أسبابه ، وأغراضه ، وخصائصه الفنية في القسم الأول من الدراسة . ونصوصه جمعا وتوثيقا في القسم الثانى منها ، وكان حظ شعر المعتمد بن عباد في هذه الدراسة ضئيلا إذا ما قورن بأهمية هذا الشعر عنده ، أما أبو فراس فلم يكن له وجود فيها بحكم موضوعها •

وقد أشار الدكتور بسيم في مقدمة كتابه هذا إلى كتاب ثالث في هـــذا الموضوع بعنوان : " قضية السجن والحرية في الشعر الأندلســي ، وكــان في الأصل رسالة علمية كان عنوانها : " شعر السجناء في الأندلس" . ولم أعثر أنا على هذا الكتاب ولم أعرف عنه غير عنوانه الذى ذكره الدكتور بســيم في مقدمة كتابه .

لذا فقد عقدت هذه الدراسة محاولا تجلية هذا العرض الشـــعرى مـــن خلال دراسته عند الشاعرين أبى فراس الحمدانى (المشرقى) ، والمعتمـــد بـــن عباد (الأندلسي) والموازنة بينهما في المواضع المتماثلة من هذا الشعر .

وإنى إذ أقدم هذا البحث أستميح القارىء عذرا عما قد يكون فيه مـــن قصور غير مقصود ولا متعمد ، فالكمال لله وحده ، وحسبي أنـــنى لم أدخـــر وسعا ، ولم أضن بجهد في سبيل إخراجه على أحسن صورة ممكنة .

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يكون حظى منه الرضا وحسن القبول .

" وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب "

الدكتور

مصطفى مصطفى عطا

٢٠٠٠/٦/٢٨

تمهيد

أ ـ مفهوم الأسر وعلاقته بالسجن :

الأسر في اللغة : الشد . جاء في لسان العرب : (١) " أســـره يأســـره أسرا " وإسارة : شده بالإسار . والإسار : ما شد به ".والأسير : هو ذلـــك المشدود بالإسار أو القيد . وفي لسان العرب : والأسير الأخيذ ، وكل محبـوس في قد أو سجن : أسير . وأخذ لفظ الأسير من الإسار وهو القيـــد . لأنهـم كانوا يشدون الأسير بالقيد . فسمي كل أخيذ أسيرا وإن لم يشد به . يقال : أسرت الرجل أسرا وإسارا : فهو أسير ومأسور . والجمع أسرى وأســـارى . والإسار : الرباط . والإسار : المصدر كالأسر . والأسر : القوة والحبس.(٢)

والأسير : هو المرء الذى يئول أمره إلى عدوه فيتمكن منه كل التمكـــن ، وقدر عدوه على أن يتصـــــرف بمصيره كما يشاء حيـــاة ، أو موتـــا ، أو استرقاقا (٣).

وموقف الأسير في أسره ، وما يتصف به حاله من الخوف ، والضعـــف ، والعجز عن مقاومة الأسر والخضوع لسلطانه ـ كل ذلك يثبت صـــدق هـــذا المفهوم لكلمة (الأسر).والتقييد شيء ملازم لعملية الأسر حتى تتعطـــل بـــه

١ ـ طبعة دار المعارف ـ مادة (أسر) .
٢ ـ طبعة دار المعارف ـ مادة (أسر) .
٣ ـ انظر : الأسر والسجن في شعر العرب ـ د / أحمد مختار البرزة ـ مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق وبيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥م ـ ص ١٨ .

حركة المأسور ويأمن به الآسر جانبه ، ويسلس قياده . يقول ابـــن منظـــور : "ويقال للأسير من العدو : أسير ، لأن آخذه يستوثق منه بالإسار وهو القـــد لئلا يفلت " [١] .

ولقيد الأسيرصور متعددة تتفاوت في الأذى والشدة ، وتختلف حسب مكانة الأسير الاجتماعية أو السياسية ، وإن كانت كلها تعبر عن الألم والضيق والعنف والذل والشقاء الذى يكون عليه الأسير ، ناهيك عـــن الإحســاس الداخلى الذى تدل عليه كلمة الأسر "وما فيها من ضنك وبؤس ومـــآس . يدل على ذلك هذه الأفكار والمخاوف التى كانت تحوم في نفـــس العـــربي إذا لاح له شبح الأسر ، حتى نرى بعضهم يفضل العار والموت عليه لما فيـــه مـــن محنة معذبة ، وبلاء فادح ، ولعلمه بما فيه من مهانة تمحق الكريم ، وتجعل الأعز الأذل ، وتفقد المرء قدره الإنسانى " .[٢]

جاء في الأشباه والنظائر قول الشاعر [٣]

قالت إمامة لم تكن لك عادة	أن تترك الأصحاب حتى تعذرا
لو كان قتل يا أمـــام فراحـة	لكن فررت مخافة أن أوسرا

فكانت كلمة الأسر توحى في نفس العربي بمعانى الذل ، والألم ، والبؤس والضنك ، ونحوها من معانى العبودية ، وحبس الحريـــة عـــن الأســير . لأن الإنسان إذا ما أسر انقطع ما بينه وبين ما يسمى حيـــاة حقيقيـــة ، ووجـــودا

---

١ - لسان العرب : مادة (أسر) .

٢ - الأسر والسجن في شعر العرب ٢١ .

٣ - الأشباه والنظائر - الخالديـان - تحقيق السيد محمد يوسف - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٦٥ م - ٢ / ٣٠٣ ولم ينسب البيتان لأحد .

حقيقيا ، وأمسى ملكا لعدوه يتصرف في أمره أنى يشاء." فليست هذه الكلمة ذات مضمون واحد ، بل ذات مضامين عديدة ، تختلف اختلافا كبيرا فيما توحيه من العذاب والألم والاستذلال ، ولكنها تنتهي جميعا إلى مضمون واسع هو حجز حرية الإنسان ، وتعطيل حركته ، وإلزامه الإقامة في مكان معين"[١].

أما كلمة السجن بالكسر : فمعناها في اللغة : الحبس • وبالفتح : المصدر • وفي لسان العرب : [٢] سجنه يسجنه سجنا : أي حبسه ، والسجن (بالكسر) : المحبس • ورجل سجين : مسجون • والسجان : صاحب السجن • وقال : [٣] الأسير : المسجون •

ومفهوم ذلك أن السجين هو الأسير ، وأن السجن مرادف للأسر. ويرى الدكتور أحمد مختار البرزة أن لفظة (سجين) كانت ترادف كلمة (الأسير) حتى العصر الأموى ، أما في العصر العباسي فبدأت تختص كلمة (الأسير) بالذين يؤخذون حربا ، وكلمة السجين بمن تعتقله السلطة.[٤]

وفصل الدكتور بسيم عبد العظيم إبراهيم القول في الفرق بين السجن والأسر والعلاقة بينهما ، فجعل السجن وسيلة لعقاب المخالفين في الرأى والعقيدة،والخارجين على قانون المجتمع،أو ما يأمر به الحاكم وإن كان مخالفا لقانون المجتمع وأخلاقه ، فالسجن مرتبط بالذلة والصغار والهوان ، وهو مؤلم

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٢٣ -
٢ - لسان العرب - مادة (سجن) -
٣ - لسان العرب - مادة (أسر) -
٤ - انظر : الأسر والسجن في شعر العرب ٢٤ ، ٢٥ -

للنفس ، وخاصة إذا كان السجين مظلوما . وقد استشهد على ذلك بقول الله تعالى على لسان امرأة العزيز لزوجها ﴿ما جزاءُ من أرادَ بأهلك سُوءًا إلاَّ أنْ يُسْجَن أو عذابٌ أليم ﴾[١] وقولها للنسوة : " ولئن لم يفعَلْ ما آمُرُه ليسجَنَنَّ وليكونَنْ من الصَّاغرين "[٢]

أما الأسر فهو مرتبط بالحرب . والأسير هو من يقع في يد العدو أثناء الحرب . قال - تعالى - " وقذفَ في قلوبهمُ الرُّعْبَ فريقًا تقتلونَ وتأسِرُون فريقا "[٣] وقال تعالى :﴿ وإنْ يأتُوكُمْ أُسَارَى تفادُوهُمْ ﴾[٤] وقال تعالى[٥] ﴿ ما كانَ لنبيٍّ أن يكونَ له أسْرَى حتى يُثْخِنَ في الأرْضِ ﴾[٦]

ورغم هذا الفرق بين الأسر والسجن فهما في النهاية يعنيان شيئا واحدا لارتباط أحدهما بالآخر . لأن " الأسر يفضى إلى السجن . ولا فرق بينهما إلا في الكيفية والأسباب التى تؤدى إلى حدوث كل منهما . فالأسر يكون من العدو سواء في الحرب ، أو على حين غرة ، أو نتيجة للقرصنة البحرية ، كما كان يحدث في الأندلس ،وقد يكون أسرا خارجيا يقوم به النصارى(أو الروم) أو يكون أسرا داخليا في إطار الدولة الإسلامية نتيجة المشاحنات والحروب

١ - من الآية رقم ٢٥ من سورة يوسف .
٢ - من الآية رقم ٣٢ من سورة يوسف .
٣ - من الآية رقم ٢٦ من سورة الأحزاب .
٤ - من الآية رقم ٨٥ من سورة البقرة .
٥ - من الآية رقم ٦٧ من سورة الأنفال .
٦ - انظر : شعر الأسر والسجن في الأندلس .جمع وتوثيق ودراسة - مكتبة الخانجى بالقاهرة - ط ١ - ١٩٩٥ م. ص ٩ وما بعدها .

التى كانت تقع بين بعض حكام المسلمين في الأندلس في فترات الضعف السياسي والتفرق ".[1]

وأنا أرى أن الفرق بين الأسير والسجين يكمن في الوقت الذى يؤخذ فيه كل منهما . فالأسير سرعان ما يتحول إلى سجين بعد أن يصل إلى المكان الذى يسجن به . كما أن السجين يكون أسيرا وقت الإمساك به حتى يوصل به إلى السجن . ويتحدان بعد إيداع كل منهما في محبسه فنجد كلا منهما مقيداً ذليلا معذبا .

وبناء على ما سبق نحكم بأن كلا من أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد كانا أسيرين من حين أخذهما ووقوعهما في يد الأعداء . وأصبحا سجينين بعد أن وصل أبو فراس الحمداني إلى محبسه بخرشنة في بلاد الروم ، ووصل المعتمد بن عباد إلى محبسه بأغمات في بلاد المغرب ، وقد يطلق عليهما وهما في الحبس أسيرين أيضا باعتبار ما كانا عليه أولا ." وهكذا ننتهى إلى أن عماد كلمة الأسير أو السجين ثلاثة عناصر : سلب الحرية ، وتعطيل الحركة ، والإقامة الإجبارية ، ولكنها لا تتساوى قيمة ومقدارا . وأهم ما فيها العنصر الأول من غير شك ، ولا يزال المرء يشعر أنه لا يملك أمره ولا نفسه إذا حيل بينه وبين التصرف الحر الإرادى ولو كان مطلق اليدين مفسوحا له في الأرض ، وعندئذ تكون الأرض كلها سجنا كبيرا ".[2] إن الحرية هي أغلى كنز يمتلكه

---

١ - المرجع السابق ١٢ .

٢ - الأسر والسجن في شعر العرب ٢٣ .

الإنسان في هذه الحياة . فإذا فقدها أو أحس بفقدها كان إنسانا فقيرا معدما لا يحس بطعم لهذه الحياة ، وتفارقه لذاها ولو كان ثريا كثير المال .

ب - شعر الأسر والسجن ومكانته في الأدب العربي :

يقصد بشعر الأسر والسجن تلك الأشعار التي نظمها الشعراء الذين أصيبوا بمحنة الأسر والسجن ، وعبروا فيها عن حالهم وحال أهلهم وذويهم وما حدث لهم من وقت وقوعهم في الأسر وطوال المدة التي عاشوها في محبسهم .

وقد حفل الأدب العربي في عصوره المختلفة بكثير من الشعراء الذين وقعوا في الأسر وألقوا في غياهب السجون ، وقام كل منهم بوصف سجنه وتصوير ما يلقاه فيه من ألوان الهموم والشقاء والآلام ، فقد وجد كل منهم في الشعر راحته ومتعته فأودعوه زفراهم وضمنوه عبراهم ، وعبروا به عن شكواهم وحنينهم إلى الحرية المفقودة ، كما اتخذوا منه أداة للاستعطاف والرثاء والبكاء ، واستعان به بعضهم على إظهار ما يحملونه بين ضلوعهم من بأس وقوة وشجاعة رغم ما يلقونه في أسرهم من آلام فأنشدوا في الفخر ، وعبروا عن ثباهم ، ورباطة جأشهم أمام أهوال السجن وآلامه . كما أكثروا من الشعر الذى يصور محنتهم في الأسر أو السجن من لحظة وقوعهم فيه . أي كيفية القبض على الشاعر وأسباب ذلك إلى تصوير رحلته إلى مكان الأسر أو السجن ، كما صوروا السجون بأنواعها المختلفة ، ومعاناهم في تلك السجون أو المعتقلات ، ووازن بعضهم بين حاله في السجن وحاله قبله ، كما تحدثوا عن آلام القيد والوحدة ، وعن تقلب الدهر بهم ، وتنكر الزمان لهم ،

وصور بعضهم أعداءه وشماتتهم به ، واتجه البعض إلى هجاء آسريهم أو تصوير سعادته بسجنه،وعبر بعضهم عن حنينه إلى محبوبته في شعر غزلى ، كما عبر جميعهم عن شوقهم إلى أهليهم وأوطانهم ... إلى غير ذلك من المعانى والأغواض التى تناولها شعراء الأسر والسجن في أشعارهم .

ولا ريب في أن كل هذا الكم الكبير من شعر الأسر والسجن وما يحتوى عليه من أغراض وقيم ومشاعر إنسانية،يجعل له مكانة هامة وقيمة فنية رفيعة بين أغراض الشعر العربي الأخرى،تؤهله ليكون جديرا بالتعبير القوى عن كل المعانى والعواطف التى تموج بها نفس الشاعر الأسير .

وسوف نتعرف على الكثير من القيم الفنية التى تؤكد تلك المكانة الهامة لهذا اللون من الشعر في الأدب العربي من خلال الدراسة والموازنة في الفصول القادمة بين روميات أبى فراس الحمدانى ، وتلك الأشعار التى نظمها المعتمد بن عباد في أسره وسجنه بأغمات ، والتى رأيت أن أطلق عليها اسم (أسريات المعتمد) في مقابلة (روميات أبى فراس) .

الفصل الأول

الشاعران وشعرهما

أولا : أبو فراس الحمدانى وشعره :

أ ـ عصر الشاعر :

عاش أبو فراس الحمداني في عهد الدولة الحمدانية في الموصل وحلب وما جاورهما . وقبل أن أتحدث على حياة الشاعر وشعره رأيت أن أكتب تصورا يسيرا للعصر الذى عاش فيه ، حتى نتبين إلى أي مدى تأثر الشاعر بعصره ، وإلى أي حد كانت علاقته بالحياة في عصره .

بدأت الدولة العباسية مع بداية القرن الرابع الهجرى مرحلة من الضعف والتفكك.وقد استغل آل حمدان فرصة التفكك والضعف هذه واستقلوا بحلب والموصل وبعض المدن والأعمال حولهما ، وأسسوا بها دويلة كان لها شأن عظيم ودور مهم في التاريخ السياسي ، والأدبي ، والثقافي لعصر الدولة العباسية ، وهي الدولة التى تسمى بالدولة الحمدانية نسبة إلى آل حمدان من بنى تغلب ، وقد أرسى قواعد هذه الدولة في الموصل أولا - القائد الحمداني أبو الهيجاء بن حمدان الذى تمكن من إقناع الخليفة العباسي المكتفي بأن يوليه إمرة الموصل وأعمالها لأول مرة في سنة ٢٩٣هـ .

وتولى أبو الهيجاء هذا إمرة الموصل في المدة من سنة ٢٩٣ هـ إلى سنة ٣١٧ هـ عزل خلالها مرتين : الأولى سنة ٣٠١ هـ ، والأخرى عندما قبض عليه مع إخوته في بغداد سنة ٣٠٣ هـ ، وفي آخر أيامه اضطر أبو الهيجاء أن ينيب عنه ولده الحسن (ناصر الدولة) على الموصل ، وأن يظل هو في بغداد - التي كان كثيرا ما يذهب إليها ليراقب أحداثها عن قرب ، ويقف على مدى أثر هذه الأحداث على إمارته ، ورأى هذه المرة أن ينيب عنه ولده وأن يظل هو في بغداد تحرس عيناه إمارته من بعد ، ويحرسها ابنه من قرب . وظل أبو الهيجاء في بغداد إلى أن قتل بعد تورطه في خلع الخليفة العباسي المقتدر .

وقد كثر الخارجون على الحسن بن أبي الهيجاء الذى تولى حكم إمارة الموصل بعد قتل والده ، وتعددت مطارداته لهؤلاء الخارجين ، ولم يكد ينتهى من القضاء على الخارجين عليه حتى ظهر له منافس من أهله يريد إزاحته عن مكانه ليستأثر هو به ، وهو عمه سعيد بن حمدان والد شاعرنا أبى فراس الذى سعى للاستيلاء على الموصل ، فاستعمل معه ناصر الدولة الحيلة حتى قتله سنة ٣٢٣ هـ . وبذلك خلا الجو للحسن ، واعتبر هذا العام هو البداية الحقيقية للدولة الحمدانية بالموصل .

وفي سنة ٣٣٠ هـ دخل البريديون بغداد ففر الخليفة المتقى إلى الموصل يحتمى بأميرها الحسن بن أبى الهيجاء ، وانتهز الأمير الحمدانى هذه الفرصة فاصطحب الخليفة وسار على رأس جيش كبير يقوده أخوه الأصغر علىّ . وما كاد الجيش يصل بغداد حتى نجا البريديون بأنفسهم وفروا أمام الجيش الحمدانى

، وعاد الخليفة إلى قصره ببغداد آمنا مطمئنا ، وأنعم على الحسن بن حمدان بلقب (ناصر الدولة) ، وعلى أخيه عليّ بلقب (سيف الدولة) •

وفي بغداد تولى ناصر الدولة إمرة الأمراء ، وسكن القصور،وبدأ نجمه يصعد ، وزوج الخليفة المتقى ابنه أبا منصور من ابنة ناصر الدولة • وهكذا ارتفع مقام الأسرة الحمدانية إلى مقام سام سمح لهم بمصاهرة الخلفاء •

وظل ناصر الدولة أمير الأمراء مدة ثلاثة عشر شهرا اضطر بعدها أن يترك هذه الوظيفة ، وأن يترك بغداد كلها إلى الموصل مقر ولايته العتيدة ويظل في الموصل.وتقوم بينه وبين معز الدولة البويهي العديد من الحروب ، ثم يتوفى معز الدولة البويهى ويتولى أمر الدولة البويهية في بغداد ابنه عز الدولة ، فيعرض أبو تغلب بن ناصر الدولة على أبيه أن ينطلق إلى بغداد للثأر من عز الدولة الذى كثيرا ما قام أبوه بشن الحرب على ناصر الدولة ، ولكن ناصر الدولة لم يوافق ابنه على هذا الرأي فقبض أبو تغلب على أبيه وزاول بنفسه حكم الدولة الحمدانية ، وحينما وصلت الأخبار بذلك إلى حمدان بن ناصر الدولة وأخى أبي تغلب في ولايته بالرحبة هب لإنقاذ أبيه من أخيه العاق ، فجرت بين الأخوين معارك عديدة ضعفت بسببها الدولة الحمدانية في الموصل •

وفي سنة ٣٥٨ هـ مات الأمير ناصر الدولة في سجنه ، وظل الخلاف على أشده بين ابنيه أبي تغلب وحمدان ، ثم لم يلبث الخلاف أن شمل بقية إخوتهما مما شجع الروم على الاعتداء على الدولة الحمدانية في الموصل أكثر من مرة •

ومثل هذه الخلافات والأحداث الكبيرة كانت جديرة بأن تعصف بهذه الدولة الصغيرة . وتلعب الأقدار دورها في ذلك فيغير عضد الدولة البويهي على بغداد ويقتل بختيار ، ويواصل زحفه إلى الموصل فيهرب منها أبو تغلب ، وتضيق الدنيا في وجهه أمام مطاردة عضد الدولة له فيلجأ إلى ملك الروم ، ويحاول الاستعانة به ضد عضد الدولة ، ولكن آماله تصاب بالخيبة ويظل شريدا يضرب في آفاق الأرض حتى يأسره بعض الرجال الفاطميين في الرملة بفلسطين ، وضربت رأسه وأرسلت إلى مصر ، وبذلك انتهت دولة الحمدانيين بالموصل مبكرة ، وكان ذلك سنة ٣٦٧ هـ [١]

أما عن الدولة الحمدانية في حلب فقد نشأت على يد مؤسسها على بن حمدان الملقب بسيف الدولة المولود في سنة ٣٠٣ هـ والمتوفى سنة ٣٥٦هـ وقد انتزع حلب من يد أحمد بن سعيد الكلابى عام ٣٣٣ هـ وأسس بها دولته .

وكان سيف الدولة معروفا بالشجاعة والفروسية وشدة البأس في النزال . وكثيرا ما اشترك مع أخيه ناصر الدولة في حروب أظهر فيها بأسا وشجاعة . ويقال أنه نتيجة لما حققه سيف الدولة من انتصارات باهرة على الروم والبريديين خشي منه أخوه ناصر الدولة على ملكه ودولته في الموصل مما أدى به إلى إهماله له حتى يهيض جناحه ، ويأمن جانبه . وبعد أن طال صبر

---

١ - انظر كتاب : سيف الدولة الحمدانى - أو مملكة السيف ودولة الأقلام - د / مصطفى الشكعة - عالم الكتب - بيروت - ومكتبة المتنبي بالقاهرة - ط ٢ /١٩٧٧ م. ص ٤٣ : ٤٩ .

سيف الدولة حتى نفد ورأى أنه من الخسارة الكبيرة أن تعصف بأمجاده العظيمة التى صنعها الغيرة الجامحة تقدم من مستكنه في نصيبين إلى أخيه وطلب منه ولاية يلى أمرها : فأطرق ناصر الدولة قليلا ثم أجاب أخاه : الشام أملمك وما فيه أحد يمنعك .

ولم يكن ناصر الدولة - فيما يبدو - جادا فيما يقول ، بل كان يعلم ما يحيط بمغامرة الشام من مصاعب ومكاره ، ولكن سيف الدولة مضى فعلا إلى حلب للاستيلاء عليها من يد الإخشيديين بعد أن مده أخوه بالرجال والمال ، ولم يلبث حاكم حلب من قبل الإخشيد " يأنس المؤنسي " أن فر وترك حلب للأمير الحمدانى ، وكان ذلك سنة ٣٣٣ هـ .

وانطلق سيف الدولة يوسع من أراضى مملكته الجديدة فاستولى على حمص من يد الإخشيديين وأتبعها بدمشق ، وبذلك أصبح لسيف الدولة الملك من حدود الروم شمالا إلى أعمال دمشق جنوبا .

بعد ذلك حاول الإخشيديون أن يثأروا لأنفسهم من سيف الدولة فدارت الحرب بينهم وبين سيف الدولة مرة أخرى بقيادة الإخشيد الذى قدم من مصر على رأس جيش كبير وواصل سيره حتى اقترب من دمشق ، فتركها له سيف الدولة متجها إلى الشمال ، وسار الإخشيديون في مطاردته حتى التقى الجيشان عند قنسرين ، وجرت بينهما مواجهة مريرة انتصر فيها سيف الدولة على الإخشيد ، ولكن لم تلبث كفة الحرب أن تميل لصالح الإخشيد ، ولكن سيف الدولة لم ينصرف بل ظل معسكرا بجنوده أمام

معسكرات الإخشيد ، وأرسل إليه من يقوم بالسفارة بينهما ، وتنتهى الحرب بينهما نهاية سعيدة ، إذ تجرى مصاهرة حمدانية إخشيدية فيتزوج سيف الدولة من فاطمة ابنة الإخشيد، وتنثر الدراهم والدنانير في معسكرات الطرفين المتحاربين . وقد مكن هذا الزواج لسيف الدولة في حلب وجعله يأمن على نفسه ودولته من تيارات الجنوب لكي يتفرغ لحروبه ضد الروم .

هذا عن أهم أحداث الحياة السياسية التى سادت عصر شاعرنا أبي فراس الحمدانية في البيئة التى نشأ فيها ، وسوف نتعرف على المزيد من هذه الأحداث عند الحديث عن حياة الشاعر في هذا الفصل إن شاء الله .

وقد كانت مملكة سيف الدولة تضم الكثير من المدن الشامية الهامة مثل حلب ، وأنطاكية ، وقنسرين ، ومنبج ، وبالس ، ومعرة النعمان ، وحمص ، وطرسوس ، كما كانت تمتاز بكثرة الثغور التى يطلق عليها اسم " الثغور الجزرية " وهي في الواقع ثغور شامية ، وإنما سميت بالجزرية لأن أكثر المرابطين بها من أهل الجزيرة . ومن ثغور مملكة سيف الدولة الهامة : المصيصة ، وأدنة ، ومرعش ، وطرسوس ، والحدث ، وزبطرة ، وملطية ، وسميساط ، ورعبان ، ودلوك ، وديار بكر التى ولد فيها سيف الدولة ، وديار مضر التى كانت الرقة عاصمة لها ، هذا فضلا عن الأنهار الجارية والجبال التى تنفجر منها العيون وتكسوها الغابات وتكثر فيها الثمار .[1]

---

١ - انظر فيما سبق كتاب : سيف الدولة الحمدانى - أو مملكة السيف ودولة الأقلام - ٦٧ : ٨٠ .

وفي مملكة سيف الدولة هذه ولد ونشأ شاعرنا أبـــو فـــراس الحمـــداني وترعرع في مدينة " منبج " التى أقام بها قصوره العامرة مثل "المســـتجاب" و " المصلى ".وهي مدينة قريبة من الفرات ، وقاعدة حمدانية تقفز منـــها الجيـــوش العربية بقيادة أبي فراس الحمداني إلى بلاد الروم .

أما عن الحياة العلمية والأدبية التى اتسم بها عصر أبي فـــراس : فقـــد سادت هذا العصر حركة علمية وأدبية نشطة وخاصة في عهد سيف الدولـــة الحمداني الذى احتضن في بلاطه أمراء الفكر وقادة العلم ، وأمدهم بكل مـــا يحتاجون إليه من تشجيع ومال ، فلم تقف عظمته عند شـــجاعته الحربيـــة ، وانتصاراته الباهرة ، والوقوف في وجه أعداء الدولة الإسلامية ، وإنمـــا كـــان راعيا عظيما للأدب والعلم ، فنهضت في عهده أعظم حركة عرفتـــها بـــلاد الشام في الأدب والعلم ، ولا غرو فهو عربي مسلم يعتز بعروبته وإســـلامه ، وبنسبه إلى قبيلة تغلب ، ويفخر بآبائه وأجداده ، وهو فارس في ميدان الحـــرب يجمع إلى الفروسية والبطولة والشجاعة ، الرأفة والحلم والكـــرم ، والـــذوق الأدبي الصافي ولذلك قصده الشعراء ، والأدباء ، والعلماء من كل صـــوب ، وكان يجعل من قصره منتدى للأدب والعلم ، بحيث يمكننا القول بـــأن هـــذا الأمير كان سببا من أسباب ارتقاء الشعر العربي ، واستحداث فنون جديـــدة وسعت دائرته بعد أن كانت محصورة في محيط تقليدي ، بما كان يغدق علـــى الشعراء من عطايا وهبات وجوائز لا حدود لها ،كما كان يغـــدق في العطـــاء ويشجع على التأليف في كل فروع العلم المختلفة . ويذكر الثعالبي أن ســـيف

الدولة كانت حضرته " مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء ، ويقال : إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها ، وكان أديبا شاعرا محبا لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به "(١)

ولعل من أسباب ذلك تلك السماحة النادرة والكرم الوفير الذى كان يخلعه الأمير على شعرائه ، فكلما جودوا في بضاعتهم ازدادت عطاياه لهم ، حتى إن شاعرا من شعرائه هو ابن نباتة السعدى قد ضاق ذرعا بكرم الأمير وكثرة عطاياه فقال من قصيدة :

قد جدتَ لى باللُّهَا حتى ضَجِرتُ لها
وكدتُ من ضَجَرِى أُثنى على البُخْلِ

إن كنتَ ترغبُ في بذل النوالِ لنا
فاخْلُقْ لنا رغبةً أو لاَ فلا تُنلِ

لم يُبْقِ لى جودُك شيئا أؤمِّلُهُ
تركتَنى أصحبُ الدنيا بلا أَمَلِ(٢)

وتشجيع سيف الدولة الحمدانى للحركة العلمية والأدبية في بلاده ، وإغداقه الأموال على الشعراء والأدباء والعلماء ، لم يكن من قبيل التفاخر ،

---

١ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - تحقيق : مفيد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١٩٨٣/٢م-١ / ٣٧ .

٢ - سيف الدولة الحمدانى - د / مصطفى الشكعة - ١٨٣ .

وحب المدح ، وبعد الصيت ، وتعداد مآثره ومآثر بني حمدان ، بل كان نتيجة ذوق وفهم وإدراك . وكثيرا ما عقدت الحلقات الأدبية ، وجرت فيها المنافسات الشعرية ، واللغوية ، والعلمية في مجلسه . [(١)]

ومن أهم شعراء البلاط الحمداني : أبو العباس النامي الذى كان يحتل المرتبة الثانية في بلاط سيف الدولة بعد المتنبي . والوأواء الدمشقى ، وأبو الفرج الببغاء ، والأخوان أبو بكر محمد بن هاشم ، وأبو عثمان سعيد بن هاشم ، وابن نباتة السعدى ، والسرى الرفاء ... وغيرهم ، ومن أشهر اللغويين والنحاة في بلاط سيف الدولة : أبو على الفارسى ، وتلميذه ابن جنى ، وابن خالويه أستاذ أبي فراس . ومن العلماء والنقاد في بلاط سيف الدولة : أبو بكر الخوارزمى ، والقاضى أبو الحسن الجرجاني ، والفيلسوف الفارابي .

ولم يكن سيف الدولة وحده راعيا للأدب والعلم من بين أمراء بنى حمدان ، بل كانوا جميعا على هذه الشاكلة ، وإن كان سيف الدولة أفضلهم وأقواهم في ذلك . فقد كانوا جميعا - كما وصفهم الثعالبي [(٢)] - " ملوكا وأمراء أوجههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسطة قلادتهم ".ولذلك نهض العلم والأدب في عهد الدولة الحمدانية في حلب ، وكان عهدهم من أزهى العصور الأدبية ، وخاصة في الشعر الذى سطر فيه شعراء هذه الدولة أروع

---

١ - النظر كتاب : أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير - محمد رضا مروة - دار الكتب العلمية - بيروت.الطبعة الأولى - ١٩٩٠ م. - ص٢٣ وما بعدها.

٢ يتيمة الدهر - ١ /٣٧ .

صفحات البطولة العربية ضد الروم ، وأبهى صفات المديح للأمراء الحمدانيين خاصة سيف الدولة .

وجاء شعر شعراء هذه الدولة مثالا يحتذى في القوة والنقاء ، فكانوا - كما يقول عنهم الثعالبي : " جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ، ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين آداب السيف والقلم وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينقده ، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل "[١].

في هذا الجو العبق بروائع الشعر والأدب واللغة والعلم والنقد نشأ أبو فراس الحمداني ، وهوابن عم سيف الدولة ، فنال حظا كبيرا من رعايته وعنايته.وهذه العناية والرعاية كان لها صدى عظيما في شعره عموما ، وفي شعره الذى قاله في سنوات أسره ببلاد الروم خاصة ." إذ ضجت رومياته بذكريات البلاط الحمداني وفي الحنين إلى هذا البلاط "[٢] فقد كان أبو فراس الحمداني قائدا من قواد سيف الدولة وواليا من ولاته ، وكان سيف الدولة يجل أبافراس ويحترمه ويقدمه على سائر شعرائه ويخصه بكرمه وإفضاله ، ويصطنعه لنفسه ، ويصطحبه في غزواته .[٣]

---

١ - يتيمة الدهر ٣٤/١ .
٢ - أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير - محمد رضا مروة - ٢٧ .
٣ - انظر يتيمة الدهر ٥٧/١ .

ب - الشاعر وشعره :

نسبه ونشأته :

هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدون بن الحارث . ولد في منبج ، وقيل في الموصل سنة ٣٢٠هـ ، من أب عربي خالص عرف بالشجاعة والإقدام ، وقوة الاتصال بالبيت العباسي في بغداد . أما أمه ففي شعره ما يدل على أنها كانت رومية إذ يقول : (١)

إذا خفتُ من أخوالي الروم خطَّةً
تخوَّفتُ من أعمامي العرب أربعًا

وفي شعره أيضا ما يفيد بأن أمه عربية أيضا من بني تميم إذ يقول : (٢)

لم تتفرقْ بنا خؤولُ في جَذْمِ عزٍّ ولا عمُومُ
سمتْ بنا " وائلٌ " وفازتْ بالعز أخوالُنا " تميمُ "

وقد يكون أحد القولين منحولا على الشاعر ، وقد تكون أمه فعلا من بني تميم وتكون إحدى جداته لأبيه أو لأمه رومية ، وعلى ذلك يؤول القول الأول .

ويكنى شاعرنا بأبي فراس،وهي كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلة ، وقد غلبت عليه هذه الكنية فلم يعرف إلا بها . أما قبيلة تغلب التي ينتمي إليها

---

١ - ديوان أبي فراس الحمداني - شرح د / خليل الدويهي - دار الكتاب العربي - بيروت ط ١-١٩٩١ م - ص ٢٠٩ .
٢ - الديوان ٣٠٥ .

أبو فراس فهي قبيلة عربية أصيلة عرفت في تاريخها بالقوة والبسالة والأنفة ، وكان والد أبي فراس يحرص على التمسك بمآثر قبيلته المتمثلة في التمسك بالفضائل العربية الأصيلة من الكرم ، والنجدة ، والشجاعة ، والحفاظ على الشرف ، والآباء ، والسماحة في الأخلاق .[١]

نشأ أبو فراس يتيم الأب ، فقد قتل والده في عام ٣٢٣ هـ وعمر أبي فراس ثلاث سنوات ، ويقال في سبب قتله : أن حمدان - جد الشاعر - وقد عرف بالطموح والحزم لما رأى تسرب الضعف في جسم الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث الهجرى حدثته نفسه بالاستيلاء على بعض مقاطعاتها . غير أن الموت لم يمهله فمات قبل تحقيق أمنيته ، فإذا بابنه عبد الله والد سيف الدولة يستولى على الموصل ويورثها لابنه الحسن (ناصر الدولة) سنة ٣١٧هـ ثم سعى سعيد والد أبي فراس عند الخليفة العباسي الراضي بالله لأجل توليه الموصل وديار ربيعة ، ولكنه عندما أراد دخولها واليا لم يتردد ابن أخيه (ناصر الدولة) في قتله .[٢]

وقد أحاط سيف الدولة ابن عمه أبا فراس بالعطف والحنان ، والرعاية حتى أنساه شبح الجريمة التى ارتكبها أخوه وجعله يصفح عن ابن عمه القاتل ، ونشأ أبو فراس في كنف سيف الدولة فتربي منذ صغره تربية عربية خالصة ،

---

١ - انظر في نسب أبى فراس وبعض أحداث حياته : سير أعلام النبلاء للذهبي - تحقيق : أكرم البوسي - مؤسسة الرسالة - ط ٢ - ١٩٨٤ م. ١٦ / ١٩٦.والأعلام للزركلى - دار العلم للملايين - ط ٧ - ١٩٨٦ م. ١٥٥/٢ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠/٧، ٢٨، ٢٩، وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٦/٢ ومابعدها .. وغيرها ،

٢ - انظر : وفيات الأعيان ٤٩/٢ .

فنشأ مقداما عارفا بأصول الحرب والقتال غير هياب للشدائد ، كما شب على تلقى ألوان الثقافة الواسعة القائمة على اللغة والأدب والتاريخ والشعر والفلسفة التى تلقاها على علماء بلاط سيف الدولة وأشهرهم ابن خالويه النحوي .

" ولم يكن أبو فراس الابن الوحيد لأبي العلاء سعيد بن حمدان بل كان له أخوة نذكر منهم : الحسين ، وأبا الهيجاء ، وكان له أختان تزوج إحداهما سيف الدولة ، وتزوج الثانية أبو العشائر. بيد أن أبا فراس هو الإبن الوحيد لأمه ولم تعقب غيره من البنين ومن البنات ،ولم يكن لها من معول سواه ، وقد وقفت عمرها على تربيته فلم تتزوج بعد مقتل أبيه بل احتضنته وصرفت حبها وحنانها إليه وحده ، وأصبح أنيسها في الوحشة وعزاءها في الأحزان وأملها في الحياة " [١]

وهكذا قيض الله لهذا الطفل الصغير بعد مقتل والده أما حانية ترعاه وتغمره بكم كبير من العطف والحنان ، وابن عم يكفله ويرعاه ، ويكون له أبا بعد أبيه . " وإلى جانب التنشئة القوية الشكيمة حظى أبو فراس بتنشئة شاعرية ورثها من قبيلته الحمدانية ، ونماها بمخالطة الشعراء الكثر الذين كانوا يترددون على بلاط سيف الدولة " [٢]

---

١ - أبو فراس الحمدانى شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية - د / عبد المجيد الحر - دار الفكر العربي - بيروت - ط ١ /١٩٩٦ - ص٤٢ .
٢ - المرجع السابق ٤٣ .

وقد عرف أبو فراس لأمه فضلها عليه ، وأثرها الكبير في نشأته وحياته ، فأحبها حبا جما ، وظل يذكر لها رعايتها له وبرها به . وشعره ينطق بأن أمه كانت أعز شيء لديه في هذا الوجود ، فكثيرا ما تحدث عن صبرها وتحملها وحزنها لحزنه وإعانته في الشدائد ، كما أشاد كثيرا بتقواها وصلاحها ، وبكاها بكاء مرا بعد وفاتها . ومن شعره فيها قوله في إحدى رومياته :(١)

لولا العجوزُ بمنبجٍ ... ما خفتُ أسبابَ المنيَّةْ

ولكانَ لي عما سألْـ ... ـتُ من الفِدا نفسٌ أبيَّةْ

لكن أردتُ مرادَها ... ولو انجذبتُ إلى الدنيَّةْ

أمستْ بمنبجَ حرَّةٌ ... بالحُزْنِ من بعدي حريَّةْ

فيها التُّقَى والدينُ مجـ ... ـموعان في نفسٍ زكيَّةْ

ويقول في رثائها : (٢)

أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ ... بكرهٍ منكِ ما لقى الأسيرُ

أيا أمَّ الأسيرِ لمن تُرَبَّى ... وقدْ مُتِّ الذوائبُ والشعورُ

إذا ابنُك سارَ في برٍّ وبحرٍ ... فمن يدعو له أو يستجيرُ

حرامٌ أن يبيتَ قريرَ عينٍ ... ولؤمٌ أن يلمَّ به السرورُ

وقد ذقتِ المنايا والرَّزايا ... ولا وَلَدٌ لديكِ ولا عشيرُ

ليبكِكِ كلُّ يومٍ صُمتِ فيه ... مصابرةً وقد حَمِيَ الهجيرُ

---

١ - ديوان أبى فراس الحمدانى ٣٥٥ .
٢ - ديوان أبى فراس الحمدانى ١٦١ .

كما عرف الشاعر لابن عمه سيف الدولة فضله عليه ، وصرح أكثر من مرة باعترافه بهذا الفضل.ومن ذلك قوله مخاطبا سيف الدولة : [١]

إذ أنت سيدىَ الذى ... ربيتنى وأبى سعيد
في كلّ يوم أستفيـ ... ـدُ من العَلاءِ وأستزيد
ويزيدُ فيَّ إذارأيتك في النـ ... ـدى خُلُقٌ جديد

ويقول : [٢]

هيهاتَ لا أجحَدُ النعماءَ منعمَها
خلَّفت يا ابنَ أبي الهيجاءِ فيَّ أبي

ويقول عن سيف الدولة : [٣]

وقد أصبحتُ منتسبًا إليه ... وحسبي أن أكونَ له غُلاما
أرانى كيف أكتسبُ المعَالى ... وأعطانى على الدهرِ الذِّماما
وربانى ففقتُ به البَرَايا ... وأنشأنى فسدتُّ به الأَنَاما
فعمَّرُه الإلهُ لنا طويلاً ... وزادَ الله نعمتَه دَوَاما

وفي سنة ٣٣٦ هـ أقطع سيف الدولة الشاعر الفارس ضيعة " منبج " وكانت تغل ألفي دينار في السنة ، ثم ولاه بعد ذلك على "منبج " و " حوان "

---

١ - الديوان ٩٥ .
٢ الديوان ٦٢ .
٣ - الديوان ٢٩٠ .

وأعمالهما جميعا • فكان على أبي فراس أن يكون متيقظا متنبها لحركات الروم من جهة،ولحركات البدو من جهة ثانية • كما فرضت عليه هذه الإمارة ألا ينصرف إلى نعيم الدنيا ومتاعها ، بل يجب أن ينصرف إلى جليل المهمات التى تمكنه من الحفاظ على هذه الإمارة فشب وهو ساهر على شئون ولايته ، يحميها من أطماع الروم البيزنطيين ، ومن أطماع القرامطة على الحدود الجنوبية الشرقية من الدولة الحمدانية الذين كانوا يتحينون الفرص للقضاء على سلطة سيف الدولة على هذه البلاد ، ولذلك نلمح في نشأة أبي فراس ألوانا من البطولة المبكرة التى ظللتها شاعرية فنية •

أما "منبج " التى قضى فيها أبو فراس سنوات طويلة من عمره القصير فهي بلد قديم طيب الهواء عذبة الماء ، قليلة الأدواء • أما ليلها فهو سحر كله ، كما وصفها عبد الملك بن صالح - وكان واليا عليها - للخليفة هارون الرشيد حينما سأله : كيف طيب منبج ؟ فقال : عذبة الماء ، عذبة الهواء ، فسأله : فكيف ليلها ؟ فقال : سحر كله • وهي مدينة قريبة من الفرات ، وكان بالقرب منها قنطرة عظيمة على الفرات تعرف بقنطرة (سنجة) ، وعرفت هذه المدينة آنذاك بأنها كثيرة الأشجار يا نعة الثمار ، وهذه البلدة بأوصافها تلك كانت لها أثرها العظيم في تكوين نفس الشاعر فتغنى بها كثيرا في شعره ، ولهج بذكرياته في ربوعها ومعاهدها ، كما في مثل قوله في إحدى رومياته [١] :

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٤٠ -

قــفْ في رســوم " المســتجا ب" وحيِّ أكنافَ المصلَّــى

"فالجَوْسَق" الميمونِ فالسُّـ ـقيا بهــا فالنَّهرُ أعْلَى

تلــك المنــازلُ والمـَـلا عــبُ لا أراهــا الله مَحْــلا

أوطنتُــها زمــن الصبــا وجعلــت منبــج لي محــلا

حيــث التفــتَّ رأيــتَ مــا ءً ســابحًا وَســكنتَ ظِــلّا

تــر دارَ " وادي عــين قــا صَرَّ" مــترلاً رحبــاً مُطِــلا

وتحــل " بالجسْــر " الجنــا نَ وتسكنُ الحصْــنَ المعلَّــى

تجــلو عرائسَــه لــنا هــزجَ الذباب إذا تجلَّــى

معالم شخصيته :

كان أبو فراس الحمداني ذا شخصية فريدة متميزة بمجموعة من الصفات النادرة ، فهو يمثل الفتوة العربية العريقة ، فقد كان فارسا مقداما ، يتصف بالحزم ، والجرأة ، والشجاعة ويضم إلى فروسيته الشهامة ، والمروءة ، والعفة ، والوفاء ، والبعد عن الدنايا ، والتحلى بالكرم ، واحتقار المال ، وتقديم المعونة لكل محتاج ، كما كان معتزا بنفسه وفنه وفروسيته ، وكثيرا ما افتخر بكل ذلك في شعره ، فتتجلى شجاعته وشجاعة قومه في قوله : [1]

ألَمْ ترنا أعــزَّ النــاسِ جــاراً وأمنعَهُم وأمرَعَــهُم جَنابــا

تُفضِّلُنــا الأنــامُ ولا نحاشِــي ونوصَفُ بالجميل ولا نحــابَى

وقد علِــمتْ ربيعةُ بل نــزارٍ بأنا الرأسَ والناسَ الذنــابَى

---

١ - الديوان ٣٣ .

ويتجلى وفاؤه في قوله : (١)

ولما أساءَ الظنَّ بي مَـــنْ جعلتُـه   وإيايَ مثلَ الكفِّ نيطتْ إلى الزَّنْدِ
حملتُ إلى ضنِّي بـه سوءَ ظنِّـه   وأيقنتُ أني بالوفا أمـةٌ وحـدِي
وأنِّي على الحاليْن في العَتْبِ والرضا   مقيمٌ على ما كان يُعرف من وُدِّي

وتتجلى شهامته ومروءته في قوله : (٢)

وحيٍّ رددتُ الخيلَ حتى ملكتُـه   هزيمًا وردَّتني البـراقعُ والخُمُـرُ
وساحبةِ الأذيالِ نحوي لقيتُـها   فلم يلقَها جهمُ اللقاءِ ولا وَعـرُ
وهبتُ لها ما حازه الجيشُ كلَّـهُ   ورحتُ ولمْ يكشَفْ لأثوابِها سِـتْرُ
ولا راحَ يطغيني بأثوابه الغِـنَى   ولاباتَ يثنيني عن الكرمِ الفقـرُ

« وشخصيته الوفية لأصحابه لا تغدر بأعدائه إذا قطع عهدا على نفسه ، ومشهور عنه أنه لا ينكث بعهد ولا يغدر ، والحفاظ على الأخوة من صميم الاعتداد بالرجولة عنده ، فكم من مرة راودته النفس أن ينصرف عن رد الأصدقاء لإساءة قد أتاها ، ولكنه عاد عن ذلك لأنه ضنين بالإخاء " (٣). وقد تحدث عن موقفه من غيره فقال : (٤)

---

١ - الديوان ١٠٦ .
٢ - ديوان أبي فراس ١٦٤ .
٣ - أبو فراس الحمداني شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٤٥ .
٤ - الديوان ٣٢٨ .

وإني لأنــوي هجــره فــيردُني هوىً بين أثناءِ الضلوعِ دفــينُ
فيغلــظُ قلــبي ســاعةً ثم أنثني وأقسُــو عليــه تــارةً ويلــينُ
وقد كانَ لي عن ودِّه كلُّ مذهــبٍ ولكــنَّ مثلــي بالإخاءِ ضنــينُ

وشخصية أبي فراس شخصية معبرة عن الأصالــة العربيــة المتمثلــة في الدفاع عن المظلوم المقهور ، الذى يطلب الحامى المدافع عنه حتى يسترد مــا سلب منه ، فهو يستجيب لكل قاصد حماية ، خاصة المرأة ، فيسرع بنجدتهــا مع اعتزازه برجولته أمامها ، والتى يتغلب بها على كل شهوة جسدية ، كمــا يقول عن نفسه: [١]

وأجرى ولا أُعطِي الهوَى فضلَ مقودِي
وأهفــو ولا يخفى عليَّ صوابُ
أنا الجارُ لا زادى بطــيءٌ عليهمُ
ولا دونَ مالــى للحوادثِ بابُ
ولا أطلبُ العــوراءَ منهم أصيبُها
ولا عورتــى للطــالبين تُصابُ
وأسطو وحبــي ثابتٌ في صدورهم
وأحلُــمُ عن جُهّــالِهِمْ وأُهَابُ

---

١ - الديوان ٤٥ .

" لقد نشأ مقداما يحافظ على كرامته ، ويأبى الذل في مختلف الأحوال ، فلا يضعف أمام الحدثان ، ولا يلين أمام شهوات نفسه ، وما ذلك إلا لأنه كرس حياته لعظائم الأمور ".[1]

شخصية أبى فراس إذن شخصية طموحة ترنو إلى البعيد من المجد والمعالى ، فقد شغل بالتطلع إليهما وهو في سن السادسة عشرة وسار سيرة الرجال الراشدين وهو مازال في سن الفتيان .

ومن معالم شخصية أبى فراس الازدواجية في وجدانه وعدم البوح بما يحمله لإنسان أثير لديه بما يكنه من مكروه نحوه ، إبقاء على الود بينهما ، فهو مرهف الإحساس رقيق العواطف يتأثر بمظهر الوداعة والألفة التى يلحظها بين خلانه ومعارفه ، وإذا داخله الشك في تصرف أحدهم احتفظ بهذا الشك لنفسه ولم يشرك المتهم في - ظنه - بما يداخله من ريب بل يبقيه بعيدا عن الاتهام وإن كانت الشكوك تحوم حوله ، بل يحافظ على مداراته ، ويبقي على علاقة الود بينهما عله يصلح ، رغم النفور الداخلى الذى يحمله في صدره له .

" وقد يبادر القارىء إلى القول : أليس هذا نوع من ازدواج الشخصية ؟ فنقول : نعم ، ولكنها ازدواجية مشروعة ، لأنها لا تأتى بالضرر ، ولا تجيء بالغدر ، بل هي كتمان سر للنفس لا تستطيع البوح به ، لأنها ليست أكيدة من صدق كنهه ولا تستطيع منع حلوله لأنه صار مزاجا يعيش مع الشاعر ، ولا يلحق الضرر بأحد".[2]

---

١ - أبو فراس الحمدانى شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٤٦ .
٢ - أبو فراس الحمدانى شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ١٢٩ .

وهكذا تلتقى في شخص أبى فراس الحمدانى العديد من معـــالم مثاليـــة الشاعر العربي القديم الذى كانت القبيلة تحتفل بظهوره فيها ، فهو يجمع بـــين الإمارة ، والفروسية ، والشاعرية ، وما تتطلبه كل منها من صفـــات تقويـــها وتزيد من استمراريتها.ولعل هذا سر وصف الثعالبي له بقوله [1]"كـــان فـــرد دهره ، وشمس عصره ، أدبا ، وفضلا ، وكرما ، ونبلا ، ومجـــدا ، وبلاغـــة ، وبراعة ، وفروسية ، وشجاعة " .

علاقته بسيف الدولة :

كان أبو فراس الحمدانى ذا شخصية أمينة وفية ، بعيدة عـــن النكـــران والجحود.وقد عرفنا قبل ذلك أن سيف الدولة قد أحاط ابن عمه أبا فـــراس برعايته وعنايته ، وكفله بعد وفاة أبيه ، وأحله مكانا رفيعا في دولته ، فنشأ أبو فراس في كنف سيف الدولة مغمورا بكرمه وحنانه ، وعرف أبو فراس لســيف الدولة عطفه وفضله ، وأعطاه الولاء الكامل،والإخلاص الصافي البعيد عـن أي لون من ألوان الغدر والخيانة ، اعترافا منه بموقف سيف الدولة منه في صغـــره وشبابه ، فقد أحس الشاعر أن سيف الدولة بمثابة الوالد يغمره بالأبوة الكاملـة ، ولذا رأى أنه من الوفاء أن يعبر عن فضله عليه ببعض شعره الذى ذكرنا منـه شيئا قبل ذلك .

وحين نقرأهذه الأشعار نشعر بأنها توحى بتناسيان أبى فراس ما أصابه هـــو ووالدته من نكبة مقتل والده على يد ابن عمه أخى سيف الدولة ، ولكن رغـم

---

١ - يتيمة الدهر ٥٧/١ .

ما نفهمه من الأبيات من صفح ونسيان للماضي الدامي فهناك من يرى أن هذا الصفح الظاهر في الأبيات يخفي وراءه ألما عميقا من أثر الجروح الماضية ، وأن شبح حادثة قتل والده لم تمح من ذاكرة الشاعر ، بل كان هذا الأثر يظهر على السطح كلما حدث ما يعكر صفو العلاقة بين الشاعر وابن عمه سيف الدولة - ولو في ظن الشاعر وحده ، وأن هذا الحب الظاهر بين سيف الدولة وأبي فراس لم يكن كمثيله في الدخائل والصدور ، وإنما كان حبا ظاهريا مبنيا على عدم الثقة والاطمئنان . ويقال أن السبب في هذا هو حكايات والدة الشاعر عن الفجيعة التي نزلت بها وبه إثر مقتل الزوج والوالد ، وعلى رغم البلاء الذي كان يبلوه أبو فراس من أجل إرساء دعائم الدولة الحمدانية والقضاء على خصومها والعابثين بأمنها من البدو والروم الطامعين ، فإن الشك كان له مكان في صدر الأمير والشاعر ، وظلت الريبة بينهما تذكر القلوب مساوىء الأيام السالفة . وتجمع الأيام بين سيف الدولة والمتنبي ، وينضم أبو الطيب إلى بلاط سيف الدولة فتقوم قائمة شعراء البلاط عامة ، وأبي فراس خاصة لقدوم كبير الشعراء ، وتبدو المشاحنات والحزازات بين شعراء البلاط فينقسمون قسمين ، مما جعل أبا فراس عرضة لسهام الخصوم ، ولإساءات أبناء عمه من بني حمدان ، يدل عليها مثال قول أبي فراس مخاطبا سيف الدولة: [1]

وإني لأرضى بما ترتضيه ... رضاءَ العبيدِ بحكم المَوالي
وكم لك عندي من غدرةٍ ... وقولٍ تكذبه بالفعالِ

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٨١ -

ووعـــدٍ يعـــذِّب فيـــه الكـــريمُ إمـــا بخلـــفٍ وإمـــا مطـــالِ
صبرنا لسخطكَ صـــبرَ الكـــرامِ فهذا رضاك فهلْ مـــن نَـــوال ؟
وذقنا مـــرارةَ كـــأسِ الصـــدودِ فأين حـــلاوةُ كأسِ الوصـــالِ ؟

إلا أن هذه النغمة بقيت في حدود الكلام فقط ، ولم تترجم إلى أعمـــال ، وإن كان الشاعر قد فكر في الاتصال بأعداء قومه وأقاربه (بني طغج)،كمـــا يدل عليه قوله من أسره لغلامه منصور : [1]

أيا منصـــورُ خـــانتنى ثُقـــاتى فمهِّد لى على العَدَوِىِّ سَـوْجِى
بنو حمـــدانَ حسَّـــادى جميعـــا فمـــالى لا أزورُ بـــنى طُغْـــجِ
أحجّ إليـــهمُ حـــجَّ اعتضـــادٍ بعقوةِ عمـــرهِمْ فيـــبرُّ حجِّى

وبقي الخلاف الدفين بين الشاعر وأبناء عمه مستمرا تظهر بعض الدلائل عليه بين الحين والآخر على شكل معاتبات قوية يتوجه بها الشاعر إلى ســـيف الدولة كلما وجد سببا لذلك ، من مثل قوله مخاطبا سيف الدولة : [2]

قد كنتَ عدَّتى التى أســـطُو بهـــا ويدى إذا اشتدَّ الزمانُ وســـاعِدِى
فرُميتَ منـــك بغـــير مـــا أمّلتـــه والمرءُ يشـــرَقُ بـــالزّلال البـــاردِ
فصـــبرتُ كالـــولدِ التقيِّ لـــبرِّه أغـــضى علـــى ألمٍ لضرب الوالِـــدِ

والدارسون لهذه الظاهرة في علاقة أبي فراس بأبناء عمـــه " يعللونهـــا في خشية سيف الدولة وناصر الدولة من بروز نجم أبي فراس فى السياسة والأدب،

---

١ - الديوان ٧٢ .
٢ - ديوان أبى فراس ١١٠ .

تلك الخشية الممعنة في الزيادة يوما بعد يوم جعلت ذينك الأميرين يعملان دون تمتع أبي فراس بالشهرة التى هو أهل لها ، ولذا فقد أحس الشاعر بتقيضين يتنازعانه في بلاط سيف الدولة،ويعودان إلى أمرين يلحان في خاطره ، الأول : محوره الرعاية والحدب اللذين لقيهما بشكل بارز ظاهر في المعاملة العلنية البادية في كلام سيف الدولة وفعله ، والثانى : محوره ما خفي ظهوره على الناس في خشية صاحب البلاط ... في أن يصبح الشاعر الأمير ذا شهرة تجذب الناس إليها ... فتجعلهم يخبئون للغد ما يعلى شأن أبى فراس على سائر أمراء القصر . ولعل الشاعر كان يحس بشيء مما كان يخبأ له بعيدا عما يرى فتكتنفه مرارة مكدرة تنضح بها أبيات يقول فيها : [1] .

تمنيتمُ أن تفقدونى وإنمَّا	تمنيتمُ أن تفقدوا العزَّ أصيَدَا
أمَا أنَا أعْلَى من تعدُّونَ همةً ؟	وإن كنتُ أدنى من تعدُّون مولِدَا
إلى اللهِ أشكُو عصبةً من عشيرتى	يسيئون لى في القولِ غيبًا ومشهَدا

إن هذه الأبيات تنطق بحالة من الاضطراب الخفي يلف حياة الشاعر في بلاط ابن عمه ، فهو وفي لما أغدقه عليه الأمير الحمدانى ، وما أحاطه به مما ينسيه ماضى والده الذى فجعه ، ولكنه غير مرتاح لبراثن الحسد التى تمد إليه أظافر الضغينة خوف التألق والبروز حينا بعد حين " [2].

وبسبب ما سبق من ظواهر في علاقة أبى فراس بسيف الدولة اختلفت نظرة الباحثين في الحكم على الرجلين وعلى العلاقة بينهما ، فمنهم من أخذه

١ - الديوان ٨٥ .
٢ - أبو فراس شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية - عبد المجيد الحر ٤٩ .

العطف على الشاعر فطعن في الأمير ، ومنهم من انحاز إلى الأمير ، فطعن في الشاعر ، ومنهم من طعن في الاثنين معا ، بهدف التقليل من شأن الأسرة الحمدانية جميعها . ولكن الذى نراه هو أن العلاقة بين الأمير وابن عمه كانت علاقة حسنة فيما يبدو وتسودها المحبة والاحترام،وكان أبو فراس محاطا في بلاط سيف الدولة بكثير من مظاهر الاحترام والتقدير رغم ما قد يبدو من سوء تفاهم بينهما في بعض الأحيان ، والتى قد تختلف فيها التأويلات والعلل ، وقد تفسر بأكثر من وجه على حسب الزمان والمكان واختلاف الأحوال ، وإن كانت في النهاية لا تعدو درجة العتاب الذى ينم عن المحبة والود بين الشاعر وأميره .[1]

فالعلاقة بينهما هي في حقيقتها علاقة ود خالص وليس لما توهمه البعض من عقد دفين أو ضغينة متوارية مكان في هذه العلاقة . وهناك الكثير من الدلائل التى كانت تثبت ذلك فأبو فراس كان من القواد القلائل الذين اختارهم سيف الدولة ووثق بهم ، ودربهم على الفروسية وملحقاتها ، وهو من خاصة أنسباء سيف الدولة وابن عمه وشقيق زوجته وحين شب أقطعه منبج وهي ولاية حدودية هامة في دولته ، وقد تفانى أبو فراس في إخلاصه لأميره واعترافه بفضله ... إلى جانب الأدب الرفيع ، والشاعرية الأصيلة ، وشمائل الفروسية العالية التى كان أمير حلب يعجب بها ويقدر أصحابها ، كل هذا

---

١ - انظر : أبو فراس شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٥٠ .

يجعل من العلاقة بين الرجلين علاقة مودة وحب ويبعد عنها كل ما قد يشوب العلاقات الأخوية من حقد أو دخائل مكروهة .

شعره :

وهب الله أبا فراس ملكة شعرية حاذقة وخيالا خصبا مصورا ، وموهبة فنية مكنته من أن يقول الشعر القوى في فنونه المختلفة . وجاء شعر أبي فراس في أغراضه المختلفة " سائرا بين الحسن والجودة والسهولة ، والجزالة ، والعذوبة، والفخامة ، والحلاوة ، والمتانة ، ومعه رواء الطبع ، وسمة الظرف ، وعزة الملك ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز ، وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام ، وكان الصاحب يقول : (بديء الشعر بملك وختم بملك) يعنى امرأ القيس وأبا فراس ».[1]

ويزخر شعره بأغراضه المختلفة بفيض من مكامن نفسه ، وما يختلج فيها مع البعد عن التصنع والتكلف ، فهو أمير وجداني ينطق بشعره بعيدا عن قصد الشهرة أو الميل إلى تجميع الناس حوله ، وإنما كان يعلى من طبيعة شعره ليكون في مستوى الإمارة الحمدانية ، وبلاط أميرها سيف الدولة ، وقد حدثنا هو عن شعره ، وما حشده فيه ، وهدفه منه فقال[2]:

الشِّعرُ ديوانُ العرَبْ ... أبداً وعنوانُ النَّسَبْ
لم أعدُ فيه مفاخِرِي ... ومديحَ آبائي النُّجُبْ

١ - يتيمة الدهر ١ / ٥٧ .
٢ - ديوان أبى فراس ٢٨ .

ومقطّعـــــاتٍ ربمـــــــا ملّيْتُ منــهنّ الكتـــبْ

لا في المديحِ ولا الهجــــاءِ ولا المجونِ ولا اللّعِـــبْ

فأغراض الشعر عند أبي فراس تظهر رقة طبعه ، وحسن شمائله ، وإلمامه الواسع باللغة العربية من حيث الفصاحة والبلاغة والبيان ، خاصة أن أبا فراس لم يكن من هؤلاء الشعراء الذين جعلوا من الشعر حرفة يجمعون بها الأموال ، بل قصر شعره على نفسه ، وجعله تعبيرا عن ذاته ، ومترجما عن عواطفه ومشاعره ، فملأه فخرا بنفسه وبأصوله ، وشرف أرومته . وسجل فيه أحداث حياته بكل مراحلها ، فكان شعره بمثابة المرآة التى تعكس بصدق وأمانة دقائق حياته بكل تفاصيلها ، وملامح شخصيته بكل صفاتها .

وهذا عرض موجز لأهم أغراض شعره :

١ _ الغزل :

عرف أبو فراس الحب وامتلأ قلبه بلوعته وعذابه ، واحتلت المرأة مكانا ساميا من نفسه ، ورغم ما امتلأت به حياته من أحداث تتصل بالفروسية والحرب والأسر إلا أن فؤاده لم يخل من عشق حار جياش بالعاطفة ، ويكفي لنتعرف على حبه وحنينه إلى من يهوى أن نقرأ أبياته التالية التى ذاعت بين المحبين حتى عصرنا الحاضر : [١]

أراك عصيَّ الدمعِ شيمتُك الصبرُ أَمَا للهوَى نهيٌ عليــــكَ ولا أمــرُ

---

١ - الديوان ١٦٢ .

بلَى أنا مشتاقٌ وعنــــدي لوعـــةٌ ... ولكنّ مثلِـــي لا يُــذاعُ لــه سِـــرُّ
إذا الليلُ أضواني بسطتُ يدَ الهوَى ... وأذللتُ دمعًا من خلائقـــهِ الكِـبْرُ
تكادُ تضيءُ النارُ بـــين جوانحِـــي ... إذا هي أذكَتْها الصبابـــةُ والفِكـــرُ
معلّلتي بالوصلِ والمـــوتُ دونَـــه ... إذا متُّ ظمآنًا فلا نـــزلَ القطـــرُ
حفظتُ وضيعتِ المودةَ بينـــنا ... وأحسنُ من بعضِ الوفاءِ لكِ العــذرُ

إن غزل أبي فراس هو غزل يعبر عن رجولة تتعذب كالأطفال ، ولكنـها تكتم الحب بقوة الرجولة والفروسية .

وفي شعر أبي فراس غزل بالمذكر يقلد فيه بعض شعراء عصره ، ومـــن ذلك قوله : [١]

غلامٌ فـــوقَ مــا أصــفُ ... كــأن قوامَــــه ألـــفُ
إذا مــا مــالَ يرعبُـــني ... أخــافُ عليـــه ينقصِـــفُ
وأُشــفقُ مـــن تــــأوّده ... أخــافُ يذيبُـــه الـــترَفُ
سُـــروري عنـــدَه لَمَـــعٌ ... ودهـــرِي كلُّـــه أسَـــفُ
وأمــــرِي كلّه أمَـــمٌ ... وحبـــسِي وحـــدَه سَـرَفُ

ومما يتصل بهذا النوع من الغزل عند أبي فراس ما قيل من أنه كان يعشق غلاما اسمه " منصور " وآخر اسمه (فاتك) ، وثالثا اسمه (وصاف).ومن قولـــه في منصور [٢]

---

١ - الديوان ٢٢٢ .
٢ - ديوان ابي فراس ١٦٩ .

سبق الناسَ في الهوى منصـــورُ فســـواه مكلَّـــفٌ مغـــرورُ
لحـــق العـــودَ ناعمـــًا فثنـــاه وهو صعبٌ على سواهُ عســـيرُ
إن حبَّ الصِّبا وإن طالَ لا يقـــدحُ فيه على الدهور دثـــورُ
فهو في أضلعِ الصغيرِ صغـــيرٌ وهو في أضـــلعِ الكبيرِ كبـــيرُ

ومن الأدباء من احتجوا بغزل أبي فراس بالمذكر على شذوذه ، ومنـــهم من رد عنه هذه التهمة ونفاها لقلة الأبيات المتعلقة بغزله في المذكر عما هـــي عند غيره كأبي نواس ، ووالبة بن الحباب ، وأن مثل هذه الأبيات من المحتمـــل أن يكون قالها أبو فراس على سبيل التقليد والمحاكاة فقط ، وليس عن تجربـــة حقيقية .

٢ ـ الفخر :

من المعلوم أن الفخر في الشعر العربي نوعان : فخر فردى يتحدث فيـــه الشاعر عن صفاته ومزاياه الذاتية التى يرى نفسه متحليا بها ، وفخر جمـــاعي يتحدث فيه الشاعر عن قبيلته وقومه أو أمته وبطولته ومفاخرها .

وكلا النوعين من الفخر كثير في شعر أبي فراس ؛ فقد أكثر من فخـــره الذاتى ، وملأ أبياته في هذا الجانب بصفات وقيم رفيعة ، ومفاخر شـــخصية لم يأت بها من تصور خيالى ، بل من واقع حقيقي مليء بالأصالة وشرف الحســب والنسب ، والشجاعة والفروسية ، والصلابة في ميـــادين القتـــال ، وتعـــدد الانتصارات ، وهذه الصفات وغيرها صاغها أبو فراس في قصـــائد محبوكـــة الأطراف شديدة التوهج والانفعال .

يقول أبو فراس في إحدى قصائده التي ملأها بوصف عـزه ، وإبائـه ، وبعده عن المثالب والنقائص : [١]

وتنوفةٍ قذفٍ يحار بهـا القطَـا	جاوزتها بجلالـةٍ مذعـانِ
تطوى الفلاةَ بـأربعٍ مجدولـةٍ	وتبذ شـأ والريـح بـالدملانِ
هذا وكمْ من غمّـةٍ كشّـفتها	بشبا الظّـبي وتوقـد الخرصـانِ
متجردًا فـردًا بغـير مسـاعدٍ	غير الجـوادِ ومرهَـفٍ وسـنانِ
فإذا بطشتُ بطشتُ ليناً باسـلاً	وإذا نطقتُ نطقتُ عـن تبيـانِ
وإذا قصدت لحاجـةٍ لم يثنـني	خوفُ الـرّدى وتصرفُ الأزمانِ

أما عن الفخر الجماعي عند أبي فراس فقد أكثر فيه من فخره بآل حمدان وصفاتهم ومآثرهم التي حققوها في حروبهم المشرفة وانتصاراتهم المجيدة .

ومن ذلك قوله متحدثا عن انتصار الحمدانيين على الأعراب المتمرديـن والقضاء عليهم : [٢]

ألم ترَنا أعزَّ النـاسِ جـاراً	وأمنعَـهُم وأمرَعَـهُم جنابـا
لنا الجبلُ المطلُ علـى نـزارٍ	حللنا النجدَ منـه والهضَابـا
تفضلُنا الأنـامُ ولا نحاشـى	ونوصَف بالجميلِ ولا نحـابَى
وقد علمتْ ربيعةُ بل نـزارٌ	بأنا الرأسُ والناسُ الذنـابَى

---

١ - الديوان ٣٣٤ .
٢ - ديوان أبي فراس ٣٣ .

ويقول مفتخرا بقومه بني حمدان : [١]

لئن خُلِقَ الأنامُ لحسوِ كـــاسٍ ومسمعةٍ وطنبـــورٍ وعـــودِ
فلم يُخلَق بنـــو حمــــدانَ إلا لــــمجدٍ أو لحمدٍ أو لجــــودِ

ومن مفاخره بآبائه وأجداده ما جاء في قصيدته التى قالها في الأسر أثنــاء احتدام الجدال بينه وبين الدمستق عندما اتهمه القائد الرومى بأنهم كتـــاب لا يعرفون الحرب ، فرد عليه أبو فراس ردا عنيفا وأنشده القصيدة البائية الـــتى يفخر فيها بأهله وقومه ، وبالعرب وبطولاتهم في الحروب ضد الروم ، ويقـــول في أولها: [٢]

أتزعمُ يـــا ضخـــمَ اللغـــاديد أننـــا ونحن أسودُ الحربِ لا نعـــرفُ الحربَـــا
فويلَك مَنْ للحربِ إن لم نكـــنْ لهـــا ؟ ومنْ ذا الذى يُمسِي ويَضحى لها تِربـــا ؟
ومن ذا يـــلفُّ الجـــيشَ من جَنَباتـــهِ ومن ذا يقودُ الشُم أو يصـــدِمُ القلبَـــا ؟

٣ - الوصف :

جاء الوصف متفرقا في ثنايا قصائد الشاعر في الأغراض الأخرى وكأنــه جاء به لتوشيح هذه القصائد ، ولكنه توشيح جاء عفويا لم يسع إليه الشـــاعر ، وعلى الرغم من أن أبا فراس قد عاش في بيئة مترفة تنعـــم بكـــل مغريـــات الوصف من الزهر ، والورد ، والخضرة ، والمياه ، والقصور الشاهقة إلا أنـــه لم

١ - الديوان ١٠٨ .
٢ - الديوان ٣١ .

يجعل للوصف بابا مستقلا في شعره ، ولعل السبب في ذلك هو أنه كان مشغولا بفنون الحرب ومساجلات القتال ، ومنازلة الأعداء والمتمردين ، فلم يترك له ذلك فرصة للانصراف إلى الطبيعة والتمتع بمناظرها الخلابة إلا في الأوقات القصيرة التي كان يستريح فيها من عناء قيادة الجيوش أو إعدادها للحرب ، أو تأمين الحدود ، أو تنظيم شئون الجند ومعطياتهم . وفي هذه الأوقات القصيرة فاضت قريحته ببعض الأشعار التي يرسم فيها لوحات للطبيعة التي عاش بين جنباتها ، ومن ذلك قوله في وصف السماء والبرك : (١)

انظرْ إلى زهرِ الربيعِ	والماءُ في بركِ البديعِ
وإذا الرياحُ جرتْ عليـ	ـه في الذهابِ وفي الرجوعِ
نَشَرتْ على بيضِ الصفا	ئح بيننا حَلقَ الدروعِ

ويقول في إحدى رومياته التي يحن فيها إلى ربوع منبج وقصوره فيها ويصف جنباتها وطبيعتها الزاهية : (٢)

قفْ في رسوم " المستجا	بِ" وحيِّ أكتافَ " المصلَّى"
"فالجَوْسق" الميمونِ فالسُّـ	ـقيا بها فالنهرُ أعلَى
تلك المنازلُ والملا	عبُ لا أراها الله محلا
أوطنتُها زمنَ الصِّبا	وجعلتُ منبجَ لي محَلا
حَرِمِ الوقوفُ بها عليَّ	وكان قبلَ اليوم حِلا

---

١ - ديوان أبي فراس ٢١٥ .
٢ - الديوان ٢٤٠ .

حيث التفتَّ رأيتَ ماءً سابحًا وسكنتَ ظِلّا

وجاءت وصفياته المتفرقة للطبيعة بعيدة عن التكلف ، والصناعة ، ميالا فيها إلى العفوية المعبرة بصدق عما يجيش بصدره من إحساس بالطبيعة ، وامتزاج بها .

أما مجالات الوصف الأخرى مثل وصف مشاعر الأخوة التي تربطه بخلانه وأصدقائه ، ووصف بطولاته وأمجاده الحربية فكثيرة متوفرة في شعره جاء بها في صورة فخر ذاتي ، كما أكثر في رومياته من وصف آلامه وأحزانه في أسره كما سيأتي الحديث عنه في بابه من البحث إن شاء الله .

ومن وصفه لبعض غزواته الحربية قوله واصفا إحدى وقائعه ضد بعض الثائرين المتمردين : وذلك أن " مرج بن جحش " ومعه " نمير " و "مطعم بن على الضبابي" أغاروا على" عين قاصر ".فركب أبو فراس من "منبج" وأغذ السير حتى لحقهم أسفل (آيدين) في نفر فأسر " مرجا " وبارز " مطعما " ومعه السيف ، ومع " مطعم " الرمح فكر حتى سبقه إلى الفرات ، وأخذ الطرائد ، ومنع " خويلفة" من اجتياز الرقة ، وقال في ذلك أبو فراس : [1]

وراءكَ يا نميرُ فلا أمَامُ ... فقد حُرِم الجزيرةُ والشآمُ
لنا الدنيا فما شِئنا حلالٌ ... لساكِنِها وماشِئنا حَرامُ
وينفذُ أمرُنا في كلِّ حيٍّ ... فيدنيهِ ويقصيهِ الكَلامُ

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٩٨ .

أَلَم تخبركَ خيلي عــن مَقَــامي ... ببالسَ يوم ضـــاقَ بهــا المقَــامُ
وولتّ تلتقي بعضــاً ببعــض ... لهم - والأرضُ واسعةٌ - زحــامُ
سَرَوْا والليلَ يجمعنــا ولكــنْ ... يبوحُ بهـــم ويكتمنـــا الظـــلامُ
إلى أن صبَّحَتْــهُمْ بالمنايـــا ... كرائمُ فــوق أظـــهرِها كِـــرامُ
من العَرَشات تلحق ما رأتـــه ... إذا طلبت وتعطِى مـــا تُسَــامُ
تنازَعُ بي وبالفرســـانِ حَــولي ... تجفَلُــهم كمـــا جَفَــل النَعــامُ
بطحنا منهمُ "مرجَ بن جحش" ... فلم يَقِفُــوا منــه ولم يحــامُوا
أقــول لمطعَــم لمــا التقينَـــا ... وقـــد ولّى وفي يـــدى الحُســـامُ
أتجعلُ بيننـــا عشـــرين كعبـــا ... وهَرب سوءةً لـــك يـــا غُــلامُ
أحلَّـــكمُ بدار الضيم قسْراً ... همـــامٌ لا يُضَـــامُ ولا يرامُ

هذا عن بطولاته ومعاركه وغزواته هو ، أما وصفه للمعارك الــتى دارت بين سيف الدولة والروم ، والتى قد شهد الكثير منها - فذكر " آدم ميــتز " أن أبا فراس قد خلا شعره تقريبا من وصف المعارك الطاحنة التى كانت تدور بــين سيف الدولة والروم ، أو أنه لم يرد أن يتعرض لذكر هذه الحـــروب ، وهـــذا يدل على أنه لم يكتو بنار هذه المعارك ، فلو كان قد شارك فيها فعـــلا لنســـج أحداثها في قصائد ملحمية يصول فيها خياله ويجول معتمدا على واقع معـــلش ، وبطولات حقيقية ، ولكنه " لا يزيد وصفه لهذه الحروب الكبيرة في شعره عمــا يمكن أن يقال في وصف قتال بين قبيلتين من البدو ".[1]

١ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى - تأليف آدم ميتز - ترجمة : محمد عبد الهادى أبو ريدة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ ص٤٤٩ .

وهذا الكلام يحتاج إلى توضيح ، فكون أبي فراس لم يشهد هذه الوقائع ولم يكتو بنارها فكلام غير صحيح ، فكل كتب التاريخ التي تحدثت عن الصراع بين المسلمين والروم في عهد الدولة الحمدانية تذكر أن سيف الدولة كان يصطحب قائده أبا فراس إلى هذه المعارك . وكان للشاعر القائد دور بارز في أحداثها • أما كون شعره قد خلا من وصف هذه المعارك وصفا ملحميا فليس دقيقا.فيمكن أن نقول : — إن الوصف الملحمي لأحداث هذه المعارك كان قليلا في شعر أبي فراس ولكنه ليس معدوما • فلأبي فراس مطولة تبلغ مائتين وخمسة وعشرين بيتا ملأها بالحديث عن كثير من المعارك التي دارت رحاها بين سيف الدولة والروم [1] فضلا عن العديد من القصائد التي بناها أبو فراس على وصف بعض هذه المعارك • وقد يكون عزوف أبي فراس عن إنشاء العدد الكافي من الملاحم لوصف هذه المعارك راجعا إلى أن أبا فراس كان شاعرا عاطفيا (رومنسيا) أكثر منه شاعرا ملحميا ، فقد غلبت عليه نوازع أخرى انشغل بوصفها عن وصف الأمجاد العسكرية التي وقعت لغيره ، انشغل بوصف مجد الأرومة ، وكرم الأصل ، ورفيع الشيم ، والخصال الحميدة، ثم جاء الأسر الطويل وتخلى عنه الأحباء فغرق الشاعر في وجدانه ، وانشغل بالحديث عن أساه وآلامه ، وعن قدره الذى أوقعه في هذه التجربة المرُة عن الحديث عن أي مجد عسكرى شارك فيه أم لم يشارك •

---

١ - هي رائيته المبدوءة بقوله :

لعل خيال العامرية زائر   فيسعد مهجور ويسعد هاجر

... الديوان ١٢٤ ،

٤ _ المديح :

يختلف المديح في غرضه الذى يقصد من ورائه عند أبي فراس عن المديح عند معظم الشعراء العرب ، فقد اتخذ المديح كوسيلة للتكسب وتملق الممدوح في سبيل الحصول على مقدار من المال عند كثير من شعراء العربية •

أما المديح عند أبي فراس فبعيد كل البعد عن هذا الهدف ، فقصائده في المديح تتغنى بصفات الممدوح ومناقبه العربية ، وجاءت بعيدة تماما عن غرض التكسب ، فهو شاعر أمير طبع على الأنفه والكبرياء ، ولم يخضع شعره لتكسب أو نفاق ، وقد أعلن أبو فراس نفسه هذا المعنى وحدد غرضه الأول من شعره فقال : [١]

نطقتُ بفضلى وامتدحتُ عشيرتى
فما أنا مداحٌ وما أنا شاعرُ

وممن مدحهم أبو فراس ببعض شعره : أبو المكارم ، وأبو المعالى ابنا سيف الدولة ، وابن عمه زهير المهلهل بن نصر الحمدانى ، كما مدح النبي ﷺ وآله المطهرين ببعض قصائده •

أما سيف الدولة فقد اختصه بالنصيب الأكبر من مديحه ، لإعجابه به وبصفاته وسجاياه التى رآها جديرة بالتسجيل في شعره القوى ، كما كان من أسباب ذلك حفظ الجميل الذى غمره به سيف الدولة في صغره بعد موت والده حتى نشأ فارسا مقداما ، وشاعرا مفلقا . ومدائحه في سيف الدولة

---

١ - الديوان ١٤٨ .

تنقسم قسمين : الأول ما قاله فيه قبل الأسر ، والآخر ما قاله بعد وقوعه في الأسر وأرسل به إليه •

ومن القسم الأول : قصيدته اللامية التى منها قوله مخاطبا سيف الدولة:"[1]

قد ضجَّ جيشُك من طول القتال به ... وقد شكتك إلينا الخيلُ والإبلُ
وقد درى الرومُ مذ جاورتَ أرضَهُمُ ... أن ليس يعصمهُمْ سهلٌ ولا جبلُ
فى كل يوم تزورُ الثغرَ لا ضَجَرٌ ... يثنيك عنه ولا شغلٌ ولا مَلَلُ
فالنفسُ جاهدةٌ والعينُ ساهدَةٌ ... والجيشُ منهمِكٌ والمالُ مبتَذَلُ
توهمتك كلابٌ غيرَ قاصدِها ... وقد تكنفك الأعداءُ والشُغُلُ
حتى رأوكَ أمامَ الجيش تقدمُهُ ... وقد طلعتَ عليهم دونَ ما أمَلُوا
فاستقبلوك بفرسانٍ أسنتها ... سودُ البراقعِ والأكوارِ والكُلَلُ
فكنتَ أكرمَ مسئولٍ وأفضلَه ... إذا وهبتَ فلا مَنٌّ ولا بَخَلُ

ومن الملاحظ أن القسم الثانى من مدائح أبى فراس لسيف الدولة - وهي التى نظمها بعد وقوعه في الأسر - تختلف عن القسم الأول في لهجتها ولغتها وطبيعتها ، وذلك راجع لسببين : " الأول يتعلق بأمه البعيدة عنه والمتلوعة لرؤيته ، والمتألمة لفراقه.والشاعر يخشى أن يصيبها سوء من ذلك فيجعل مديحه لابن عمه ممزوجا بقلقه على أمه لا متفرغا لذكر صفاته ، والثانى : متعلق بقلقه من طيلة أيام أسره ، وخوفه من تلكؤ سيف الدولة عن الإسراع بدفع الفدية

١ - ديوان أبى فراس ٢٥٧

لإطلاق سراحه ".(١) لذا نجد أبا فراس في القسم الثاني من مدائحه لسيف الدولة كثيرا ما يذكر أمه متحدثا عن معاناقما ومشاعرها ، وكثيرا أيضا ما يتحدث عن نفسه متحدثا عن معاناته النفسية ، وقلقه من طول سجنه .

ومن قصائد هذا القسم لاميته التى منها مخاطبا سيف الدولة : (٢)

يا سيداً ما تُعدُّ مكرمةٌ	إلا وفى راحتيه أكملُها
أنتَ سماءٌ ونحن أنجمُها	أنتَ بلادٌ ونحن أجبلُها
أنت سَحَابٌ ونحن وابلُهُ	أنتَ يمينٌ ونحن أنملُها

٥- الإخوانيات :

كثرت القصائد والمقطوعات التى تندرج تحت هذا الباب في ديوان أبي فراس بحيث يتفوق في ذلك على كثير من الشعراء ، فقد بلغ عدد قصائده ، ومقطوعاته في هذا الباب حوالى خمسين قصيدة ومقطوعة قبل الأسر ، وعشرين بعده وهو عدد لا يتوافر عند كثير غير أبي فراس من الشعراء في هذا الباب . (٣)

ولعل هذه الوفرة في شعر الإخوانيات في ديوان أبي فراس ترجع إلى مركزه في بلاط سيف الدولة ، ومحتده القبلى في دولة بنى حمدان ، وأثر ذلك في كثرة من تربطه بهم علاقة اجتماعية أو سياسية ، بجانب اتصافه بسلوك

١ - أبو فراس الحمدانى شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٨١ .
٢ - الديوان ٢٦٤ .
٣ - انظر أبو فراس الحمدانى شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٨٥ .

خلاق يتصف بمثالية الإنسان وبالأعمال الممدوحة ، وقد دأب أبو فراس على مراسلة من أخلصوا له وحرصوا هم على استمرار المراسلة بينهم وبينه .

فإخوانيات أبي فراس هي تلك الأشعار التي بعث بها إلى إخوان سمت مكانتهم في نفسه ، وهم هؤلاء الذين ربطهم به روابط قوية من المحبة والمودة ، وقوة العاطفة ، وعبر فيها أبو فراس عن حنينه إليهم ، ولهفته لرؤيتهم ومعاودة أيامه معهم . "وهي في مجملها مجمع صور لملاعب رسموا عليها أحلى ألعاب الصبي ، وأجمل ساعات اللعب الصبياني البريء ، وفيها يظهر تلك الرسوم بكلمات صافية معبرة جامعة . وموضوعات هذه الإخوانيات تجمع الشكوى والعتاب ، والإطراء والثناء ، والتهنئة ، والتعزية ، والمواساة والمسرة بالشفاء من مرض ، وتحوى تلك الإخوانيات بعضا من مشاركة في حوار حول تبادل رأي ، أو مناظرة تدور حول أحسن الطرق وأفضلها لصون الصداقة من أي خلل أو انفراط "[١].

وأبرز من كان يراسلهم أبو فراس : ابن عمه أبو العشائر ، وأخوه أبو الهيجاء ، وابو زهير المهلهل بن نصر الحمداني ، وأبو المرجى جابر بن ناصر الدولة ، وأبو حصين الرقي قاضي حلب ، وغلاماه منصور وفاتك ، وأخوه أبو الفضل ، وابن عمه سيف الدوله الحمداني ، وجعفر بن ورقاء الشاعر ، وأبو المكارم ، وأبو المعالي ولدا سيف الدولة وابنا أخته .

وإخوانيات أبي فراس تفيض بعاطفة النفس وشجونها المستفيضة رقة وإلهاما ، وقد حلت إخوانيات أبي فراس بذلك محل الهجاء والمدح الرخيصين

---

١ - المرجع السابق ٨٥ .

عند غيره من الشعراء ." وفيها نرى الشاعر ... يعاتب بحكمة ويلوم بعذوبة تعبير ، ويبث نجواه بصدق ، ويتأوه بشكوى لا يثقل أنينها وتوجعها ، بل تصل إلى الأخ دافئة تتسرب إلى الأحشاء آمنة مطمئنة "[١]

ومن إخوانيات أبي فراس قوله في أبيات يرسل بها إلى أبي الهيجاء حرب ابن سعيد بن حمدان : [٢]

تُقرُّ دموعي بشـوقي إليـكَ	ويشهدَ قلبي بطـول الكَـرَبْ
وإني لمجتـهدٌ في الجمـود	ولكنَّ نفسـي تـأبَى الكـذِبْ
وإني عليك لجـاري الدمـوعِ	وإني عليـك لَصَـبٌ وَصِـبْ
وما كنتُ أُبقي على مـهجتي	لو اني انتـهيتُ إلى مـا يَجِـبْ
ولكنْ سمحـتُ لهـا بالبقـاءِ	رجاءَ اللقاءِ علـى مـا تُحِـبْ
ويُـبْـقي اللـبيبُ له عدةً	لوقتِ الرضا في أوانِ الغَـضَبْ

ويقول من قصيدة كتب بها إلى أبي زهير مهلهل بن نصر بن حمدان:[٣]

أخي وابنَ عمي"ياابنَ نصر"نداءَ مَنْ	أقيمتْ لطولِ الهجرِ منك مآتمُـهْ
أودكَ وداً لا الزمـانُ يبيـدُه	ولا النأيُ يفنيه ولا الهجرُ صارمُـهْ
ولو رمتُ يوما أن تـريمَ صبـابتي	إليك أزالَ الشوقُ ما أنا رَائمُـهْ
تعلَّمْ - أقيك السوءَ - أنَّ مدامعـي	لبعدِك مثلُ العقدِ أوهـاه ناظمُـهْ

---

١ - أبو فراس الحمدانى شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٩٣ .
٢ - ديوان أبى فراس ٢٦ .
٣ - الديوان ٣٠٨ .

وأني مذْ زمَّتْ ركابَك للنَّوى شديدُ اشتياقٍ عازبُ القلبِ هائمُهْ

٦ - الرثاء

قل شعر الرثاء في ديوان أبي فراس عن غيره من الأغراض السابقة ، وجاء معظمه في رثاء أقاربه وخاصة أهل بيته ، فقد رثى والدته ، وأخته ، وابن عمه المرجى جابرا ، وأخت سيف الدولة ، وأبا المكارم ابن أخته ، وأبا وائل الحمداني ، وأبا العشائر ابن عمه . وتأتي قصيدته في رثاء أمه في مقدمة شعره في الرثاء أهمية وجودة ، لما تحويه من عاطفة صادقة ، ومعان قوية ، ومنها قوله:[1]

أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ بكرهٍ منك ما لقي الأسيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ تحيَّر لا يقيمُ ولا يسيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ إلى مَنْ بالفدَا يأتي البشيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ لمن تُربَّي وقدمُتِّ الذوائبُ والشعورُ
إذا ابنُك سارَ في برٍ وبحرٍ فمن يدعو له أو يستجيرُ
حرام أن يبيتَ قريرَ عينٍ ولؤمٌ أن يلمَّ به السرورُ
وقد ذقتِ المنايا والرَّزايا ولا ولدٌ لديكِ ولا عشيرُ

فقد ماتت أمه وهو بعيد عنها في الأسر ببلاد الروم بعد أن عانت من آلام المرض وعذابه ، ولهذا كان حزن الابن عليها عظيما فرثاها بهذه القصيدة التي ملأها بالآهات واللوعة .

---

١ - الديوان ١٦١

والقصيدة الثانية في شعر الرثاء عند أبي فراس ، والجديرة بالاهتمام وإن لم تبلغ مبلغ قصيدته في رثاء أمه ، هي قصيدته في رثاء أخت سيف الدولة التي يقول في أولها مخاطبا سيف الدولة :[1]

أوصيكَ بالحزنِ لا أوصيكَ بالجَلَدِ	جلَّ المصابُ عن التعنيفِ والفندِ
إني أجلُّكَ أن تُكْفَى بتعزيةٍ	عن خيرِ مفتَقَدٍ يا خيرَ مفتقِدِ
هي الرزيةُ إن ضنَّتْ بما ملكتْ	منها الجفونُ فما تسخو على أحدِ
بي مثلُ مابك من حزنٍ ومن جزعٍ	وقد لجأتُ إلى صبرٍ فلم أجدِ
لم ينتقصني بُعدي عنك من حُزنٍ	هي المواساةُ في قربٍ وفي بُعُدِ

لقد بدأ القصيدة بمطلع يعبر عن إجلاله للفقيدة المرثية الغالية على قلبه وقلب ابن عمه سيف الدولة.فقد نادى سيف الدولة وأوصاه بأن يبدى مزيدا من الحزن على الفقيدة ، فمثلها لا يستطيع أحد أن يقلل من الحزن على فقده. وعبر عن أن حزنه هو على المرثية لا يقل عن حزن الأمير عليها ،وقد حاول التصبر والتجلد فلم يستطع . وقد وفق الشاعر حين جمع في هذه القصيدة بين عظيم الرثاء وعظيم المدح حيث جمع في الوصف بين الأخت وأخيها ، فجعل الأخت (خير مفتقَد) وجعل الأخ (خير مفتقِد) .

أما بعد هاتين المرثيتين من شعر أبي فراس في هذا الباب فلا يعدو المتعارف عليه في الرثاء مما يندرج في باب المجاملة المتعارف عليها عند الشعراء،

---

١ - ديوان أبى فراس ١١١ -

كمثل إظهار الحزن على الفقيد ، وتعداد أطيب الصفات التى كـــان المرثـــى يتصف بها في حياته ، والمصيبة التى ستحل بالشاعر وبأهل المرثى بوفاتـــه... إلى آخر هذه المعانى المتداولة بين الشعراء في مراثيهم .

ومما هو جدير بالملاحظة : انعدام الرثاء من ديوان أبى فراس في ابن عمـه وزوج أخته سيف الدولة الحمدانى ، رغم العلاقة الحميمة والحـب الصـادق الذى كان بينهما ، فلم كان هذا ؟ " هل كان هناك انقلاب في صلة الحب بينه وبين ابن عمه بعد خروجه من الأسر ؟ وهل كان هذا الانقلاب سـببه تـأخر سيف الدولة عن افتدائه ؟ أم لعله توجه نحو مطامع تختلف عـن تلـك الـتى امتلكها قبل الأسر ، وصارت لديه طموحا يسعى لتحقيقه ؟.أسـئلة كثـيرة طرحها النقاد والدارسون وأجابوا عليها بالعجب والتعجب ، والذى يلفـت النظر أيضا أنه في السنتين الأخيرتين من حياته عاش صامتا عن نظم الشـعر ، فلا رثاء ولا مديح ولا هجاء حتى ولا عتب ، لقد انقطع انقطاعا كليـا عـن ذكر أي بيت يوجهه لأمير حلب فكأنه لم يقل فيه شعرا جعله فيه في مصـاف أمراء الأساطير "[١]

٧ ـ الحكمة والزهد :

ومن أغراض شعر أبى فراس المبثوثة في قصائده : الحكمة المعـبرة عـن تجاربه في الحياة ، والزهد المعبر عن نظرة إنسان مؤمن بنهاية كـل مخلـوق ، وبزوال هذا العالم بكل ما فيه ومن فيه . وجاءت معظم أبيات الحكمة مبثوثـة

---

١ - أبو فراس الحمدانى شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ١١٥ .

في ثنايا قصائد أبي فراس ، كما جاء بعضها مقطوعات أو قصائد قصيرة خالصة في باب الحكمة أو الزهد .

ومن النوع الأول قوله : [١]

وَمَنْ وردَ المهالكَ لـم ترعهُ ... رزايـا الدهرِ في أهلٍ ومالِ

وقوله : [٢]

وإذا المنيةُ أقبـلتْ لم يثنِها ... حرصُ الحريصِ وحيلةُ المحتالِ

وقوله : [٣]

للمتقينَ من الدنيا عواقبُها ... وإن تعجّل منها الظالمُ الأثمُ

ومن الثاني قوله في قصيدة من سبعة أبيات : [٤]

الدهرُ يومان ذا ثبـتٌ وذا زلـلُ ... والعيش طعمان ذا صابٌ وذا عسَلُ

كذا الزمانُ فمـا في نعمـةٍ بطـر ... للعـارفين ولا في نقمـةٍ فشَـلُ

سعادةَ المرءِ في السراءِ إن رجحَـتْ ... والعدلُ أن يتساوى الهمُّ والجـذَلُ

وما الهمـومَ وإن حـاذرتَ ثابتـةً ... ولا السرورُ وإن أملـتَ يتصِـلُ

فما الأسى لهمـومٍ لا بقـاءَ لهـا ... وما السرورُ بنعمَى سوف تنتقـلُ

لكنَّ في النـاس مغـرورًا بنعمتـه ... ما جاءه اليأسُ حتى جاءه الأجـلُ

والـمرءَ يفـنَى وما ينفكُ ذا شرهٍ ... تشبُّ فيه اثنتان : الحرصُ والأملُ

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٧٠ .
٢ - الديوان ٢٧٧ .
٣ - الديوان ٣٠١ .
٤ - الديوان ٢٥٦ .

ويلاحظ أن حكم أبي فراس في مجملها حكم مستنبطة من تجاربه في الحياة ، ومن معاملاته مع الآخرين .

هذه أهم أغراض الشعر في ديوان أبي فراس ، ويلحظ القارىء لشعره أن " غرض الشعر عند الحمداني مساوق للذوق العربي الرهيف الحساسية لاستجلاء مكامن الظرف والكياسة ، والذكاء ، وإظهار رقة الطبع ، وحسن الشمائل ، وإبراز المعرفة الواسعة بشئون اللغة حيث الفصاحة ، والبلاغة ، والبيان ، وامتلاك التراث الأدبي الموشح بالفكر والتاريخ . ولكن الشاعر لم يسر على نهج هذا القياس دون ابتكار في التحديد الذى رآه واجبا في مكنونات شعره ، فقد جعل للمديح حدودا لا تتجاوز آباءه وأقاربه ، أما الهجاء فقد ترفع عنه وأهمله ، ورأى فيه انحدارا لذاته وهو الأمير الذى لا يليق به أن ينزل إلى مستوى السباب،ثم ليس هناك من يساويه كفاءة لينحدر إلى إقذاعه بما هو أرفع منه ، وكذلك ترفع عن المجون والتخلق بأخلاق المتهتكين المغرقين في الابتذال ومفاسد الآثام والعيوب . فشعره في جميع أغراضه خال مما يشوبه ويلحق به الدهشه والاستغراب للفحش والإقذاع . بل على العكس من ذلك فهو نقي زلال صاف ينم عن مظاهر الأصالة والإمارة العربية الجديرة بالإعزاز والتكريم "[1].

إن شعر أبي فراس بجميع أغراضه لم يغب عن الجو الحربي المثير للفروسية ومظاهرها ، والمضيء للشعلة العربية ، والنخوة للعروبة الشاملة.كما أن

---

١ - أبو فراس الحمداني شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٦٨ .

قصائده في مجملها تحمل طابع التحلي للقيم المرتكزه على الإخلاص والوفــــاء ويتلألأ فيها الولاء لسيف الدولة •

كان أبو فراس بعيدا في شعره عن التعقيد ، والغمـــوض ، والتكلـــف ، ويرجع ذلك إلى ثقافته العربية الخالصة البعيدة عما يشوبها من أي لـــون مـــن ألوان الثقافات الأجنبية فطبعت لغته بالصفاء ، والسهولة ، والسلاسة ، كمـــا تأثر أسلوبه في شعره إلى حد كبير بحياته التى عاشها وبيئته التى درج عليها •

" وأسلوب شعره يتناسب وموضوعه ، فإذا افتخر رأيت عليـــه سمـــات الفخامة والقوة ، حتى لتحسبه جاهليا ، وإذا رثى اتشح رثاؤه برقـــة وأســـى شجيين ، وإذا تغزل تبدى على غزله التلطف والرقة وإذا اشـــتكى وعـــاتب رأيت في أسلوبه رنة الأسى ، ومرارة الشكوى ... وهكذا " .[1]

أما ألفاظه فقد قال الثعالبي في الحديث عنها : " وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة ، والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة والمتانة مـــع رواء الطبع وسمة الظرف ، وعزة الملك ، ولم تجتمع هذه الخـــلال قبلـــه إلا في شعر عبد الله ابن المعتز ، وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعـــة ونقـــاد الكلام ".[2] ومن ذلك ما قاله عن شعره الصاحب بن عباد : (بديء الشـــعر بملك وختم بملك - يعنى امرأ القيس ، وأبا فراس) [3]

---

١ - عناصر الإبداع في رائينة أبى فراس - د / محمد عارف محمود حسين - مطبعة الأمانة - ط ١- ١٩٨٨ من - ص ٣٦ •

٢ - يتيمة الدهر ٥٧/١ •

٣ - المرجع السابق ٥٧/١ •

وقال عنه ابن رشيق : " وأما أبو الطيب المتنبي فلم يذكر معه شـــاعر إلا أبو فراس وحده ، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه " .[1]

ويقول عنه الدكتور زكي مبارك : " أبو فراس ضحية الكبرياء ، والحب ، والمجد . أبو فراس الوتر الحنان الذى خلد على الدهر مجد الألم ، ومجد الأنـين. أبو فراس الذى أبكى كل عين ، وأحزن كل قلب ، وشغل كل بال . أبـــو فراس الأسد الذى استعذب الدمع بعد الزئير ، وعلمته الليالى كيف تعصـــف الخطوب بأحلام الرجل " .[2]

....إلى غير ذلك من الأقوال التى تثبت المكانة العالية التى احتلها أبـــو فراس الحمدانى في دنيا الشعر والفروسية ، والبطولة ، بما تفوه به مـــن شـــعر جزل معبر عن نفس مرهفة ، وبما أبدى في ميدان النزال من بسالة وشجاعة .

ظروف أسر أبى فراس :

تعددت تلك المعارك والوقائع بين الروم وأبى فراس أمير منبج الحدودية، وقد أحرج الفارس العربي الروم في كثير من هذه المواقع ، وأثبت في حروبـــه ضدهم كفاءات عالية . مما جعله موضع ثقة بأنه فارس من الطراز الأول ، بيد أن هذا النجاح الذى لازمه في مواقعه العديدة مع الروم قد خانه في واحـــــدة منها فوقع في أسرهم ، وسجن بأرضهم لسنوات عديدة .

---

١ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٢ ـ١٠١/١ ـ

٢ - الموازنة بين الشعراء ـ دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ١٩٩٣ م٢٧١ ـ

وقد اختلف المؤرخون في تفسير الظروف التي وقع فيها أبو فراس الحمداني في الأسر ، فهناك من يرجع سبب أسره إلى خروجه في شرذمة من جنوده حين هاجم الروم إمارته فوقع في كمين نصب له على غرة . وهناك من يرى أنه وقع في الأسر وهو مع بعض جنوده وقت خروجهم للصيد ، وهناك من يرى أنه أسر إبان الهماكه البطولي في معركة كبيرة من معارك سيف الدولة ضد الروم .

ويفهم من كلام الثعالبي وابن خلكان أنه وقع في الأسر حينما كان في رحلة صيد مع مجموعة من جنوده في حدود السبعين رجلا .[1] وقد ورد في شعر أبي فراس ما يقرب هذا الرأى إلى الصحة ، وهو قوله : [2]

ولو لم تنلْ نفسي ولاءَك لم أكُنْ لأُوردُها في نَصْرِه كلَّ مَوْرِدِ
ولا كنتُ ألقىالألفَ زرقًا عيونُها بسبعين فيهم كلَّ أشأم أنكدِ

وقد ورد في ديوان الشاعر ما يوضح البيت الثاني من هذين البيتين ، فيقال " إنه لما خرج ابن أخت ملك الروم في ألف فارس من الروم إلى نواحي منبج صادف الأمير أبا فراس يتصيد في سبعين فارسا ، فأراده أصحابه على الهزيمة فأبى وثبت حتى أثخن بالجراح وأسر " .[3] وهذا الرأى القريب من الصواب لا ينفى نفيا قاطعا احتمال وقوع أبي فراس في الأسر حين خروجه في

---

١ - انظر : يتيمة الدهر ٨٥/١ ووفيات الأعيان ٢ / ٤٧ .
٢ - الديوان ١٨ .
٣ - ديوان أبى فراس الحمدانى - تحقيق وشرح - خليل الدويهي - ص ٩٥ ، ٩٦ .

ذمرة من جنوده في رحلة استكشافية . وكما اختلف المؤرخـون في سـبب وقوع أبي فراس في الأسر اختلفوا أيضا في تحديد عدد المرات التي وقع فيـها في أسر الروم ، فذكر ابن خلكان عن أبي الحسن علي بن الـزراد الديلمـي أن الشاعر وقع في أسر الروم مرة واحدة واستمر أسره سبع سنوات مـن سـنة ٣٤٨ هـ إلى عام ٣٥٥هـ .[١]

ومنهم من قال : أنه وقع في أسر الروم مرتين : كانت المرة الأولى بمغارة الكحل في عام ٣٤٨هـ حينما خرج لمحاربة البيزنطيين فأسر ونقل إلى خرشـنة ، وهي قلعة ببلاد الروم قرب ملطية يجرى من تحتها الفرات - وفيـها حصـن يطل على النهر ففر الأسير من السجن ونجا بنفسه . وذكر ابن خلكـان أنـه يقال : إن الشاعر ركب فرسه وركضه برجله فأهوى به من أعلى الحصـن إلى الفرات . والله أعلم .[٢]

والمرة الثانية كانت في شوال من سنة ٣٥١هـ حين هاجم الروم منبـج حيث أسر ونقل إلى القسطنطينية وبقي في الأسر حتى افتداه سيف الدولـة في الأول من رجب سنة ٣٥٥هـ .[٣]

والمفهوم من كلام الثعالبي في هذا الصدد أن الأسر وقع مـرة واحـدة وهي التي كانت في شوال سنة ٣٥١ هـ وليست في سنة ٣٤٨ هـ .[٤]

١ - وفيات الأعيان - تحقيق د / يوسف علي طويل ، د/ مريم قاسم طويل - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩٨م - ٤٧/٢ .
٢ - وفيات الأعيان ٤٧/٢ .
٣ - المرجع السابق ٤٨/٢ .
٤ - يتيمة الدهر ٨٥/١ .

فإذا عرفنا أن الثعالبي كان يروى مثل هذه الأحداث عن ابن خالويـــة والقاضي التنوخي أدركنا أن هذا الرأي أقرب إلى الصحة ، فالأشخاص الذين قالوا بهذا الرأي هم أقرب المؤرخين من عصر أبي فراس ، وكلامهم في ذلـــك ينبغي أن يكون أقرب إلى الواقع من غيره.كما أن الرواية التى ذكرهـــا ابـــن خلكان والتى تقول بوقوعه في الأسر مرتين ، وأنه ركض الفرس برجله في المرة الأولى فأهوى به من الحصن إلى الفرات شيء بعيد عن الواقع مما يقلل من قيمة هذه الرواية • إذ كيف يكون الروم متغافلين عن أسيرهم إلى هـــذا الحـــد ؟ وهل يعقل أن يتركوا أبا فراس في سجن وحده بلا قيد وبجواره فرسه ينتظـــره ليقفز به من أعلى الحصن وهم يعرفونه ويعرفون بطولته وفروسيته ؟ ثم مـــن أتى له بفرسه ، وأوقفه بجانب الحصن وهيأه للأسير حتى يهوى به إلى الفرات ؟ وكيف نجا من هوى بالفرس من أعلى الحصن من الغرق في مياه الفـــرات ؟ إن هذه حكاية لا تعدو أن تكون من نسج الخيال ، ثم أن أبا فراس تحدث كثـــيرا عن سجنه بخرشنة ، وأشاد بمظاهر بطولته وفروسيته ولم يذكر شيئا عن هـــذا الذى جاء في هذه الرواية •

كما أنه من المرجح أن أبا فراس لم يؤسر قبل ســـنة ٣٥٠ ه أو ســـنة ٣٥١ه لأن أبا العشائر الحمدانى أسر بأيدى الروم سنة ٣٤٩ ه وبقي في الأسر ما يزيد عن سنة ، وقد أرسل إليه أبو فراس خلال هذه المدة أكثر من رســـالة شعرية وكلها ليس فيها ما يشير إلى أن أبا فراس حينذاك كان أسيرا ، أو أنـــه كان في الأسر ثم هرب ، كما أنها لا تشير إلى أن سيف الدولة قد افتداه بـــل

على العكس تشير هذه الرسائل إلى أن الشاعر كان حـــرا طليقـا في هـذه الفترة .[١]

ومحك الخلاف في أنه أسر مرة أو مرتين هو صحة أو عدم صحة هروبـه من الأسر ، فإذا صح أنه لم يستطع الهروب من أسره ليقع فيه مرة ثانية يكـون قد أسر مرة واحدة وهو الظاهر.لأن ما قيل حول طريقة هروبه مـن سـجن الروم يشوبه المبالغة وبعد الصدق .

وعلى هذا يكون أبو فراس قد قضى في أسره ببلاد الروم ما يقرب مـن أربع سنوات أثقلتها الوحدة والعذاب وهو مقيد بالأغلال ، مرهق بالشاق مـن الأعمال ، وكان الروم يعمدون إلى سوء معاملته حينا ، واستمالته حينا آخـر حتى يدفعونه إلى معاداة ابن عمه سيف الدولة ومحاربته مقابل إطلاق سـراحه ، وكلما عاندهم شددوا النكير عليه ، وكانوا يبالغون في تعنيفه إلى درجة النيـل من كرامته وكرامة قومه ، فيروى أن الدمستق قال لأبي فراس يوما :" إنما أنتـم أصحاب أقلام ولستم بأصحاب سيوف ، ومن أين تعرفون الحرب ؟ فقال لـه أبو فراس :" نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ ثم ارتجـل شعرا قال فيه :[٢]

أتزعُمُ يا ضخـمَ اللغـاديدِ أننـا ... ونحن أسودُ الحربِ لا نعرفُ الحربـا
فويلَكَ مَنْ للحرب إن لم تكُن لهـا ؟ ... ومن ذا الذى يُمْسِي ويَضْحَى لها تربـا

---

١ - انظر كتاب : أبو فراس الحمدانى شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٥٦ .
٢ - ديوان أبى فراس ٣١ .

ومنْ ذا يَسُلُّ الجيشَ من جَنَباته ومن ذا يقودُ الشمَّ أو يصدمُ القلبا

.... الأبيات .

على أن الروم كانوا يُعاملون أبا فراس معاملة حسنة أول الأمر لاعتقادهم أن سيف الدولة سيفتدى ابن عمه ، ويطلق سراح ابن أخت الملك (بودرس) الذى كان أسيرا لدى سيف الدولة منذ موقعة الحدث سنة ٣٤٣هـ.وبلغ الشاعر وهو في سجنه أنهم قالوا : ما أسرنا أحدا لم نسلب ثيابه وسلاحه غير أبي فراس ، فتأثر وثار وقال في أشهر قصائده في الأسر : [١]

يمنّونَ أن خلَّوْا ثيابي وإنما علَيَّ ثيابٌ من دمائهمُ حمرُ
وقائمُ سيفي فيهمُ اندقَّ نصلُه وأعقابُ رمحي فيهمُ حطِّم الصَّدرُ

فلما تباطأ سيف الدولة في افتدائه غيروا من معاملتهم له وعمدوا إلى تعنيفه وتشديد النكير عليه .[٢]

وقد أحس أبو فراس بتباطؤ سيف الدولة في افتدائه فأرسل إليه بالرجاء تلو الرجاء ليفتديه ، ولكن سيف الدولة لم يجبه إلى طلبه بحجة أنه يرغب في افتداء أسرى المسلمين دفعة واحدة ، وبقي أبو فراس في الأسر حتى اليوم الأول من رجب من عام ٣٥٥ هـ .

واختلف النقاد والمؤرخون في سبب تباطؤ سيف الدولة في افتداء ابن عمه وقائده وتخليصه من أسر الروم : فهناك من أرجع ذلك إلى كره بين

١ - ديوان أبى فراس ١٦٥ .
٢ - انظر كتاب : أبو فراس الحمدانى الشاعر الأمير ـ محمد رضا مروة ٤١ .

الشاعر والأمير سببه أن سيف الدولة كان يخشى من انقلاب يقوم به أبو فراس ، ومن هنا آثر أن يبقى أبو فراس في سجنه في بلاد الروم اتقاء لشره ، وإبعاده عن مزاحمة ابنه أبي المعالي في ولاية العهد ، لأن أبا فراس كان يرى نفسه جديرا بولاية العهد، بفضل ما اتصف به من صفات تجعله أفضل من ولي العهد الشرعي أبي المعالي بن سيف الدولة الذى كانت تنقصه الكثير من الخصائص والكفاءات التى توافرت في أبي فراس . فضلا عن أنه لم يبل البلاء الحسن في الدفاع عن الإمارة في حين أثخن أبو فراس جراحا في سبيل ذلك ، فكان طبيعيا أن يحذر منه سيف الدولة ويحاول أن يبعده عن هذا المنصب ، ووجد في أسره هذا فرصة لذلك.[1]

وذكر الدكتور أحمد البرزة أن سبب هذا التباطؤ أنه كانت هناك بعض الصعوبات السياسية والمالية والشخصية التى حالت دون الإسراع في افتداء سيف الدولة ، وذكر من الصعوبات السياسية تفوق الروم عسكريا على حلب في أواخر أيام سيف الدولة ، وكان هناك بعض الأسرى من الروم لدى سيف الدولة وكان يريد الاحتفاظ بهم لساعة العسرة ، وكان الروم يريدون افتداء أبي فراس بهم . وذكر من الصعوبات المالية ما كان يحتاجه سيف الدولة من أموال طائلة ينفق منها على التسليح والجهاد ، ولم يكن معه كل هذه المبالغ حتى يفتديه ببعضها ، ويدل على ذلك أنه افتداه بعد أن ورث من أخته أموالا كثيرة .

---

١ - انظر كتاب : أبو فراس الحمدانى ـ د / خليل شرف الدين ـ منشورات دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ـ ١٩٨٧ م.ص ٢٠، ٢١ .

وتتمثل الصعوبات الشخصية في هؤلاء النفر في بلاط سيف الدولة الذين كانوا يعارضون استرجاع أبي فراس من الأسر ، وقد يكونون هم الذين خاطبهم أبو فراس بقوله : [١]

تمنيتمُ أن تفقدوني وإنّما
تمنيتمُ أن تفقدوا العزَّ أصيدا [٢]

وهناك من يرى أن أبا فراس كان يحمل لسيف الدولة كل تقدير واحترام وأن الأمير كان يعطف على أبي فراس عطف الأب على ابنه ، وإنما ماطل في افتدائه بسبب أن الروم - كما يقول ابن خالويه - كان بأيديهم حوالى ثلاثة آلاف أسير من العرب ولم يكن سيف الدولة ليرضى أن يفك أسر أبي فراس ونفر قليل معه ويبقى بقية هذا العدد الضخم في أيدى الروم ، ومن هنا كان ينتظر حتى تسمح له ظروفه المالية بافتداء الجميع ، ولم يتحقق ذلك إلا بعد زمن طويل في سنة ٣٥٥ هـ كما أن الروم كانوا يريدون مبادلة أبي فراس بأخي الدمستق الأسير لدى سيف الدولة ، وسيف الدولة يعز عليه ذلك ، ولكن الشاعر لم يقدر كل ذلك لعدم علمه بحقيقة الأمور ، وكان هناك على ما يبدو - بعض الوشاة الذين يريدون الإيقاع بين الشاعر والأمير فصوروا للشاعر أن سيف الدولة قد أهمله وأنه يريد به شرا ، ولكن سيف الدولة كان حريصا على انتهاز أي فرصة تسنح له ، حتى إذا تيسرت له سنة ٣٥٥ هـ

---

١ - ديوان إبى فراس ٨٥ .
٢ - انظر الأسر والسجن في شعر العرب - ص ٨٧ والهوامش ٣ ، ٤ ، ٥ منها .

أرسل إلى خرشنة ووصل إليها سيف الدولة بأسراه من الروم فدفـــع للـــروم ستمائة ألف دينار رومية وتم الفداء [١]

وهذا ما أرتاح إليه في هذه القضية ، لأن المصادر التاريخيـــة تحكـــى أن سيف الدولة كان يمر بدولته العديد من الصعوبات المالية والسياسية التى شغلته عن موضوع فداء أسراه من سجون الروم ، ففى هذه السنوات تمكن الـــروم من أخذ زمام المبادرة في الحرب ضد سيف الدولة ، واستطاعوا أن يكتســحوا المقاطعات الشمالية للدولة الحمدانية ، وتمكنوا من الاستيلاء على حلب نفسها ، وتراجع سيف الدولة إلى ميافارقين على الفرات ، وتوالت عليــه النكبــات حتى أصيب في صحته ، ونتيجة طبيعية لهذه الحالة السياسية المتردية أن تــتردى الحالة الاقتصادية في الدولة ، وعندما بدأت الأحوال السياسية والاقتصاديـة في التحسن ، وأتيح لسيف الدولة أن يسترد أنفاسه بعض الشيء بادر إلى افتــداء أبي فراس ورفاقه .

وأغلب الظن أن الروم كانوا خلال هذه السنوات يحجبون عن أســرهم حقيقة ما يجرى على ساحة المعارك بينهم وبين سيف الدولة ، وربمـــا كـــانوا يشجعونه على الإلحاح في طلب الفداء ويصورون له تناسي ابن عمه وإهمالـــه على أنه تناس مقصود ، وإهمال متعمد.ونظرا لغلبة العاطفة علـــى أبي فـــراس وحنينه إلى أمه وملاعب صباه ومسارح بطولاته كان لا يصدق أن ولي نعمتـــه

---

١ - انظر: أبى فراس الحمدانى شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٥٨ ، ٥٩. وكتاب : أبو فراس الحمدانى - خليل شرف الدين ٣٧ ، ٣٨ ، وكتاب الكامل في التاريخ - لابن الأثير - دار الكتاب العربي - بيروت - ٧/ ٥ ، ٧/ ٢٠ .

ورب جاهه لا يمكنه أن يتخلى عنه أو يهمل فداءه مهما غلا الثمـــن ، وهـــو الذى كان قبل الأسر أميره ونديمه ، وشاعره المفضل ، وقائدا من أخلص قواده • فالمسألة إذن مسألة عاطفية نفسية من جهة أبي فراس ،وواقع مؤلم وموقـــف حرج ، وضائقة مالية من جهة سيف الدولة ، لا أكثر ولا أقل •[1]

وفاته :

تتصل وفاة أبي فراس اتصالا مباشرا بحربه مع قرغويه ، واستيلائه علـــى حمص وجعلها تحت سلطته ، بعد أن كان مجرد وال عليها من قبل سيف الدولة عقب خروجه من الأسر •

فبعد أن خرج أبو فراس من أسره في رجب ٣٥٥هـ بفـــترة وجـــيزة مرض سيف الدولة واشتدت آلامه وعلله حـــتى توفي في صفر سنة ٣٥٦ هـ وانتقل حكم الدولة الحمدانية بعده إلى ابنه أبي المعالى ، وكان صغيرا في ســـن الخامسة عشرة •

وقد شب أبو المعالى وهو يرى ذلك الغلام التركي (قرغويـــة) الـــذى جعله والده سيف الدولة وصيا عليه ومساعدا له ، ، وقبل ذلك عـــهد إليـــه بقيادة بعض الجيوش ، وقد سعى قرغوية إلى السيطرة على أبي المعالى ومحاولـــة تسييره على ما رسمه لنفسه ليصبح هو الحاكم الفعلى للدولة الحمدانية •

ولم يحدثنا التاريخ عن عداوة بين أبي فراس وأبي المعالى ، بل على العكس من ذلك كان أبو فراس يعطف كثيرا على أبي المعالى ، وعلى أخيه أبي المكـــارم

---

١ - أبو فراس الحمدانى - د / خليل شرف الدين - ٣٩ بتصرف •

الذى توفي وأبو فراس في سجنه ، وقد بعث الشاعر إلى سيف الدولة من سجنه قصيدة تعزية رقيقة جدا في وفاة ولده أبي المكارم. [١]

وهذه العلاقة الحميمة بين أبي فراس وابن أخته تجعلنا نؤمن بأن الصـراع الذى شب في الأسرة الحمدانية بعد وفاة سيف الدولة لم يكن بين أبي فـراس وأبي المعالى ، وإنما كان بين أبي فراس وقرغويه التركى الذى سارع بعد وفـاة سيف الدولة إلى الإعلان بأن سيف الدولة جعله وصيا على ابنه أبي المعـالى ، ونجح في إخضاع ابن سيف الدولة لسيطرته وإقناعه بوجوب إقصاء أبي فـراس عن حمص حفظا وصونا لكرامته وهيبته ، وأعلن أن من واجبه أن يحمـى أبـا المعالى من أطماع أبي فراس في الاستيلاء على ملك سيف الدولة ، ولما أحـس أبو فراس بطمع قرغوية في الحكم ، ومحاولته إقصاء الشاعر عن ابن أخته مخافة أن يقضى على طموحه قام أبو فراس بالاستيلاء على حمص حفاظا منه علـى ملك أبي المعالى ، وعدم السماح لقرغويه بالتدخل في شئون الحكـم ، فدعـا قرغوية إلى قتال أبي فراس ، وأعد له جيشا جرارا كان هـو علـى رأسـه ، والتقى به قرب (صدد) وجرت بينهما معركة غير متكافئة سقط فيـها أبـو فراس قتيلا في جمادى الأولى من سنة ٣٥٧ هـ وعمره لم يتجاوز سبعا وثلاثـين سنة ؛ ويقي قرغوية يخادع أبا المعالى ويمالئه حتى سنة ٣٥٨ هـ ثم طرده مـن الحكم واستقل هو به . [٢]

---

١ - هي قصيدته اللامية الموجودة بالديوان ص ٢٤٥ .
٢ انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٨/٢ وانظر : الأعلام ـ للزركلى ـ دار العلم للملايين ط٧ ـ ١٩٨٦م ـ ١٥٥/٢ .

ويروى ابن الأثير : أن أبا فراس قتل بسيف غلام لقرغويه ، وأخذ رأسه وتركت جثته في البرية حتى دفنها بعض الأعراب ، وأن ذلك كـان في ربيـع الآخر ، وليس في جمادى الأولى من سنة ٣٥٧ هـ[١] وذكر التاريخين معا ابـن خلكان[٢].

" وبموت أبي فراس طويت صفحة خـالدة مـن تـاريخ الفروسـية ، والشجاعة ، والإقدام ، والأخلاق العربية النبيلة ، وبموته خبا ضوء لامع مـن أضواء الشعر العربي كثيرا ما سطع في جنبات تاريخ العرب الأدبي"[٣].

ويذكر ابن الأثير نقلا عن ابن خالويه أن أبا فراس أنشد عنـد موتـه مخاطبا ابنته امرأة أبي العشائر :[٤]

أبُنَيَّـتِي لا تجزعِـي ... كـلُّ الأنـام إلى ذهَـابْ
أبنيَّتِي صـبرًا جميـ ... ـلا للجليل مـن المُصَـابْ
نوحِي علـى بحسـرةٍ ... من خلفِ سترك والحجـابْ
قـولي إذا نـاديتني ... وعييـتُ عـن ردِّ الجـوابْ
زيـنُ الشبابِ أبي فيـرا ... س لم يـمتَّع بـالشـبابْ[٥]

ويدل هذا الشعر على أن أبا فراس لم يمت مقتولا ، ويحتمل أن يكون قد جرح فقط في المعركة وتأخر موته ، وقال هذا الشعر ثم مات متأثرا بجراحـه .

١ - انظر : الكامل في التاريخ ٢٨/٧، ٢٩ .
٢ - وفيات الأعيان ٤٩/٢ .
٣ - عناصر الإبداع في رائية أبي فراس ٣٥ .
٤ - الكامل في التاريخ ٢٣٦/٨ .
٥ - الديوان ٥٩ .

وذكر ابن خلكان رأيا يقول بأن أبا فراس قال هذه الأبيات وهو في أسره ببلاد الروم .[١] وإن كان هذا الرأى بعيدا عن المشهور في ذلك . كما وجـــد في ديوان الشاعر [٢] أنه قال هذه الأبيات صباح يوم مقتله ، وقد أصبح حزينـــا كئيبا قلقا ، فرأته ابنته كذلك فأحزنها حزنا شديدا ثم بكت وهو علـــى تلـــك الحالة ، فقال هذه الأبيات كأنه ينعى نفسه ، ثم سار إلى ملاقاة قرغويه فكـــان من أمره ما كان .

---

١ - انظر وفيات الأعيان ٤٨/٢ .
٢ - شرح الدكتور خليل الدويهى ص ٥٩ .

ثانيا : المعتمد بن عباد وشعره :

أ ـ عصر الشاعر :

عاش المعتمد بن عباد حياته في عصر ملوك الطوائف بالأندلس ، الـذى يؤرخ له المؤرخون بالمدة من سنة ٤٢٢ هـ حتى سنة ٤٨٤ هـ وإن كان هـذا العصر حقيقة بسبق هذا التاريخ بحوالي عشرين سنة •

وفي هذا العصر انقسمت الدولة الإسلامية في الأندلس إلى دويلات متعددة بعد أن ازداد ضعف الدولة الأموية في الأندلس ، وقلت هيبتها في الداخل والخارج ، فقامت الفتن والثورات فى كل مكان ، واغتنم كل أمير من أمراء المناطق المختلفة الفرصة واستقلوا بإماراتهم ، ونصب كل منهم نفسه ملكا على ما تحت إمرته من مدن ، واتخذوا من أهم مدينة في كل منطقة عواصم لدويلاتهم.وكان هؤلاء الملوك من عصبيات مختلفة فكان منهم العربي ، ومنهم البربرى ومنهم المولد • وقد نافس بعضهم بعضا ، وغزا بعضهم البعض الآخر ، وربما استعان بعضهم بملك الفرنجة ليستولى على جزء من ملك جاره • واتخذ ملوك الطوائف جميع مظاهر الدول المستقلة من التلقب بألقاب الخلفاء ، واتخاذ الحجاب والوزراء وغير ذلك من أسباب الترف • كما تنافسوا في اجتذاب الأدباء والشعراء والعلماء إلى بلاطاتهم ليشيدوا بفضلهم ، وقد انهمكوا جميعا في الملذات واللهو حتى ضعف حالهم ، وانتهز العدو حالة التفكك والضعف التى كان عليها هؤلاء الملوك ، وأخذ يغير على بلادهم ، ويستولى عليها واحدة تلو الأخرى •

" ويصعب ضبط عدد دويلات الطوائف وضبط مددها ، فقد تولى نفر من ملوكها مدنا مختلفة في أزمنة مختلفة ، وكان بعضهم - في أثناء ذلك - ينتزع بعض هذه المدن من بعض . وكذلك كان ملوك النصارى يستولون بين الحين والحين - على عدد من هذه المدن ، ولكن بإمكاننا أن نقول : إن دويلات الطوائف كانت ثلاثا وعشرين ".[1]

ومن هذه الدويلات ما دام بقاؤها نحو قرن وثلث قرن كدولة بنى هود، ومنها ما دام نحو قرن فقط كدولة بنى رزين،ومنها ما دام نحو ثلثي قرن كدولة بنى عباد ، ومنها مادام نحو ربع قرن فقط كدولة بنى مزين . وأهم دول الطوائف هي :

١ - دولة بنى هود في سرقسطة ، ودام ملكها من سنة ٤٠٠ ه إلى سنة ٥٣٦ ه وهي دولة عربية ، ومن أشهر ملوكها : المقتدر بالله - وكان شاعرا - وابنه يوسف المؤتمن - وكان عالما بالرياضيات .

٢ - دولة بنى رزين في السهلة وعاصمتها شنتمرية ، ودامت من سنة ٤٠٢هـ إلى سنة ٤٩٧ ه وهم من البربر الذين ولدوا بالأندلس ومن ملوكها : عبود بن رزين ، وعبد الملك بن عبود ، وكان أديبا شاعرا .

٣ - دولة بنى حمود في قرطبة ، وهم ينتمون إلى على بن حمود الحسينى الذى عبر من المغرب إلى الأندلس ، ودعا لنفسه بالخلافة ، واستطاع أن يستولى على قرطبة سنة ٤٠٧ ه ، ولقب نفسه بالناصر ، وقتل الخليفة

---

١ - تاريخ الأدب العربي - د/ عمر فروخ - دار العلم للملايين - ط ٦/١٩٩٢م. - ٣٨٦/٤ .

الأموى المستعين وولي الحكم بعده ، وبعد سبع سنين من حكمه رجع الملك لبنى أمية ثم عاد هو فاسترجعه منهم لمدة عامين إلى أن قتله صقالبته بالحمام : فولى أخوه القاسم مكانه وتلقب بالمأمون .

وتعاقب على حكم الدولة الحمودية أحد عشر ملكا ، وتنقلوا بين قرطبة، ومالقة والجزيرة الخضراء ، حتى انقرضت دولتهم بمقتل آخر ملوكها القاسم الواثق سنة ٤٥٠ هـ .

٤ - دولة بنى عامر - وكانت من أعظم دول الطوائف وعاصمتها بلنسية ، وحكموا من سنة ٤١٢ هـ حتى عام ٤٧٨ هـ ، ومن حكامهم : زهير العامرى الذى أخرج هشام بن الحكم (المؤيد) من المرية عندما ظهر بعد اختفائه وانقطاع أخباره .

٥ - دولة بنى الأفطس : وينتمون في الأصل إلى بربر مكناسة وعاصتهم بطليوس ، وحكموا من سنة ٤١٣ هـ إلى سنة ٤٨٧ هـ.وكان لهذه الدولة الأثر الكبير في نهضة العلوم والفنون في الأندلس في عصر ملوك الطوائف ومن ملوكها : ابن الأفطس الملقب بالمظفر صاحب التاريخ المسمى بالمظفرى.وكان ابنه المتوكل في بطليوس كالمعتمد بن عباد في أشبيلية ، وقد قتل على أيدى جيش يوسف بن تاشفين ، ومن قبله قتلوا ولديه وهو ينظر إليهما .

٦- دولة بنى جهور في قرطبة ، وحكموا من سنة ٤٢٢ هـ بعد انتهاء الدولة الأموية حتى سنة ٤٦٣ هـ وأول ملوكها وأشهرهم : أبو الحزم بن جهور .

٧ - دولة بنى ذى النون في طليطلة ، ودام ملكهم من سنة ٤٢٧ هـ حتى سنة ٤٨٧ هـ وأصلهم من البربر بالمغرب.

٨ - دولة بنى عباد فى أشبيلية ، وهي أكبر وأعظم دويلات ملوك الطوائف ، وأشهرها ، وحكموا من سنة ٤١٤ هـ إلى سنة ٤٨٤ هـ ، وقد ضموا إلى ملكهم فى أشبيلية كلا من الجزيرة الخضراء التى انتزعوها من بنى حمود سنة ٤٥٠ هـ .وقرطبة التى استولوا عليها من بنى جهور سنة ٤٦١ هـ ، وعمر هذه الدولة سبعون عاما تولى حكمها منهم ثلاثة : أبو القاسم محمد (٤١٤ هـ - ٤٣٣ هـ) وابنه أبو عمرو عباد الملقب بالمعتضد (٤٣٣ - ٤٦١ هـ) وابن هذا أبو القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد(٤٦١ - ٤٨٤ هـ)[١]

وتنتسب الأسرة العبادية إلى اللخميين الذين كان منهم ملوك الحيرة وعمال الفرس على أطراف العراق ، وكانت دولتهم تسمى دولة آل نصر أو دولة المناذرة ، وكان الشعراء الذين يمدحون بنى عباد يتقربون إليهم بالإشارة إلى هذا النسب مثل قول ابن اللبانه : ([٢])

مِنْ بنى المُنذرينَ وهو انتسابُ ... زاد في فخرِهمْ بنو عبَّادِ
فتيةٌ لم تلد سواهَا المعالِى ... والمعالى قليلةُ الأولادِ

---

١ - اقرأ كتاب : المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ - د/ عبد الوهاب عزام/دار المعارف بمصر - ١٩٥٩ م. ص ٧ وما بعدها ، ومقدمة كتاب : المعتمد بن عباد - لعلى أدهم - سلسلة الخالدون العرب - دار القدس للطباعة والنشر - بيروت - ص ٧ وما بعدها.

٢ - الحلة السيراء - ابن الأبار القضاعى - تحقيق : د/ حسين مؤنس - دار المعارف - ط ٢ - ١٩٨٥م.-٢/٣٥ .

وقال آخر في تأييد هذا النسب ، وربط أصولهم بملوك الحيرة :

من حَلبةِ السبقِ لا برقٌ يخاطفُـها ... إلى مداهـا ولا ريـحٌ يجاريـها
تردُّهُمْ نسبةٌ نحو السمـاءِ فـهم ... من مائها وعلاهم من ذرا ريـها

يشير بذلك إلى المنذر بن ماء السماء .

كما يشير الفتح بن خاقان إلى هذا النسب في ترجمته لأبي القاسم محمد ابن عباد (المعتمد) فيقول : [1] " وهذه بقية منتماها في لخم ، ومرتقاها إلى مفخر ضخم ، وجدهم المنذر بن ماء السماء ، ومطلعهم من جو تلك السماء" .

وبدأ أمرهم في الأندلس بدخول جدهم (عطاف) فيها في طلائع بلج ابن بشر القشيري.وكان عطاف هذا من أهل حمص بالشام ، وقد نزل الأندلس بقرية قرب (يومين) من إقليم (طشانة) من أرض أشبيلية .[2]

وامتد بعطاف عمود النسب من الولد إلى الظافر محمد بن إسماعيل القاضي.وكان إسماعيل القاضي أول من أخرج هذه الأسرة من ظلمات الخفاء وخمول الذكر وسما بها إلى مرتبة الأعيان البارزين ، وكان عالما فقيها وجنديا بارعا .تولى قيادة فرقة في حرس هشام الثاني ، واختير إماما لجامع قرطبه ، ثم

١ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس - ط ١ - مطبعة الجوائب بالآستانة ١٣٠٢ هـ - ١٠ .
٢ - انظر : الحلة السيراء - ابن الأبار القضاعي ٢/٣٤ ، ٣٥ .

قاضيا لأشبيلية ، واشتهر بغزارة العلم والاستقامة ، وجزالة الرأى ، واتصف بالكرم والنجدة ، وتوفي عام ٤١٠ هـ .

وبعد وفاته اجتمع رأى أهل إشبيلية على أن يقوم بالأمر من بعده ابنه القاضى أبو القاسم محمد بن عباد ، فقام بالأمر مؤسسا دولة بنى عباد سنة ٤١٤ هـ ، وكان القاضى أبو القاسم محمد نظير أبيه في الذكاء ، وسعة المعرفة ، ولكنه قصر عن مستواه الأخلاقي ، فقد كان شديد الطموح ، بعيد المطامح لا يتردد في اختيار الوسيلة التى توصله لتحقيق أهدافه مهما كانت ، وحينما مات والده عمل على أن يخلفه فى خطة القضاء ، وسعى بكل وسيلة حتى تمكن من الاستيلاء على زمام الأمور في أشبيلية ، وأبعد عنها القاسم بن حمود الذى كان حاكما عليها ، واستبد بالأمر بها بعد أن تخلص من الأعيان الذين كان قد اختارهم للاشتراك معه في الحكم ، وتوفي القاضي أبو القاسم محمد عام ٤٣٣هـ بعد أن وضع أساس دولة بنى عباد وأرسى قواعدها ، وكان معدودا من أهل الأدب والعلم والمعرفة التامة بتدبير الملك .[1]

وتولى حكم دولة بنى عباد بأشبيلية بعد القاضى أبى القاسم ابنه اسمـاعيل الذى لقب في أول أمره بفخر الدولة ، وبعد أن تولى الخلافة بمدة تلقب بالمعتضد ، وكان المعتضد يبلغ من العمر ستا وعشرين سنة حينما تولى الخلافة ، وعرف المعتضد بالدهاء والشدة المتناهية ، والقسوة البالغة ، وكان من أقوى الشخصيات التى عرفتها الأندلس في عهد ملوك الطوائف.وفي وصفه يقول ابن

---

١ - انظر كتاب:المعتمد بن عباد لعلى أدهم ٤٣ : ٥٦ وكتاب : الحلة السيراء ٣٦/٢ وما بعدها .

دحية الكلبي : [١]

" والمعتضد هذا هو قطب رحي الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم من سيفه قريب ولا بعيد ".

ويقول عنه ابن بسام في الذخيرة : [٢]

" جبار أبرم الأمور وهو متناقض ، وأسد فرس الطلى وهو رابض .... ثار والناس حرب ، وكل شيء عليه ألب ، فكفى أقرانه وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يده واتسع بلده ، وكثر عديده وعدده " .

وقد شبهه المؤرخون في صرامته وشجاعة قلبه ، وحدة نفسه بأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني، وظل المعتمد يحكم دولة بنى عباد ، ويقوم بالأمر خير قيام ويضم إلى مملكته أجزاء من ممالك الدويلات المجاورة حتى توفي في اليوم الثاني من جمادى الآخرة سنة ٤٦١ هـ [٣].

وتولى شاعرنا (أبو القاسم محمد) حكم دولة بنى عباد بعد وفاة أبيه المعتضد وتلقب فيما بعد بالمعتمد على الله .

ولم تكن في المعتمد صرامة أبيه المعتضد ، ومضاء عزيمته ، وقوة إرادته ، وشدة طموحه ، وإنما كان ميالا إلى اللهو والتسلي ، وحب الاستمتاع ،

---

١ - المطرب من أشعار أهل المغرب - تحقيق : ابراهيم الإبياري ، وحامد عبد المجيد - طبعة عام ١٩٩٣ - ص ١٢ .

٢ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - تحقيق : إحسان عباس/الدار العربية للكتاب - ليبيا وتونس - ١٩٧٨م. القسم الثاني - المجلد الأول - ص ٢٤ .

٣ - اقرأ الكثير من أخبار المعتضد في كتاب : المعتمد بن عباد لعلي أدهم/من ص ٦٥ : ٩٠ .

والانطلاق وراء الملذات ، وهذا ما كان يصرفه كثيرا عن أعمال الدولة وشئون الحكم ، ومع ذلك فنستطيع القول بأنه لم يكن منصرفا الانصراف كله إلى اللهو والمتعة ، فقد كان لا يخلو من الطموح والحرص على توسيع أملاك دولته ، وقد استغل استنجاد عبد الملك بن جهور حاكم قرطبة به للوقوف معه ضد ابن ذى النون وجيشه ، واستولى على قرطبة بعد أن أبعد عنها ابن ذى النون وجيشه ، وبذلك لعب المعتمد مع بنى جهور في قرطبة نفس الدور الذى لعبه معه يوسف بن تاشفين بعد ذلك .

ولما ملك المعتمد قرطبة جعل ابنه عبادا الملقب بالظافر حاكما عليها ، ولم يوفق المعتمد في هذا الاختيار ، لأن عبادا كان صغير السن قليل التجربة ، وكان أهل قرطبة كثيري التقلب شديدي النقد لحكامهم نزاعين إلى الشغب ، وقد قبلوا في أول الأمر حكم أميرهم الشاب ، ولكن جهله بأصول الحكم وسياسة الملك جعله يعتمد في تصريف الأمور على (ابن مرتين) رئيس حرس المدينة ، وكان قائدا قديرا ولكنه كان فظا سيء السريرة ، ولذلك كرهه القرطبيون - فثار عليه رجل من مشاغبي قرطبة يدعى أبا عكاشة ، ومعه مجموعة من رجاله ، ودخلوا قصر الأمير في إحدى ليالي الشتاء المظلمة في عام ٤٦٨ هـ ، وكان الأمير نائما فأوقظ ودافع عن قصره حتى قتل وسحبت جثته خارج القصر وألقيت بالطريق عارية ، ثم انصرف ابن عكاشة مع رجاله إلى ابن مرتين ودخلوا عليه قصره وهو يسمع شدو القيان في حفلة راقصة فقتلوه هو الآخر .

وفي الصباح ذهب ابن عكاشة وجنده إلى جثة عباد ففصل رأسه عن جسده ، ووضع الرأس على رمح وطافوا بها المدينة ، ثم جمع أهل قرطبة في المسجد الجامع وأمرهم بحلف يمين الولاء للمأمون صاحب طليطلة ، واستمر المأمون في قرطبة لمدة ستة أشهر توفي بعدها مسموما .

وحزن المعتمد على ابنه حزنا شديدا حينما بلغته أنباء قرطبة ، وألهاه حزنه عليه عن الأخذ بثأره طيلة ثلاثة أعوام ، وفي سنة ٤٧١ هـ هاجم جيش المعتمد مدينة قرطبة.وفي الوقت الذى دخل فيه جيش المعتمد من أحد أبواب المدينة هرب ابن عكاشة من الباب الآخر ، فأتبعه المعتمد بعض فرسانه ، فلما أيقن ابن عكاشة بانتهاء حياته هاجم فرسان المعتمد كالثور الهائج ، ولكن الفرسان تكاثروا عليه وقتلوه ، وأمر المعتمد بصلب جثته وبجوارها كلب ، وتلا المعتمد فتح قرطبة الاستيلاء على الأراضى التابعة لمملكة طليطلة بين نهري الوادى الكبير ونهر وادى آنة .[1]

وفي هذه السنوات من حكم المعتمد بدأ حال ملوك الطوائف في التدهور والضعف ، على حين أخذ الأسبان المسيحيون يفكرون بجد في استرداد المدن الأندلسية ، ويتحينون الفرص للانقضاض عليها الواحدة تلو الأخرى ، وكانت طليطلة هي أول ما استرد الأسبان من مدن الأندلس ، وكان ذلك في سنة ٤٧٨ هـ وكان لسقوطها دوى عظيم ، ووقع أليم في نفوس المسلمين في الأندلس ، وفي العالم الإسلامى كافة ." وقد أدرك المسلمون أن مقامهم في

١ - اقرأ فيما سبق كتاب : المعتمد بن عباد لعلي أدهم . ١٣٦ : ١٥٠ .

الأندلس بعد سقوط طليطلة أصبح معرضا لأشد الأخطار ، وقد عبر الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبي عن هذا الشعور في قوله :

يا أهلَ أندلسٍ حُثُّوا مطيَّكُمُ ... فما المقامُ بها إلا من الغَلَطِ
الثوبُ ينسل من أطرافه وأرى ... ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوَسَطِ
ونحن بين عدوٍ لا يفارقنا ... كيف الحياةُ مع الحيَّاتِ في سَفَطِ[1]

وقد بلغ الضعف بملوك الطوائف أمام حكام أسبانيا أن كانوا يؤدون الجزية إليهم ، حتى إن المعتمد بن عباد الذى كان أعظم ملوك الطوائف ويتملك أكثر بلادها كان يؤدى الضريبة إلى الأذفونش كل سنة ، فلما ملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة على عادته فلم يقبلها منه وأرسل إليه يهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة ليفتحها إلا أن يسلم إليه جميع الحصون المنيعة ويبقى السهل للمسلمين ، وكان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس ، فأنزله المعتمد وفرق أصحابه على قواد عسكره ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم من عنده من الكفرة ، وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه ، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر ، وكان متوجها إلى قرطبة ليحاصرها فرجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويكثر العُدد والعدة .[2] وأقسم بآلهته ليغزون المعتمد ويحاصره في قصره ، فجهز جيشين جعل على أحدهما كلبا من مساعير كلابه ، وأمره أن يسير على

١ - المرجع السابق ٢٠١ .
٢ - انظر الكامل في التاريخ - لابن الأثير - ٨ / ١٣٨ .

باكورة باجة غرب الأندلس ، ويغير على تلك التخوم والجهات ثم يمر على لبلة إلى إشبيلية ، ثم يجتمعان معا في طريانة ، وزحف الأذفونش بنفسه في جيش كبير ، وسلك طريقا غير الطريق التي سلكها الآخر ، وكلاهما عاث في البلاد وخرب ودمر حتى التقيا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد ، وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زاريا عليه : "كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب ، واشتد علي الحر ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي ، وأطرد بها الذباب عن وجهي". فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة : "قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله تعالى". فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد وقرئت عليه أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال .[1]

ولما بلغ الخطر بالبلاد وبملوك الطوائف إلى هذا الحد التمسوا النصح عند كبيرهم المعتمد بن عباد فرأى أن يستنجد بالمرابطين وقائدهم يوسف بن تاشفين ، واستشار الناس ورجال الدين في ذلك فوافقوا عليه .

وحينما علم العامة بتوقيع المعتمد إلى الأذفونش ورده القوي على رسالته ثم عزمه على استعانته بابن تاشفين على العدو المسيحي استبشر الناس وفرحوا بذلك ، ولكن ملوك الطوائف لما علموا بعزم المعتمد على ذلك الأمر وأنه انفرد برأيه في ذلك استاءوا وحذروه عاقبة ذلك قائلين له : " الملك عقيم

---

١ - نفح الطيب/المقري التلمساني - ٤/ ٣٥٨ ببعض التصرف .

، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد "، فأجابهم بكلمته المشهورة :"رعي الجمال خير من رعي الخنازير "، ومعناه : إن كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيرا يرعى الجمال في الصحراء خير من كونه ممزقا للأذوفونش أسيرا يرعى خنازيره في قشتالة : وقال لعذاله ولوامه : يا قوم : إني من أمرى على حالتين : حالة يقين ، وحالة شك ، ولابد لى من أحدهما : أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفى لى ويبقى على وفائه ويمكن أن لا يفعل ، فهذه حالة شك ، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضى الله ، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله - تعالى - فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأى شيء أدع ما يرضى الله وآتى ما يسخطه ؟ فحينئذ قصر أصحابه عن لومه واقتنعوا برأيه .[1] وكتب ابن عباد إلى يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين في المغرب يسأله العون والنجدة فلبى يوسف النداء وعبر بجيوشه إلى الأندلس لنصرة الإسلام فيها والتقى بجيوشه مع جيوش المعتمد بن عباد ضد جيوش ألفونسو السادس قرب بطليوس وهزموه شر هزيمة في معركة "الزلاقة " الشهيرة وكان ذلك في رجب وقيل في رمضان سنة ٤٧٩ هـ .

وعاد يوسف إلى المغرب بعد زوال الخطر عن الأندلس تاركا وراءه قطعة من جيشه تحت تصرف ملوك الطوائف ، وسرعان ما عاد ملوك الطوائف إلى لهوهم ومجونهم ، ونسوا خطر العدو المتربص بهم ، وأن بلادهم معرضة للفقد والضياع .

---

١ - انظر نفح الطيب ٤/٣٥٩ ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨/١٤١ ، ١٤٢ .

ورأى أهل الأندلس ما آل إليه حال ملوك الطوائف من الضعف والتردى ، ورأو العدو يعاود التربص بهم ، ويستعد للانقضاض على بلاد الإسلام ، فعلا الصراخ إلى يوسف من فقهاء الأندلس وأعيانها وعامتها مستغيثين به ، فأسرع إلى نجدتهم سنة ٤٨٣ هـ ، وأوقف العدو عند حده ، ثم شرع في خلع ملوك الطوائف الواحد تلو الآخر ابتداء من عام ٤٨٤ هـ ولم تأت سنة ٤٩٥ هـ حتى سيطر المرابطون على الأندلس كلها وضموها إلى دولتهم بالمغرب .[١]

وكان يوسف بن تاشفين قد بيت النية للاستيلاء على الأندلس منذ أول مرة نزلها محاربا في صفوف جيش المعتمد في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ إذ يقال : إنه حين نزل الأندلس في هذه السنة " لاحت له طوالع الرخاء وطيب العيش ، وتدهور الأخلاق ، ومعالم الحضارة بادية ، وبواسق الرفاهية ناطقة ، وملامح الانشقاق بين ملوك الطوائف سافرة فعزم على مقاتلتهم ، وانتزاعهم مملكاتهم ، وإماراتهم بدعوى الذود عن الأخلاق السامية ، والرفع لشعائر الدين الخالدة .وكان الإمام الغزالى ممن أفتوا إلى يوسف بن تاشفين في مشروعية محاربة ملوك الطوائف ، والاستيلاء على ملكهم ".[٢]

---

١ - انظر في أحداث يوسف بن تاشفين في الأندلس والقضاء على ملوك الطوائف : الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ٥٤ وما بعدها ، نفح الطيب ٤/٢٤٦ وما بعدها وانظر فيما سبق : الأدب العربي في الأندلس ـ عبد العزيز عتيق/دار النهضة العربية ـ بيروت/ط ١ - ١٩٧٦ م.ص٩٣ : ٩٩ .

٢ - مقدمة ديوان المعتمد بن عباد ـ بقلم د / رضا الحبيب السويسي ـ الدار التونسية للنشر ١٩٧٥م - ص٨ .

ومن أهم الأسباب التى دعت يوسف بن تاشفين للاستيلاء على الأندلس أنه رأى أن " ملوك الطوائف كانوا ينقسمون على أنفسهم يحارب كل منهم الآخر ويتهمه بكل التهم ، ويضمر له العداوة ، مما جعل ابن تاشفين يستاء منهم ، كما أن إغراقهم في الملذات وحب الدنيا ، وظلم الرعية أحفظ قلب ابن تاشفين عليهم وهو الجندي المحارب المرابط في سبيل الله .

ولعل أعظم باعث له ما رآه بنفسه من خيانة ملوك الطوائف له عندما أحس بأنهم اتفقوا جميعا ضده فمنعوا المدد والمؤن عن عساكره ومحلاته التى تركها بالأندلس ".(١)

هذا مختصر عن عصر المعتمد بن عباد ودولته من الناحية السياسية ، وكان لدولة ابن عباد أثرها الكبير على الحياة واستقرارها في الأندلس في عصر ملوك الطوائف،وكان للقضاء على هذه الدولة ونفي ملكها المعتمد بن عباد من الأندلس أثره الكبير في تغيير وجه الحياة على هذه الأرض .

أما عن الحياة العلمية والأدبية في عصر الشاعر : فمن المسلم به بين المؤرخين والأدباء أن الأدب والعلم قد ازدهرا في عهد ملوك الطوائف ، فكما كان هناك تنافس شديد بين ملوك الطوائف في الناحية السياسية كان بينهم تنافس قوى في اجتذاب الأدباء والعلماء ، وتشجيع الأدب والعلم ، وكان كل ملك منهم يحاول أن يضم بلاطه مشاهير الأدباء والعلماء في عصره

---

١ - رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي حتى سقوط غرناطة - د/عبد الرحمن حسين محمد/ط١-١٩٨٣م. ص١٤٥ -

ليشيدوا بفضله وكرمه ودولته ، وكانوا بذلك يتشبهون بخلفاء الدولة العباسية وبأمراء الدويلات التى تكونت في قلب الدولة العباسية في المشرق أمثال سيف الدولة الحمداني ، وسلاطين الفاطميين وغيرهم ، مما أدى إلى تعدد مراكز الثقافة والأدب بتعدد عواصم الدويلات في عهدهم ، واتسم هذا العصر بضخامة النتاج الأدبي في المقدار والبراعة ، والتفنن والجودة .

" إن كثرة ملوك الطوائف ، وتنافسهم في الأبهة ، ومظاهر الملك، ثم عداوة بعضهم لبعض جعلتهم في حاجة إلى شعراء يمدحونهم رفعا لمكانتهم في عيون أعدائهم أو إغاظة لأندادهم ومنافسيهم ، من أجل ذلك تقاطر الشعراء من كل طبقة وميل إلى بلاطات هؤلاء الملوك يمدحونهم تكسبا " .[1]

بجانب ذلك كان كثير من ملوك الطوائف شعراء من أمثال : المعتمد بن عباد ، والمظفر بن الأفطس ، والمقتدر بن هود ، وعبد الملك بن رزين ، والمعتصم بن صمادح ، وأبي العزم بن جهور ، وإدريس بن يحيي ، كما كان بعضهم من العلماء أمثال : المؤتمن بن المقتدر بن هود - وكان عالما بالتاريخ ، وهذا ما جعلهم يعملون على تشجيع الحركة العلمية والأدبية والفنية في بلادهم ، وعلى استقدام مشاهير علماء المشرق للإفادة من علمهم .

أما عن دولة بني عباد فكان بلاطهم منتدى للأدب في عصرهم ، وكانوا أكثر ملوك الطوائف حظا من القوة وسعة السلطان والملك ، فكانوا أكثرهم نصيبا في وفود الأدباء والعلماء إليهم بفضل تسلطهم على قرطبة ، وإشبيلية

---

١ - تاريخ الأدب العربي - عمر فروخ - ٤ / ٣٩٨ .

وما يتبعهما ، وهما من أهم حواضر الأندلس ، كما أنهم كانوا عربا من لخم فورثوا السيادة والعزة ، وحب الشعر والأدب ، والمشاركة في إنشائه ونظمه . يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في ذلك : [١]

" أما ملوك بني عباد فقد كانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدورا في بلاغتي النظم والنثر ، مشاركين في العلم ، وكانت دولتهم العبادية بالمغرب كالدولة العباسية بالمشرق ، وكان المعتمد منهم لا يستوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا شاعرا حسن الأدوات ، وكان من شعراء أبيه المعتضد : أبو جعفر بن الأبار ... وأبو الوليد وابنه ابن زيدون ، واليمانى ، وابن جاخ البطليوس الذى يعد من أعاجيب الدنيا لأنه كان أميا ، وقد بلغ من حسن شعره أن ولاه المعتضد رياسة الشعراء إذ كانت له دار مخصوصة بهم تقيد فيه أسماؤهم " .

ويقول مساويا بين المعتمد بن عباد وهارون الرشيد والصاحب بن عباد في كثرة وفود الشعراء والكتاب على كل منهم : [٢]

" ولم يجتمع من فحول الشعراء وأمراء الكلام بباب أحد من ملوك الإسلام ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد ، والمعتمد هذا " .

وكان المعتضد مع ما عرف به من الدهاء والشدة المتناهية أديبا يجيد النظم ، ويحسن تذوق الشعر ، وكان يجعل للشعراء يوما من أيام الأسبوع - وكان يوم الاثنين غالبا - يفدون فيه عليه فيطارحهم الشعر ويستمع إليهم ويجيز السابق منهم .[٣]

---

١ - تاريخ آداب العربي . دار الكتاب العربي . بيروت . ١٩٧٤م. - ٣/ ٢٨٠ .
٢ - المرجع السابق . ٣ / ٢٨١ .
٣ - انظر : المرجع السابق ٢٨١/٣ .

قال الفتح بن خاقان عن بني عباد والمعتضد منهم خاصة : [١]

" وبنو عباد ملوك أنس الدهر بهم ، وتنفس منهم عن أعبق الزهر ، وعمروا ربع الملك وأمروا بالحياة ، والهلك ، ومعتضدهم أحد من أقام وأقعد ، وتبوأ كاهل الإرهاب واقتعد ، وافترش من عريشته ، وافترس من مكايد فريسته ، وزاحم بعود ، وهز كل طود ، وأخمل كل ذي زي وشارة ، وختل بوحي وإشارة ". ومن شعر المعتضد قوله في تقسيمه زمنه إلى شطرين : شطر لتدبير الملك ، وشطر للمرح واللهو وإدمان الخمر : [٢]

لعَمْرُك إني بالمُدامةِ قَوّال ... وإني لما يَهوى النَّدامى لفعّالُ

قسمتُ زماني بين كدٍ وراحةٍ ... فللرأي أسحارٌ وللطيب آصالُ

فأُمسي على اللذات واللهو عاكفًا ... وأُضحي بساحاتِ الرياسةِ أختالُ

إذا نامَ أقوامٌ عن المجد ضلّةً ... أسهّدُ عيني أن تنامَ بي الجالُ

وإن راق أقوامًا من الناس منطقٌ ... يروقُ بذا مني مقالٌ وأفعالُ

ومن شعره الرائع قوله : [٣]

شَربنَا وجفنُ الليلِ يغسِلُ كحلَهُ ... بماءِ صباحٍ والنسيمُ رقيقُ

معتقةٌ صفراءُ [٤] أما بخارُها ... فضخمٌ وأما جسمُها فدقيقُ

---

١ نفح الطيب ٤/٢٤٣ ، ٢٤٤ ومطمح الأنفس ص ١٠

٢ - الحلة السيراء ٢ / ٤٦ .

٣ - المطرب من اشعار أهل المغرب ١٢ ، والحلة السيراء ٢ / ٤٩ .

٤ - في الحلة السيراء : معتقة كالتبر .

أما المعتمد بن عباد فقد كان شاعرا محبا للشعر والشعراء ، مقربا إيلهم ، وكان أندى ملوك الأندلس راحة ، وكان بلاطه ملتقى الرجـــال ، ومحـــط رحال الأدباء والشعراء ، فاجتمع له منهم مالم يجتمع في بلاط أحد من حكـــام الأندلس . يقول الدكتور عبد الوهاب عزام : " كان المعتمد شاعرا مجيدا رقيق الطبع مرهف الحس يعرب بالشعر عن عواطفه ويسجل به خواطره في فرحـــه وترحه ، وجده وهزله . كان هو شاعرا ، والرميكية أم أولاده شاعرة ، وكـان بنوه شعراء ، ومنهم من ترجم له بين أدباء الأندلس ، وكانت بنته بثينة شاعرة ذكرت في الشواعر الأندلسيات "[1]. ولذلك غص بلاطه بالعديد من الشـــعراء البارزين في عصره ، ومن أهمهم : الشاعر الأندلسي الكبير : أبو الوليد ابـــن زيدون المتوفى عام ٤٦٣ هـــ الذى وزر له ولأبيه ومدحهما بعديد من قصـائده ، وللمعتمد معه مطارحات شعرية كثيرة ، ومنهم الشاعر : عبد الجليـــل بـــن وهبون ، وكان من أهل مدينة مرسية ، ومنهم شاعره أبو بكر الداني المعـــروف بابن اللبانة وله شعر كثير في مدح المعتمد أيام ملكه وفي رثاء دولته بعد أسره ، ثم في رثاء المعتمد نفسه بعد وفاته ، وقد وفى الشاعر لملكه بعد نكبته ورحـــل إليه في سجنه في المغرب أكثر من مرة ، ووضع كتابا في دولة بني عباد اسمــه " الاعتماد في أخبار بني عباد " ، كما ألف كتابا في أخبارهم بعد نكبته سمـــاه " نظم السلوك في مواعظ الملوك " .

ومن شعراء بلاط المعتمد بن عباد الشاعر الكبير عبد الجبار بن حمديـــس

١ - المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ ـ دار المعارف ١٩٥٩ م.ص ١٨ .

الصقلي الذى مدحه بالعديد من قصائده ، وزاره مرة في سجنه بأغمات ولكنه لم يتمكن من رؤيته ، ومن شعراء المعتمد أيضا وزيره وصديقه ابن عمار ، والشاعر أبو بحر بن عبد الصمد الذى أكثر من مديح المعتمد في حياته ، ورثاه بعد وفاته ، وأنشد على قبره بعد دفنه قصيدة باكية ومرغ وجهه في التراب بجوار قبره فأبكى الحاضرين ، ومن شعرائه أيضا ابن القزاز محمد بن عبادة ، وأبو الوليد المصيصي .. وغير هؤلاء كثيرين وفدوا عليه ، ونعموا بعطائه ، وأشادوا به وبدولته •

" وعلى الجملة فكانت دولة بنى عباد بالأندلس من أبهج الدول في الكرم والفضل والأدب ، حتى قال ابن اللبانة - رحمه الله تعالى - إن الدولة العبادية بالأندلس أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد سعة مكارم ، وجمع فضائل ، ولذلك ألف فيها كتابا مستقلا سماه " الاعتماد في أخبار بنى عباد "[1]

هذا مختصر عن عصر الشاعر المعتمد بن عباد الذى كان له دور بارز في تشكيل أحداثه ، وشكل الحياة فيه سواء في الجانب السياسي بقيادته لدولة من أهم وأكبر دول الطوائف في عصره ، وبقيادته للجيوش المدافعة عن الإسلام والمسلمين في الأندلس كلها ضد أعدائهم من الفرنجة ، وبحروبه مع جيرانه من دول الطوائف ، أو في الجانب الثقافي والأدبي بفنه وشعره الذى بلغ درجة من الجودة والإتقان جعلته من كبار شعراء الأندلس ، وبتشجيعه وعطاياه السخية للشعراء الذين وفدوا عليه ، والتى جعلت بلاطه منتجعا أدبيا يفد إليه كل

---

١ - نفح الطيب ٤/٢٥٥ .

صاحب تفوق ونبوغ في مجال الأدب والفن ، وبذوقه العربي الخالص الذى مكنه من تذوق الشعر ومشاركة الشعراء أدبهم ونقدهم .

ب ـ الشاعر وشعره :

نسبه ونشأته :

هو المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد أبي عمرو عباد بن القاضى أبي القاسم إسماعيل بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف ابن نعيم . ونعيم وعطاف هما الداخلان منهم بالأندلس .

ملك مجيد ، وأديب على الحقيقة مجيد ، وهمام تحلى به لبة وللنظم جيد .[1]

ولد في ربيع الأول من سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة [2] في مدينة باجة، وقيل إنه ولد في سنة ٤٣٢ هـ [3] . ومدينة باجة إحدى مدن غرب الأندلس قرب أشبيلية ولذلك ذكر البعض أنه ولد في إشبيلية وليس في باجة [4] . والده هو الخليفة المعتضد الذى ملك دولة بنى عباد في غرة جمادى الأولى سنة ٤٣٣هـ بعد وفاة أبيه محمد بن إسماعيل القاضى وتوفي يوم السبت الثانى من جمادى الآخرة سنة ٤٦١ هـ [5] ، وأسرة بنى عباد من ولد النعمان بن المنذر

---

١ - نفح الطيب ٤ / ٢٤٥ ، المطرب من أشعار أهل المغرب ١٤ .
٢ - الذخيرة لابن بسام ـ ق٢ / م١ ص٥٧ .
٣ - تاريخ الأدب العربي ـ د / عمر فروخ ٤ / ٧١٣ .
٤ - مقدمة ديوان المعتمد بن عباد بقلم رضا الحبيب السويسي ـ ص٦ .
٥ - انظر: الحلة السيراء ٢/٤١ .

اللخمي آخر ملوك الحيرة . وذكر بعض المؤرخين أن نعيما وابنه عطافا أول من دخل منهم الأندلس وهما من أهل العريش المدينة القديمة الفاصلة بين الشام والديار المصرية في أول الرملة من جهة الشام ، وأقاما بالأندلس بقرية قرب يومين من إقليم طشانة من أرض أشبيلية .[1] وقد نشأ المعتمد أميرا حاول أبوه أن يدربه على الحكم ، وقيادة الجيوش وهو في سن صغيرة . ويمكن تقسيم حياته الأدبية والسياسية إلى ثلاثة أدوار كالتالي :

١ - دور النشأة والشباب : وكان فيها أميرا يتبع اللهو ، ويغشى مجالس الأنس بجانب تعليمه وتدريبه على قيادة الجيوش ، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره عينه أبوه واليا على مدينة (أونبة) وأسند إليه بعد ذلك قيادة الجيش الذى حاصر مدينة (شلب). وبهذه المدينة عرف المعتمد هذا المغامر الذي يكبره بتسع سنوات ، وكان له تأثير كبير في حياته وهو محمد بن عمار المكنى بأبي بكره وكان من علماء مدينة (شلب) ومتأدبيها .[2] وكان ابن عمار يجول مدن الأندلس مكتسبا بشعره حتى وصل إلى أشبيلية ومدح المعتضد بقصيدته الشهيرة التى أولها :[3]

أدرِ الزجاجةَ فالنسيمُ قد انبرى ... والنجمُ قدْ صرفَ العنانَ عن السُّرى
والصبحُ قد أهدَى لنا كافورَهُ ... لما استردَّ الليلُ منا العنبَرا

---

١ - انظر: وفيات الأعيان ٢٧٤/٤ وانظر: الأعلام للزركلى ١٨١/٦ .
٢ - انظر: الحلة السيراء ١٣١/٢ وما بعدها . وانظر : المطرب من أشعار المغرب ١٦٩ .
٣ - القصيدة في كتاب : المطرب من أشعار أهل المغرب ١٦٩ وما بعدها .

واستحسن منه المعتضد هذه القصيدة فأمر له بمال وثياب ومركب . وأن يكتب اسمه في ديوان الشعراء فكان كذلك ، وأتاح له ذلك فرصة الاتصال بابنه المعتمد وهو شاب نزاع إلى الأدب والشعر وتوثقت صداقتهما ، فلما ولى المعتمد حكم مدينة شلب استوزر ابن عمار وأولاه ثقته ووكل إليه أموره وقربه إلى نفسه أشد تقريب وكان يصحبه في غدواته وروحاته .

ومكث المعتمد في شلب خمس سنوات وحينما رأى المعتضد أن ابن عمار متعطش إلى اللهو والمتعة ويزين لولده الإسراف في اللهو والمرح ، وأن الأقاويل قد تناثرت عنهما ، وكثرت ، استدعى ولده إلى إشبيلية ، ونفى ابن عمار إلى أقاصي الأندلس .وظل ابن عمار مغتربا في منفاه حتى توفي المعتضد .

٢ - دور الرجولة : وذلك حينما بدأوالده يعهد إليه بقيادة الحملات الحربية واصبح بعد ذلك ملكا لدولة بنى عباد ، وفى مطلع هذا الدور التقى المعتمد بجاريته التى تزوجها (اعتماد) المعروفة بالرميكية ، وقد أنجب منها جميع أولاده العشرة .

وقيل أن أول علاقته بها أنه ركب النهر ومعه وزيره ابن عمار وقد زردت الريح النهر فقال لابن عمار : أجز :

صَنَعَ الريحُ من الماءِ زَرَدْ

فأطال ابن عمار الفكرة،فقالت امرأة من الغسالات :

أيّ درعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ، ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة فأعجبته فسألها : أذات زوج هي ؟ قالت : لا. فتزوجها وولدت له أولاده الملوك النجباء .[1]

ولما خلف المعتمد أباه في حكم دولة بني عباد سنة ٤٦١ هـ بادر إلى استدعاء صديقه المنفي وسأله أن يختار المنصب الذى يرتضيه فاختار ابن عمار أن يكون والى المنطقة التى ولد ونشأ في نواحيها : شلب.ورغم أسف المعتمد على أن يكون هذا الصديق العزيز عليه بعيدا عنه فإنه رأى أن يضحى برغبته في قربه منه بالاستجابة لطلبه .

على أن المعتمد لم يطق صبرا على فراق صديقه الشاعر فما لبث أن استدعاه واختاره كبير وزرائه ، ولم يمنع المعتمد انشغال وزيره الشاعر بسياسة الدولة ، وحمله أعباء الحكم من استدعائه من حين لحين إلى مجالس لهوه ، وإشراكه معه في سويعات أنسه وطربه .

وقد جعل المعتمد من بلاطه أثناء حكمه لدولته مركزا للعلم والأدب ، يغص بمشاهير الشعراء والأدباء في عصره . يقول ابن الأبار في وصفه لسنوات حكمه :[2]

"وكان المعتمد من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين عفيف السيف والذيل ، مخالفا لأبيه في القهر والسفك ،

١ - انظر:نفح الطيب ٢١١/٤ .
٢ - الحلة السيراء ٥٤/٢

والأخذ بأدنى سعاية • رد جماعة ممن نفى أبوه ، وسكن وما نفـــر ، وأحســـن السيرة ، وملك فأسجح . إلا أنه كان مولعا بالخمر منغمســــا في اللـــذات ، عاكفا على البطالة ، مخلدا إلى الراحة ، فكان ذلك ســـــبب عطبــه وأصـــل هلاكه" •

ويقول المقرى واصفا حاله أثناء ملكه : [١]

" ملك قمع العدا ، وجمع البأس والندى ، وطلع على الدنيا بدر هدى ، لم يتعطل يوما كفه ولا بنانه ، آونة يراعه وآونة سنانه ، وكانت أيامه مواســم ، وثغوره بواسم ، ولياليه كلها دررا ، وللزمان جحولا وغررا ، لم يغفلها مـــن سمات عوارف ، ولم يضحها من ظل إيناس وارف ، ولا عطلها من مأثرة بقـــي أثرها باديا ، ولقى معتفيه منها إلى الفضل هاديا ، وكانت حضرتـــه مطمحـــا للهمم ، ومسرحا لآمال الأمم ، ومقذفا لكل كمى ، وموقفا لكل ذى أنف حمى ، لم تخل من وفد ، ولم يصح جوها من انسجام رفد ، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكماة ، ومشاهير الحماة أعداد يغص بهم الفضاء ، وأنجاد يزهى بهم النفـــوذ والمضاء ، وطلع في سمائه كل نجم متقد ، وكل ذى فهم منتقـــد ، فـــأصبحت حضرته ميدانا لرهان الأذهان ، ومضمارا لإحراز الخصل ، في كل معنى وفصل ... فأصبح عصره أجمل عصر ، وغدا مصره أكمل مصـــر ، تســفح فيــه ديم الكرم، ويفصح فيه لسانا سيف وقلم ويفصح الرضى في وصفه أيام ذى ســـلم • وكان قومه وبنوه لتلك الحلبة زينا ، ولتلك الجملة عينا ، إن ركبوا خلـــت

---

١ - نفح الطيب ٤ / ٢٤٨ .

الأرض فلكا يحمل نجوما ، وإن وهبوا رأيت الغمائم سجوما ، وإن أقدموا أحجم عنترة العبسي وإن فخروا أفحم عرابة الأوسى " .

وقد أطلت الأخذ لما رأيت أن هذا الكلام يعطى أدق وصف للمعتمد ولبلاطه في فترة ملكه ، ويبين فضله في التمكين لدولة بني عباد ، وشدة تأثيره في أحداث عصره ، وقد دام ملكه ثلاثا وعشرين سنة حتى خلع وسجن بأغمات سنة ٤٨٤ هـ [١]

٣ - دور السجن : وذلك بعد أن عاد النزاع بين ملوك الطوائف ورأى يوسف بن تاشفين أن يستولى على الأندلس ، ويقضي على هؤلاء الملوك المتنازعين الذين لا رابطة بينهم ، ولا يستطيعون بهذا الوضع أن يقفوا في وجه الأسبان المسيحيين فعزم على القضاء عليهم ، وضم الأندلس إلى دولته بالمغرب، فخلع المعتمد وقضى على ملكه وحمله أسيرا إلى حصن أغمات بالمغرب هو وأفراد أسرته عدا ابنه عبد الجبار الذى تخفى حين أُسر أبوه حتى جاءت سنة ٤٨٦ هـ فخرج من مخبأه ، وثار على المرابطين حتى قتل ، وتوفيت أمه الرميكية بعده بمدة يسيرة ، ثم توفي المعتمد في سجنه سنة ٤٨٨هـ [٢]
وسوف نبين فيما بعد كيفية أسره والقضاء على دولته وحمله إلى أغمات .

معالم شخصيته :

ينتسب المعتمد إلى أسرة بني عباد التى تنتسب إلى النعمان بن المنذر

---

١ - انظر: المرجع السابق ٢١٨/٤ ، ٢٢٧ .
٢ - انظر: تاريخ الأدب العربي - عمرو فروخ ٤ / ٧١٣ وما بعدها ، وانظر : ظهر الإسلام - أحمد أمين ١٧١/٣ : ١٧٦ .

اللخمى آخر ملوك الحيرة الملقب بماء السماء ، وقد عرفت أسرة بني عباد بالشجاعة والعفة ، والأدب ، والكرم ، وعلو الهمة ، وقد أكثر النقاد والمؤرخون من الحديث عن صفات المعتمد وبيان مناقبه ، ومن ذلك قول ابن الأثير :[1]

" وكان من محاسن الدنيا كرما وعلما ، وشجاعة ورياسة تامة ، وأخباره مشهورة ، وآثاره مدونة ، وله أشعار حسنة " .

ويقول عنه عبد الواحد المراكشي :[2]

" ....وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب ، وما يتعلق به وينضم إليه . وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتيه مالا يحصى كالشجاعة ، والسخاء ، والحياء ، والنزاهة إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة . وفي الجملة فلا أعلم خصلة تحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم ، أو ضرب له فيها بأوفى سهم ، وإذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها " .

وجاء في مقدمة ديوان المعتمد :[3]

" وكان المعتمد وثيق الشبه بأبيه لا يختلف عنه في شيء إلا أنه كان دون أبيه شدة وعنفا . أما ما سوى هذا فكلاهما كان صورة لأمير عظيم من أمراء

١- الكامل في التاريخ ١٧٧/٨ .
٢ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ تحقيق : محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمى ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٤٩ م ص ١٠١ .
٣ - تحقيق : أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ـ مطبعة دار الكتب بالقاهرة ط٢ /١٩٩٧ م.ص٣ .

الفروسية . قد امتاز بالبأس والشجاعة ، وشدة الشكيمة ، وكلاهما قد اتصف بالسخاء ، والجود وسبوطة البنان ، وحسن الصنيع ، وكلاهما اشتهر بالقريض وحسن النظم ، والحدب على أهل الأدب ".

ويقول الدكتور على أدهم : [١] "وكان المعتمد على فضله وسمو أدبه ، وعلو ثقافته ، وما أوتى من الأريحية والكرم والشجاعة لا يخلو من العيوب التى كانت فاشية في عصره ، وقد كان لإسرافه في الإنفاق على ندمائه وشعرائه ، وتماديه في طلب المتعة وقع سيء في نفوس رعيته أوسع المجال لكثير من القيل والقال " .

ومما يؤيد كلام الدكتور على أدهم السابق ما ذكره ابن دحية من أن المعتمد " خلع عن ثمانمائة امرأة أمهات أولاد جوارى متعة ، وإماء تصرف[٢] " .

هذه بعض معالم شخصية المعتمد بن عباد، وأهم ما كان يتصف به في حياته.وسوف نتعرف على المزيد من معالم هذه الشخصية في ذكرنا لأهم أراء النقاد والمؤرخين فيه .

شعر المعتمد :

كان المعتمد بن عباد شاعرا من أسرة من الشعراء كان هو أشعرهم، بل كان من كبار شعراء الأندلس قاطبة . وقد اجتمع في بلاطه من الشعراء

---

١ - المعتمد بن عباد ١٤٠.
٢ - المطرب من أشعار أهل المغرب - ص ١٤ -

والعلماء ما لم يجتمع مثله في بلاط أحد من ملوك الأندلس ـ كما سبق أن ذكرنا.وقد عرف عنه أنه لم يكن يستوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا أو شاعرا ـ كما ذكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ـ[١] كما كان المعتمد ناقدا للشعر عارفا به وبرجاله •

وقد تجمعت للمعتمد أسباب كثيرة ألهبت عواطفه على اختلاف أنواعها : فهو محب شريب تلعب به عواطف الحب ثم تلهبها الخمر . وهو ملك يعتز بملكه يتيه به فيمدحه الشعراء ويثيرون فيه عواطف المجد والفخر • ثم يفقد ابنا له أميرا يثور عليه ابن عكاشة فيقتله ، ثم يفقد ولدين آخرين في حربه ضد ابن تاشفين • وكان أولاده الثلاثة من الشباب الأماجد فتثور عنده عاطفة الحزن. وأخيرا يذهب عنه عزه وسلطانه وجاهه ، ويزج به في الأسر فيذل بعد العزة ويهون بعد العلو . ويفتقر بعد الغنى وتنقلب حاله من جميع النواحي من الحسن إلى الأسوأ فتعز عليه نفسه وأسرته كلما تأمل ما حدث لها فيرثى لها ويبكى عليها بكاء مرا كل هذه الأسباب أنطقته بالشعر المعبر بقوة وصدق[٢] •

وجاء شعر المعتمد صورة لحياته وحياة أسرته خاصة • فلم يتملق بمديح ، ولم يتزلف لسلطان ، وإنما قصر شعره على نفسه وعلى أسرته والمقربين إليه من الأهل والخلان.ويستطيع من يقرأ شعره أن يلحظ فترات حياته مصورة فيه • فهو ظل لها ومعبر عنها." إن كان في لهو وعزه فشعره عزة ولهو ، وإن ملت بعض أولاده فشعره رثاء وحنين ، وإن وقف فارسا في موقف البطولة فشعره

١ - تاريخ آداب العرب ٣ / ٢٨٠ •
٢ - ظهر الإسلام ـ أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية ٣ / ١٧١ بتصرف .

بطولة ، وإن أسر وسجن فشعره بكاء وحزن وذكر لماض: وكلها أدب صادق حي ...... فإن رأيت غزلا هادئا وحبا صادقا فذلك في الفـــترة الأولى .... وإذا رأيت شعره فخرا وشمما مملوءا حماسة أورثاء فذلك في الفترة الثانية • وإذا رأيت بكاء على الماضي ومقارنة بين ماض زاهر وحاضر يائس فاعلم أن هـــذا ظل للفترة الثالثة "[١].

وعلى هذا يمكن تقسيم أغراض شعر المعتمد بن عبـــاد علـــى حســـب مراحل حياة الشاعر إلى ثلاث مجموعات • كما انقسمت حياتـــه إلى ثـــلاث مراحل : " وهي حياة الأمير ، فالملك ، فالأسر • وتحتوى الأولى على شـــعر اللهو والخمر فتضم الغزل ، والخمريات ، والوصف • وشـــعر المناســـبات : كشعره الموجه إلى أبيه يلتمس به حاجة ، أو يشكر نعمته عليـــه ، أو يســـأله رحمته لما اقترفت يداه •

ونجد في المرحله الثانيه شعره الرسمى وشعر الرسميات إن صح التعبـــير : فكان بالأول قطع الفخر ، والرثاء ، والألغاز ، والمطـــيرات والمطارحـــات . وكان بالثانى المراسلات . وقد جاء معها قطع مختلفة الأغراض والمواضيـــع . ويلحظ أن الأغراض الجادة قد قلت في شعره في هاتين المرحلتين وسادت فيـــه الأغراض المرحه • والسبب في ذلك يعود إلى طيب الحيـــاة ورغـــد العيـــش والسعادة الدائمة التى كان ينعم بها المعتمد في هاتين المرحلتين من حياته •

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فقد سادتها نبرات الحزن والتفجع والكآبـــة

---

١ - ظهر الإسلام ١٧٧/٣ : ١٧٩ .

والتوجع حيث لا نجد فيها إلا ما قاله وهو في منفاه بسجنه بأغمات • وإن كانت هذه الفترة قصيرة من حيث الزمن فإنها كانت طويلة من حيث الإنتاج. ولا يغرب إذا ما انفجر إلهام الشاعر، واتقدت قريحته إثر المآسى والآلام "(١).

وهذه وقفات قصيرة مع أغراض شعر المعتمد في حياته قبل الأسر(٢):

١ - الغزل :

كان الغزل أهم أغراض شعر المعتمد في عهدى الإمارة والملك. وقد بلغ عدد مقطوعاته وقصائده الغزليه في ديوانه في هاتين المرحلتين من حياته ثمانى وخمسين قصيدة ومقطوعة • وجاءت كلها في شكل مقطوعات شعرية عدا قصيدتين قصيرتين • إحداهما قصيدته الرائية المرفوعة المجرى والمبدوءة بقوله:(٣)

القلبُ قد لجَّ فيما يقصُرُ   والوجدُ قد جلَّ فيما يسْتُرُ

وبلغت خمسة عشر بيتا ، والثانية قصيدته الرائية أيضا المكسورة المجرى والتى قالها في الحنين إلى مدينة شلب ، وتذكره لهيامه القديم بها حينما كان يودع وزيره وصديقه ابن عمار في بداية ولايته عليها • وقد بدأها بقوله :(٤)

أَلَا حَيِّ أوطانى بشلبٍ أبا بكرِ
وسلْهُن : هلْ عهدُ الوصال كما أدرى

---

١ - مقدمة ديوان المعتمد بن عباد بقلم / رضا الحبيب السويسي ١٤ وانظر : تاريخ الأدب العربي - عمر فروخ ٤/ ٧١٥ -

٢ - انظر في الحديث عن أغراض شعر المعتمد وسماته : مقدمة ديوانه بقلم د / حامد عبد المجيد ، د/ أحمد بدوى - ص ١٧ : ٣٢ -

٣ - الديوان - تحقيق : أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ص ١٦ -

٤ - الديوان - ١٦ .

وبلغت تسعة أبيات •

والحق أن شعر المعتمد قبل الأسر جاء في أغلبه مقطوعات قصيرة لا تتجاوز أحيانا البيت الواحد ، وأكثرها يشتمل على بيتين أو ثلاثة على الأكثر • وقد يعذر المعتمد في ذلك بأنه ليس بشاعر محترف وإن كان أحيانا ينشد الجميل الجيد الذى يعجز عن مثله أبرع الشعراء وأمهرهم •

وكان غزله كله غزلا حقيقيا يتحدث فيه عن عواطف صادقة وصفها في أحواله المختلفة مع من يحب،فتحدث عن علاقته بمحبوبته في حال الرضا والغضب ، وفي القرب والبعد ، وفي الوصل والهجر • غير أنه لم يوقف غزله على امرأة واحدة بل تغزل في جواريه وزوجاته •وقد ذكر منهن في غزله : زوجته اعتماد الرميكية •وكانت أحب نسائه إليه وأم أولاده • ومنهن جوهرة ، وقمر ، ووداد ، وسِحْر .

ومن غزله قوله في جوهرة : [1]

سُرُورُنا دونكُمْ ناقصُ ... والطِّيبُ لا صافٍ ولا خالصُ
والسعدُ إن طالعَنَا نجمُهُ ... وغبتِ فهو الآفلُ الناكصُ
سمّوكِ بالجوهرِ مظلومةً ... مثلكِ لا يُدرِكُه غائصُ

ويقول في زوجته اعتماد : [2]

بكرتْ تلومُ وفي الفؤادِ بلابلُ ... سَفَهًا وهل يثنى الحليمَ الجاهلُ

١ - الديوان ١٩ •
٢ - الديوان ٢٣ •

يا هذه كفّي فإني عاشق ... من لا يرد هواي عنها عاذلُ
حبّ اعتماد في الجوانح ساكنٌ ... لا القلبُ ضاقَ به ولا هو راحلُ
يا ظبيةً سلبتْ فؤادَ محمدٍ ... أو لم يروّعك الهزبرُ الباسلُ
مَن شكّ أنّي هائمٌ بك مغرمٌ ... فعلى هواكِ له عليَّ دلائلُ

ويسجل المعتمد في غزله ما كان يظفر به من متع حسية مع من يهوى ، ومن ذلك قوله في تذكر عهده بشلب ولهوه في لياليه بها : [1]

وكم ليلةٍ قد بتّ أنعمُ جنحَها ... بمخصَبةِ الأرداف مجدبةِ الخصر
وبيضٍ وسمرٍ فاعلاتٍ بمهجتي ... فعالَ الصفاح البيضِ والأسلِ السمر
وليلٍ بسدّ النهرِ لهوًا قطعتُه ... بذات سوارٍ مثل منعطفِ النّهر
نَضَتْ بردَها عن غصن بانٍ منعّمٍ ... نضيرٍ كما انشق الكمامُ عن الزهر
وباتت تسقّيني المدامَ بلحظِها ... فمن كأسها حينًا وحينًا من الثغر

ولا نحس في غزل المعتمد لوعة ولا حرمانا ، لأن ميدان حبه كان جواريه ، وحظاياه ، وهؤلاء كن قريبات منه مطيعات له ، وإذا هجرنه فسرعان ما يعقب الهجر وصال ، وإذا وقع خصام فلا يلبث أن يقطعه صلح ورضا .

٢ - الفخر :

أكثر المعتمد من الفخر بنفسه وبأسرته وشعره . ولكن يلاحظ أن

---

١ - الديوان ١٢ .

فخره لم يأت في قصائد أو مقطوعات مستقلة إلا نادرا كتلك المقطوعة التي قالها بعد فتح قرطبة ، والتي بدأها بقوله : [١]

مَنْ للملوكِ بشأوِ الأصيدِ البطلِ   هيهاتَ جاءتكم مهديةُ الدُّولِ
خطبتُ قرطبةَ الحسناءَ إذ منعَتْ   مَنْ جاء يخطبُها بالبيضِ والأَسَلِ

ومنها تلك المقطوعة التي يفخر فيها بجوده وكرمه ، والمبدوءة بقوله: [٢]

الجودُ أحلى على قلبي من الظَفَرِ   ومن منال قصيِّ السؤلِ والوطَرِ
ومن غناءِ أُرَيْوَى في الصَّبُوحِ لنَدَ   يا طلعةَ الشمسِ في الآصالِ والبكَرِ

ومعظم فخره جاء منثورا في ثنايا شعره في الأغراض الأخرى وخاصة في شعره إلى والده مديحا أو استعطافا واعتذارا .

وله في أسره فخر قوى،وسوف نقف عنده في موضعه من البحث إن شاء الله .

٣ - المديح :

لم يمدح المعتمد أحدا بشعره غير والده المعتضد . وفي مدحه له يرفعه إلى التفرد بالمجد والسيادة . ويسبغ عليه صفات تدل على ماكان يحمله المعتمد لوالده من إجلال وإكبار .

---

١ - ديوان المعتمد بن عباد ٦٥ .
٢ - الديوان ٦٥ .

يقول المعتمد في مدح والده : (١)

أيا ملكاً عمَّني فضلُهُ ... ولم أُلْفِ في بحر نعماه زجوَا
عهدنا البحارَ لجزرٍ ومدٍ ... وتأبى بحارُ أياديك جزْرَا
دعوْنا الأمانيَ لما رضيتَ ... فجاءت توالَى علينا وتَتْرَى
فلم يبقَ لي أملٌ أرتجيهِ ... سوى أن أقومَ بنعماك شكْرَا
بقيتَ ولا مَلِكٌ إلا وقد ... غدا ملكَ كفِّكَ قهراَ وقسْرَا

وقد يمزج المعتمد مدحه لوالده بشكره إياه على كثرة نعمه عليه كقوله(٢) :

يا متبعَ الأكرام إنعامَا ... ومتبعَ الإنعام إتمامَا
وعادلاً في الناس لكنَّه ... أصبحَ للأموال ظلاَّمَا
قرنتَ في كفك بحرَ الندى ... بصارمٍ أسكنْتَه الهامَا
أثقلتَ بالإنعام ظهري فقد ... أُفْحِمتُ عن شكرك إفحامَا
فاسلَمْ لإهراقِ دماءِ العدا ... ما طرَّد الإصباحُ إظلامَا

٤- الرثاء :

لم يرث المعتمد بشعره غير أبنائه الذين قتلوا وهم يدافعون عن مدنهم ودولتهم • وفي بعضها يرى أن من الواجب عليه أن يحزن ، ومن الغدر ألا

١ - الديوان ٤٠ .
٢ - الديوان ٤٢ .

يفيض جفنه عليهم بالدمع المدرار ، وأنه أحق بالبكاء من تلك القمرية التي رآها تبكي لفقد إلفها .[١]

ولم يقل في في رثاء أحد من أولاده شعرا قبل أسره غير مقطوعة واحدة يرثي فيه ابنه سعدا يقول فيها :[٢]

إذا كانَ قد أودَى الزمانُ بمثلِهِ ... ولم يبقَ في عَوْدٍ له طَمَعٌ بعدُ
فلا بترَت بُتْرٌ ولا قُنيت قَنًا ... ولا زأرَتْ أُسْدٌ ولا صَهَلَتْ جُرْدُ
ولا زَال ملذوعًا على سيدٍ حَشًا ... ولا انفك ملطومًا على مَلِكٍ خدُّ

أما بقية شعره في رثاء أولاده فقاله في أسره وقد وجد فيه متنفسا يعبر من خلاله عن حزنه وأساه ووجد في الجزع عليهم تعبيرا عن يأسه وتبديد أحلامه ، وسوف نعرض لهذا الأمر بشيء من الوضوح في الفصلين التاليين إن شاء الله .

٥ ـ الوصف :

لم يتعرض المعتمد لوصف الطبيعة إلا يسيرا رغم عشق الأندلسيين عموما للطبيعة ، ويحتمل أن تكون كثرة مشاغله في مرحلتي الإمارة والملك حالت بينه وبين الاستمتاع بالطبيعة والتجول بين جنباتها ، وطبيعي أن ينشغل بهمومه وحزنه وآلامه في أسره عن الطبيعة ومجاليها .

---
١ - انظر الديوان ص ٦٨ وما بعدها .
٢ - الديوان ٦٨ .

ومن وصفه للطبيعة وصفه للبدر الذى كان يساهره وهو يتمتع بشـرب الراح فيقول : [١]

ولقد شربتُ الراحَ يسطع نورُها ... والليلُ قد مدَّ الظلامَ رداءَ
حتى تبدَّى البدرُ في جوزائه ... مَلِكاً تناهَى بهجةً وبهاءَ
لما أراد تنزُّهاً في غَرْبِه ... جعل المظلَّةَ فوقه الجوزاءَ
وتناهضتْ زهرُ النجوم يحفُّه ... لألاؤها فاستكملَ اللألاءَ
وترى الكواكبَ كالمواكبِ حولَه ... رفعت ثريَّاها عليه لواءَ

ومن وصفه للشمعةَ التى شاركته سمره وهو يشرب الخمر ، وقد رأى في نورها ولهبها شبها بجمال ساقيه ونار غرامه : فيقول : [٢]

وشمعةٍ تنفي ظلامَ الدجَى ... نفيَ يدى العدمَ عن الناسِ
ساهرتُها والكأسُ يسقى بها ... من ريقه أشهَى من الكاسِ
ضياؤُها - لا شكَّ - من وجهِه ... وحرُّها من حر أنفاسي

ووصف المعتمد الخمر مرات عديدةً في شعره ، ولكنه وقف في وصفها عند الأوصاف المرئية الحسية ، ولم يتعرض لوصف أثرها فى نفسه ، ومن ذلك قوله : [٣]

لو زرتَنا لرأيتَ ما لم تعهدِ ... ذوبَ اللُّجين خليطَ ذوب العسجدِ

١ - الديوان ٢٨ .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد ٣٠ .
٣ - الديوان ١١ .

نطفٌ يجمّلها فقـــاقعُ منه ما جمدتْ لتحـــفظ جسمَ مالم يجمُدِ

ووصف ابن عباد المجن حينما طلب منه أبوه أن يصفه ، وكان لازوردى اللون مطوقا بالذهب فى وسطه مسامير مذهبة ، وفيه كواكب فضـــةَ ، وقـــد وصفه المعتمد رابطا - في براعة - بين منظر المجن وقد أصبح يحكى السماء بمـــا رسم عليه من نجوم ، وبين بُعد أن تناله الرماح فقال : [١]

مجنٌّ حكى صـــانعوه الســـماءَ لتقصرَ عنـــه طـــوالُ الرمـــاحِ
وقد صوَّرُوا فيه شـــبهَ الثريّـــا كواكبَ تقضى لـــه بالنّجـــاحِ
وقد طوّقُـــوه بذوبِ النضار كما جللَ الأفقَ ضـــوءُ الصباحِ

٦ - **الاعتذار والاستعطاف :**

توجه المعتمد بشعره في الاعتذار والاستعطاف إلى والده وذلك بعـــد أن أخفق هو وأخوه جابر في فتح (مالقة) وكان المعتضد قد أرسلهما علـــى رأس جيش لفتح (مالقة) وضمها إلى ملك دولة بنى عباد - وكانت تحـــت إمـــرة باديس الصنهاجي - وبعد أن تم فتحها عاد باديس فانتزعها منـــهما واضطـــر المعتمد وأخوه إلى الفرار إلى رندة.وقد أثارت هذه الهزيمة غضب المعتضد علـــى ابنيه فظل المعتمد يستعطف أباه ويعتذر إليه عما فرط منه ويطلب عفوه بعـــدد من القصائد والمقطوعات ، منها قصيدته الرائية التى تعتبر أطـــول قصيـــدة في ديوان المعتمد ، بدأها بالحديث إلى نفسه يطلب منها أن قمدأ إذ لا فـــائدة في البكاء ، ولا خير في الحزن والألم ما دام القدر قد عاق عن بلوغ الأمل : [٢]

---

١ - الديوان ٢٩ -
٢ - القصيدة بديوان المعتمد ص ٣٦ . ٢

سكّنْ فؤادَك لا تذهبْ بك الفِكَـرُ ماذا يعيدُ عليك البـثُّ والحَـذَرُ
وازجُرْ جفونَك لا ترضَى البكاءَ لهـا واصبرْ فقد كنتَ عند الخطب تصطَبِرُ
وإن يكنْ قَـدَرٌ قد عاقَ عن وَطَرٍ فلا مردَّ لِـما يأتـى بـه القَدَرُ

ثم ينتقل إلى مدح والده مدحا قويا رائعا فيقول :

سميذَعٌ يهبُ الآلافَ مبتدئـاً ويستقلُّ عطايـاهُ ويعتـذِرُ
له يَدٌ كلُّ جبـارٍ يقبِّلُها لولا نداها لقلـنا إنها الحَجَرُ

ويمزج مدحه لأبيه بالاعتذار إليه طالبا منه أن يبقي عليه ولا يوهنـه ، فهو عدته في حوادث الدهر ، وهو له الناب والظفر وقت الشدة :

يا ضيغماً يقتلُ الفرسانَ مفترسـاً لاتوهِنَنّي فـإني النـابُ والظُفُـرُ
وفارساً تحذرُ الأبطـالُ صولتَـه صنْ عبدَك القِنَّ فهوالصارمُ الذَّكَـرُ
قد أخلقتنى صروفٌ أنت تعلمُـها وغالَ مـوردَ آمـالي بها كَـدَرُ
فالنفسُ جازعةٌ والعـينُ دامعـةٌ والصوتُ منخفضٌ والطَّرفُ منكسِـرُ
وحِلتُ لوناً وما بالجسم من سَقَمٍ وشبتُ رأساً ولم يبلغنى الكِـبَرُ

٧ _ التهكم والسخرية :

للمعتمد قصيدتان في التهكم والسخرية ، رد بأولهما على ابـن عمـار عندما طمع في الاستئثار ببلنسية التى أرسله المعتمد واليا عليها ، وكتب لـه شعرا يفخر فيه بمجده ومجد أسرته ، فرد عليه المعتمد بقصيدته يعـرض بـه

وبآبائه ، ويذكر نشأتهم ويسخر منه ومن قومه في أسلوب تهكمي لاذع قائلا :[١]

الأكثرونَ مسوَّداً وممَلَّكا ... ومتوَّجا في سالف الأعصارِ
المكثرين من البكاء لنارِهِمْ ... لا يوقِدُون بغيرِه للسارِي
المؤثرين على العيالِ بزادِهِم ... والضاربينَ لهامةِ الجبارِ
الناصفينَ من المُهودِ إلى العُلا ... والمنهضين الغارَ بعد الغارِ
إن كوثِرُوا كانوا الحَصَى أو فاخَرُوا ... فمن الأكاسِرِ من بني الأحْرارِ

أما القصيدة الثانية فبعث بها المعتمد إلى ابنه الراضي عندما أرسل إليه يأمره بالخروج لمحاربة عدو هاجم (لورقة) فأظهر الراضي التمارض ، وانصرف إلى المطالعة ، فغضب المعتمد حينا ثم عطف على ابنه وكتب إليه مازحا وساخرا :[٢]

المُلكُ في طيِّ الدفاترْ ... فتخلَّ عن قودِ العساكرْ
طُفْ بالسَّرير مسلِّماً ... وارجعْ لتوديعِ المنابرْ
وازحفْ إلى جيشِ المعا ... رفِ تقهرِ الحبرَ المغامِرْ
واطعَنْ بأطرافِ اليرا ... عِ - نصرتَ - في ثغرِ المحابِرْ

هذه أهم أغراض شعر المعتمد بن عباد قبل الأسر ، أما أغراض شعره في

١ - الديوان ٧٢ .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد ٤٦ .

الأسر فسوف نتعرف عليها في دراستنا له في الفصلين التاليين من هذا البحث إن شاء الله .

ومن قراءتنا للنماذج التي ذكرتها للأغراض الشعرية السابقة ، ولشعر المعتمد عامة نجد أنه لم يكن طويل النفس الشعري ، وأكثر شعره عبارة عن مقطوعات يبث من خلالها خوالج نفسه ولم يكن يطيل قصائده إلا إذا اضطره الموقف إلى ذلك ، كما في قصيدته الرائية التي استعطف بها أباه المعتضد حتى يعفو عنه ، ، وقد بلغت هذه القصيدة ستا وثلاثين بيتا أراد بها أن يستلين قلب والده ، وينتزع منه عفوه عليه ، أما في غير هذه المواقف فمعظم شعره مقطوعات قصيرة تعبر عن انفعال معين رأى المعتمد أن هذا القدر من الأبيات تكفي في التعبير عنه .

كما نلحظ أن شعر المعتمد عامة يمتاز بالوضوح في الألفاظ والتراكيب ، وهذا نابع عن وضوح التجربة الشعرية لدى الشاعر ، فليس في شعره غموض ولا التواء ، بل وضوح وصراحة ناتجان عن وحدة الموضوع في تجربته ، فكل مقطوعة أو قصيدة تتحدث عن خاطر أو هاجس مر بنفسه فأنشد فيه ما يوضحه ويعبر عنه .

ومن خصائص شعر المعتمد أيضا غلبة الأوزان القصيرة السريعة المطربة على شعره قبل الأسر والميل إلى البحور الطويلة التي تدل على الأناة والتأمل والخضوع والاستسلام على شعره في سنوات أسره .

ومن سماته كذلك انعدام المقدمة التقليدية في قصـــــائده والدخـــول في الموضوع مباشرة ، كما يتضح ذلك في قصائده في مدح أبيه والاعتذار إليــــه على سبيل المثال .

ومنها قلة الصناعة اللفظية في شعره ، وما جاء منها جاء طبيعيـــا غـــير متكلف ولا ممزوج وإن كان ذلك لا ينفي وجود بعـــض الألـــوان البديعيـــة المتكلفة في شعره وإن كان ذلك نادرا - كقوله إلى أبي الطيب أبي محمد المصرى يستدعيه إلى الشراب : (١)

أيها الصاحبُ الذى فارقتْ عيـــ ـــنيونفسِي منـــه السَّـــنا والسـناءَ

نحنُ في المجلس الذى يهَبُ الـــرا حةَ والمســـمعَ الغِـــنى والغنـــاءَ

نتعاطَى التى تُنسِـــى مـــن اللــذ ذة والرقـــةِ الهـــوى والهـــواءَ

فأته تلف راحــــةً ومحــــيَّـا قد أعدا لك الحيا والـــحيـــاءَ

فالجناس الناقص الملتزم يبدو متكلفا ثقيلا في هذه الأبيـــات ويذكرنـــا بلزوميات أبي العلاء المعرى.

ومن سمات شعره الدقة في اختيار الألفاظ الموحية المعبرة عما يهدف إليـه ، وسوف نعرض لهذا الأمر في دراستنا لشعره في الأسر ، ومن ذلك - علـــى سبيل المثال - تعبيره بلفظ (شخيص) في قوله مخاطبا ابنه الصغير أبا هاشم :(٢)

ذكرتُ شخيصَك ما بينها فلم يدعُنى حبّه للفرار

---

١ - الديوان ٤٩ .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد - تحقيق : أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ٤٨ .

والتى توحى بضآلة جسم ابنه في خضم هذا الهول الهائل للحرب في يـوم العروبة ، ومن ذلك تعبيره بلفظ " طفيل " في حديثه عن ابنه هذا في مقطوعـة يخاطب بها قيده في الأسر : [١]

ارحمْ طفـيلاً طائشًا لُبُّه لم يخشَ أن يأتيك مسترحِمًا [٢]

إن المعتمد بن عباد كان شاعرا أصيلا مرهف الحس مشرق الديباجـة ، وشعره يختلف عن شعر غيره من الملوك ، فإذا كنا نلاحظ - كما يقول الأستاذ على أدهم [٣] أن أشعار الملوك ليست من النسق العالى في الشعر ، وتفتقـر إلى إحكام النسج ، وشدة الأسر في الأعم الأغلب منها ، عدا اثنين مـن الملـوك الشعراء الكبار ، الملك الضليل امرىء القيس ، وعبد الله بن المعتز - فإن شـعر المعتمد يسمو على ذلك ويحتل مرتبة رفيعة في الشعر العربي ، ويعد المعتمد من كبار الشعراء الذين أنجبتهم الأندلس بما يتميز به شعره من العذوبة وصـدق التجربة ، وبما ضمنه من أحداث حياته وصور معيشته في حالتى النعيم والبؤس. "فهو سجل أمين للكثير من أخباره وحوادث حياته ، وترجمة ذاتية ممتازة،بارعة التصوير، بليغة الأداء.ونستطيع أن نتبين من خلاله أن الرجل كان ثمرة ثقافـة ناضجة ، وسليل حضارة متألقة ".[٤]

---

١ - الديوان ١١٢ .
٢ - انظر مقدمة ديوان المعتمد بقلم / حامد عبد المجيد،وأحمد بدوى ص ٣٠ ، ٣١ .
٣ - المعتمد بن عباد - سلسلة الخالدون العرب - دار القدس للطباعة والنشر - بيروت ص ٨ .
٤ - المرجع السابق ٩ ، ١٠ .

آراء النقاد والمؤرخين في المعتمد وشعره :

شهد ببراعة المعتمد وحسن شعره وجودة نظمه كثير من نقاد الأدب قديما وحديثا ، وقال المؤرخون فيه وفي أخلاقه وصفاته الأقوال الحسان ، والعبارات التي تعبر عن مكانته السامية ومترلته العالية .

يقول ابن الأبار عن أدبه : [١] " وكان له في الأدب باع وساع ، ينظم وينثر وفي أيامه نفقت سوق الأدب فتسابقوا إليه وتمافتوا عليه ... ولم يسلك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة " .

وقال عنه ابن خلكان رواية عن أحد علماء الأندلس : [٢] " أندى ملوك الأندلس راحة وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثمادا وأرفعهم عمادا : ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء، حتى أنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنابه"-

وقال ابن بسام عن شعره : [٣] " ... كان متمسكا من الأدب بسبب ، وضاربا في العلم بسهم ، وله شعر كما انشق الكمام عن الزهر ، لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة ، واتخذه بضاعة لكان رائقا معجبا ونادرا مستغربا" .

ويقول عنه وعن شعره عبد الواحد المراكشي : [٤] " وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس ، ذكاء نفس ، وغزارة أدب ،

---

١ - الحلة السيراء ٥٥/٢ -
٢ - وفيات الأعيان ٢٧٧/٤ -
٣ - الذخيرة القسم الثاني ـ المجلد الأول - ٤١ .
٤ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب ١٠١ -

وكان شعره كأنه الحلل المنشرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ، وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه " .

وهذه النصوص كلها تجمع على أن المعتمد بن عباد قد احتل مكانة أسمى وأرفع عن غيره من ملوك الأندلس في الشعر والأدب ، وأنه قد تفوق عليهم في جذب الأدباء والشعراء إلى بلاطه ، حتى أنه ليعيد إلى الأذهان صورة بلاط هارون الرشيد في اكتظاظه بالشعراء والأدباء ، وتشجيعه لهم ، وإشراكهم إنشاد الشعر ونقده ، وهو بهذا يعد إحدى حسنات الأندلس الإسلامية بل أكبرها .

ويقول عن شعره وأدبه المستشرق " أنخل بالنثث " :[1]

إن المعتمد " يحتل في الأدب الأندلسي مكانا أعظم وأهم من مكان أبيه ، وهو من شعراء العربية الذين أجمع الناس على الإعجاب بهم في العالم الإسلامى كله " .

ويقول المستشرق "غرسية غومس " عن شعر المعتمد بن عباد : [2]

" إذا كان لابد من تصوير المحنة العامة التى شملت الشعر خلال ذلك العصر - عصر ملوك الطوائف - في صورة شخص واحد من أهله فليس أوفق

---

١ - تاريخ الفكر الأندلسي - ترجمة د / حسين مؤنس - مكتبة النهضة المصرية - ط ١ - ١٩٥٥م. ص ٨٨ .
٢ المرجع السابق ٨٩ .

لذلك من المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، كان أبـــوه المعتضـد صـــاحب الأفاعيل الشنيعة ، وأبناؤه جميعا - وخاصة الراضى الرقيق صاحب (رنـدة) - كلهم شعراء لكنه - أي المعتمد - بزهم جميعا وفاق كل معاصريـــه في ذلـك المضمار ، لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولها : أن كان ينظم شـــعرا يثير الإعجاب ، وثانيها : أن حياته نفسها كانت شعرا حيا : وثالثها : أنه كان راعى شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الإسلامى كله " .

وفي هذين النصين يتفق رأي هذين المستشرقين مع آراء غيرهمـــا مـــن المؤرخين والنقاد العرب على تفوق المعتمد على غيره من ملـــوك الأندلـس وأمرائها في المرتبة الأدبية والمترلة الشعرية ، وأن شعره قد احتل درجـــة مـــن الجودة والحسن تجعله جديرا بالقراءة والدرس ، وتجعل ناظمه جديرا بـالإجلال والإعظام .

ظروف أسر المعتمد :

في رجب من عام ٤٨٤ هـ أراد يوسف بن تاشفين ملك بلاد الأندلس بعد أن اقتنع بضرورة الاستيلاء عليها ، وضمها إلى ملكه في بلاد المغـــرب ، فسار بعساكره من مراكش إلى سبتة ، وأقام بها مترقبا أنباء الأندلس ، ثم ســير العساكر مع قائده (سير بن أبي بكر) فعبر سير الخليج وأتى بجيشه إلى مدينـــة مرسية فملكوها وأخرجوا صاحبها أبا عبد الرحمن بن طاهر منها ، وساروا إلى شاطبة ودانية فملكوهما . ثم ملكوا مدينة بلنسية ثم قصدوا ممالك دولة بـــنى

عباد ، وكانت أول مدينة من المدن التابعة للمعتمد سقطت في أيدى الجيـــش المرابطى مدينة (طريف) ، وتقدمت جيوش يوسف بعد ذلك تقدما ســـريعا وحاصرت قرطبة ، وكان بها الفتح بن المعتمد الملقب بالمـــأمون ، ولم تقـــاوم طويلا فقد أسلمها أهلها للمرابطين ، وحاول الفتح الهرب ولكن أعداءه قتلوه واجتذوا رأسه ورفع على رمح وطافوا به شوارع المدينة . وذكر ابن الأثـير أن الفتح هذا وأخوه يزيد قتلا صبرا بين يدي المعتمد بعد أسره .[1] وسقطت بعـد ذلك (قرمونة) ثم قصدوا مدينة (إشبيلية) وبها المعتمد بن عباد فحصروه بها وضيقوا عليه فقاتل أهلها قتالا شديدا ، وظهر من شجاعة المعتمد وشدة بأسـه ، وحسن دفاعه عن بلده مالم يشاهد من غيره ما يقاربه ، ولما أحس المعتمـــد بحرج الموقف دفعه اليأس إلى الاستنجاد بألفونسو قائد الفرنج وبذل له الوعود المغرية ، وقبل ألفونسو شروطه ، وأرسل له جيشا يقف بجواره وما إن سمـــع سير بن أبي بكر قائد المرابطين بمقدمهم حتى فارق أشبيلية وتوجه إلى لقائـهم . فلقيهم وقاتلهم حتى هزمهم على مقربة من حصن المدور ، ووقع هذا الخـــبر على المغتمد كالصاعقة ، وعرف أن ملكه صائر إلى الانحلال والزوال ، وعـاد جيش المرابطين إلى أشبيلية فحاصرها ، ولم يزل الحصار والقتال إلى العشـــرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ ، فعظم الأمر واشتدت الحرب على أهل أشـــبيلية ، وترك المعتمد الأمور بيد ابنه الرشيد ، وأخذ يدافع عن قصره بشراسة وقـــوة حتى وقع أسيرا في أيدى رجال جيش المرابطين في يوم الأحد لإحدى وعشـوين ليلة خلت من شهر رجب من سنة ٤٨٤ هـ.وانتهبت قصوره نهبـــا قبيحـــا ،

١ - الكامل في التاريخ ١٥٦/٨ .

وعاث المرابطون في أشبيلية فسادا ونهبوا وسلبوا الناس حتى ثيابهم فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم ، وسبوا النساء وانتهكوا الحرمات ، وأخذ المعتمد أسيرا ومعه أولاده الذكور والإناث حيث حملتهم السفن في نهر الوادى الكبير والبحر المتوسط حتى حل بالعدوة ، وكان نزوله بطنجة وأقام بها أياما ثم نقل إلى مدينة مكناسة فأقام بها أشهرا إلى أن جاء الأمر بتسييرهم إلى أغمات - وهي مدينة في سفح جبل بالقرب من مراكش - فحبسوا فيها ، ولم يجر عليهم يوسف بن تاشفين ما يقوم به حالهم ، حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقنها على أنفسهن.

ولما وضعت قدما المعتمد في القيد قال مخاطبا قيده :

إليكَ : فلو كانت قيودُك أُسعِرتْ ... تضَرَّم منها كلُّ كفٍ ومعصمِ
مخافةَ من كان الرجالُ بسيبه ... ومن سيفِهِ في جنةٍ وجهنمِ [1]

وهكذا تهاوت حصون المعتمد ومعاقله ، وسقطت قاعدة ملكه وانهار بناء الدولة العبادية أقوى دول ملوك الطوائف ، وأوسعها رقعة وأبعدها شهرة[2] ، وكان أسر المعتمد بداية نهايته التى كانت من أفظع النهايات ، فقد قضى في أسره بأغمات مدة أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريبا ، ذاق فيها ذل القيد ومرارة الأسر ، وظلام السجن ، وشرد أبناؤه ، وذلت بناته ، وتحطم

١ - البيتان بديوان المعتمد بن عباد . تحقيق : أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ص ١١٢ .
٢ - انظر الكامل في التاريخ ٨ / ١٥٥ واقرأ كتاب المعتمد بن عباد لعلى أدهم ٢٧٦ : ٢٨٤ .

ملكه الشامخ ، وتعمد آسروه الإساءة إليه ، وأكثروا من توجيه الإهانات له ولأهله دون ما حاجة إلى ذلك ، فلم يعطوا ما يكفيهم حتى عملت بناته عند الناس بالأجرة فى أغمات ، ووصل بهن الحال أن عملت إحداهن بالغزل لبيت صاحب الشرطة الذى كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه . ورأى المعتمد نفسه في سجنه وحيدا ليس إلى جانبه صاحب ولا أنيس يفضى إليه بأوجاعه وآلامه ، ويخفف من أساه ولوعته ، فلجأ إلى ملكته الشعرية وأخذ ينفس عن قلبه بنظم القصائد الشجية المؤثرة ، ولم تخذله قريحته الخصبة وبديهته الموفقة في تلك السنوات المظلمة من حياته ، فكانت تسعفه في كل مناسبة يلجأ إليها بالأشعار الرائعة التى يسجل فيها حزنه وأساه ، ويتحسر على ماضى أيامه ، وعزه وسلطانه .

أما موقف يوسف بن تاشفين من المعتمد وما فعله به فهو تبعة قوية تسيء إليه على كل حال. " فمهما كانت الأسباب التى حملته على إزالة ملوك الطوائف - سواء أكانت أسباب وضيعة كحبه لمال الأندلس وخيراتها ،أو كانت أسبابا شريفة كتوحيد المملكة ضد أعدائه - فقد كان يستطيع أن يحبس ابن عباد في قصر فخم يليق به من غير قيود وأغلال ويجرى عليه من الرزق ما يكفيه عن سعة ، وبذلك يضمن تحصيل رغبته ، ويخفف من وقع الألم على ابن عباد ، ولكنه بدوى جلف لا يفهم كثيرا معنى الإنسانية " [١]

ومما يدل على بؤس المعتمد وانكساره بعد الأسر ما ذكره المقرى عن

١ - ظهر الإسلام - أحمد أمين - ٣ / ١٨٠ .

ابن اللبانة ما نصه : " كنت مع المعتمد بأغمات ، فلما قاربت الصدور وأزمعت السفر صرف حيله ، واستنفد ما قِبَله ، وبعث إليَّ مع شرف الدولة ولده - وهذا من بنيه أحسن الناس سمتا وأكثرهم صمتا ، تخجله اللفظة ، وتجرحه اللحظة ، حريص على طلب الأدب ، مسارع في اقتناء الكتب ، مثابر على نسخ الدواوين ، مفتح فيها من خطه زهر الرياحين - بعشرين مثقالا مرابطية وثوبين غير مخيطين ، وكتب معها أبياتا منها :

إليكَ النَّزْرُ مِن كفِّ الأسيرِ ... وإن تقنعْ تكن عينَ الشَّكورِ
تقبَّلْ ما يذوبُ له حياءً ... وإن عذرتْهُ حالاتُ الفقيرِ [١]

وهذا الخبر يدل على كرم المعتمد وفرط جوده الذى جعله يجود بما يملك وهو في هذه المحنة الشديدة،ثم يعتذر لقلة ما يجود به لأنه لا يملك غيره، كما يدل على المحنة العصيبة التي أصيب بها الشاعر بعد إيداعه السجن .

ومما يتمم الدلالة على حالة بؤس المعتمد وبؤس أولاده بعد زوال دولتهم ما رواه المقرى بأن ابن اللبانة رأى أحد أبناء المعتمد - وهو غلام وسيم - وقد اتخذالصياغة صناعة بعد أن كان يلقب أيام ملك أبيه بفخر الدولة (وهو من الألقاب السلطانية) فنظر إليه ابن اللبانة وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ وقد جلس في السوق يتعلم الصياغة . فقال ابن اللبانة مصورا حاله وتبدل الدهر به بأبيات منها :

---

١ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - المقرى التلمسانى - تحقيق الدكتور / إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٨٨م من ٤ / ٩٦ .

شكاتنا لك يا فخر العلا عظمت	والرزء يعظم ممن قـــدره عظمـــا
طوقت من نائبات الدهر مخنقـــة	ضاقت عليك وكم طوقتنا نعمـــا
وعاد طوقك في دكـــان قارعـــة	من بعد ماكنت في قصر حكى إرما
صرفت في آلة الصـــواغ أنملـــة	لم تدر إلا الندى والسيف والقلمـــا
يد عـــهدتك للتقبيـــل تبســـطها	فتستقل الثريا أن يكون فمـــا [١]

وعلى كل حال ، فإن أسر المعتمد بن عباد كان مثيرا لكوامن عواطفـــه فأرسل الكثير من زفراته في شعر معبر عن أحاسيسه ودواخله ،كمـــا أثـــار في نفوس كثير من الشعراء عواطفهم تألما وحسرة لما حدث له ولأهله ولدولتـــه • ووفى له عدد من شعراء بلاطه ، " ولم ينسوا له ما طوق به أعناقهم من الجميل وما أسداه إليهم من المنن والأيادى البيض فتجشـــموا الرحلـــة إلى أغمـــات لمواساته في كربته ومشاركته في محنته •

ومن الشعراء الذين وفوا له الأديب الشاعر : أبو بكر الدانى المعـــروف بابن اللبانة"[٢] الذى شهد تلك الساعات الفاصلة في تاريخ دولة بـــنى عبـــاد بأشبيلية عندما تقدمت جنود يوسف بن تاشفين لتضع القيـــد في يـــد ملـــك أشبيلية، ولتحمله مع أسرته إلى أغمات على حين يحتشد الناس على ضفـــتى النهر يودعون ملكهم وأهله ويذرفون على أيامهم الدموع • هذه المشـــاهد المبكية والخطوب المؤلمة حركت في نفس هذا الشاعر لواعج الأسى والحـــزن ،

---

١ - انظر: نفح الطيب ٤ / ٩٧ .
٢ - المعتمد بن عباد _ على أدهم ٣١١ .

فإذا به يرثى ملك المعتمد بداليته الشهيرة ٠[١]

تبكى السماءُ بدمعٍ رائحٍ غادى   على البهالـيلِ من أبناء عبادِ

ومنها قوله :

نسيتُ إلى غداةَ النهر كونَـهمُ   في المنشآتِ كأمواجٍ بأحادِ
والناسُ قد ملأوا العَبْرَيْنِ واعتبروا   من لؤلؤٍ طافياتٍ فوق أزبادِ
حُطَّ القناعُ فلم تسترْ مخدرةٌ   ومزقتْ أوجهٌ تمزيقَ أبرادِ

وقد وفد هذا الشاعر على المعتمد في سجنه أكثر من مرة لزيارته ومواساته في سجنه كما رثاه بأكثر من قصيدة بعد وفاته ٠

ومن الشعراء الذين وفوا له أبو بحر بن عبد الصمد الذى مدحه كثيرا في حياته ووقف على قبره في أول عيد بعد وفاته ورثاه بقصيدته الدالية المؤثرة والتى بدأها بقوله : [٢]

ملكَ الملوك أسامعٌ فأنادِى   أم قد عدتكَ عن السَّماع عوادِى

ولما فرغ من إنشادها قبل الثرى ، ومرغ جسمه ولطم خده فأبكى كل من كان حاضرا ٠

ومنهم الشاعر ابن حمديس الصقلى الذى نظم قصيدة عبر فيها عن حزنه لما أصاب المعتمد يقول في مطلعها : [٣]

---

١ - نفح الطيب ٤ / ٢١٤ ٠
٢ - انظر وفيات الأعيان ٤ / ٢٨٩ ، ونفح الطيب ٤ / ٢٢٤ ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان - مطبعة التقدم العلمية بمصر - ط ١ - ١٣٢٠ هـ ص ٣١ ٠
٣ - ديوان ابن حمديس الصقلى - تحقيق إحسان عباس - دار صادر ودار بيروت ١٩٦٠ ص ٥٣٠ ٠

أبادَ حياتي الموتُ إن كنتُ ساليا | وأنتَ مقيمٌ في قيودك عانيا
وإن لم أبارِ المزنَ قطرًا بأدمعٍ | عليكَ فلا سقيتُ منها الغواديا
تعزيتُ من قلبي الذي كان ضاحكا | فما ألبس الأجفانَ إلا بواكيا
وما فَرَحي يوم المسرةِ طائعًا | ولا حزني يوم المساءةِ عاصيًا

وقال ابن حمديس في أسر المعتمد ورحيله من أشبيلية إلى أغمات : [١]

ولما رحلتُمْ بالندى في أكفكمْ | وقُلقلَ رضوَى منكم وثبيرُ
رفعتُ لساني " بالقيامةِ قد دَنَتْ " | فهذي الجبالُ الراسياتُ تسيرُ

ومن الذين رحلوا إليه في سجنه بأغمات : أبو محمد عبد الله بن إبراهيم عم الحجارى صاحب " المسهب ".ويروى أنه لما زاره ورأى ما يعانيه حملته شدة الحمية له والامتعاض لما حل به على أن يكتب على حائط سجنه متمثلا :

فإن تسجنُوا القَسْرِي لا تسجنوا اسمَهُ
ولا تسجنوا معروفَهُ في القبائلِ

وتفقد الكتابة بعد أيام فوجد تحت البيت عبارة " لذلك سجناه " :

ومنْ يجعَل الضرغامَ بازًا لصيدهِ | تصيَّدَه الضرغامُ فيما تصيَّدا

ويقول : إنه لم يدر من جاوب بذلك ، ولما عاد بعد أيام أخرى وجده قد محي ، وأعلم بذلك المعتمد فقال له : صدق المجاوب ، وأنا الجاني على نفسه والحافر بيديه لرمسه ".[٢]

---
١ - ديوان ابن حمديس الصقلي ص٢٦٩ .
٢ - نفح الطيب ٥ / ٥٧١ .

وفاة المعتمد :

كان للأسر والسجن ومعاناة الأغلال ، وشدة الحزن أثر قوى في إنهاك صحة المعتمد ووهن بنيانه ، واعتلال جسمه ، وقد اشتد عليه المرض في السنتين الأخيرتين من حياته ، ولما ساءت صحته وأحس بدنو منيته نظم قصيدته الدالية ، وأُوصى بكتابتها على قبره ، ومنها قوله : (١)

قبرَ الغريب سقاك الرائحُ الغادى	حقًّا ظفرتَ بأشلاء ابنِ عبادِ
بالحلمِ بالعلمِ بالنُّعمى إذا اتصلتْ	بالخصبِ إن أجدبُوا بالرِّى للصادِى
بالطاعنِ الضاربِ الرامى إذا اقتتلوا	بالموتِ أحمرَ بالضرغامةِ العادِى

وتوفي المعتمد في السجن بأغمات لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٤٨٨ هـ وقيل في ذى الحجة ، وهو في السادسة والخمسين من عمره . وذكر ابن بسام أنه توفي في ربيع الأول من سنة ٤٨٨ هـ (٢)، وكانت زوجته اعتماد الرميكية قد سبقته إلى القبر قبل وفاته بعامين تقريبا ، ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظم سلطانه ، وجلالة شأنه ، واجتمع عند قبره جماعة من الشعراء الذين كانوا يقصدونه للمدح والعطاء فرثوه بشعرهم ، وأنشدوا عند قبره وبكوا عليه . (٣)

وقد كثر الشعر الذى قيل في رثاء المعتمد ودولته بعد وفاته ، فقد رثاه

---

١ - ديوان المعتمد بن عباد ٩٦ .

٢ - الذخيرة ق٢-م١-ص٥٧ .

٣ - انظر وفيات الأعيان ٤ / ٢٨٩ ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ١٧٧ .

شاعره الوفي أبو بكر الداني المعروف بابن اللبانة بالعديد من شعره ومن أشـــهر قصائده في المعتمد قصيدته التائية التي أولها :

لكل شيءٍ من الأشـــياءِ ميقــاتُ وللمُنى مـــن منايـــاهُنّ غايـــاتُ
والدهرُ في صبغةِ الحرباءِ منغمـــسٌ ألوانُ حالاته فيـــها اســـتحالاتُ
ونحنُ من لِعَب الشطـــرنج في يده وربـــما قمـــرت بالبيدقِ الشاةُ

ومنها قوله :

انفضْ يديْكَ من الدنيا وســـاكنِها فالأرضُ قد أقفرتْ والناس قد ماتُوا
وقلْ لعالَـــمِها الأرضي قد كُتِمَتْ سريرةَ العالَمِ العلـــوي أغمـــاتُ [١]

ورثاه الشاعر أبو بحر بن عبد الصمد بقصيدته الدالية التي قالها على قبره في أول يوم عيد بعد وفاته ، والتي بدأها بقوله : [٢]

ملكَ الملـــوكِ أســـامعٌ فأنـــادِي أم قد عدَتْك عن السماعِ عـوادِي
لـــما نُقلْتَ عن القصورِ ولم تكـــن فيها كما قد كنـــتَ في الأعيـــادِ
أقبلتُ في هذا الثّرى لك خاضعًا وجعـــلتُ قبـــرَك موضعَ الإنشادِ

كما بكى المعتمد كثير من الشعراء غير هذين الشاعرين وقالوا فيـــه وفي دوْلته الأشعار الخالدة التي خلدتها ما تميزت به من سمو العاطفة وصدق الشعور ، وكرم المعتمد وسمو أخلاقه ، وأدبه وشاعريته ، وشجاعته ومأساة حياتـــه ،

---

١ - نفـح الطيـب ٤ / ٢٥٦ وانظـر كتـاب : الأدب الأندلسي موضوعاتـه وفنونـه د / مصطفى الشكعة - دار العلم للملايين - ط٦ - ١٩٨٦ م.ص٥٣٢ وما بعدها .
٢ - وفيات الأعيان ٤ / ٢٨٩ ، ونفح الطيب ٤ / ٢٢٤ ، وقلائد العقيان ٣١ .

جعل النفوس تميل إليه وتحن إلى ذكراه بعد وفاته ، وأصبح قبره بأغمات مزارا يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس.وقد زار قبره الشاعر أبو بحر بن عبد الصمد في أول يوم عيد يمر عليه بعد وفاته كما ذكرنا آنفا ، وزار قبره أيضا الوزير الأندلسي والعالم الكاتب لسان الدين بن الخطيب سنة ٧٦١ هـ أي بعد مضي ٢٧٣ سنة على وفاته ، فأثنى عليه وعلى زوجته اعتماد الرميكية ، وأنشد هناك شعرا يعبر عن إجلاله وإعظامه لهذا الملك.ومما رواه المقري في ذلك عن لسان الدين بن الخطيب قوله : [١]

" وقفت على قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ، ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١ هـ وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض وقد حفت به سدرة ، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليهما من هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها : فأنشدت في الحال :

قد زرتُ قبرَك عن طوعٍ بأغماتِ ... رأيتُ ذلك من أُولى المهماتِ

لِمْ لا أزورُك يا أندى الملوك يداً ... ويا سراجَ الليالي المدلهمّاتِ

وأنتَ من لو تخطّى الدهرُ مصرعَه ... إلى حياتي لجادتْ فيه أبياتي

أنافَ قبرُك في هَضْبٍ يميزه ... فتنتحيه حفيّاتُ التحيّاتِ

كرمتَ حيا وميتًا واشتهرتَ عُلاً ... فأنتَ سلطان أحياءٍ وأمواتِ

ما رِيئَ مثلك في ماضٍ ومعتقدي ... أن لا يُرى الدهرَ في حالٍ وفي آتِ

---

١ - نفح الطيب ٤ / ٩٨ .

كما زار قبره وقبر زوجته المقرى التلمساني صاحب كتاب نفح الطيب في عام ١٠١٠ هـ .وقال المقرى عن إحساسه وقت وقوفه أمام قبريهما أنه رأى فيه " مثل ما ذكر لسان الدين - رحمه الله تعالى - فسبحان من لا يبيد ملكه لا إله إلا هو " (١).

" وقصة المعتمد مأساة كثيرة الفواجع ، وهي في خطوطها العريضة مأساة عاشها ويعيشها كثير من الذين ينخفضون بعد رفعة ، وتصطلح عليهم منغصات الشقاء بعد حياة ملأى بالنعيم الرغد ، وكان لمواقفه عند أسره وقبله ما أثار فيه الآلام الثرة ، وفي الذين عرفوه من قصاده وشعبه ، فقد انتزع منه ابن تاشفين ملكه في عملية استيلاء بحتة لم يكن فيه لرعيته ومعاصريه من الشعراء مقنع باستحقاقه للعزل والقيد ، وخرج المعتمد من قصوره وغناه يحمله الفقر والعجز والهوان ، وفاجأه السقوط من العرش بمفارقات ودواهٍ ارتاع لها أيما ارتياع ، وكان يزيد في فداحتها وتعميق إحساسه بالتعاسة مواقف الإحراج التي تعرض لها أثناء أسره " (٢)

---

١ - نفح الطيب ٤ / ٩٩ .
٢ - الأسر والسجن في شعر العرب د / أحمد مختار البرزة ٨٢ .

الفصل الثانى

أغراض شعر الأسر عند الشاعرين

روميات أبى فراس وأسريات المعتمد:

يطلق على شعر أبي فراس الحمداني في الأسر اسم " الروميات ". وهي الأشعار التى أنشدها أبو فراس وهو أسير في بلاد الروم ، ويعبر فيها عما تمتلىء به نفسه من آلام وعذاب ، ويحن فيها إلى مراتع شبابه وملاهى صباه ، ويبدى فيها رغبته الشديدة في الخلاص من أسره ، وفي العودة إلى الجهاد ولقاء أهله وعشيرته .

وهي أشعار عذبة جميلة فاضت بها قريحة معذبة جاء أغلبها - في شكل "رسائل شعرية بعث بها من أسره في بلاد الروم إلى ابن عمه وأمه وصحبه . طالبا من سيف الدولة افتداءه ، ومن أمه التذرع بالصبر ، ومن صحبه ، وأهله المساعدة على الفداء ، ومن الشامتين ألا يسروا بأسره "[1].

ولقد عاش أبو فراس الحمداني في أسره ببلاد الروم ما يقارب سنوات أربع وحيدا فريدا قد فارق الأحبة والأخوان والأصدقاء . وكل يوم يطلع عليه في هذا الأسر يراوده شعاع الأمل بالخروج منه ثم يتبدد في نهايته . فكان ضيقه يزداد بازدياد الذل الذى يعيشه وهو عزيز قومه ، فصعب عليه حاله ،

١ - أبو فراس الحمدانى - خليل شرف الدين ص ١١٢ .

واستسلم لوابل من الدموع والآهات ترجمها إلى شعر يعبر عما لقيه وعاش فيه خلال هذه السنوات . ولذلك كانت رومياته هذه ""صدى نفسه المعذبة القلقة ، وفيها الكثير من العاطفة والأحاسيس التى يندر وجودها عند غيره من الشعراء لصدقها وأمانتها . وكانت الروميات أشبه بسجل عذاب وديوان نفس بائسة متمردة تعيش القلق والانتظار ، وتحب الحرية شأنها في ذلك شأن بقية المخلوقات ".[1]

ولعل الثعالبى هو أول من أطلق على روميات أبي فراس هذه التسمية وأفردها بالحديث في يتيمته ، وعنون حديثه عنها بعنوان " الروميات من غرر أبي فراس ".[2] وسماها ابن شرف القيروانى الأسريات " نسبة إلى الأسر الذى قضى فيه الشاعر شطرا من حياته ، وقال فيه هذه الأشعار . وذلك في قوله:[3] "وأما أبو فراس بن حمدان ففارس هذا الميدان . إن شئت ضربا وطعنا ، وإن شئت لفظاً ومعنى.ملك زمانا وملك أمانا . وكان أشعر الناس في المملكة ، وأشعرهم في ذلك الملكة . وله الفخريات التى لا تتعارض ، والأسريات التى لاتتناهض ".

وقد نالت هذه الروميات إعجاب كثير من النقاد والمؤرخين قديما وحديثا ، لما اتسمت به من إحساس صادق وعاطفة جياشة ، وتصوير واقعى. فمن القدماء أبو منصور الثعالبى الذى قال عن روميات أبي فراس :[4]

١ - أبو فراس الحمدانى الشاعر الأمير - محمد رضا مروة - ص ٨٩ .
٢ - انظر يتيمة الدهر ١ / ٨٥ .
٣ - أعلام الكلام - تصحيح وضبط : عبد العزيز أمين الخانجى - مطبعة النهضة بمصر - مكتبة الخانجى بمصر - ط ١ - ١٩٣٦ م - ص ٢٥ ، وانظر عناصر الابداع في رائية أبى فراس - د / محمد عارف حسين - مطبعة الأمانة - ط ١ / ١٩٨٨ م - ص ٥٥ .
٤ - يتيمة الدهر ٥٨/١ .

" وقد كانت تصدر أشعاره في الأسر والمرض واستزادة سيف الدولـة ، وفرط الحنين إلى أهله وإخوانه وأحبابه والتبرم بحاله ومكانه عن صدر حـرج وقلب شج ، تزداد رقة ولطافة وتبكى سامعها وتعلق بالحفظ لسلاستها " .

ومن المحدثين الدكتور زكى مبارك الذى يقول عنها :(١)" ومـا قـرأت روميات أبي فراس إلا تمثلت زوال الجبال ، تمثلت عنفوان الفـارس الفـاتك الذى قضت الأقدار بأن يمشى وهو في ظلمات من ذلة الأسر وهزيمة القلـب وانصهار الروح ".

ومن المعاصرين الدكتور خليل شرف الدين الذى يقول عن روميات أبي فراس : إنها (٢)" جاءت ثمرة ناضجة لتجربة الأسر المرة ، وهتاف قلب هجـره أحبته ونداء فارس فقد حريته وتباطأ عنه مفتدوه ، وحنين بنـوة جـارف إلى أمومة معذبة.لذا فهى من أصدق وأصفى الشعر العربي القديم على الإطلاق ".

أما شعر المعتمد بن عباد في أسره بالمغرب فهو هذه الأشعار التى قالهـا في سنوات أسره بأغمات التى قضى فيها ما يقارب السنوات الأربع أسيرا مقيدا . وقد رأيت أن أطلق على هذه الأشعار اسم " الأسريات " نسـبة إلى الأسـر الذى قال فيه المعتمد هذه الأشعار . والتى كانت بمثابة زفرات وحسرات تأوة بها الشاعر طوال السنوات التى احتواه فيها أسر المرابطين في المغرب . كمـا كانت بمثابة السلوى له ومتنفسا لصدره سجل فيها كل ما كان يمر به في منفاه

---

١ - الموازنة بين الشعراء - دار الجيل - بيروت - ط ١٩٩٣/١ م - ٢٧٢ .
٢ - أبو فراس الحمدانى ٤٠ .

من حوادث وأحداث صغيرها وكبيرها،ويمزجها بالحديث عن نكبته وضياع ملكه . وقد أثبت ديوان المعتمد بن عباد [١] إحدى وأربعين قصيدة ومقطوعة قالها المعتمد في أسره . وزاد عليها بعض الباحثين كالدكتور بسيم عبد العظيم إبراهيم [٢] مقطوعتين أخريين ليكون مجموع ما ورد عن المعتمد في أسره ثلاثا وأربعين قصيدة ومقطوعة وليس اثنتين وعشرين كما ذكر بعض الباحثين.[٣]

ويغلب على الظن أن كثيرا من شعر المعتمد في سجنه قد ضاع،وأنه كان للسياسة والخوف من مزيد العذاب والآلام في السجن أثر كبير في ضياع هذا الشعر . فمن المعروف أن المعتمد-كما يقول الدكتور أحمد مختار البزرة - [٤] "كان شاعر متقنا،كثير القول،يقارض الشعراء وهو في السجن . إذ كان الشعر تعلته الوحيدة يخفف به عن نفسه ما تجد . ومكث في سجن المرابطين في أغمات خمس سنوات حتى توفاه الموت.[٥] وما بين الأيدى من شعره لا يخرج عن شعر اللوعة ، والتحسر ، والحنين ، والرثاء.[٦] أما شعر

---

١ - تحقيق : أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، وتحقيق آخر قام به الدكتور / رضا الحبيب السويسي .

٢ - في كتابه : شعر الأسر والسجن في الأندلس - القسم الثانى من ص ٨٧ إلى ص ١١٥.

٣ - كالدكتور أحمد مختار البزرة في كتابه : الأسر والسجن في شعر العرب ٤١٨ .

٤ - الأسر والسجن في شعر العرب ٤١٨ ، ٤١٩ .

٥ - هي أقل من ذلك : إذ كانت نهاية دولته ووقوعه في أيدى المرابطين أسيرا في الحادى والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ ، وكانت وفاته في الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ على أرجح الأقوال ، أي أنه مكث في سجنه أربع سنوات ، وشهرين وعشرين يوما .

٦ - في الحقيقة هناك بعض الأغراض الأخرى التى يجدها القارىء لهذا الشعر مثل الفخر والعتاب ، والزهد ، وغيرها مما سنتعرف على بعضه في هذا الفصل .

التحفز والغضب فلم ينشده منشد . فهل كـان المعتمـد راضيـا مذعنـا مستسلما؟ إن الأحداث كانت تشير إلى أن المعتمد لم يكن هادئا الخاطر وكـان يترقب أمرا إذ كان أبناؤه وأعوانه في الأندلس يعدون العدة لاستعادة ملـك سلبهم المرابطون إياه غدرا ، وقد ثار ولداه هناك فأخفقا وقتلا ، فضيق عليـه في حبسه ، واغتم هو غما شديدا أفصح عنه في أبيات متعطشة إلى الثأر مـن غير تصريح كاشف .وكان ارتجل هذه الأبيـات بمحضـر بعـض العـواد والأصدقاء.إذ نعى إليه ولداه وهى القصيدة الوحيدة التى تفصح عن النقمـة والغضب.أفكانت تلك هى كل ما قال من الشعر الحانق الثائر في (خمـس) سنوات ؟ أوليس من الراجح أنه نظم أشباهها ؟ وكان رجلا تراقب اتصالاتـه وأقواله ، وتخشى تطلعاته فكان التصريح بها يقرب حياته وحياة أطفا له مـن خطر محقق؟ " .

وقد اتسم شعر المعتمد في الأسر بسيادة نـبرات الحـزن والتفجـع ، والكآبه والتوجع عليها ،كما امتاز بالوضوح في التصوير والبساطة في التعبير ، والصدق في المعانى والأحاسيس ، وجاء معبرا عما كان يعتلج في صدر الشاعر من الهم والغدر ، والحزن على مصيره ومصير ملكه ، ومصورا به آلامه الدفينة وذكرياته المؤلمة .

وقد نالت أسريات المعتمد استحسان كثير من النقاد والمورخين قديمـا وحديثا . فمن القدماء ابن الأبار القضاعى الذى يقول عن هذه الأشعار":[١] "

---

١ - الحلة السيراء ٦٣/٢ .

ومحاسن المعتمد في شعره كثيرة ، وخصوصا مراثيه لأبنائه ، وتفجعه لـــزوال سلطانه ."ومن المحدثين الدكتور أحمد بدوى والدكتور حامد عبد المجيد محققـا الطبعة المصرية من ديوان المعتمد • وجاء في مقدمتها على لسانهما :[١]

" كان شعر المعتمد أميرا وملكا يفيض بالبهجة ويغمره السرور حتى إذا ما قلب الدهر له ظهر المجن فهاجمه يوسف بن تاشفين حليفه بالأمس انقلبــت تلك الحياة الراضية حياة بؤس وشقاء • • • • وهنا يبدأ عهد المحنة ويفيـــض شعره الباكى الحزين ، حتى إذا تم أسره مضى الشعر يروى إحساساته الحزينة ، وآلامه الدفينة ، وذكرياته المؤلمة ، وخواطره القاتمة "•

وجاء في مقدمة الديوان أيضا[٢]: " أما شعره في الأسر فكـــان سـلواه يشكو له بثه ، ويندب إليه حظه ، ويحدثه بآلامه ويبكى به مصـــيره ومصـير ملكه" .

هذا • وقد تعددت الاتجاهات والأغراض التى تناولها أبو فراس الحمدانى في رومياته والمعتمد بن عباد في أسرياته . وسوف أتناولها - فيما يلى - بشـــىء من التوضيح والبيان عند كلا الشاعرين ، مع الموازنـــة بينــهما في المواطــن المتشابهة • وقد رتبت هذه الأغراض - في تناولى لها - حسب أهميتها وكثرتها في شعر الأسر عند الشاعرين أو عند أحدهما من ناحية وبحسب أهميتها في التعبـير عن تجربة الشاعر في الأسر من ناحية أخرى :

---

١ - مقدمة ديوان المعتمد بن عباد ص ١٧ .
٢ - ص ٢٥ .

أولا: الوصف :

يعتبر الوصف أبرز الأغراض الشعريه شيوعا في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد، بل يعتبر الوصف من أهم أغراض الشعر عموما ، لأن أكثر موضوعات الشعر الأخرى ترجع إليه: ففي الغزل وصف لمحاسن المحبوبة ولمشاعر الشاعر تجاهها ، والمدح عبارة عن تعداد الصفات الطيبة للممدوح ، والرثاء هو تعداد للصفات الطيبة التي كان يتجلى بها المرثي قبل وفاته ، والفخر تعداد للصفات الطيبة التي يفخر الشاعر بوجودها في نفسه أو في قومه......

وهكذا نجد الوصف يغلب على جميع أغراض الشعر الأخرى ٠ وفي ذلك يقول ابن رشيق " الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ٠ ولا سبيل إلى حصره واستقصائه ".[١]

واشترط النقاد القدامى في الوصف الجيد أن " يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينيك ."[٢]

كما يجب أن يعبر الوصف عن شعور الواصف ، وإحساسه تجاه الموصوف ، حتى يختلف عن الرسم والنحت والتصوير ٠ وهناك فرق بين

---

١ - العمدة ٢ / ٢٩٤ ٠

٢ - كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكرى - تحقيق : على محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ١٩٨٦ م ص ١٢٨ ، وانظر العمدة لابن رشيق - ٢ /٢٩٤ -

الوصف والتشبيه : فالوصف هو إخبار عن حقيقة الشئ . أما التشبيه فهو إلحاق شئ بشئ عن طريق المجاز والتمثيل .[١]

وليس الشعراء سواء في موهبة الوصف ، وإنما تتفاوت أقدارهم بتفاوت إجادتهم الشعرية وبتفاوت بيئاتهم وزمانهم.وذكر الدكتور أحمد بدوى " أن الوصف يتأثر ببيئة الشاعر التى يعيش فيها ، وأن على الشاعر أن يصف بيئته وزمنه" [٢].

وقد كثر الوصف في شعر الأسر عند أبى فراس والمعتمد فصور كل منهما معاناته داخل أسره من ضيق وقيد وبؤس،ووازن كل منهما بين حاله في الأسر وما قبله ، وصور همه وأحزانه ، وتحدث كل منهما عن الدهر وتقلب الدنيا به ، وتحدث كل منهما عن الصبر على القضاء ، وعن الأعداء وشماتتهم به . وترك كل منهما العديد من الأبيات والمقطوعات التى صور فيها همه وآلامه في تلك الأيام القاسية التى قضاها في الأسر .

وهذا الشعر الوصفى يعطينا تقريرا صادقا عما كان يعيش فيه الشاعر في في أسره من أحزان ، وما كانت تمتلئ به نفسه من هموم دائمة وبؤس لا ينقطع . " ومما لا شك فيه أن سجينا أشرف على النهاية مستيقنا الموت وتساقطت عنه أثقال الحياة ، وما لها من اعتبارات وقيم . لا شك أنه يعترف بحقيقة مشاعره في صراحة وصفاء ".[٣]

---

١ - انظر: العمدة ٢ / ٢٩٤ .
٢ - أسس النقد الأدبي عند العرب . دار نهضة مصر للطبع والنشر . ١٩٧٩ م ص ٢٨٠ .
٣ - الأسر والسجن في شعر العرب . أحمد مختار البرزة - ٤٧٤ .

ويأتي الوصف في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد منشورا في ثنايا القصائد والمقطوعات في الأغراض الشعرية الأخرى.

- ومن ألوان الوصف في شعر الأسر عند الشاعرين : وصف العذاب والآلام التي كان يلقاها كل منهما في سجنه . وتبدأ ألوان التعذيب والإيذاء الشديدين بالثياب التي كان يرتديها الأسير في سجنه . فهي ثياب من الصوف الغليظ الخشن تعلوها طبقة من الأوساخ والأقذار التي تراكمت عليها نتيجة عدم العناية بها وبتنظيفها من القائمين على أمر السجن والسجان . وقد أشار أبو فراس إلى هذه الثياب فقال :[1]

يا ناعمَ الثوب كيف تبدلُه ثيابُنا الصوفُ ما نبدِّلُها

وواضح أن الأسير في سجن الروم كان مما يلزم به لبس الثياب من الصوف الخشن الذي يؤثر في جلد الإنسان وخاصة في أوقات شدة الحرارة . ومع ضيق السجن وقلة الحركة يكون العذاب بمثل هذا الثوب أشد. وإن كان أبو فراس قد ذكر أن الروم قد خلوا ثيابه عليه ولم يفرضوا عليه لبس الصوف كغيره من الأسرى وافتخر بذلك فقال :[2]

يمنّونَ أن خلّوا ثيابي وإنما عليَّ ثيابٌ من دمائهمُ حمرُ

ولم يشر المعتمد في أسرياته إلى نوع الثياب التي كان يرتديها في أسره . ولعل المرابطين لم يكونوا يلزمون السجين بلباس معين ، غير ما كانوا يثقلونه به من القيود والأغلال الحديدية وغيرها .

---

١ - ديوان أبي فراس ٣٦٥ .
٢ - ديوان أبي فراس ١٦٥ .

- أما عن القيود والأغلال التى كان يثقل بها الأسير والتى كانت شكواهم منها لا تنقطع لما كانت تمثله لهم من مصدر إزعاج دائم ، فكان الأسير إذا ألقى في محبسه يثقل بالحديد لتعوقه عن الإفلات من الأسر ، وليكون صوت ذلك الحديد منبها على أدنى انتقال يحدث من الأسير . وكان صوته شديد الإيذاء لحامله ، فكان يشد بعض أعضاء جسده بالسلاسل وتشد يداه بالقيد .

وجاء وصف أبي فراس لقيوده قليلا فاترا ، وكأن تعاليه وإحساسه بفروسيته وشجاعته منعاه من أن يتحدث على قيوده في سجنه ، حتى لا يفهم من ذلك أنه كان كغيره من الأسرى ، والسجناء الذين أثقلوا بالقيود والأغلال . أو أنه أراد أن يعرفنا بأن هذه القيود لا تمثل شيئا ذا قيمة بالنسبة له ، بجانب ما تمتلئ به نفسه من عزة وإباء ، على الرغم من إلحاحه الشديد في طلب الفداء ، والإسراع في السعي في فك أسره . ومن حديثه عن القيود قوله في أول رومية له إلى سيف الدولة : [1]

أقلِّبُ طرفي بين خلٍّ مكبَّلٍ ... وبين صفيٍّ بالحديدِ مصفَّدِ

ونرى حديثه هنا يتجه إلى وصف القيود التى كبل بها خلانه وأقرانه في الأسر ، ولم يتحدث عن قيوده وأغلاله هو . وكأنه لم يكبل ولم يصفد بالحديد مثلهم ، وإنما هو يقلب طرفه بين هؤلاء فقط .

ويقول في موضع آخر على لسان والدته وهى تسأل عنه الركبان :[2]

---

١ - ديوان أبى فراس ٩٧ .
٢ - ديوان أبى فراس ٢٦٣ .

يا مَنْ رَأَى لى بحصنِ خرشَنَةٍ أسْدَ شرًى في القيودِ أرجلُها

ولعله هنا قد اعترف بأن رجليه قد وضعتا في القيود ، وإن كان قد جعل هذا الحديث من كلام الأم وليس من كلامه هو .

ويقول في نفس القصيدة مخاطبا سيف الدولة :

ليستْ تنالُ القيودُ من قَدَمِى وفي اتّباعى رِضَاك أحملُها

وفي هذا البيت اعتراف صريح بأن القيود قد وضعت في قدميه ، وأنه يتحمل أذاها في سبيل رضا ابن عمه عليه.هذه القيود وصفها أبو فراس في موضع آخر بأنها تمنعه من الحركة بعد أن كان يصول ويجول لا يتمكن أحد من الإمساك به . يقول : [١]

أصبحتُ ممتنعَ الحراكِ وطالَما أصبحتُ ممتنعًا على الأقرانِ

أما المعتمد بن عباد فقد أكثر من الحديث عن القيود والأغلال التى كبل بها ،ووصفها بأوصاف تدل على بشاعتها ، وقوة تأثيرها على جسده وفي نفسه . فهو يتحدث في مرة - عن قيوده الحديدية التى ا لتفت على ساقيه والتوت عليهما ، ويصورها في شكلها وهيئتها بالثعابين التى تتلوى وتلتف حول الشئ في بشاعة وقبح منظر ،كما يجعلها شبيهة بالأسود في بطشها وقوتها فيقول مخاطبا من أفرج عنهم ممن كانوا معه في سجنه : [٢]

---

١ - ديوان أبى فراس . ٣٤٠ .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد - ٩٥ -

تخلصتم من سجن أغماتَ والتوتّ

علىَّ قيــــــودٌ لم يحنْ فكّها بعدُ

من الدّهم أما خلقُـــــها فأساودٌ

تَلوّى وأما الأيدُ والبطشُ فالأُسْدُ

ويكرر المعتمد هذا الوصف لقيوده فيصور القيد في ساقه في موضع آخر بصورة الأفعى التي تعض ساقه بأنياب ضيغم هصور فيقول :[١]

تعطَّفَ في ساقي تعطُّفَ أرقمٍ ... يساورُها عضًّا بأنيابِ ضيغَمِ

ومرة ثالثة يصف القيد بنفس الوصف ، فيصور تمدده علـــى جســـمه بتمدد الثعبان بعد أن كان هذا التمدد يتصف به رمحه الذى يقتحم به أهـــوال الوغى فيقول : [٢]

قد كانَ كالثعبانِ رمُحكَ في الوَغَى

فغـــدا عليك القيدُ كالثعبانِ

متمـــــدّداً بحــــذاك كلَّ تمددٍ

متعطّـــفًا لا رحـــمةً للعاني

وفي موضع رابع يتحدث المعتمد عن قيوده الحديدية ، ويصفـــها بأنهـــا دليلُ ذله ، وتبدل حياته . فقد أخذت تعض بساقه عض الأسود ، وأصبح هو أمامها ذليلا قليل الحيلة بعد أن كان يتخذ من هذا الحديد سنانا زليقا، وعضبـا

---

١ - ديوان المعتمد بن عباد ١١١ .

٢ - ديوان المعتمد ١١٥ .

رقيقا يقضى بهما على أعدائه . يقول :[١]

تبدلتَ من عزٍّ ظلِّ البنودِ بذلِّ الحديدِ وثقلِ القيودِ
وكان حديدى سناناً زليقاً وعضباً رقيقاً صقيلَ الحديدِ
فقد صار ذاكَ وذاَ أدهماً يعضُّ بساقىَّ عضَّ الأسودِ

وفي موضع خامس من أسريات المعتمد يذكر أنه قد بكى وهو الجلد الصبور من ثقل قيوده التى تؤذيه بأصواتها إذا تحركت ، وبمسها الذى يأكل من جسده فيقول :[٢]

يعيدُ على سمعى الحديدَ نشيدَه
ثقيلاً فتبكى العينُ بالجسِّ والنَّقرِ

ويحول القيد بين المعتمد وبين قضاء وطره من أهله . فلا يجعله بعيش كغيره من الرجال الأسوياء . يقول واصفا حاله ومقارنا نفسه بغيره في هذا الأمر :[٣]

قضى وطراً من أهله كلُّ نازحٍ وكرَّ يداوى علةً في الجوارحِ
سوايَ فإنى رهنُ أدهمَ مبهَمٍ سبيلُ نجاتى آخذٌ بالمبارحِ

ويصل الأمر بالمعتمد في موقفه من قيوده إلى حد الاستسلام له استسلام اليائس الحزين ، ويخاطبه مستعطفا إياه عسى أن يرحمه ، بعد أن أثر في جسمه

١ - ديوان المعتمد ٩٤ .
٢ - ديوان المعتمد ١٠٦ .
٣ - ديوان المعتمد ٩٣ .

تأثيرا عظيما فقد شرب دمه ، وأكل لحمه ، ولم يبق له إلا العظام التى يرجـــود ألا يهشمها ، وأن يرحمه رأفة بأولاده • يقول المعتمد :[١]

قيــدى أَمَــا تعلمُــنى مســـلما أبيــتَ أن تُشـــفِقَ أو ترحَمَــا

دمى شرابٌ لكَ واللحـــمُ قــد أكلتَــه لا تَهشِـــم الأعظُمَـــا

يبصــرُنى فيــك أبــو هاشــمٍ فينثــنِى القلــبُ وقــد هُشِّمَــا

وأرى أن المعتمد قد جعل من الحديث عن قيوده وأغلالــه وســيلة إلى المقارنة بين حياته في الأسر ، وحياته قبله ، فأكثر من الحديث عنها حتى يؤكــد هذا المعنى ، ويجعلنا نحس بمدى الهوة التى تفصل بين الحياتين اللتين عاشــهما • أما أبو فراس فكان تعاليه وإحساسه بشبابه وفتوته - كما قلت- يمنعانــه مــن الحديث عن هذه القيود والأغلال حديثا يشتم من رائحته الخنوع والخضوع.

- وأكثر الشاعران أبو فراس والمعتمد من وصف الهموم والآلام ، وألــوان العذاب الأخرى التى كان يعيشها كل منهما في أسره.والهموم والآلام في شــعر الشاعرين وغيرهما من السجناء - ناشئة عن انقطاع الأسير عن العالم الخــارجى وانفراده مع أحزانه وهمومه •

وقد أكثر أبو فراس الحمدانى في رومياته من وصف ما يلقاه في أســـره من ذُل وعذاب ، وما يحس به من هموم وآلام أضعفــت روحــه ، وذهبــت بصبره، وجعلت الدنيا تصغر في عينيه ويفضل عليها الموت الذى يريحه من الألم

---

١ . ديوان المعتمد بن عباد ١١٢ .

وألوان العذاب . يقول في إحدى رومياته : [١]

يعزّ على الأحبة بالشآم ... حبيبٌ بات ممنوعَ المنام
وإني للصّبورُ على الرزايا ... ولكن الكِلامَ على الكِلام [٢]
جروحٌ ما يزلن يُردنَ مني ... على جُرحٍ قريب العهد دام

فقد تتابعت الكلوم عليه في سجنه وتوالت ، ولم ينتظر آخرها حتى يلتئم أولها .

ويقول في وصف حياته في الأسر، وما فيها من ذل وليال تمر عليه ولا يستطيع أن يحقق فيهاما ترضى به همته العالية ، ونفسه الأبية : [٣]

إلى الله أشكو أننا بمنازلٍ ... تحكّم في آسادهنّ كلابُ
تمرّ الليالي ليس للنفع موضعٌ ... لديّ ولا للمعتفين جَنَابُ
ولا شُدّ لي سرجٌ على متن سابحٍ ... ولا ضُربتْ لي بالعراء قبابُ
ولا برقتْ لي في اللقاء قواطعٌ ... ولا لمعَتْ لي في الحروب ضرابُ

ويقول متحدثا عن انفراده في أسره بعيدا عن أهله وخلانه ، مما جعله غير هانئ بنومه ، باكي العينين بدموع غزيرة : [٤]

خليليّ ما أعددتما لمتيّمٍ ... أسيرٍ لدى الأعداء جافي المراقدِ
فريدٍ عن الأعداء صبّ دموعُهُ ... مثانٍ على الخدين غيرُ فرائدِ

---

١ - ديوان أبى فراس ٣١٧ .
٢ - الكِلام : جمع كَلْم وهو الجرح .
٣ - ديوان أبى فراس ٤٦ .
٤ - ديوان أبي فراس ١٠٠ .

ويمثل له فراقه لمن يحب مصدرا من مصادر همه ولوعته ، يضاف إلى هم الأسر ولوعاته . مما جعله موزعا بين عذاب قلبه الذى يهفو إلى من يحب ويهوى ، وبين عذاب جسمه القابع في أسر الروم منفردا . يقول في خطابه لغلامه "منصور" :(١)

إرثَ لصبٍّ فيك قد زدتَهُ	على بلايا أسره أسرَا
قد عدمَ الدنيا ولذاتِهَا	لكنَّه ما عدم الصبرَا
فهو أسيرُ الجسم في بلدةٍ	وهو أسيرُ القلب في أخرَى

ويقول في رسالة أخرى إليه : (٢)

مغرَمٌ مؤلمٌ جريحٌ أسيرٌ	إن قلباً يطيق ذا لصبورُ
وكثيرٌ من الرجال حديدٌ	وكثيرٌ من القلوبِ صخورُ
قلْ لمنَ حلَّ " بالشآمِ " طليقاً	بأبى قلبُك الطليقُ الأسيرُ
أنا أصبحتُ لا أطيقُ حراكاً	كيف أصبحتَ أنت يامنصورُ

ويصف خلو حياته بعد أسره من النعيم والسرور وامتلائها بالهموم والأحزان فيقول :(٣)

فلو أنَّ أسرى بين عيشٍ نعمتُه	حملتُ لذاك الشهدِ ذا السمَّ منقعَا
ولكنْ أصاب الجرحُ جسمًا مجرَّحًا	وصادفَ هذا الصدعُ قلبا مصدَّعَا
وصرتُ إذا ما رمتُ في الخيرِ لذَّةً	تتبعتُها بين الهموم تتبعَا

١ - ديوان أبي فراس ١١٨ .
٢ - ديوان أبي فراس ١٦٧ .
٣ - ديوان أبي فراس ٢٠٨ .

وها أنا قد حلّى الزمانُ مفارقى   وتوّجنى بالشيب تاجاً مرصّعا
فلو أننى مُكِّنْتُ مما أريدُهُ   من العيش يوماً لم يجد فيَّ موضِعَا

ولما في الأسر من هموم جسام ، وذل عظيم كان الموت عند أبي فراس خيرا له وأكرم من المكث فيه . يقول:[1]

قد عذَّبَ الموتُ بأفواهنا   والموتُ خيرٌ من مقام الذليلِ

وهذا قليل من كثير مما عبر به أبو فراس في رومياته عن الهموم والآلام وألوان الشقاء التى عاناها في أسره .

ولم يكن المعتمد بن عباد بأقل من أبي فراس وصفا لهمومه وآلامه . فلقد صور الألم والحزن اللذين عاناهما في أسره في صور عديدة . ونقرأ شعره في الأسر فنجده طافحا بالألم والأنين . ولا غرو فهو الأسير الذى أحس بانهزامه أمام عدوه فتوافق عليه بهزيمته مصيبتان كبيرتان :السجن ، والاغتراب عن دولته وعرشه.فأصبح على حالة من العجز التام بين يدى آسريه . فها هو يعبر عن الألم المكبوت في داخله وهو في أسره بعد أن انتزع ملكه ، وقتل ولداه ، وتشرد بقية أفراد أسرته ، وحال الأسر بينه وبين ميدان الكفاح والبطولة وتحقيق الذات . فيقول في إثر ثورة ابنه عبد الجبار وتشديد وطأة الأسر عليه:[2]

كذا يهلكُ السيفُ في جفنِهِ   إلى هزِّ كفِّى طويلَ الحنينِ
كذا يعطَشُ الرمحُ لم أعتقلْهُ   ولم تُروِهِ من نجيعٍ يمينى

١ - ديوان أبي فراس ٢٤٠ .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد ١١٦ .

كذا يمنع الطَّرفُ علكَ الشــــكيم م مرتقبـــًا غـــــرّةً في كمـــــين

ووصف المعتمد حاله ودموعه أثناء رحلته من أشبيلية إلى أغمات ، وقد وصل إلى موضع خرج أهله للاستسقاء وقد جفت السماء . فقال لهم : دمعي يغنيكم عن المطر . فردوا عليه بأن هذا حق ولكن دموعك ممزوجة بالدماء . يقول مصورا هذا الموقف :(١)

خرجوا ليستسقوا فقلتُ لهم دمعي ينوبُ لكمْ عنِ الأنواءِ

قالوا: حقيقٌ في دموعِك مقنعٌ لكنَّـــــها ممزوجةٌ بدمـــاءِ

ووصف المعتمد حاله فى السجن وما أصابه من فقر وكمد وذل ، وقارن ذلك بماضيه فصور ذله وفقره حينما سأله ابن الزنجارى أن يزوده بشيء مـــن شعره . وذكر له إنه كان يتمنى أن يزوده بالذهب بدلا من الشعر كعادتـــه - فيما مضى - مع الشعراء، ولكن المصائب التى حلت به تمنعه من ذلك ، فقـــد أصبحت يده صفرا خالية مما تجود به بعد أن أصيب بما أصيب بـــه في شـــهر رجب ، فأصبح على حال من الذل والفقر أزالا عنه عزه وغناه . يقول : (٢)

لو أستطيعُ على التزويدِ بـــالذّهبِ فعلتُ لكنْ عداني طـــارقُ النُّـــوبِ

يا سائلَ الشعر يجتابُ الفلاةَ بـــــه تزويدُك الشعرَ لا يغني عن السَّـغَبِ

أصبحتُ صفرًا يدي مما تجودُ بـــه ما أعجبَ الحادثَ المقدورَ في رجبِ

ذلٌّ وفقرٌ أزالا عـــزةً وغِـــــنًى نُعمى الليالي من البلوى على كثبِ

---

١ - ديوان المعتمد ٨٩ .

٢ - ديوان المعتمد ٩٢ .

وكرر المعتمد هذا المعنى في موضع آخر تحدث فيه عن تبدل حاله حتى أصبح رهين أسر وفقر ، ذليلا ، مكسور الجناح ، غير قادر على إغاثة الملهوف ، أو تلبية حاجة المحتاجين ، كما تبدل بشره عبوسا ، وأفراحه أشجانا ، يقول:[١]

وأنا اليومَ رهـنُ أسـرٍ وفقـرٍ مستباحُ الحمى مهيضُ الجناحِ
لا أجيبُ الصريخَ إن حضرَ النا سُ ولا المعتفين يومَ السماحِ
عاد بِشرى الذى عهدتَ عبوسًا شغلتنى الأشجانُ عن أفراحِى
فالتمَاحي من العيونِ كريهٌ ولقد كان ترفةَ اللمّاحِ

وتتهيج هموم المعتمد وآلامه في أسره حينما يسمع غربانا تنعب بجوار المكان الذى كان فيه أسيرا ، ثم ورد إليه إثر ذلك نبأ قدوم بعض نسائه عليه ، فدعا للغربان بالسلامة وطول البقاء ، وطيب الليالى . ثم يختم هذه القصيدة بقوله متحدثا عن همه وحزنه في أسره : [٢]

ماذا رمتكَ به الأيامُ يا كبدِى من نبلهنَّ ولا رامٍ سوى القدرِ
أسرٌ وعسْرٌ ولا يسرٌ أؤمّلُه أستغفرُ اللهَ كم للهِ من نظرِ

ويتحدث عن تبدل أحوال الدهر به ، وما ابتلاه من خطوب وآلام جعلته مغلوبا بعد أن كان غالبا ، وحولته ذليلا بعد أن كان قهارا للأعداء

---

١ - ديوان المعتمد ٩٤ .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد ١٠٠ .

فيقول مخاطبا نفسه : [١]

قد ضاق صدرُ المعالى إذ نُعيتَ لهُ   وقيل إنَّ عليكَ القيدَ قد ضاقا
أنّى غلبتَ وكنتَ الدهرَ ذا غَلَبٍ   للغالبين وللسُّبّاق سَبَّاقا
قلتُ الخطوبُ أذلتني طوارقُها   وكان عزمي للأعداءِ طرّاقا
متى رأيتَ صروفُ الدهرِ تاركةً   إذا انبرتْ لذوى الأخطارِ أرماقا

وشدة الخطوب ، وقوة الآلام ، وكثرة الهموم التى نزلت بالمعتمد في سجنه جعلته هو الآخر يتمنى الموت ، ويفضله على ذل الأسر وهوانه فيقول [٢] :

أليسَ الموتُ أروحَ من حياةٍ   يطولُ على الشقيِّ بها الشقاءُ ؟! .
فمن يكُ من هواهُ لقاءُ حِبٍّ   فإن هوَاىَ من حتفى اللقاءُ

وعذوبة الموت بفم أبى فراس في سجنه أعذب تصويرا ، وأقوى دلالة على كره حياة الذل والهوان في الأسر ، من الموت الذى يفضله المعتمد بن عباد على حياة الشقاء التى يحياها في أسره .

وعلى كل حال فلو قرأنا روميات أبى فراس ، وأسريات المعتمد لوجدنا أبا فراس قد أكثر من شعره في وصف هموم وآلام أسره وتصوير نفسه التى ذاقت الألم ، وتبدلت حالها بوجودها في أسر الروم ، بحيث نستطيع أن نقول : إنه تفوق في هذه الناحية على المعتمد بوجه عام .

---

١ - ديوان المعتمد ١١٠ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٠ .

ولعل السبب في ذلك أنه أراد أن يرقق قلب أقاربه في حلب والموصل ، وأولهم سيف الدولة ، وأن يصور لهم بوضوح ، وقوة مدى ما يلقاه في أسره . ومع ذلك لا يمكننا أن نقلل من شأن تلك الأوصاف التي صور بها المعتمد همومه وآلامه في الأسر ، فكلا الشاعرين أكثر من وصف آلام الأسر وعذابه ، وجاء وصفهما في هذا الباب طبيعيا لا مغالاة فيه ولا تهويل ، وإنما هو تسجيل لحقيقة واقعة وإن كنا نجد أبا فراس يتجاهل - في بعض الأحيان - ما كان يحس به في أسره ، وحاول أن يقف للأعداء في إباء وشموخ منكرا أن توهن عزيمته وأن تضعف قواه أمام أعدائه من الروم ، بالرغم من إكثاره من وصف همومه وآلامه ، ولكنه كان يحاول أن يغلف هذه الأوصاف بالحديث عن شجاعته وإبائه وشموخه ، وكثرة منازلته للأعداء .

- على أننا نرى الرجاء والأمل وظهور نوره أمام الشاعر يأخذ مكانه في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد . والرجاء " قوة نفسية ترفدها القيم الدينية والإنسانية وتصل قلب الشاعر بقوة الغيب التي هي فوق القوى جميعا ، فيستمد منها ثباتا مكيفا . وقوام الرجاء الإيمان بتغير مجرى الأحداث المتوقعة تغييرا فجائيا وهو منطق تقره طبيعة الأحداث نفسها التي تبدو للشعراء خارجة عن إرادة البشر ، وخاضعة للمفاجآت ".[1]

ولأن الصبر هو الطريق إلى الرجاء ، وهو الذي يؤدي إلى وجود الأمل وبقائه نجد أبا فراس والمعتمد قد تحدثا عن الصبر على ما يلقاه كل منهما في

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٤٨٥ .

سجنه من خطوب وأزمات ، لعل رجاءهما في الخلاص من هذه الخطوب والهموم يتحقق ، وأن يؤدى بهما الصبر إلى أمل كل منهما في الحرية وإطلاق سراحهما ، وهما في ذلك مثل غيرهما من الشعراء الذين أصيبوا بهذه النقمة . فالصبر من شيم الأحرار ، والصبر يستعين به المصدور على ما أصابه به الزمان، كما قال الفضل بن يحيي البرمكي في سجنه قبل موته : (١)

والصَّبرُ خيرُ معينٍ يستعانُ به ... على الزمانِ ومَنْ ذَا فيه لم يُصَبِ

وإن كنت أرى أن صبر الشاعر في مثل هذا الموقف هو صبر الإنسان البائس المكره الذى لم يترك له ظلام الأسر قبسا من الأمل ينفذ من خلاله إلى نور الحياة مرة أخرى ، فاستسلم إلى الصبر وأسند ما وقع به إلى الزمان والدهر أو إلى القضاء والقدر، حتى لا يقع في ظلام اليأس والانهيار بجانب ظلام الأسر والقيد . فهو يرى في الصبر بابا من الأمل وقدرة على المقاومة ، ونورا قد يأخذ بيده إلى الفرج بعد الشدة .

ومن حديث أبي فراس عن الصبر على آلام السجن وكرباته قوله في ختام قصيدة له إلى أخيه أبي الفضل يستزيره بها وهما أسيران :(٢)

يضيقُ عليَّ الحبسُ حتى تزورَه ... فما هو إلا روضةٌ وغديرُ
صبرتُ على هذى فما أنا بعدها ... على غيرِها مما صبرتُ قديرُ

---

١ - كتاب الوزراء والكتاب - لأبي عبد الله الجهشياري - تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - ط١/١٩٣٨م. ص ٢٦٠ .

٢ - ديوان أبي فراس ١٥٩ .

ويقول واصفا قلبه بأنه صبور لأنه استطاع أن يتحمل كل ما دهاه بـه سجنه من الغرم والآلام والجروح والأسر :[١]

مغـــرَمٌ مؤلمٌ جريحٌ أسيرُ إن قلباً يطـيقُ ذا لصَبورُ

ويعلن حين يمر بخرشنة أسيرا أنه سيكون صبورا على ما أصيب به مـن أسر وذل وقيد فيقول: [٢]

ولئن رميتُ بحادثٍ فلألفينَّ له صبورَا

وفي موضع آخر يوصى أمه بالصبر على ما أصابها بسبب بعده عنـها ، وأن تبتغى الأجر الجزيل على مصيبتها بصبرها عليها فيقول : [٣]

فيا أمتا لا تعدَمِـى الصـبرَ إنَّـه إلى الخيرِ والنجحِ القريبِ رسـولُ
ويا أمتا لا تحبطـى الأجـرَ إنـه على قدر الصبرِ الجميـلِ جزيـلُ
ويا أمتـا صـبرًا فكـلُّ ملمـةٍ تجلَّـى علـى علاَّتهـا وتـزولُ

وجميل من الشاعر - وهو مصاب -أن ينظر فيرى أمه أكبر مصيبة منـه فيوصيها بالصبر وابتغاء الأجر . وقد كرر أبو فراس وصيته لأمه بالصبر علـى ما أصيبت به من أسر ولدها ، وبعده عنها ، وكرر فيها نفـس المعـانى الـتى ذكرها في الأبيات السابقة فقال : - [٤]

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٧ .
٢ - ديوان أبي فراس ١١٦ .
٣ - ديوان أبي فراس ٢٥٣ .
٤ - ديوان أبي فراس ٣٥٥ .

والصبرُ يأتي كلَّ ذي رُزْءٍ على قدرِ الرزيَّةْ
يا أمتا لا تحزني وثقي بفضلِ الله فيَّهْ
يا أمتا لا تيأسي لله ألطافٌ خفيَّةْ
كم حادثٍ عنَّا جلاهُ وكم كفانا من بليَّةْ
أوصيكِ بالصبرِ الجميـ ـلِ فإنَّه خيرُ الوصيَّةْ

ومن حديثه عن الصبر قوله عن نفاد صبره بعد أن توالت عليه الرزايا ، وتتابعت عليه الكلوم ، وظل دهرا يعاني من هموم أسره في الليل والنهار :[1]

يعز على الأحبةِ بالشآمِ حبيبٌ بات ممنوعَ المنامِ
تبيتُ همومُه والليلُ داجٍ تقلّبُهُ على وخزِ السِّهامِ
يؤولُ به الصباحُ إلى صباحٍ ويُسلِمُه الظلامُ إلى الظلامِ
وإني للصَّبُورُ على الرَّزايا ولكن الكِلامَ على الكِلامِ

أما المعتمد بن عباد فقد أشار إلى لجوئه إلى الصبر ، والركون إليه بعد أن أصيب بما أصيب به من أسره وضياع ملكه . وذلك من خلال توجيه الحمد لله سبحانه وتعالى على حاله التي يعيشها في سجنه ، والتي تبدلت بها حياته من النقيض إلى النقيض في قوله :[2]

لكَ الحمدُ من بعدِ السيوف كبولُ بساقَيَّ منها في السجونِ حجولُ

فحمده الله - سبحانه وتعالى - ينم عن صبره واستمساكه به عسى الله أن

١ - ديوان أبي فراس ٣١٧ .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد ١١١ .

يجعل له من ضيقه مخرجا ، ومن همه فرجا . وقريب من هذا قـــول المعتمـــد في موضع آخر يخاطب نفسه :[١]

وطّنْ على الكره وارقُبْ إثرَه فرجًا واســـتغنم الله تغنَـــمْ منه غُفرَانا

- كما وصف كل من أبي فراس والمعتمد أرقه وعدم نومه في أسره . وهـــا هو أبو فراس ينظر إلى النجوم فيراها حائرة لا تهدأ فيشبه حالها بحاله حيث يظل حتى الصباح يرقبها لا تغمض له عين :[٢]

ما لِنجُومِ السماءِ حـــائرةٌ أحالُها في بروجها حـــالي ؟
أبيتُ حتى الصباح أرقبُـهَا مهتدياتٍ في حال ضـــلالِ
أما ترَاها علـــيَّ عاطفـــةً تكادُ من رقةٍ تبكـــي لي

ويذكر في أول رومية له يبعث بها إلى سيف الدولة ، وفى أول بيت منـــها أنه قد أمسى قريح الجفن مسهدا ، ولا يستطيع النوم إلا نوما قليلا متقطعـــا . يقول : [٣]

دعوتُك للجفن القريح المسهَّدِ لـــدىَّ وللنوم القليل المشرَّدِ

ويصف سهره وأرقه وعدم نومه في موضع آخر بأن الأكف تبيت تقلبـــه طوال الليل حتى لا يذوق طعم النوم ، فيبيت يرعى النجـــوم الســـائرات في السماء من وقت طلوعها أول الليل حتى أفولها في آخره.يقول مخاطبا ســـيف

١ - ديوان المعتمد ١١٥.
٢ - ديوان أبي فراس ٢٧٥.
٣ - ديوان أبي فراس ٩٦ -

الدولة : [١]

هلْ تعطفانِ على العَليــــلِ لا بالأســيرِ ولا القتيــــلِ
بــاتتْ تقلِّبُــه الأكــــفُ سحابةَ الليلِ الطويـــلِ
يرعى النجــــومَ السَّــائرا ت من الطلوعِ إلى الأفـولِ

ويذكر المعتمد بن عباد أن عينيه لم تذوقا طعم النوم في هــذا الســجن بسبب ما فيه من عقارب ملأت قلبه رعبا وخوفا منذ حل بهذا السجن ، ممـــا جعله لا يهنأ بنوم ولا ينعم براحة . يقول : [٢]

ويا عقــــاربَها لا تعدمي أبداً شجّاً وعقراً ولا نوعاً من الضررِ
كما ملأتِنَّ قلبي منذ حللتُ بها مخافةً أسلــمتْ عيني إلى السهرِ

وهكذا جاء الوصف لكل ما يتصل بحياة الشاعر في أسـره : فأعطانـا صورا عما كانت تمتلئ به حياة أبي فراس والمعتمد بن عباد في الأسر من ضيــق وبؤس ، وهموم وآلام وأرق ، حاول كل منهما تحملــها واحتمــال معاناتهـا باللجوء إلى الصبر والاستسلام لقضاء الله وقدرة.

ثانيا : التحسر

التحسر : هو إبداء الندم والأسف على ما وقع من الإنسان ، والحــزن على حاله وما يعيش فيه من آلام وهموم ، وبعد أن وقع ما وقع فيه من سوء . وذكر ابن منظور أن التحسر في اللغة : التلهف . والحسرة : أشد النــــدم[٣].

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٧٣ .
٢ - ديوان المعتمد ١٠٠ .
٣ - لسان العرب ـ مادة (حسر) .

فالمتحسر شديد التلهف إلى كشف ما به من غمة وأذى ، وهو شديد الندم على تساهله في أخذ الحيطة والحذر أثناء مواجهته لعدوه ، واستهانته بأمر العدو ، وتفريطه في حق نفسه حتى وقع ما هو فيه من مكروه .

وقد أبدى كل من أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد تحسره وحزنه على ما يلقاه كل منهما في أسره من عذاب وآلام ، وما سببه له وقوعه في الأسر من هموم وكرب ، وعبر كل منهما عن ذلك بشعر مؤثر ملئ بالحسرة والندم .

ومن ذلك في شعر الروميات قصيدة أبي فراس التى أرسلها إلى والدته ، يتحدث فيها عن بعض ما يلقاه في سجنه من آلام وعذاب.وكانت أصعب اللحظات التى يعيشها أبو فراس في أسره هى تلك اللحظات التى يتذكر فيها أمه ، حيث تكبر مصيبته ويحس بأن حياته لم يعد فيها شئ يسر.وحينئذ لا يجد إلا الصبر يتعزى به ، ويأمل في الأيام القادمة عسى أن تأتيه بالحرية التى يتمناها لتخلصه من هذا الألم الذى أضعف جسمه وأنحله - يقول أبو فراس الحمداني:(١)

مصابي جليلٌ والعزاءُ جميلُ　　وظنيّ بأن اللهَ سوف يديلُ
جراحٌ وأسرٌ واشتياقٌ وغربةٌ　　أحمّلُ ! إني بعدها لحَمُولُ
وإني في هذا الصباحِ لَصَالحٌ　　ولكنَّ خطبي في الظّلام جليلُ
وما نال مني الأسرُ ما تريانهِ　　ولكنني دامي الجراحِ عليلُ
جراحٌ تحاماها الأساةُ مخوفةٌ　　وسقمانِ : بادٍ منهما ودخيلُ

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٥٢ .

وأسرٌ أقاسيه ، وليـــلٌ نجومُــه أرى كلَّ شئٍ غـــيرهن يــزولُ
تطولُ بى الساعاتُ وهى قصـيرةٌ وفى كلِّ دهر لا يسرُّك طـــولُ
تناسانى الأصحابُ إلا عُصَيْبَــــةٌ ستلحقُ بالأخرَى غداً وتحـــولُ
أقلِّبُ طرفى لا أرَى غيرَ صـاحبٍ يميلُ مع النعماء حيـــثُ تميـلُ
وصِرْنا نرَى أن المتاركَ محسِــنٌ وأن صديقًا لا يَضِـــلُّ خليـلُ
وليس زمانى غـادرا بى وحــدَه ولا صاحبي دونَ الرجال ملــولُ
فيا حسرَتىَ منْ لى بخلٍّ موافِــقٍ أقولُ بشجوى مــرةً ويقــولُ

ففى هذه الأبيات يتحسر أبو فراس على ما هو فيه ، وما أصيب به من هموم وآلام ، ويذكر أن سبب هذه الآلام والهموم : جراح يعانيـها ، وأسـر يقاسيه ، وشوق إلى من يهوى ، وغربة موحشـة • وإن ليحس بالراحـة والطمأنية نهارا فإذا أقبل عليه الليل عظمت مصيبته لما يأتى به ليله من علـل وأسقام.وليس الأسر وحده سبب ما هو فيه ، وإنما جراحاته وعلله هى أهـم أسباب ذلك، فهى جراحات عميقة ، وعلل وأسقام كثيرة ، ويخـاف منـها الأطباء فهم يتحامونها مخافة العدوى بها • وتلك العلل والأسقام التى أصيب بها الشاعر تنقسم إلى نوعين : منها البادى الظاهر الخارجى ، ومنـها البـاطن الخفى المستتر فمنها الجسدية ومنها النفسية • ويأتى الأسر ليكمل ما يقاسى منهُ الشاعر.هذا الأسر الذى يجعل الشاعر مؤرقا لا يذوق طعم النوم في ليلـه الطويل الذى تأبى نجومه الأفول والزوال • مما يؤدى بالشاعر إلى الإحسـاس بطول الساعات التى يعيشها رغم قصرها عند غيره • ولكنها تمر عليـه هـو بطيئة طويلة لما فيها من أوجاع وآلام •

" وتبدو الحيرة في كلمات الشاعر ، الحيرة المعبرة عن اضطراب نفسي، وعدم ركون لحياة قاسية مؤلمة حتى تخاله يحسب الساعات أياما طوالا . بعدها انفض عنه الأهل والأصدقاء في سجنه البعيد ، ولم يبق سوى عواطف يحملها كلام رقيق وشعور مرهف ".(١)وعبارة (وأسر أقاسيه) التي عبر بها الشاعر بعد قوله (جراح تحاماها الأساة مخوفة) تدل على أن الشاعر كان مكلوما ، وأن جرحه كان واسعا رغم ما قد يبدو عليه من التجلد والتصبر.

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن سبب قوى من أسباب تحسره وهو تخلي الأصدقاء والخلان عنه في محنته . فقد تحاشاه الأصحاب إلا أقلهم الذين سيلحقون بغيرهم عن قريب . ويقلب الشاعر طرفه فيجد من كان يظنهم أصدقاء يميلون عنه مع النعماء حيث تميل ، وهذا ما يصيبه بالحسرة والندم ، فليس الزمان وحده الذى يغدر به وإنما أهل الزمان أشد غدرا ، وإنكارا للقيم.

وينتقل أبو فراس إلى الحديث عن سبب قوي آخر من أسباب تحسره وهو والدته وما أصيب به من حزن وبكاء لا ينقطعان ، ولذا يحاول الشاعر التخفيف من عذابها وآلامها ، ويدعوها إلى التصبر والتجلد والتأسي بغيرها من النساء الصحابيات الصابرات ، أمثال : أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين،وصفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ حتى تنكشف عنها هذه الغمة:

وإن وراءَ الستر أمًّا بكاؤُها ... عليَّ وإن طالَ الزمانُ طويلُ

---

١ - أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير - محمد رضا مروة ٩٥ .

فيا أمتا لا تعدمي الصبرَ إنه | إلى الخير والنجحُ القريبُ رسولُ
ويا أمتا لا تحبطي الأجرَ إنه | على قدر الصبر الجميل جزيلُ
ويا أمتا صبرًا فكلُّ ملمةٍ | تجلَّى على علاتها وتزولُ
أما لك في " ذات النطاقين " أسوةٌ | بـ " مكة " والحربُ العوانُ تجولُ
أراد ابنها أخذَ الأمان فلم تُجِبْ | وتعلمُ علمًا أنه لقتيلُ
تأسَّيْ كفاكِ اللهُ ما تحذرينَهُ | فقد غالَ هذا الناسَ قبلكِ غولُ
وكوني كما كانت بـ"أُحُدٍ" "صفيةٌ" | ولم يشفِ منها البكاءُ غليلُ
ولو رُدَّ يومًا " حمزةَ الخيرِ " حزنُها | إذا ما عَلَتْها رنةٌ وعويلُ

وكان الشاعر قبل أن تنزل به مصيبة الأسر ينزل المصائب المتوالية بالروم ، وكان مقاتلا يصول ويجول ، ويبث الرعب في نفوس الأعداء ، أما الآن فقد أصبح مقيدا ذليلا جريحا غريبا ، وهذا داع آخر من دواعي تحسره وحزنه :

وما أثري يومَ اللقاءِ مُذمَّمٌ | ولا موقفي عندَ الإسارِ ذليلُ
لقيتُ نجومَ الأفق وهي صوارمٌ | وخضتُ سوادَ الليل وهو خيولُ
ولم أرعَ للنفس الكريمةِ خلَّةً | عشيةَ لم يعطِفْ عليَّ خليلُ
ولكن لقيتُ الموتَ حتى تركتُها | وفيها وفي حدِّ الحسامِ فلولُ

ولشدة ما أبداه أبو فراس في هذه القصيدة من أسى وحسرة ، وصفه الدكتور زكي مبارك بأنه كان في هذه القصيدة بمثابة " قائد عظيم يذله الأسر

حتى يعود طفلا يتوجع من جراحه ويشكو لأمه "[١].

ومما يدل على أن والدة الشاعر كانت سببا من أسباب تحسره وحزنه كلما تذكرها وتذكر ما حل بها من أوصاب وآلام ، ونحول وهزال ، أننا نراه نراه يبعث لها بالرسالة تلو الرسالة من شعره يبثها آلامه وأوجاعه ، ويفضي إليها بشكواه ونجواه ، ويتحدث عن آلامها وما أصيبت به بعد أسره ، فقد كان يعز عليه أن ينتهي الأمر بهذه الأم إلى ما أصبحت عليه ، ومن رسائله التى ملأها بالحسرة والتحسر على ما أصيبت به هذه الأم قصيدته التى أنشدها وبعث بها إلى سيف الدولة بعد أن علم أن والدته قد انتقلت من منبج إلى حلب لترجو سيف الدولة فداء ولدها ، ولكنه ردها دون أن يلبي طلبها ، وقد بدأها أبو فراس بإعلان حسرته فقال : [٢]

يا حسرةً ما أكادُ أحملُها	آخرُها مزعِجٌ وأولُهَا
عليلةٌ بالشام مفردةٌ	باتَ بأيدى العِدا معلّلُها
تمسكُ أحشاءَها على حِرَقٍ	تطفئُها والهمومُ تشعلُها
إذا اطمأنَّتْ - وأينَ - أو هدَأَتْ	عنَّت لها ذِكرةٌ تقلقلُهَا

أرأيت حسرة الشاعر على أمه وهي تبدو من خلال كلمات وعبارات هذه الأبيات ؟ ! إنها ولا شك نفثة مصدور خرجت من قلب الشاعر وقد حطمه منظر هذه الأم التى تقطع المسافات الطويلة من منبج إلى حلب وهي

---

١ - الموازنة بين الشعراء ص ٢٧٢ .
٢ - ديوان أبى فراس الحمدانى ٢٦٣ .

مريضة مسنة ترجو تحقيق أملها من الأمير في تخليص ولدها من أسر الـروم ، أو حتى الوعد منه بتحقيق ذلك عن قريب ، ولكنها تفاجأ برد الأمير على غير ما كانت تتوقع فازدادت ألما ومرضا ، وعظمت مصيبتها في ولدها ، هـذه الأم الحزينة لا تنفك تسأل الركبان والمسافرين عن ولدها ، من أجـل الاطمئنـان عليه رغم ما بها من علة ومرض .

ويرى الشاعر أنه لا شفاء لهذه الآم من علتها ومرضـها إلا برجـوع ولدها (معللها) إليها بإطلاق سراحه . ويمزج هذا الموقف العصيب بفخـره بنفسه فيذكر بعض صفاته من خلال سؤال أمه عنه ، فهى تسأل عـن أسـد هصور ، وفارس مغور ، ومحارب مقدام :

تسألُ عنا الركبـانَ جـاهدةً ... بـأدمعٍ مـا تكـادُ تمهلُـهَا
يا مَنْ رأى لى بحصنِ خرشـنةٍ ... أسدَ شرًى في القيـودِ أرجلُـهَا
يا منْ رأى لى الدروبَ شـامخةً ... دونَ لقـاءِ الحبيـبِ أطولُهَـا
يا مَنْ رأى لى القيودَ موثقـةً ... على حبيـبِ الفـؤادِ أثقلُـهَا

وتكرار السؤال بعبارة (يا من رأى لى) مع تكرار تسمية ابنها بـالحبيب، أو بحبيب الفؤاد ما يزيد الحسرة والألم في نفس الشاعر والأم التى تتمنى أن تجد من (يرى لها) حبيب قلبها ويخبرها عن أحواله .

ويحاول الشاعر أن يخفف من آلام أمه ويدخل على قلبها بعض الطمأنيـة والسكينة ، فيرسل إليها مع بعض الراحلين ما يهدئ من روعها بأن الدنيـا لا تدوم على حال ، وأن الإنسان فيها لا يستقر به مقام ، فعليها أن تتوقع كـلا

الأمرين الشر والخير من هذه الدنيا في كل وقت ومكان :

يا أيُّها الراكبانِ هل لكُمَا ... في حمل نجوَى يخفُّ محمَلُها

قولا لها إنْ وعَتْ مقالَكمَا ... وإن ذكرِي لهـا ليذهلُهَا

يا أمتَا هذه منازلُنَا ... نتركُهَا تارةً ونترلُهَا

يا أمتَا هذه مواردُنَا ... نعلُّها تارةً وننهلُهَا

أسلمَنا قومُنَا إلى نُوَبٍ ... أيسرُها في القلوب أقتلُهَا

واستبدَلُوا بعدَنا رجالَ وغًى ... يودُّ أدنى علَاى أمثلُهَا

وعبارة (إن وعت مقالكما) توحي بشدة تحسر الشاعر وقوة ألمه لما وصلت إليه حال الأم بسبب بعده عنها ، فقد أضحت بحالة من العمى والمرض قد لا تسمح لها بوعي ما يتردد على مسامعها . كما يوحي قوله :

أسلمنَا قومُنا إلى نُوَبٍ ... أيسرُها في القلوبِ أقتلُهَا

بشدة وطأة الأسر على نفس الشاعر وعظم مصيبته التي أصيب بها بأسره .

ولوعة الشاعر وتحسره وحزنه لبعده عن أمه ، ثم ضيقه وألمه لمرض والدته ، جعله كل هذا ينطق بهذه الأبيات المليئة بالحسرة وبهذه الصور المفعمة بالحزن والألم . ومن روميات أبي فراس في التحسر قصيدته اللامية البارعة التي امتلأت بوجدانيته الشفافة والتي نالت إعجاب النقاد ، لما بثه الشاعر فيها من صراع نفسي حقيقي بين الضيق بهذا الأسر وما فيه من ذل ويأس ، وبين الأمل

في الحرية وعودة العزة والعنجهية في بلاط الإمارة الحمدانية .

تلكم هي قصيدته القصيرة التي قالها بعد أن سمع حمامة تنوح على شجرة عالية قريبة من مكان أسره فذكرته بحاله وبما هو فيه من أسر وضيق ، فخاطبها طالبا منها أن تكف عن النواح ، فلم يصبها ما يستدعي بكاءها ، والجدير بالبكاء إنما هو الشاعر ، إذ كيف يتأتى منها البكاء وهي حرة طليقة تتنقل بها قوا دمها على الأغصان العالية ، في الوقت الذي يتجالد هو فيه وهو المليئ بالهموم والأوصاب ، والتي جعلته عبارة عن إنسان ضعيف الروح نحيف البدن ، بالي الجسم ، أسيرا محزون النفس . فلو عقدت مقارنة بين حال الشاعر وحال هذه الحمامة لتبين أنه أولى بالدمع والحزن والنواح ، ولكن الشاعر يتجالد وتأبى دموعه أن تسيل لأن دموعه في الحوادث غالية. يقول:[1]

أقولُ وقد ناحتْ بقربي حمامةٌ	أيا جارتَا هل تشعُرين بحالِي ؟
معاذَ الهوى ما ذقتِ طارقةَ النّوَى	ولا خطرتْ منك الهمومُ ببالِ
أتحملُ محزونَ الفؤادِ قوادمٌ	على غُصنٍ نائي المسافةِ عالِ ؟
أياجارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننَا	تعالَيْ أقاسِمْكِ الهمومَ تعالِي
تعالَيْ ترَيْ روحًا لدىَّ ضعيفةً	تردَّدُ في جسمٍ يعذَّبُ بالِ
أيضحكُ مأسورٌ وتبكِي طليقةٌ	ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالِ ؟
لقد كنتُ أولَى منك بالدمعِ مقلةً	ولكنَّ دمعِي في الحوادثِ غَالِ

وهذه القصيدة مليئة بالحسرة والألم التي تبدو من خلال المقارنة بين حال

١ - ديوان أبي فراس الحمداني ٢٨٢ .

الشاعر الأسير وحال تلك الحمامة الحرة الطليقة . وقد برع الشاعر في قصيدته ، إذ جعلها تدور " داخل حوار إنساني رقيق العاطفة الجياشة بالحزن بينه وبين حمامة طليقة فوق أغصان شجرة قريبة من السجن ، يحكي لها حكاية المرارة التي تعصره وهو الأمير المدلل الرابي فوق أغصان التنعم والسيادة حيث يلفي نفسه الآن مهانا ، مهيض الجناح بينما جناحها يرفرف في سماء الحرية والانعتاق ".[1]

ويبدو التحسر في شعر الأسر عند أبي فراس في تلك القصيدة اللامية الأخرى التي بعث بها إلى سيف الدولة ، والتي بدأها بقوله :[2]

هلْ تعطفانِ على العليلِ	لا بالأسيرِ ولا القتيلِ
باتتْ تقلِّبُه الأكفُّ	فُ سحابةَ الليل الطويلِ
يرعَى النجومَ السائرا	تِ من الطلوعِ إلى الأفولِ
فقدَ الضيوفُ مكانَه	وبكاهُ أبناءُ السبيلِ
واستوحشَتْ لفراقِهِ	يومَ الوغَى سربُ الخيولِ
وتعطلتْ سمرُ الرما	حِ و أغمدتْ بيضُ النصولِ

ونرى حسرة الشاعر هنا تنبع من قلب إنسان أسير بقي في سجنه دون افتداء ، وطال به الأسر والظلم حتى بات عليلا مرهقا ، ومما يلقى في سجن من ألم و عذاب.ولذا نراه يطلب العطف من ابن عمه سيف الدولة بانكسار

١ - أبو فراس الحمداني شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ١١١ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٧٣ .

وذل . فهو لم يعد يعيش كالآدميين ، بل يصاحبه في أسره الأرق والسهر وعدم النوم . ولقد تطاول ليله إلى ما لا نهاية ، وأصبح وحيدا ذليلا بعد أن كان إنسانا كريما ، رفيع المكانة ، حتى إن أبناء السبيل بكوه بعد فراقه لهم ، لانقطاع أرزاقهم .

ومن شعر الأسر عند أبي فراس في باب التحسر قوله متحدثا عن العيد الذى أطل عليه وهو أسير فى بلاد الروم :[1]

يا عيدُ ما عدتَ بمحبوبِ	على مُعَنَّى القلبِ مكروبِ
يا عيدُ قد عدتَ على ناظرٍ	عن كل حسنٍ فيك محجوبِ
يا وَحْشةَ الدار التى ربُّها	أصبحَ في أثوابِ مربوبِ
قد طلعَ العيدُ على أهلِهِ	بوجه لاحُسْنٍ ولا طيبِ
مَالى وللدهرِ وأحداثِهِ	لقد رمانى بالأعاجيبِ

لقد صاغ الشاعر أبياته هذه بألفاظ عذبة ، تخللتها عاطفة شاعر حزين رهيف الحس .كما اتسمت الأبيات بسهولة التعبير عما تمتلئ به نفس الشاعر ، وبالأسلوب البعيد عن التكلف المصور لموقف الشاعر من هذا العيد الذى لم يعد يحس فيه بنوع من الفرحة أو السرور . وكيف يفرح من هو معنى القلب مكروب ؟ إن الشاعر يرى أن وجه العيد قد تغير بتغير نظرته هو إليه فأضحى يهل على أهله بوجه بعيد عن الحسن والطيب .

ويتحسر أبو فراس على فقده السرور ، وملازمة الألم والحزن لفؤاده المفجع ،كما يتحسر على أيامه الخالية التى كانت تمتلئ بالصحبة الطيبة

[1] - ديوان أبى فراس ٥٤ .

والأصدقاء الأوفياء والجلسات الهانئة ، فقد مر عليه في أسره ببلاد الروم عامان ولم ير من يحزن لحزنه ، أو يقف بجانبه ، ولم يحس بوفاء واحد من هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا يملأون حياته بهجة وسرورا. يقول : [١]

أما ليلةٌ تمضي و لا بعضُ ليلةٍ ... أسرُّ بها هذا الفؤادَ المفجَّعا

أما صاحبٌ فردٌ يدومُ وفاؤهُ ... فيصفِي لمن أصفَى ويَرعَى لمَن رَعَى

أفي كلِّ دارٍ لي صديقٌ أودُّهُ ... إذا ما تفرَّقنا حفظتُ وضيَّعا

أقمت بأرض الروم عامين لا أرَى ... من الناس محزونًا ولا متصنِّعَا

إذا خفتَ من أخوالي الروم خطَّةً ... تخوَّفتُ من أعمامي العربِ أربعَا

وإن أوجعتْني من أعاديَّ شيمةٌ ... لقيتُ من الأحباب أدهَى وأوجَعَا

وكثيرا ما يبدى أبو فراس أسفه وتحسره ، وحزنه على عدم وفاء الأصدقاء وتخليهم عن وقوفه بجانبه في محنته ، وبعدهم عن السؤال عنه والتخفيف من شدته .

وهذه أبيات أخرى يتحسر فيها أبو فراس على مواقفه الشجاعة في ميادين القتال بجوار ابن عمه سيف الدولة ، وعلى عدم تمكنه من المشاركة في تلك الأعمال المجيدة ، والموا قف المشرقة ، بعد أن أصبح أسيرا مقيدا ممتنع الحراك.يقول في قصيدته التي بعث بها إلى سيف الدولة يعلمه بخروج جيش الروم إلى الشام ، ويحرضه على الاستعداد ، ويذكره بنفسه وبموافقه معه: [٢]

أصبحتُ ممتنعَ الحراكِ وطالَمَا ... أصبحتُ ممتنعًا على الأقرانِ

ولطالمَا حطَّمتُ صدرَ مثقَّفٍ ... ولطالمَا أرعفتُ أنفَ سنانِ

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٠٩ .

٢ - ديوان أبي فراس ٣٤٠ .

ولطالما قدتُ الجيادَ إلى الوغى ... قُبَّ البطون طويلةَ الأرسانِ[١]
وأنا الذى ملأَ البسيطةَ كلَّها ... نارى وطنَّبَ في السماءِ دخانِى
أعززْ علىَّ بأن يُخَلَّ بموقفى ... ويحلَّ بين المسلمين مكانِى

هذه بعض الأمثلة من روميات أبى فراس في غرض التحسر . ونلحظ عليها وعلى غيرها من شعره في هذا الباب أنه دائما يمزج تحسره وحزنه بالفخر بأخلاقه وشجاعته ، أو يتبعه بالتغنى ببطولاته وبأعماله الجيدة حتى يصور لنا الهوة العميقة بين ما كان عليه قبل الأسر من مجد وعزة ، وما أصبح فيه بعد الأسر من ذل وانكسار . وبالتالى يمكننا الإحساس بحزن الشاعر وندمه على نتيجة ما وقع فيه من أسر .

وقد أكثر المعتمد هو الآخر من التحسر على ما أصابه ، والتعبير عن حزنه وألمه وهمومه . فها هو يتحسر على ما ضيه الذى كان فيه عزيزا تحت ظل البنود ، ويتخذ من الحديد رمحا نافذا وسيفا صارما . أما الآن فقد أصبح أسيرا مكبلا يذوق ذل الحديد ، وثقل القيود ، وتحول ذلك الحديد الذى كان يتخذ منه سيفا ورمحا إلى قيد حديدى يعض بساقيه عض الأسود يقول : [٢]

تبدَّلتُ من عزِّ ظل البنود ... بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدى سناناً ذليقاً ... وعضْباً رقيقاً صقيلَ الحديد
فقد صار ذاك وذا أدْهَماً ... يعضّ بساقىَّ عضَّ الأسود

وفي موقف آخر يتحسر المعتمد على ما أصابه في أسره من ذل وفقر

---

[١] - قب البطون : ضامرة البطون . الأرسان : جمع رسن وهو اللجام .
[٢] - ديوان المعتمد ٩٤ .

ويقارن حاضره بماضيه ، وذلك حينما وصف حاله عندما زاره في أسره بعض شعراء المغرب الذين سألوه عسيراً،بعد أن أصبح أسيراً لا يملك شيئاً،ولولا الحياء لسألهم ما سألوه،فهو أحق منهم بالسؤال.ولكن عزته التي ورثها عن أسرته العريقة تأبى عليه ذلك ، فقد كان يجزل العطاء لأمثالهم ، ويسرع إلى إجابة داعي الحرب فور سماع النداء . يقول: (١)

شعراءَ طنجةَ كلُّهم والمغربِ ... ذهبوا من الإغرابِ أبعدَ مذهبِ

سألوا العسيرَ من الأسيرِ وإنَّه ... بسؤالهم لأحقُّ منهمْ فاعجبِ

لولا الحياءُ وعزَّةٌ لخميَّةٌ ... طيَّ الحشا ساواهُمُ في المطلبِ

قد كان إنْ سُئلَ الندى يجزِلْ وإنْ ... نادى الصريخُ ببابه اركبْ يركبِ

وكما أهاجت الحمامة بنواحها حسرات أبي فراس وأحزانه فقد أهاج حسرات المعتمد وأحزانه سرب من القطا اجتاز مكان أسره فرآها تسرح في الجو ، وتطير فرحة بحريتها ، وانطلاقها،فتنكد بما هو فيه من الوثاق ، والبعد عن أحبته وخلانه ، وما يقاسيه من كبله وقيوده،وتذكر في بناته وأولاده وافتقادهم إلى نعيم عهدوه ، وترف قد نشأوا فيه وألفوه . يقول: (٢)

بكيتُ إلى سربِ القَطَا إذ مررنَ بي ... سوارحَ لا سجنٌ يعوقُ ولا كَبْلُ

ولم تكُ -واللهِ المعيذُ- حسادةً ... ولكنْ حنينًا أنَّ شكلي لها شَكْلُ

فأسرَحُ لا شملي صديعٌ ولا الحشَا ... وجيعٌ ولا عينايَ بكيهما ثُكْلُ

هنيئًا لها أن لم يفرَّقْ جميعُها ... ولا ذاقَ منها البعدَ من أهلها أهلُ

وإن لم تبتْ مثلي تطيرُ قلوبُها ... إذا اهتزَّ بابُ السجن أوصلصَل القفلُ

---

١ - ديوان المعتمد ٩١ .

٢ - ديوان المعتمد ١١٠ .

وما ذاكَ مما يعتريني وإنما ... وصفتُ الذى في جبلةِ الخلقِ من قبلُ

لنفسِى إلى لُقيَا الحِمام تشوُّقٌ ... سوايَ يحبُّ العيشَ فى ساقِهِ حَجْلُ

ألا عصمَ اللهُ القطَا في فراخِها ... فإنَّ فراخِى خانَها الماءُ والظِّلُّ

فهو يقارن حاله بحال هذا السرب من القطا ، ويتمنى أن لو كان حاله كحالها ، فهو يغبطها على ما هى فيه من حرية وانطلاق ، لا سجن يعوق ولا كبل وما هى فيه من اجتماع شمل ، وبعد عن الغربة والخوف . أما هو فأسير مقيد بعيد عن أهله ووطنه وأولاده ، وقد تفرق شملهم ، وتشتت جمعهم ، بجانب ما يعيش فيه من خوف وقلق.فهو يتمنى أن يأتى عليه يوم يعيش فيه حرا طليقا ، لا شمله صديع ، ولا قلبه وجيع ، ولا عيناه تبكيان من ثكل الأحبة . فإذا كان هذا مستبعدا فالموت أروح لنفسه ، وأحب إليها مما هي فيه من قيود وأوجاع وأوهام .ويختم المعتمد قصيدته بالدعاء للقطا بأن يعصم الله فراخها ، ولا يحدث لها ما حدث لأولاده الذين ثكل بعضهم ، وتفرق أحياؤهم ، وتشتت شملهم في أسره من جهة ، وفي تمنيه أن تعود إليه حريته ، ويلتئم شمله ، ويعيش حياة بعيدة عن المنغصات كما يعيش سرب القطا من ناحية أخرى . وهو بذلك يتفوق على أبي فراس فى موقفه من حمامته التى ناحت بالقرب من سجنه ، فقد اكتفى ببيان أنه أحق وأولى منها بالبكاء. لما يحس به من هموم وآلام لا تحس هي بها ، ولم يعرب عن تمنيه أن يأتى عليه يوم وهو حر طليق يتنقل من مكان إلى مكان وهو فرح هانىء وليس وهو حزين باك مثلها .

وكما أبان أبو فراس عن شعوره وإحساسه بالعيد الذى مر عليه وهو في الأسر ، وجعله مناسبة لإظهار تحسره وحزنه ، أبان لنا المعتمد في شعر مؤثر

عن شعوره وحالته وحالة أولاده في أول عيد يمر عليهم بعد انتزاع ملكهم وتشتت شملهم.فقد دخل عليه في هذا اليوم من بنيه وبناته من يسلم عليه ويهنئه بالعيد ، فرأى بناته وعليهن أطمار ، وهن يبكين ويبدين الخشوع بعد التخايل ، وقد غير الضياع والشتات صورهن ، وحير نظرهن ، وأقدامهن حافية ، وآثار البؤس عليهن بادية ، بعد أن أصبحت آثار نعيمهن بالية ، فنظر إليهن المعتمد وقال : [١]

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورَا ... فساءكَ العيدُ في أغماتَ مأسورَا

ترى بناتك في الأطمارِ جائعةً ... يغزِلْنَ للناس لا يملكْنَ قطميرَا

برزْنَ نحوَك للتسليم خاشعةً ... أبصارُهنَّ حسيراتٍ مكاسيرَا

يطأنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ ... كأنها لم تطَأْ مسكًا وكافورا

لا خدَّ إلا ويشكو الجدبَ ظاهرُهُ ... وليس إلا مع الأنفاسِ ممطُورَا

أفطرتَ في العيدِ لا عادتْ إساءتُه ... فكان فطرُك للأكبادِ تفطيرَا

قد كان دهرُك إن تأمرُه ممتثلاً ... فردَّك الدهرُ منهيًّا ومأمُورا

من باتَ بعدَك في ملكٍ يُسَرُّ به ... فإنما باتَ بالأحلامِ مغرورا

وقد أبدع المعتمد في هذه الأبيات واستغل المناسبة لإظهار عظيم تحسره وشدة أسفه وحزنه ، وجاء شعره في هذا المعنى أقوى من شعر أبي فراس فقد مزج تحسره على نفسه وعلى ما حدث له هو بحسرته على ما حدث لأهله وبناته ، وأتى بصور لبناته وأهله يتفطر لها القلب حزنا وألما ، فلم يكتف

---

١ - ديوان المعتمد بن عباد ص ١٠٠ .

بتصوير موقفه الشخصي من العيد ، كما فعل أبو فراس الذى اكتفى بالحديث عن يوم العيد وشكله في بلاد أصبح ربها أسيرا ، وعن عدم إحساسه فيه بالفرحة والسرور - وإنما أعطانا صورا حزينة لبناته في هذا اليوم بعد أن نالهن ما بدل حالهن . ولم ينس المعتمد أن يذكرنا بماضيه هو وما آل إليه أمره هو الآخر بعد الأسر ، وهو بذلك قد جعل من العيد مناسبة للحزن والتحسر .
ولعل المعتمد يشير بالبيت :

يطأْنَ في الطينِ والأقدامُ حافيةٌ كأنَّها لم تطأْ مسْكًا وكافُورا

إلى قصته المشهورة مع زوجته الرميكية الملخصة في قوله : ﴿ ولا يوم الطين ؟ ! ﴾ " وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين ، فاشتهت المشي في الطين ، فأمر المعتمد فسحقت أشياء من الطيب ، وذرت في ساحة القصر حتى عمته ، ثم نصبت الغرابيل ، وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين ، وخاضتها مع جواريها ، وغاضبها في بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه خيرا قط : فقال : ولا يوم الطين ؟! فاستحيت واعتذرت ، وهذا مصداق قول نبينا ﷺ في حق النساء : (لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ، ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط ﴾ ... ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ما جرت به عادة الملوك من ذر الطيب في قصورهم حتى يطؤوه بأقدامهم زيادة في التنعم ".[1]

ومن شعر المعتمد في باب التحسر قوله من قصيدته الطويلة التى أنشدها

---

١ - نفح الطيب ٤ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

بعد أن طلب حين قدومه أغمات من حواء بنت تاشفين خباء عارية ، واعتذرت بأنه ليس عندها خباء فكبر ذلك على نفسه ، ونظم هذه القصيدة ، وبدأها بالتحسر على ما وصل إليه حاله فقال : (١)

همُ أوقدوا بين جنبيكَ نارًا	أطالوا بها في حشاك استعارا
أما يخجلُ المجدَ أن يرحلو	ك. ولم يصحبوك خباءً مُعَارا
فقد قنّعوا المجد إن كان ذا	ك.– وحاشاهمُ – منكَ خزيًا وعارًا
يقلّ لعينيكَ أن يجعلوا	سوادَ العيونِ عليكمْ شعَارا

فهو يتحسر على حاله التي وصل إليها ، فقد كان عزيزا مصابا ، مصانا ماجدا ، وفجأة يرى نفسه مهانا مقيدا ذليلا ، ولا يمنون عليه بخباء عارية بعد أن كان يتنقل منعما بين قصور منيفة مليئة بالترف والنعيم .

ودخل عليه السجن يوما ولده أبو هاشم - وكان أصغر أولاده وأحبهم إليه لصغره – فرأى القيود وقد التوت على ساقيه وكان عهده به متربعا على سرير الملك أو ممتطيا صهوة جواده ، تخفق عليه الألوية ، وتحف به الأبطال ، فلم يستطع الملك الأسير أن يخفى تأثره ، ولا أن يمنع عبراته فقال : (٢)

قيدى أمَا تعلمُني مسلمَا	أبيتَ أن تشفقَ أو ترحمَا
دمى شرابٌ لكَ واللحمُ قد	أكلتَه لا تهشِم الأعظُمَا
يبصرُنى فيك أبو هاشمٍ	فينثنى القلبُ وقد هشِّما

١ - ديوان المعتمد ٩٧ .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد ١١٢ .

ارحمْ طفيـــلاً طائشـــاً لبّـــه لم يخشَ أن يـــأتيك مســـترحِمَا
وارحمْ أُخيـّـاتٍ لــه مثلــهُ جرَّعتــهُنَّ الســمَّ والعلقمَـا
منهن من يفهمُ شـيئاً فقــد خفنَا عليــه للبكــاءِ العمَــى
والغــيرُ لا يفهم شيئًا فما يفــتحُ إلا لرضـــاعٍ فَمَا

وتحسر الشاعر وألمه في هذه الأبيات ليس مصدره الحزن على نفســه ، وما آل إليه أمره وحده ، وإنما يتحسر ويألم لألم ابنه وأخواته الذين تعودوا على رؤية والدهم على هيئة من المجد والأبهة والعظمة ، ولذا قالوا لديخشىعلى بناته اللاتي يدركن حقيقة ما وقع فيه من ذهاب البصر من فرط البكاء ، أما اللاتـي لا يدركن شيئا من هذه الحقيقة فرضيعات لا يقدرن أن يتحملن شــيئا مــن الأذى والمكروه . ولذا فالجميع محتاجات ـ ومعهن أخوهن الصغير - إلى الرحمة والعطف من هذا القيد ، وأن يبقي لهن الوالد الذى شرب دمه ، وأكل لحمه ، ولم يبق منه إلا العظم .

ولما فقد المعتمد من يجالسه بعد أن دخل سجنه ، وبعد عنه مــن كــان يؤنسه وتمادى كربه ، ولم تسالمه حربه قال : [١]

تؤمّلُ للنفـــس الشـــجية فرجَــةً وتأبى الخطوبُ الســودُ إلا تماديَــا
لياليكَ من زاهيكَ أصْفى صحبتَها كذا صحبتْ قبلَ الملـوكِ اللياليَـا
نعــيمٌ وبـــؤسٌ ذا لذلك ناسخٌ وبعـــدهما نسخُ المــنايا الأمانيا

---

١ - ديوان المعتمد ١١٧ .

ونلحظ المعتمد في هذه الأبيات وقد غلبه اليأس ، وأطبقت عليه الأحزان ، وتبددت آماله في العودة إلى ملكه وقصوره ، وأصبح قرين الوحدة والبؤس والمسكنة ، بعد أن توالت عليه الخطوب الجسام التى لم يكتف بجعلها خطوبا وإنما جعلها خطوبا سودا زيادة في ألمها وشدة تأثيرها .

ولما امتدت في الثقاف مدته ، واشتدت عليه قسوة الكبل وشدته ، وأقلقته همومه ، وأطبقت عليه غمومه ، وتوالت عليه الشجون ، وطالت لياليه الجون قال : (١)

أنباءُ أسرِك قد طبَّقْنَ آفاقَا ... بل قد عمَّمْنَ جهاتِ الأرض إقْلاقا
سَرَتْ من الغرب لا يُطوَى لها قَدَمٌ ... حتى أتتْ شرَقَها تنعاكَ إشرَاقا
فأحرَقَ الفجعُ أكبادًا وأفئدةً ... وأغرقَ الدمعُ آماقًا وأحداقا

واتفق أن حضر إليه في سجنه الوزير الأندلسى ابن زهر الإشبيلى - وكان طبيبا - لعلاج إحدى بناته ، وقام ابن زهر بعلاجها على الوجه الأكمل ، ورفع من قدر المعتمد بالتبجيل ، ودعا له بطول البقاء ، فكتب إليه المعتمد : (٢)

دعَا لى بالبقاءِ وكيفَ يهوَى ... أسيرٌ أن يطولَ به البقَاءُ
أليسَ الموتُ أروحَ من حياةٍ ... يطولُ على الشقيِّ بها الشقَاءُ
فمن يكُ من هواهُ لقاءَ حِبٍّ ... فإن هوايَ من حتفِى اللقاءُ

١ - ديوان المعتمد ١١٠ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٠ .

أأرغبُ أنْ أعيشَ أرى بنـــاتي ... عواريَ قد أضرَّ بهـــا الجفَـاءُ ؟

خوادمَ بنت من قد كان أعْلَــى ... مراتبه – إذا أبــدو – النــداءُ

وطردُ الناس بين يديْ ممـــرِّي ... وكفُّـــهُمُ إذا غَــصَّ الفِنَـــاءُ

وركضٌ عن يمـــينٍ أو شمـــالٍ ... لنظم الجيش إن رفع اللـــواءُ

يعيـــنِّيه أمـــــــامٌ أو وراءٌ ... إذا اخـــتل الأمـــامُ أو الوراءُ

وتحسر المعتمد ولوعته في هذه الأبيات يتمثل مصدرها فيما حدث لبناته من ذل ومهانة وانكسار ، ثم في تذكره لماضيه وهيبته وعظمته فيه .

وجاء في قلائد العقيان : [1] " كانت طائفة من أهل فاس قد عاثوا فيـــها فسادا ...... إلى أن تدارك أمير المسلمين – رحمـــه الله – أمرهـــم ... وســـجنهم بأغمات ... والمعتمد إذ ذاك معتقل هناك ، وكان فيهم طائفة شعرية مذنبـــة أو برية ، فرغبوا إلى سجانهم أن يستريحوا إلى المعتمد ... إلى أن شـــفع فيـــهم ... وانفرج لهم مبهم إغلاقهم ... وبقي المعتمد في محبسه يتشكى من ضيق الكبـــل ... فدخلوا عليه مودعين ... فقال :

أَمَا لانسكابِ الدمع في الخدِّ راحةٌ ... لقد آنَ أنْ يفنى ويفنىَ بـــه الخـــدُّ

هبوا دعوةً يا آلَ فـــاسٍ لمبتلًــى ... بما منه قد عافاكُمُ الصمدُ الفـردُ [2]

وهذا بعض ما قاله المعتمد في أسره من شعر يدخل في باب التحسر وهو كثير .

---

١ – للفتح بن خاقان – مطبعة التقدم العلمية بمصر – ١٣٢٠هـ ص ٢٧ ، ٢٨ .
٢ – الأبيات بديوان المعتمد ص ٩٤ .

ونلاحظ أن المعتمد في تحسره غالبا ما يعتمد على إبـــراز حالـــة أهلـــه وأولاده والحديث عما أصابهم من هموم وآلام وذل وتشرد ، بعد القضاء على سلطانه وأسره،حتى يكون تأثير شعره قويا في نفوس من يقــــرأه ، فيجعلــــهم يتعاطفون معه ويرقون لحاله وحالهم بعد أن يشجيهم بالصور المعبرة والعبــارات المؤثرة .

ثالثا : الشوق والحنين :

" الاغتراب عن الوطن والأهل مما يحرك المشاعر الإنســـانية عمومـــا ، فضلا عن مشاعر الشعراء الذين يتمتعون بحساسية مرهفـــــة ويمتلكـــون أداة التعبير عن هذه المشاعر حيث يصوغونها شعرا حيا نابضا بالصدق ينفسون بـــه عن مشاعر الغربة والوحشة . ولا يدرك الشوق إلا من يكابده " .[1]

وشعر الحنين إلى الأهل والوطن من أصدق الشعر الذى أنشده الشـــاعر العربي.ولا يكاد يصل إلى درجة صدقه غرض آخر غير رثاء الأبناء ، ومـــن في درجة قربهم إلى نفس الشاعر من الأهل والأحباب .

" ومن أظهر سمات شعر الحنين التروع إلى الأرض التى كـــانت المنشـــأ والموطن ومسرح الماضى ، وهو نزوع فطرى مثله في ذلك مثل التروع إلى الأهل والوطن " .[2] ونرى الشاعر يصور هذا الموطن تصويرا ينم عن جمالـــه وبهائـــه وتفضيله على غيره حتى ولو لم يكن كذلك ، وهذا شيء طبيعي مركــــوز في

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٣٢ .
٢ - المرجع السابق ١٣٢ .

نفس الانسان ، فهو لا يرى بقعة تضاهي موطنه وأرضه حتى ولو كان خلاء موحشا .

وإذا اجتمع على الشاعر الأسر والغربة عن الوطن والأهل كان حنينه إلى وطنه أقوى وشوقه إلى أهله أشد . ولذلك أكثر شعراء الأسر والسجن عموما من إنشاء شعر الشوق والحنين . فمن خلال إحساس الشعراء في الأسر بالتفاؤل نراهم يتطلعون إلى العهود والروابط التى كانت تربطهم بالعالم الحر خارج أسوار الأسر فيعبرون عن شوقهم إلى الأهل والأحبة والأرض التى قضوا عليها مع أهلهم وأحبابهم سنوات طويلة مليئة بالذكريات والأحداث التى تلوح أمام أعينهم وفي عقولهم وهم يعيشون في انفراد ووحدة داخل سجونهم .

ونجد عند شاعرينا أبي فراس والمعتمد العديد من القصائد والمقطوعات التى عبر فيها كل منهما بطرق مختلفة عن حنينهم وشوقهم إلى الأهل والوطن والأحبة ، وإلى تلك الأيام التي نعموا فيها بالحرية والانطلاق . وكانت صور الوطن المتعددة بكل ما فيه من إنسان وحيوان ، وطير وطبيعة صامته بمثابة الزاد النفسى والمعين الروحى الذى يروى حرمان كل منهما ، وعزلته ووحشته في أسره . ولذلك كانت صور الوطن في خيال كل منهما مفعمة بالظلال والحياة .

يقول أبو فراس الحمداني في إحدى رومياته يصف أيامه ومنازله في منبج

ويعبر عن حنينه وشوقه إلى ربوعها ومعاهدها : (١)

قفْ في رسوم المستجا ... ب وحيَّ أكنافَ " المصلَّى "
"فالجوْسَقَ الميمونَ فالـشْـ ... ـسُقيا بها فالنَّهرُ أعلى
تلك المنازلُ والملا ... عبُ لا أراها الله محْلا
أوطنتُها زمنَ الصِّبا ... وجعلتُ " منيجَ" لي محَلّا
حرم الوقوفُ بها عليَّ ... وكانَ قبلَ اليوم حِلّا
حيث التفتَّ رأيتَ ما ... ءً سابحًا وسكنتَ ظلّا
ترَ دار " وادى عينَ قا ... صرَ" منزلاً رحبًا مُطلّا
وتحلُّ " بالجسرِ " الجنا ... نَ وتسكن الحصنَ المعلّى
تجلو عرائسُه لنا ... هزْجَ الذباب إذا تجلّى
وإذا نزلنا "بالسَّوا ... جيرِ " اجتنينا العيشَ سهْلا
والماءُ يفصِل بين زهـ ... ـرِ الروضِ في الشطَّين فَصْلا
كبساطِ وشْيٍ جرَّدَتْ ... أيدى القيونِ عليه نصْلا

ويقول المعتمد بن عباد يحن إلى طبيعة قصوره في الأندلس(٢) :

فياليتَ شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... أمامي وخلفي روضةٌ وغديرُ
بمنبتةِ الزيتونِ موروثةِ العلا ... تغنى قيانٌ أوترقُّ طيورُ
بزاهرِها السامى الذرا جاده الحيا ... تشيرُ الثريَّا نحونَا ونشيرُ

---

١ - ديوان أبى فراس ٢٤٠ .
٢ ديوان المعتمد ٩٩ -

ويلحظُنا الزَّاهي وسعدُ سعودِهِ غيورَيْنِ والصَّبُّ المحبُّ غيورُ

ويحس الشاعر في ترداد أسماء ما يضمه الوطن لذة تروى ظمأه إليه وشوقه إلى ما فيه ، فتدب فيه الحياة ، ويحس بأنه ما يزال يعيش حين يردد أسماء أحب الأماكن لديه .

وقد جعل الشاعر من أسماء الأماكن وحدها مركز إشعاع وإيحاء ، فيأتى بها متوالية وبكل منها ترتبط ذكرى من ذكريات حياته ؛ ففي أبيات أبي فراس السابقة ركز الشاعر حنينه المفعم في أسماء الأمكنة والمحال التى مزجها الشاعر بكوامن ذاته ولهيب مشاعره ، وفي أبيات المعتمد المذكورة نراه يعبر عن حنينه إلى قصوره ومعاهد صباه ، ومغاني لهوه ومرحه وسروره ، ويتمنى أن تعود إليه ليلة من تلك الليالي التى كانت تمتليء بالبهجة والسرور ، ويسأل نفسه إن كان ذلك يسيرا أم عسيرا ، ويرد على نفسه بأن كل ما شاء الإله يسير ، وقد قضى الله عليه بأن يلقى حتفه في أشبيلية ، وإذا شاء الله أن يرد إليها حيا فسيكون ذلك بمثابة البعث والنشور له .

تراهُ عسيرًا أم يسيرًا منالُه ألاَ كلُّ ما شاءَ الإلهُ يسيرُ
قضى اللهُ في حمصَ الحِمامَ وبعثرتْ هنالك منا للنشورِ قبورُ

وفي قصيدة أخرى يعبر المعتمد عن حنينه إلى قصوره بأشبيلية ، ويصورها وهي تبكى على فراقه وفراق أهله وأولاده لها ، ويعدد أسماء هذه القصور لما يجد في ذلك من لذة تطفيء نار همومه وآلامه ، ويدعو لها بالبقاء

والازدهار يقول : (١)

بكى المبارَكُ في إثرِ ابنِ عبَّاد بكى على إثرِ غزلانٍ وآسَادِ
بكتْ ثريّاهُ لا غمَّتْ كواكبُها بمثلِ نوءِ الثريا الرائحِ الغادي
بكى الوحيدُ بكى الزّاهي وقبتُهُ والنهرُ والتّاجُ كلٌّ ذلُّهُ بادِي
ماءُ السماءِ على أبنائهِ دِرَرٌ يا لجةَ البحرِ دومي ذاتَ إزبادِ (٢)

ونلمح حنين المعتمد إلى قصوره وشوقه إلى العودة إليها من خلال تعداده لها ، وحرصه على تسميتها بأسمائها ، ودعائه لها بالسقيا وطول البقاء .

وقد يتجه الشوق في شعر الشاعر إلى الأهل والأحبة ، فتبرز حينئذ أسماء الأشخاص ، ويعبر الشاعر عن ذكرياته معهم ، وحنينه إلى الأشخاص الذين كانوا أبطالا لهذه الذكريات . ومن ذلك قول أبي فراس يصف أسره ويتشوق إلى أهله وأحبابه : (٣)

لأيكُمُ أذكُرُ وفي أيكُمْ أُفكِّرُ ؟
وكمْ لي على بلدتي بكاءٌ ومستعبرُ
ففي حلبٍ عدّتي وعزّي والمفخَرُ
وفي منبجٍ مَن رضاهُ أنفَسُ ما أذّخَرُ

---

١ - ديوان المعتمد ٩٥ .
٢ - درر : جمع درة - بكسر الدال في الموضعين وفتح الراء الأولى - والمراد كثرة المطر.
٣ - ديوان أبي فراس ١٦٦ .

ومَن حبّه زلفةٌ ... بها يكرُمُ المحشَرُ
وأصبيةٌ كالفراخ ... أكبرُهُم أصغَرُ
وقومٌ ألفناهُمُ ... وغصنُ الصِّبا أخضَرُ
يخيلُ لي أمرهُمْ ... كأنهُمُ حضَّرُ
فحزنٌ لا ينقضي ... ودمعيَ ما يفتُرُ

فالشاعر في هذه الأبيات يجعل من أهله وعشيرته وأحبابه في منبج وحلب عدة له وعزا ومفخرة ، ولذا فهو يحن إليهم ، وتغلبه الدموع والعبرات كلما تذكرهم وتذكر أيامه معهم ، كما يعلن أن له في منبج صبية صغار كالفراخ التي لا تقوى على العيشة وحدها ، يحن إليهم ، ومعهم أقوامهم الذين ألفهم الشاعر وتخيل أمرهم أبصرهم أمامه ولكنه لم يجدهم فيحزن لبعدهم ، ويبكي لفراقهم .

وما أجمل وصف أبي فراس للصبية الصغار بأنهم كالفراخ ، وبأن (أكبرهم أصغر).فقد أفاد هذا الوصف عجز الواحد منهم عن العيش وحده ، وعدم قدرته على ذلك .

وهذا اللون من الشعر الذي يتشوق فيه الشاعر إلى الأهل والأحباب كثير في روميات أبي فراس .. ولا مانع هنا من ذكر بعض الأمثلة الأخرى ، فمن ذلك قوله معبرا عن حنينه وشوقه إلى أهله من بني حمدان : [1]

يا راكباً يرمى (الشآمَ) بجَسْرةٍ ... مَوّارةٍ شَدَنيةٍ مذعانِ

---

١ - ديوان أبي فراس ٣٤١ .

إقرا السلامَ من الأسيرِ العَـــانى إقرا السلامَ علَى " بنى حمـــدانِ "
إقرا السلامَ على الذين سيُوفُهمْ يومَ الوغى مـــهجورةُ الأجفـانِ
إقرا السلامَ على الذين بيوتُهُـمْ مأوَى الكرام ومــنزلُ الضيفـانِ
الصافحـينَ عن المسيءِ تكرُما والمحسـنين إلى ذوِى الإحسـانِ

وقد أعرب الشاعر عن شوقه هنا إلى هؤلاء الأهـل الذيـن اتصفـوا بصفات تفرض عليهم أن يجدوا في تخليص الأسير العانى ، فـهم شـجعان في مواجهة الأعداء، سيوفهم لا تغمض لها جفن يوم الوغى ، وهم كرام بيوتهـم مأوى ومنزل للضيفان وهم من كرمهم يصفحون عن المسيء ، ويحسـنون إلى ذوى الإحسان ، ومن كانوا بهذه الصفات ينبغي ألا يبقى منهم أسـير بيـد الأعداء .

ومن ذلك قول أبي فراس في تشوقه إلى سيف الدولة ، وبيـان مكانتـه لديه : [1]

وما كنتُ أخشي أن أبيتَ وبيننـا خليجان و"الدربُ" "الأشمُّ" و"آلسُ"[2]
ولا أننى أستصحبُ الصبرَ سـاعةً ولى عنك منَّاعٌ ودونـك حـابسُ
ينافسُنى فيـك الزمـانُ وأهلُـه وكلُّ زمـانٍ لى عليـك منـافسُ
شريتُكَ من دهرى بذى الناسِ كلِّهم فلا أنا مبخوسٌ ولا الدهرُ بـاخِسُ
وملكْتُكَ النفسَ النفيسةَ طائعـاً وتبذل للمولى النفـوسُ النفـائسُ

---

١ - ديوان أبي فراس ١٩٧ .
٢ - آلس : إسم نهر .

تشوقني الأهلُ الكرامُ وأوحشتْ ... مواكبُ بعدى عندهم ومجالسُ

أما المعتمد بن عباد فقد كان أهله وأولاده كلهم يصحبونه في رحلته إلى أسره بالمغرب ، ولم يبق منهم بالأندلس إلا من قتل بأيدى المرابطين ، ولذلك لم نجد في أسرياته شعرا يتشوق فيه إلى أهله بالأندلس ، أما أصدقاؤه فكان معظمهم من الملوك أو الوزراء وهؤلاء نالهم ما ناله على أيدى المرابطين ، قتل أغلبهم وانقطعت أخبار من بقي منهم على قيد الحياة ، ولم يبق له منهم إلا بعض الشعراء الذين وفوا له فراسلوه بشعرهم وراسلهم بشعره الذى سوف نتعرف عليه فيما بعد في باب الإخوانيات والمطارحات .

وذكرنا قبل ذلك أنه إذا اجتمع على الشاعر الأسر والغربة عن الوطن والأهل كان حنينه إلى الوطن أقوى وشوقه إلى أهله أشد ، ولذلك نجد أن حنين الشاعر الأسير إلى أهله مصحوب دائما بالأنين ، ووصف ما يلقاه في سجنه من عذاب وآلام ، وهذا بعض ما يميز أشعار السجناء في هذا الباب عن أشعار غيرهم من الطلقاء .

" وقد لا يخرج الحنين إلى الأحبة في أشعار السجناء عن الأطر المعروفة في أشعار الطلقاء ولا عن مداها العاطفى ، ولكنه يمتاز عند السجناء بأصالة التجربة وعمق الألم ، وتفجر الشوق نتيجة للكوابت القاهرة ، فيتفجر التعبير تفجر الشوق من غير اعتناء بتحبيره ، ويأتى بوحا ساذجا ولكن متدفق من الأعماق ، ويغلب على النفس في جيشانها العاطفي سذاجتها وعفويتها فلا

يتاح لها تعميق الأفكار أو الغوص وراء تأمل بعيد ".[١]

وقد يشرك الشاعر معه في حنينه إلى أهله ووطنه بعض مظاهر الكـــون فيتحدث معها ويبثها أشواقه وحنينه إلى الأهل والوطن ، فهاهو أبـــو فـــراس يتخذ من الليل ومناجاته وسيلة لبث أشواقه وحنينه إلى أهله وأحبابه بالشـــام فيقول : [٢]

يا ليلُ ما أغفـــلَ عمَّـــا بي	حبائبي فيـــكَ وأحبَـابي
يا ليلُ نامَ الناسُ عن موضعٍ	ناءٍ على مضجعِــهِ نــابي
هبّت لـــه ريـــحٌ شـآميةٌ	متّت إلى القلبِ بأســـبابِ
أدتْ رســالاتِ حبيبٍ لنـا	فهمتُــها من بينِ أصحابي

ولم ينس أبو فراس أن يمزج حنينه وشوقه إلى أحبابه في هـــذه الأبيـــات بدعوتهم إلى تخليصه من أسره حتى يتحقق لقاؤه بهم وينعم بحياته بجوارهـــم ، كما اتخذ كل من أبي فراس والمعتمد من الطير وسيلة لبث الأشواق والحنين إلى الحياة خارج أسوار الأسر ، وجاء شعرهما في هذا المقام معـــبرا عـــن الواقـــع النفسي الأليم وهو يرزح تحت وطأة الأسر وذله وانكساره.ففي القصيدة الـتي يناجي فيها أبو فراس تلك الحمامة التي ناحت على شجرة قرب سجنه نلحـــظ أبياتها تصور الشاعر وحيدا في أسره وغربته ، لا يجد من يؤانسه أو يواســـيه ، أو يخفف عنه بعض معاناة الأسر سوى هذه الورقاء النائحة التي راحت تواسـيه

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٤٩٠ .
٢ ديوان أبي فراس ٥٧ .

وتقاسمه بنواحها آلام سجنه ووحشته .

فرؤية الحمام تثير خفقان قلب أبي فراس حزنا على الحرمان من الحرية، وتلهفا عليها ، ولذا فهو يغبط الحمامة ، بل يحسدها على انطلاقها وتمتعها بالحرية ، ثم على وجودها بجوار من تحب .

أيا جارتَا ما أنصفَ الدهرُ بيننا　　　تعالَيْ أقاسِمْكِ الهمومَ تعالِي

فهو في هذه القصيدة يشتاق إلى حريته ، ويحن إليها وإلى حياته بين أهله وأحبابه ، ويعلن رفضه لحياة الضيق والقيود .[١]

أما المعتمد بن عباد فهو يهتاج شوقا وحنينا إلى أولاده وأحبابه وحريته من خلال مقابلة أجراها بين جماعة الطير السارحة ، لا سجن يعوقها ولا كبل يقيدها ، وبين أولاده المطروحين في ذل الأسر وبؤسه ، بعد أن قارن حالها بحاله فرآها تمرح في الجو وتسرح ، وهو في السجن مقيدا بالأغلال فأعلن أنه لا يحسدها على ما هي فيه ، وإنما توجه إليها بالتهنئة على التئام شملها ، وعدم تفرق جمعها كما حدث له مع أولاده .

ويصور في بيتين من هذه القصيدة مدى الأمن والحرية اللتين يعيش فيهما سرب الطير ، ومدى الهلع الذى يصيبه هو كلما اهتز باب السجن أو صلصل القفل :

هنيئًا لها أن لمْ يفرَّق جميعُها　　　ولا ذاقَ منها البعدَ من أهلها أهلُ
وأن لم تبتْ مثلى تطيرُ قلوبُها　　　إذا اهتز بابُ السجن أوصلصل القفلُ

---

١ - القصيدة بديوان أبى فراس ص ٢٨٢ .

ثم يتذكر بناته وافتقارهن إلى نعيم كن فيه وزال ، وكأنه يحن إلى عودته ويتشوق إلى رجعته .[١]

وللبرق دوره في التفريج عن الأسير والتخفيف من آلامه ، وفتح باب من أبواب الأمل أمام عينيه ، فهو ينظر إلى رؤية وطنه وأهله وأحبابه ، ولذلك اتخذ أبو فراس من البرق مطية من مطايا شوقه إلى أهله وأحبابه ، ونظر إلى وميض البرق ولمعانه على أنه مطية سلام تحمله إلى دياره ووطنه وأحبته ، ولا سيما إذا لاح نوره من جهة بلده ، يقول أبو فراس : [٢]

أَلَا يا صاحبيَّ تذكَّراني ... إذا ما شِمْتُمَا البرقَ الشآمي

إذا مالاحَ لي لمعانُ برقٍ ... بعثتُ إلى الأحبة بالسَّلامِ

ويحن أبو فراس إلى أمه ويعبر عن شوقه إلى التنعم بجوارها . فيخاطبها أكثر من مرة في رومياته يحاول التخفيف عنها،ويعبر عن حنينه وشوقه إليها،ويوصيها بالصبر على ما لحقها،ويذكر لها أنه لولاها لما طلب الفداء ولا خاف الموت . وهو إحساس طبيعي من إنسان متعلق بالأمومة حتى أصبح أثرها في نفسه قوياً وأثره في نفسها أقوى . ومن ذلك قوله في إحدى رسائله إليها : [٣]

لولاَ العجوزُ بمنبجٍ ... ما خفتُ أسبابَ المنيَّةْ

ولكانَ لي عمّا سألْـ ... ـتُ من الفِدا نفسٌ أبيَّةْ

لكنْ أردتُ مرادَهَا ... ولو انجذبتُ إلى الدنيَّةْ

---

١ - القصيدة بديوان المعتمد ص ١١٠ .

٢ - ديوان أبي فراس ٣١٩ .

٣ - إقرأ نص القصيدة بديوان أبى فراس ٣٥٥ .

كما يصور المعتمد حنين زوجته الرميكية إلى الجاه والنعيم الذى كـــانوا يعيشونه في الأندلس قبل القضاء على دولته ، فيقول : [١]

قــالتْ لقـــد هُنَّــا هُنَــا مولايَ : أين جاهُنَــــا ؟!
قلتْ لها : إلى هُنَـــــا صيــــَّـــرنا إلهُـــــنا

وهذان البيتان على بساطتهما وقصرهما يعبران أقوى تعبير عما تمتلىء به نفس هذه الزوجة التى عاشت دهرا طويلا ترفل في النعيم والترف ، والدلال ، وفجأة ذهب عنها كل هذا ورأت نفسها وقد أصبحت رهينة الحبس والضيــق والهوان ، فما لبثت أن اشتاقت إلى سالف عهدها ، وحنت إلى ماضيها الزاهــو ، وعبرت عن شوقها وحنينها بالبيت الأول من هذين البيتين وحاول زوجـــها المعذب التخفيف عنها بالبيت الثانى ، الذى قرر فيه أن ما وقع لهما إنمـــا هـــو قضاء من الله ، وإن شاء الإله - سبحانه وتعالى - أن يكشف عنهما ما وقعا فيه وأن يعودا إلى ماكانا عليه من نعيم لحدث .

ويحن كل من أبي فراس والمعتمد إلى التخلص من الأسر حتى يعـــود إلى سالف عهده من الطعن والضرب ، وقتال الأعداء ، وإعمـــال الســيوف في رقابهم ، فها هو أبو فراس يرى أن أسره قد حال بينه وبين شد السرج علــى ظهرِ جواده السابح الذى يغزو به بلاد الأعداء حاملا سيفه الذى يقطــع بــه رقابهم . كما حال السجن بينه وبين خوض أهوال الحروب ومنازلة الأبطال ،

---

١ - ديوان المعتمد ١١٤

فخلت بذلك ميادين المعارك من بروق سيوفه ولمعان حرابه : يقول : [١]

إلى اللهِ أشكو أننا بمنازلٍ	تحكَّمُ في آسادِهنَّ كلابُ
تمرّ الليالي ليسَ للنفع موضعٌ	لديَّ ولا للمعتفينَ جنابُ
ولا شُدَّ لي سرجٌ على ظهر سابحٍ	ولا ضُربتْ لي بالعراءِ قبابُ
ولا برقتْ لي في اللقاءِ قواطعٌ	ولا لمعتْ لي في الحروبِ حرابُ

ويحن المعتمد إلى شرف في ميادين القتال يرحم سيفه المشرفى من شوقه إلى وتين الأعداء الذى كان يقطعه في ميادين القتال ، وإلى كرم ينعش السمهرى ويشفيه من كل داء ، وإلى غزوة في سبيل الله بصحبة يوسف بن تاشفين تعيد إليه عهدهما في معركة الزلاقة ، حيث يجاهدان في سبيل الله باذلين أرواحهما وأموالهما في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين . يقول المعتمد : [٢]

ألا شرفٌ يرحمُ المشرفيَّ	مما به من شمَّاتِ الوتينِ
ألا كرمٌ ينعشُ السمهريَّ	ويشفيه من كل داءٍ دفينِ
ألا حنةٌ لابنِ محنيَّةٍ	شديدِ الحنين ضعيفِ الأنينِ
يؤمِّل من صدرِها ضمَّةً	تبوِّئه صدرَ كفٍ معينِ

وهكذا عبر شاعرانا أبو فراس والمعتمد في أسرهما عن الشوق والحنين الذى ملأ نفس كل منهما إلى الوطن والأهل والأحبة ، وإلى الأعمال المجيدة التى ترفع من مكانتهما في هذه الحياة .

---

١ - ديوان أبى فراس ٤٦ .
٢ - ديوان المعتمد ١١٦ .

ونلاحظ أن أشعارهما في هذا الباب كانت وليدة الألم ونتيجته ، فجاءت معبرة عما يجيش بدواخلهما من عذاب وضنى ولهفة بجوار من يشتاقون إلى رؤيتهم ويحنون إلى جوارهم ، كما تتيح لهما أن يعودا إلى سابق عهدهما البطولي في ميادين المعارك حتى لا تصدأ سيوفهما من طول ظمئها ، ويجبن جوادهما من طول وقفته .

رابعا : الاستعطاف والاعتذار :

أما الاستعطاف فيطلق عليه ابن رشيق اسم : الاقتضاء ويعرفه بأنه "طلب حاجة وباب التلطف فيه أجود " . "فإن الاقتضاء الخشن ربما كان سبب المنع والحرمان ، وداعية القطيعة والهجران "[1] ويفرق بينه وبين العتاب بأن العتاب " هو طلب الإبقاء على المودة ، والمراعاة.وفيه توبيخ ومعارضة لا يجوز معها بعد الاقتضاء "[2] .

والاستعطاف فن قديم في الشعر العربي . وهو صنو الاعتذار.ولم يخل عصر من عصور الأدب العربي من شاعر أو أكثر نظموا الشعر استعطافا أو اعتذاراً من ذنب ارتكبوه أو إساءة اقترفوها ، أو عما نسبه إليهم الوشاة زورا وبهتانا بحق ملك أو عظيم من عظماء المجتمع .

وتمتلئ قصيدة الاستعطاف عادة بمعاني طلب الترفق بالشاعر وبتعداد الأدلة التي يحتج بها الشاعر على براءته من ذنبه الذي نسب إليه ، واستمالة

---

١ - العمدة ٢ / ١٥٨ .
٢ - العمدة ٢ / ١٥٨ .

قلب المستعطف أو المعتذر إليه حتى يعفو عن الشاعر ويصفح • وكثيرا ما يذكره بسالف ولائه له ، ووصف ما يعانيه في سجنه من عذاب وآلام إن كان سجينا •

ويعتبر النابغة الذبياني أول من فتح باب الاعتذار والاستعطاف في الشعر العربي باعتذارياتة التى توجه بها إلى النعمان بن المنذر ، بعد أن أوقع الوشاة بينهما • ثم توالى ظهور الشعراء الذين قدموا العديد من قصائد الاعتذار والاستعطاف إلى من اتهموا عندهم بذنب أو خطيئة •

وقد ورد شعر الاستعطاف في روميات أبي فراس كثيرا ، ولكنه ليس استعطافا لآسريه من الروم ، فقد تحداهم وواجهم بالفخر القوى بنفسه وبآبائه وأجداده ، وإنما توجه باستعطافه إلى سيف الدولة ، أو إلى بعض أقاربه في حلب والشام ليخلصوه من أسر الروم له •

ونلاحظ على استعطاف أبي فراس أنه لا يخضع فيه ولا يذل نفسه ، بل كثيرا ما يضع نفسه على قدم المساواة مع سيف الدولة أو مع من يستعطفهم. وأول ما نلتقى به في روميات أبي فراس من شعر الأستعطاف قصيدته الدالية التى بها بعث بها من سجنه إلى ابن عمه سيف الدولة ، والتى جاءت بمثابة التعبير القوى عن الجراح والأنين اللذين يحس بهما في قلبه • وقد تعددت الأغراض فيها بين فخر وعتاب ، ومديح ، وحكمة • كما كانت معبرة عن نفس الشاعر التى تخبئ في طياتها عكس ما تعلن محافظة على المخاطب ، والإبقاء على الود الذى بينهما ، والصداقة التى حرص الشاعر على بقائها

طوال حياته وقد بدأها بطلب الخلاص من أسره بالروم ، وأن ذلك ليس بخلا بالحياة ، ولا حبا فيها . وليس ضعفا عن تحمل أهوال الأسر ، وإنما كرها للموت في بلاد النصارى بعيدا عن ميادين الجهاد ، وصهوات الخيل.يقول أبو فراس :[1]

دعوتك للجفن القريح المسهّد	لديَّ وللنوم القليل المشرّد
وما ذاك بخلاً بالحياة وإنها	لأولَ مبذولٍ لأول مجتدي
وما الأسرَ مما ضقتَ ذرعًا بحمله	وما الخطبُ مما أنَّ أقولَ له : قدِ[2]
وما زلَّ عني أن شخصًا معرَّضًا	لنبل العدى إن لم يُصَبْ فكأنْ قدِ
ولستُ أبالي إن ظفرتُ بمطلبٍ	يكونُ رخيصًا أو بوسمٍ مزوَّدِ
ولكنني أختارُ موتَ بني أبي	على صَهَواتِ الخيلِ غيرَ موسَّدِ
وتأبى وآبى أن أموتَ موسَّدًا	بأيدي النصارى موتَ أكمدَ أكبدِ

وبعد أبيات قليلة يصف فيها حاله في سجنه يعود أبو فراس مرة أخرى إلى تكرار طلبه من سيف الدولة في تخليصه من أسره ، مكررًا نفس المبررات التي ذكرها في الأبيات السالفة من أنه لا يطلب ذلك حرصا على الحياة ، وإنما خوفا من الموت في دار غربة بأيدي النصارى :

دعوتك والأبوابُ ترتجُّ دوننا	فكن خيرَ عونٍ وأكرمَ مُنجدِ
فمثلُك من يُدْعَى لكلِّ عظيمةٍ	ومثلي مَنْ يُفدَى بكلِّ مسوَّدِ

---

١ - ديوان أبي فراس ٩٦ .
٢ - قدِ : بمعنى يكفي أو حسب .

أناديك لا أنّي أخافُ من الـرّدى ... ولا أرتجي تأخيرَ يوم إلى غدِ
ولكنْ أنفتُ الموتَ في دارِ غربةٍ ... بأيدي النصارى الغلفِ ميتةَ أكمدِ
فلا تترك الأعداءَ حولي ليفرحوا ... ولا تقطع التسآلَ عني وتقعُدِ
ولا تقعُدَنْ عنيّ وقد سيمَ فديتي ... فلستَ عن الفعل الكريم بمقعَدِ

ويثير الشاعر روح الحماس والنخوة في ابن عمه لإجابة مطلبه ، ويرغبه في المفاداة ، ويبين له أن تخليصه من أسره ببلاد الروم هي نعمة أخرى تضاف إلى أيادى سيف الدولة ونعمه عليه ، وأن الإسراع في تخليصه من الأسر فرصة عظيمة ينبغي عليه استغلالها ليزداد بها رفعة ومكرمة ، والإ فإن فاتته ولم يدركها صار هذا الأمر عيبا ومنقصة ، يعاب بها سيف الدولة وآل حمدان طوال الدهر، تماما كما حدث لبني زرارة الذين أعيبوا بتركهم معبدا أسيرهم حتى مات فى أسره.ويلجأ الشاعر الأسير إلى طريق آخر يرغب به سيف الدولة في مسألة مفاداته وهو استعداد الروم لإطلاق سراحه ومعه أسرى المسلمين مقابل إطلاق سراح أسراهم لدى سيف الدولة،وأنه لا يصح أن يكون الروم أرغب في كسب الثناء والحمد من سيف الدولة :

فكمْ لك عندى من أيادٍ وأنعُمٍ ... رفعتَ بها قدرى وأكثرتَ حسّدِي
تشبثْ بها أكرومةً قبلَ فوتِها ... وقمْ في خلاصي صادقَ العزم واقعدِ
فإن متُّ بعد اليوم عابَك مهلكي ... معابَ الزّراريينَ مهلكَ معبدِ
همُ عضلوا عنه الفداءَ فأصبحُوا ... يهدّون من أطرافِ القريض المقصّدِ
ولم يكُ بدعًا هلكُه غيرَ أنّهُمْ ... يُعابُون إذا سِيم الفداءُ وما فُدِى

فلا كان كلبُ الروم أرأفَ منكمُ ... وأرغبَ في كسب الثناء المخلَّد
ولا يبلغ الأعداءُ أن يتناهَضُوا ... وتقعُدَ عن هذا العلاء المشيَّد
أأضحَوْا على أسراهمُ بي عوَّدًا ... وأنتمْ على أسراكمُ غيرُ عُوَّد ؟

ويواصل الشاعر بيان الطرق التى ترغب سيف الدولة في افتدائه وتخليصه من أسر الروم فيذكر أنهم الرابحون في هذه العملية ، لأنهم سيكسبون بها بطلا يندر وجود مثله بعد ذلك ، وسيضمنون بوجوده معهم فتى شجاعا يذب عن أعراضهم بسيفه ولسانه • ثم يعلن عن طلبه مرة أخرى حتى يكون بجوار سيف الدولة في أوقات الشدة ويذكر أنه يرغب في تجديد أيادى سيف الدولة عليه بإجابة مطلبه هذا • يقول أبو فراس :

متى تخلفُ الأيامُ مثلى لكمْ فتًى ... طويلَ نجاد السيف رحبَ المقلَّد
متى تلد الأيامُ مثلى لكم فتًى ... شديدًا على البأساءِ غيرَ ملهَّد
فإن تفتدونى تفتدُوا شرفَ العُلا ... وأسرعَ عوَّادٍ إليها معوَّد
وإن تفتدونى تفتدوا لعلاكُمُ ... فتًى غيرَ مردود اللسانِ أوِ اليد
يطاعنُ عن أعراضِكُم بلسانِهِ ... ويضربُ عنكم بالحسام المهنَّد
أقلنى : أقلنى عثرةَ الدهر إنه ... رمانى بسهم صائبِ النصل مقصِد
فيا مِلبسى النِّعمى التى جلَّ قدرُها ... لقد أخلقتْ تلك الثياب فجدِّدِى

وبعد عدة أبيات في مدح سيف الدولة ، وأبيات أخرى في بيان بعض موافقه معه يختم أبو فراس قصيدته هذه بالدعاء لسيف الدولة بطول العمر ،

فيقول :

فـلا يحرمَـنّي اللهُ رؤيـاكَ إنّهـا ... نهايـةُ آمـالي وغايـةُ مقصـدِي

ولا يحرمَـنّي اللهُ قربـكَ إنـه ... مرادِي من الدنيا وحظّي وسؤددِي

ونلاحظ في هذه القصيدة قوة المبررات التي أتى بها أبو فراس لترغيب سيف الدولة وإقناعه في الإسراع لتلبية مطلبه • كما نلاحظ أنه مزج استعطافه بمدح سيف الدولة ، ووصفه بأعظم الصفات •كما مزجه بالفخر بنفسه ، والتعالى بها ، والاعتداد بصفاتها وشموخها.ومن شعر الاستعطاف في روميات أبي فراس قوله في خطاب أمه متمنيا أن يجود عليه سيف الدولة بتخليصه من الأسر حتى ينعم بالحياة بجواره وجوار أمه : [1]

وما دام سيفُ الدولة القرمُ باقيـاً ... فظلّـك فيّـاحُ الجنـابِ ظليـلُ

عساه وقد أحسنتُ ظنّي بفضلِـهِ ... يجـودُ بتخليصـي لكـمْ ويُنيـلُ

فإمّـا حيـاةٌ في فنـاه عزيـزةٌ ... وإمّـا ممـاتٌ في ذُراه جميـلُ

ونرى الشاعر هنا يجمل في الطلب ، ويجعل فداء سيف الدولة له فضلا منه يجود به عليه وعلى أمه • ولم ينس أن يذكر سببا من أسباب رغبته في الخلاص من الأسر وهو الرغبة في الحياة الحرة العزيزة في كنف سيف الدولة •

وكان أبو فراس في استعطافه لسيف الدولة كثيرا ما يعدد صفاته الطيبة ويشيد بمكارمه وفضائله ، ويحاول من خلالها اجتذاب مشاعره نحوه وترقيق أحاسيسه حتى يفرج عنه كربته ويخرجه من سجنه • وقد رأينا ذلك واضحا

---

[1] - ديوان أبي فراس ٢٥٥ •

في القصيدة الدالية السابقة ، ونرى ذلك أيضا واضحا في استعطافه بقوله: [١]

لم يبقَ في الناس أمـةٌ عرفـت إلا وفضلُ الأمـير يشـملُها

نحن أحـقّ الـورى برأفتـه فأين عنـا ؟ وأيـن معدلُهـا؟

يامنفقَ المـال لا يريـدُ بـه إلا المعـالي الـتى يؤثلُـها

أصبحتَ تشري مكارمًا فُضُلاً فداؤنا قد علمـتَ أفضلُـها

لايقبلُ الله قبـلَ فرضـك ذا نافلـةً عنـده نتقبلُـها

ومرة أخرى يستعطف سيف الدولة ليقيله من عثرته ، ويجد في تخليصه من سجنه ولكنه لم يكتف في ترغيبه هذه المرة بتعداد الصفات الطيبة لسيف الدولة التى تؤهله لهذه المكرمة ، وإنما يضم إليها تصوير حالته السيئة التى يعيشها في أسره حتى يرقق قلبه ، ويستولى على مشاعره عله يستجب لمطلبه . يقول في رسالة منه إلى سيف الدولة . وقد اشتدت عليه العلة في سجنه : [٢]

هل تعطفان على العليـل ؟ لا بالأسـير ولا القتيـل

بـاتت تقلّبُـه الأكـف سـحابةَ الليـل الطويـل

يرعـى النجـومَ السـائرا ت من الطلـوع إلى الأفـول

يا فارجَ الكـربَ العظيـ ـم وكاشفَ الخطب الجليـل

كنْ ياقوى لـذا الضعيـ ـف و ياعزيزَ لـذا الذليـل

قرّبه مـن سـيف الهـدى فى ظـل دولتـه الظليـل

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٦٥ .

٢ - ديوان أبي فراس ٢٧٣ .

أَوَما كشفتَ عن " ابــن دا ودٍ " ثقيــلاتِ الكُبُــولِ
الله يعلَــــم أنـــَــــه أمَلِي مــن الدنيـا وسُـولِي
ولئـــنْ حننـــتَ إلى ذُرا ه لقــد حننــتُ إلى وَصُــولِ
لا بــالغضُوب ولا الكــذو ب ولا القَطُوب ولا المَلُــولِ
يــا عدَّتـــى في النائبـــا تِ وظلَّـــتى عنــدَ المقيـــلِ
أيــن المحبـــةُ والذمـــا مُ وماوعـــدتَ مـــن الجميـــلِ
أجملْ على النفس الكريــ ـمة فِيَّ والقلـــب الحمـــولِ
أما المحـبَّ فليــس يصـــ ـغَى في هـــواه إلى عـــذولِ
يمضــى بحــــالِ وفائـــهِ ويصــدّ عـــن قـــالٍ وقيـــلِ

ورغم ما فيه الشاعر هنا من شدة وعلة جعلها من مبررات مطلبه إلا أنه لم يكف عن الفخر بنفسه وتعداد صفاته الطيبة . كما في قوله في هذه القصيدة عن نفسه :

فقــدَ الضيـــوفُ مكانـَـــه وبكـــاه أبنـــاءُ الســـبيلِ
واستوحشـَــتْ لفراقِـــهِ يومَ الوغى سربُ الخيـــولِ
وتعطَّلـــتْ سمـــرُ الرمـــا حِ وأغمدتْ بيضُ النصـولِ

واتخذ أبو فراس من أبي المكارم "وأبي المعالي " ابني سيف الدولة شـفيعين له عند والدهما ليخلصه من سجنه ، ويستعطفهما حتى يتوسطا لـــه عنـــده في الفداء . يقول .[1]

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٨٨ .

يـا سـيدّى أراكُمَـا	لا تذكـران أخاكُمَـا
أوَجدتُمَا بـدلاً بـه	يبـنى سماءَ عُلاكُمَـا
أوَجدتمَا بـدلاً بـه	يفـرى نحـورَ عِداكُمَـا
ما كان بـالفعل الجميـ	ـل بمثلـه أوْلاكُمَـا
منْ ذا يعـاب بمـا لقيـ	ـتُ من الورَى إلاّ كُمَـا
لا تقعـدا بى بعدَهـا	وسلا " الأمـيرَ " أباكُمـا
وخذا فداىَ جُعلت مـ	ـن ريـبِ الزمـان فداكُمـا

ونرى الشاعر فى هذه الأبيات يخاطب ابنى أخته بسيديه ، ويجعل نفسه أخاهما ، وليس خالا لهما حتى يكون أشد قربا منهما ، وأجدر بعطفهما عليه فالأخ أقرب الناس إلى أخيه بعد أمه وأبيه • كما جعل توانيهما في مفاداته من المعايب التى يعابان بها كما فعل ذلك مع أبيهما من قبل •

أما الاعتذار فهو أمر غير محبوب • لأنه "ينبغى للشاعر ألا يقول شيئا يحتاج أن يعتذر منه • فإن اضطره المقدار إلى ذلك ، وأوقعه فيه القضاء فليذهب مذهبا لطيفا ويقصد مقصدا عجيبا ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه ، وكيف يمسح أعطافه ، ويستجلب رضاه • فإن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ ، لاسيما مع الملوك وذوى السلطان • وحقه أن يلطف برهانه ، مدمجا في التضرع والدخول تحت عفو الملك ، وإعادة النظر في الكشف عن كذب الناقل • ولا يعترف بما لم يجنه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه • ويحيل الكذب على الناقل والحاسد فأما مع الإخوان فتلك

طريقة أخرى .[١]

ومن أمثلة الاعتذار في روميات أبي فراس قصيدته البائية التي قالها بعد أن اتهم لدى سيف الدولة بأنه ومن معه من الأسرى قرروا اللجوء إلى صاحب خراسان وغيره من الملوك لتدبير الفدية التي طلبها الروم لفك أسرهم ، وأنهم قرروا مع الروم إطلاق أسراء المسلمين بما يحملونه . وعلق سيف الدولة على هذا الخبر قائلا عن أبي فراس : " ومن أين يعرفه أهل خراسان " ؟ وانقطعت بعد ذلك كتب سيف الدولة عن الشاعر : فانشد أبو فراس هذه القصيدة ، وبعث بها إلى سيف الدولة يعتذر إليه فيها عما بلغه عنه . وبدأها بقوله : [٢]

أسيفَ العِدَى وقريعَ العَرَبْ ... علامَ الجفاءُ ؟ وفيمَ الغضَبْ

وما بالُ كُتْبِكَ قد أصبحتْ ... تُنَكِّبُنِي مع هذِي النُّكَبْ

وأنتَ الكريمُ وأنتَ الحليمُ ... وأنت العطوفُ وأنت الحَدِبْ[٣]

واستمر الشاعر في مديحه لسيف الدولة ، والاعتراف بفضائله عليه ، ثم أخذ في الحديث عن نفسه وعلاقته بسيف الدولة ، وذكر أن لم يغيره الأسر ، وأنه كثيرا ما سأله الإسراع في تخليصه منه ولكنه لم يعره جوابا :

أتنكرُ أنِّي شكوْتُ الزمانَ ... وأني عتبتُكَ فيمن عَتَبْ

فهلاَّ رجعتَ فأعتبتَنِي ... وصيَّرتَ لي ولقومي الغلَبْ

فلا تنسبَنَّ إليَّ الخمولَ ... أقمتُ عليك فلم أغتربِ

---

١ - العمدة ٢ / ١٧٦ .

٢ - ديوان أبي فراس ٢٤ .

٣ - الحدب : الحنون .

وأصبحتَ منكَ ففضلٌ يكونُ ... وإن كانَ نقصٌ فأنتَ السببْ
وما شككتني فيك الخطوبُ ... ولا غيرتني فيك النُّوَبْ

ثم يعلق أبو فراس على مقولة سيف الدولة (من أين يعرفه أهل خراسان) مؤكدا أنهم يعرفونه لقرابته من سيف الدولة ، واشتراكه معه في النسب ، ولنفسه الأبية العالية :

وإنَّ خراسانَ إن أنكرتْ ... عُلاى فقد عرفتها حلبْ
ومن أين ينكرُني الأبعدون ... أمن نقص جدٍّ أمن نقص أبٍّ؟!
ألستَ وإياك من أسرةٍ ؟ ... وبيني وبينك قربُ النسبْ ؟
ودارٌ تناسبُ فيها الكرامُ ... وتربيةٌ ومحلٌّ أشَبْ
ونفسٌ تكبَّر إلا عليكَ ... وترغبُ إلا كَ عمَّن رَغِبْ

وقبل أن يختم أبو فراس القصيدة يطلب العفو عنه عما أتهم به ، وأن يعمل على تخليصه من الأسر فيقول :

فلا تعدلَنَّ فداك ابنُ عمـ ... ـك لا بل غلامُك عما يَجِبْ
وأنصفْ فتاك فإنصافُه ... من الفضل والشرفِ المكتَسَبْ

ومن نماذج شعر الاعتذار أيضا في روميات أبي فراس ما جاء في نهاية قصيدته البائية التى أنشدها أبو فراس فى عتاب سيف الدولة بعد أن امتنع عن إطلاق سراح ابن أخت الملك الذى كان أسيرا لدى سيف الدولة ومفاداته بأبى فراس ألا بفداء عام يتم فيه إطلاق سراح جميع الأسرى • وحمل أبو فراس عقب ذلك

إلى القسطنطينية ، فقال هذه القصيدة التى بدأها بقوله : [١]

أَمَا الجميلِ عندكنَّ ثوابٌ ؟ ولا لـمسِئ عندكن متابُ ؟

وختمها معتذرا عما فيها من عتاب لاذع ، وطالبا من الأمير وده ، وصفحه ، وعفوه عنه ، فقال :

فليُتك تحلُو والحياةُ مريرةٌ وليتكَ ترضى والأنامُ غِضَابُ
وليتَ الذى بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالَمين خرابُ
إذا نلتَ منك الودَّ فالكلُّ هيّنٌ وكلُّ الذى فوقَ التراب ترابُ
فياليتَ شُربي من ودادك صافياً وشربي من ماءِ الفراتِ سَرَابُ

ونلحظ في اعتذار أبي فراس الميل إلى العبارات اللطيفة ، والأسلوب اللين الهادىء الذى يأخذ بقلب المعتذر إليه ، وجلب رضاه والعفو عنه ، وإضفاء صفات الفخامة والعظمة على سيف الدولة مدمجا برهانه في التضرع والدخول تحت عفوه ، وإن كان قد حاول الاحتجاج ، وإقامة الدليل في قوله مخاطبا سيف الدولة :

أتنكرُ أنِّيَ شكوْتُ الزمانَ وأني عتبتُك فيمن عَتَبْ
فهلاَّ رجعتَ فأعتبتنى وصيَّرتَ لى ولقومِى الغَلَبْ

وهذا مالا يحبذه النقاد في الاعتذار .[٢]

أما المعتمد بن عباد فقد ورد في أسرياته يسير من الاستعطاف . ولكنه

---

١ – ديوان أبي فراس ٤٥ .

٢ – انظر ما جاء في قول ابن رشيق السابق .

يختلف عن غيره من شعر الاستعطاف في الأدب العربي . فهو لم يتوجه بـه إلى بشر ، فقد كان معتزا بنفسه ، ولم ينس يوما أنه كان ملكا ، وإنما استعطف قيده حينما دخل عليه ابنه أبو هاشم فارتاع لقيده ، فخاطب القيد ورجاه أن يرحمه من ذله وضيقه والتوائه على ساقيه .

ونرى المعتمد في استعطافه يستنكر على قيده تعذيبه إياه ، وعدم رحمته به أو شفقته عليه ، فقد شرب دمه وأكل لحمه ، ولم يبق إلا عظامه ، ويناشده ألا يهشمها ، وأن يرحم طفيله وأخواته الضعيفات : يقول : [1]

قيدي أَمَا تعلمُني مسلمَا ... أبيتَ أن تُشْفِقَ أو ترحمَا
دمي شرابٌ لكَ واللحمُ قدْ ... أكلتَه لا تهشِمِ الأعظُما
يبصرُني فيك أبو هاشمٍ ... فينثني القلبُ وقد هشِّمَا
ارحمْ طُفَيلاً طائشاً لبُّه ... لم يخشَ أن يأتيكَ مسترحِمَا
وارحَمْ أخيَّاتٍ له مثلَه ... جرعتهنَّ السمَّ والعلقَمَا
منهن من يفهَمُ شيئاً فقدْ ... خفنا عليه للبكاء العَمَى
والغيرُ لا يفهم شيئا فما ... يفتح إلا لرضاعٍ فَمَا

ونراه يبرر استعطافه للقيد - أو لصاحب القيد - بأنه مسلم لا ينبغي أن يعذَّب بالقيد أو يقيد به كما يقيد الكافر ، وكأنه يصور نفسه في سجنه هذا بمن قيد وألقى في جهنم ، وهذا العقاب ليس للمسلمين وإنما أعده الله عقابا للكافرين ، كما يفهم من قوله - تعالى - : " الذينَ كذَّبوا بالكتابِ وبما أرسَلْنَا

---

١ - ديوان المعتمد ١١٢ .

به رُسُلَنَا فسوفَ يعلمونَ . إذ الأغلالُ في أعناقِهِمْ والسلاسِلُ يُسْحَبُونَ . في الحميم ثم في النَّارِ يُسْجَرُونَ "[١] ولذلك أنكر على القيد أو على صاحبه أن يفعل به ما يفعل .

كما أننا نلاحظ أن المعتمد في استعطافه القيد لم يطلب منه الرحمة أو الشفقة من أجله هو كما فعل أبو فراس في استعطافه ، وإنما طلب ذلك من أجل طفيله الطائش اللب ، وأخياته اللاتى تجرعن السم والعلقم كلما رأين أباهن وهو يرسف في القيود والأغلال .

ولم يرد في أسريات المعتمد استعطاف ليوسف بن تاشفين أو حتى ذكر له إلا في قصيدته التى قالها يذكر فيها يوم العروبة وبلاء يوسف في معركة الزلاقة ، وأن الله - سبحانه وتعالى - سيجازيه الجزاء الحسن على جهاده في سبيل نصرة الإسلام في هذا اليوم .

ولعل السبب في إمساك المعتمد عن استعطاف يوسف أو الاعتذار إليه أنه كان معتزا بنفسه ، ولم ينس يوما أنه كان ملكا - كما قلت قبل ذلك. يضاف إلى ذلك أنه كان يرى نفسه أعلى مكانة ومنزلة في دنيا الملوك عن يوسف هذا ، حتى وإن كان سجنه قد أذله وأضعف منزلته عن منزلة آسره فقد كان يأمل أن تنكشف هذه الغمة ، وأن يعود ملكا متوجا يخضع لسلطانه غيره من ملوك زمانه .

على أن المعتمد قد قدم لبعض زواره اعتذارا – وليس استعطافا - فقد

---

١ - الآيات : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ من سورة غافر .

اعتذر للشاعر ابن حمديس الصقلي حين ذهب لزيارة المعتمد فصرفه بعض خدمه ، فلما علم المعتمد بذلك عز عليه وعنف خادمه وكتب إلى ابن حمديس معتذرا : [١]

حُجِبْتَ - فلا والله ماذاكَ عن أمرى
فأصغِ فدتك النفسُ سمعًا إلى عذرِى

غير أني أرى أن هذا أدخل في باب الإخوانيات ، لأن شأن الاعتذار أن يقدم من الأدنى إلى من هو فوقه ، إلا إذا كان بين الإخوان والأقارب والأصدقاء.ولذا فأنا تارك التعليق على هذه القصيدة إلى باب الإخوانيات والمطارحات إن شاء الله .

خامسا : العتاب :

العتاب عنوان المحبة ، ودليل المودة ، وعلامة الوفاء ، وقديما قيل " ويبقى الود ما بقي العتاب ".

وإذا قل العتاب أدى إلى الألفة والمحبة ، وتقوية عرى الصحبة ، وإذا كثر خشن جانبه وقد يؤدى حينئذ إلى القطيعة والجفاء .

" وللعتاب طرائق كثيرة ، وللناس فيه ضروب مختلفة ، فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف . وقد يعرض فيه المن والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف " [٢]

---

١ - ديوان المعتمد ١٠١ .
٢ - العمدة ٢ / ١٦٠ .

وكثر العتاب في روميات أبي فراس الحمداني ، وكان أكثره موجهاً إلى سيف الدولة." والتزم الشاعر (فيه) بتوجيه القول في منحى لا يخفى ما في نفسه ولا يسخط السلطان ، فهو ينقذ السلطة ، ويرجو العون منها ويدافع عن نفسه ، ويتبرأ من الذنب أو الخطأ " .[1]

وكان للعتاب في شعر أبي فراس وهو في أسره دوافعه ودواعيه التي جعلته يوجه منه الكثير إلى سيف الدولة الحمداني • فهو في الحقيقة صنيعة ابن عمه ، رباه وتعهده حتى شق طريقه إلى الفروسية والأدب ، وأظهر كثيرا من أمارات البطولة والشجاعة الحربية في حروب سيف الدولة مع أعدائه، ثم تولى إمارة منبج وهو ثغر له أهميته الدفاعية بالنسبة للدولة الحمدانية • ولكن شجاعته قد خانته في مرة من المرات فأسر في بلاد الروم ، ودخل السجن وهو يزهو ويدعي أنه جابه ألفا من الروم بنفر قليل من أصحابه :

ولو لم تنلْ نفسي ولا ءَكَ لم أكُنْ ... لأُوردُها في نَصْرِه كلَّ موردِ
ولا كنتُ ألقى الألفَ زرقاً عيونُها ... بسبعين فيهم كلُّ أشأم أنكدِ[2]

وطال وجوده في سجن الروم فأخذ يحمل سيف الدولة المسئولية كاملة إما في مكرمة افتدائه ، أو في عار خذلانه إذا مات في سجنه :

دعوتُكَ والأبوابُ ترتَجُّ دوننَا ... فكنْ خيرَ مدعوٍّ وأكرمَ منجدِ
فمثلك من يُدْعَى لكلِّ عظيمةٍ ... ومثلِي من يُفدَى بكلِّ مسوَّدِ

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٥٣٧ .
٢ - ديوان أبي فراس ٩٨ .

ولا تقعُدنّ عنيّ - وقد سيمَ فديتي - فلستَ عن الفعل الكريم بمقعَد
تشبثْ بها أكرومةً قبلَ فوتها وقمْ في خلاصي صادقَ العزمِ واقعُد
فإن متّ بعدَ اليوم عابَك مهلكي معابَ الزراريين مهلكُ معبد[1]

ومن هنا وجه الكثير من العتاب - الشديد اللهجة أحيانا - إلى ابن عمه سيف الدولة حينما تأخر في تخليصه من الأسر . ومرد ذلك طبيعة الشاعر الانفعالية التي كانت تظن أن سلوكياتها فوق النقد ، فكان عنيفا في رده على الملاحظة العابرة حتى ولو كانت من سيف الدولة . وخير مثال على ذلك روميته التي نظمها في الرد على سيف الدولة بعد أن اتهمه وأصحابه في الأسر بأنهم كاتبوا أهل خراسان في افتدائهم ، فقال سيف الدولة عن أبي فراس : " ومن أين يعرفه أهل خراسان". فقال أبو فراس في الرد عليه : [2]

وإن خراسانَ إن أنكرَتْ عُلايَ فقد عرفَتْها حلَبْ
ومن أين ينكرُني الأبعدُون أمن نقص جدٍّ أمن نقص أبْ؟!
ألستُ وإياك من أسرةٍ وبيني وبينك قربُ النسبْ؟!
ودارتنا سبَبٌ فيها الكرامُ وتربيةٌ ومحلٌ أشبْ
ونفسٌ تكبّرُ إلا عليكَ وترغَبُ إلا عمَّن رَغِبْ[3]

وكان عتاب أبي فراس لسيف الدولة -كما قلت - شديد اللهجة في كثير من الأحيان .ولولا حاجته إليه وحرصه على عدم قطع ما يربطه بابن عمه

---

١ - ديوان أبي فراس ٩٧ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٥ .
٣ - انظر كتاب الأسر والسجن في شعر العرب ٥٣٩ .

لصرح الشاعر بسوء الظن بأميره : " فالكلمة له في فدائه ، ثم للوفاء الملتزم نحو رجل بني حمدان الذى كفله يتيما وصنع منه رجلا ، وكان أبو فراس يغتلي ويهتاج ويرفع صوته بالعتاب المر ، ثم يحنى رأسه في خاتمة الرومية بالرضا والولاء ، والاستعداد بالتضحية في سبيل أميره "[1]

ومن عتاب أبي فراس لسيف الدولة قوله ردا على عتاب سيف الدولة له :[2]

زمانِي كلُّه غضبٌ وعتْبُ ... وأنتَ عليَّ والأيامُ إلْبُ

وعيشُ العالمينَ لديكَ سهلٌ ... وعيشي وحدَه بفناك صَعْبُ

وأنت - وأنت دافعُ كلِّ خطبٍ - ... مع الخطب الملمِ عليَّ خطْبُ

إلى كم ذا العتابُ وليس جُرْمٌ ... وكم ذا الاعتذارُ وليسَ ذنبُ

فلا بالشام لَذَّ بفيَّ شُرْبٌ ... ولا في الأسر رقَّ عليَّ قلبُ

فلا تحملْ على قلبٍ جريحٍ ... به لحوادثِ الأيام نَدْبُ

أمثلي تقْبَلُ الأقوالُ فيه ... ومثلكَ يستمر عليه كذبُ ؟

وانتقل الشاعر من هذا العتاب الرقيق إلى الفخر القوى بنفسه وبقومه ، ثم عاد إلى عتاب سيف الدولة لسماعه أقوال الواشين فيه فقال :

فدتْ نفسي الأميرَ كأن حظي ... وقربي عندَه ما دام قربُ

فلمَّا حالت الأعداءُ دوني ... وأصبح بيننا بحرٌ ودربُ

---

١ - المرجع السابق ٥٣٩ .

٢ - ديوان أبي فراس ٤٨ .

ظَللتَ تبدِّلُ الأقــوالَ بعــدى ويبلغُنى اغتيابُك مــا يغــبُّ
فقلْ ما شئتَ فيَّ فلِــى لســانٌ مليءٌ بالثناءِ عليــكَ رطْــبُ
وعامِلْــنِى بإنصــافٍ وظُلمٍ تجــدنِى في الجميعِ كما تُحبُّ

وعتاب الشاعر لأميره في هذه الأبيات عتاب رقيق يقترب في أغلبه مــن الاعتذار وخاصة في المجموعة الأولى من الأبيات ، حتى لنحس بخضوع الشاعر وذله وانكساره ، وبدفاعه الهادىء عن نفسه من الظلم الذى وقع عليه ، أمــا في المجموعة الثانية ، وبعد الفخر القوى الذى ألحقه بنفسه - فقد تغيرت لغتــه ، واشتدت لهجته ، واتهم الأمير بعدة سوءات ، كالغيبة في قولــه :" ويبلغــنى اغتيابك ما يغب " ، وبقول الحق والباطل في قوله : " وقل ما شــئت في " ، وبالظلم في قوله : " وعاملنى بإنصاف وظلم ".وهذا يدل على تجرؤ الشــاعر على أميره ، أو على شدة قربه منه .

ومن روميات أبي فراس في عتاب سيف الدولة قصيدته العينية التى ملأها بالعتاب المزوج بالندم على مواقفه بجوار سيف الدولة ،وتضييع ســنوات طويلة من حياته في خدمة دولته . وكان أبو فراس قد أرسل إلى سيف الدولــة بما قرره مع ملك الروم من الفداء فتأخر سيف الدولة في الرد عليه ، فكتــب إليه الشاعر يعتب عليه ويستبطىء أمره فغضب سيف الدولة من ذلك وقرعــه في كتبه إليه ، فكتب أبو فراس هذه القصيدة : [١]

---

١ - ديوان أبى فراس ٢٠٨ .

أبى غربُ هذا الدمع إلا تسرُّعا ... ومكنونُ هذا الحبِّ إلا تضوُّعا

ومن عتابه فيها لسيف الدولة قوله :

وهبتُ شبابي والشبابُ مضنَّةٌ ... لأبلجَ من أبناءِ عمّي أروعا
أبيتُ مُعنًّى من مخافةِ عتبِهِ ... وأُصبحُ محزونًا وأُمسي مروَّعا
فلما مضى عصرُ الشبيبةِ كلُّه ... وفارقني شرخُ الشبابِ مودِّعا
تطلبتُ بين الهجرِ والعتبِ فرجةً ... فحاولتُ أمرًا لا يُرامُ ممنعا
فلو أن أسري بين عيشٍ نعمتُه ... حملتُ لذاك الشهدِ ذا السمِّ منقعا
ولكن أصابَ الجرحُ جسمًا مجرَّحًا ... وصادفَ هذا الصدعُ قلباً مصدَّعا
وصرتَ إذا ما رمتَ في الخيرِ لذَّةً ... تتبعتُها بين الهموم تتبعا
وها أنا قد حلَّى الزمانُ مفارقي ... وتوَّجني بالشيب تاجًا مرصَّعا
فلو أنني مُكِّنْتُ مما أريدُه ... من العيشِ يوماً لم يجد فيَّ موضِعا

وبعد امتنانه على سيف الدولة وندمه على ما ضاع من عمره بجانبه في هذا العتاب الموجع أخذ يعرض بسيف الدولة ، وبعدم وفائه بصحبته له ، ثم ختم القصيدة بالانحناء والاعتذار والرضا بالانضواء تحت سلطان أميره فيقول :

تنكَّرَ سيفُ الدين لما عتبتُهُ ... وعرَّضَ بي تحت الكلام وقرَّعا
فقولا له : مِن أصدقِ الودِّ أنني ... جعلتُك مما رابني الدهرُ مفزَعا
ولو أنني أكننتُهُ في جوانحي ... لأورقَ ما بين الضلوعِ وفرَّعا
فلا تغترِرْ بالناسِ ما كلُّ مَنْ ترى ... أخوكَ إذا ماأوضعتَ فيالأمرِ أوْضَعا

ولا تتقلّدْ ما يروعُك حَلْيُهُ ... تقلّدْ إذا حاربتَ ما كان أقطَعَا
ولا تقبلَنَّ القولَ من كلِّ قائلٍ ... سأرضيك مرأىً لستُ أرضيك مسمَعَا

ويبدو الشاعر في الأبيات الأخيرة ناصحا لسيف الدولة بألا يغترر بمن حوله من الناس ، وبما يسمعه منهم ، وألا يخدعه مظهرهم ، فكثيرا ما يضمر الإنسان غير ما يظهر ، وكأنه بهذا يقول له : إن المحب الصادق ينبغي ألا يسمع كلام الوشاة ومن يريدون الإيقاع بين الأمير والشاعر .

ويبدو أن المكانة العالية والمترلة السامية التى احتلها أبو فراس في نفس سيف الدولة بفروسيته ، وحسن إدارته ، وثقافته ، وشاعريته ، قد أحفظت نفوسا كثيرة في بلاط سيف الدولة من أقاربه وغير أقاربه ، فحاولوا إبعاد الفارس عن ابن عمه وتوسيع الفجوة التى وقعت بينهما بأسر أبى فراس ، وقد آلم ذلك الشاعر وأحزنه وعبر عن ألمه وحزنه بشعر يتشح بالأسى ويمتلىء بالحزن والغضب من واقع الناس.ومن ذلك الشعر ذلك العتاب الموجع الذى أرسل به مرات وفي صور عديدة إلى قومه وإلى ابن عمه سيف الدولة . ومنه قوله إلى من بلغه عنهم من أهله أنهم يكرهون خلاصه من الأسر : [1]

تمنيتُمُ أن تفقدُونِي وإنمَا ... تمنيتُم أن تفقدُوا العِزَّ أصيَدَا
أما أنَا أعلى من تعدُّون همةً ... وإن كنتُ أدنَى من تعدُّون مولِدَا
إلى الله أشكُو عصبةً من عشيرَتى ... يسيئون لى في القولِ غيباً ومشهَدَا

---

١ - ديوان أبى فراس ٨٥ .

وإن حاربوا كنتُ المجنَّ أمامَهم ... وإن ضاربوا كنتُ المهندَ واليدا
وإن نابَ خطبٌ أو ألمَّتْ ملمَّةٌ ... جعلتُ لهم نفسي وما ملكتْ فِدا
يودّونَ ألا يبصرُونِي سفاهةً ... ولو غبتُ عن أمرٍ تركتهمُ سُدَى
فعالي لهمْ لو أنصفُوا في جمالها ... وحظٌ لنفسي اليومَ وَهْو لهم غدا

ومن قوله في التعريض ببعض من عجزوا رأيه في الثبات يوم أسره : [1]

تكاثرَ لوامي على ما أصابَني ... كأن لم تَنُبْ إلا بأسري النوائبُ
يقولون لم ينظُرْ عواقبَ أمرِهِ ... ومثليَ مَنْ تجري عليه العواقبُ
ألم يعلم الذلانُ أن بني الوغَى ... كذاك سليبٌ بالرماح وسالبُ
أرى ملءَ عينيَّ الرّدَى فأخوضُه ... إذا الموتُ قدّامي وخلفي المعايبُ
وإن وراءَ الحزم فيها ودونَها ... مواقفُ تُنْسَى دونهن التجاربُ
رجالٌ يذيعُون العيوبَ وعندنا ... أمورٌ لهم مخزونةٌ ومعايبُ
وأعلمُ قوماً لو تتعتعتُ دونَها ... لأجهضَني بالذمِّ منهمْ عصائبُ
ومضطغنٍ لم يحملِ السرَّ قلبُهُ ... تلفتُّ ثم اغتابني وهْو هائبُ
تردّى رداءَ الذل لما لقيتُه ... كما تتردّى بالغبارِ العناكبُ
ومن شرَفي ألا يزالُ يعيبُني ... حسودٌ على الأمر الذي هو عائبُ
رمتني عيونُ الناس حتى أظنُّها ... ستحسدُني في الحاسدين الكواكبُ
فلستُ أرَى إلا عدواً محاربًا ... وآخرَ خيرٌ منه عندي المحاربُ
ويرجُون إحرازَ العُلا بنفوسِهمْ ... ولم يعلمُوا أن المعالي مواهبُ

---

١ – ديوان أبي فراس ٤٠ .

فكم يطفئون المجدَ واللهُ موقِــــدٌ   وكم ينقصُونَ الفضلَ واللهُ واهِــبُ

وقد أجاد الشاعر التبرير لاختياره الأسر على الفرار نجاة بنفسه ، وأنــه فعل ذلك فرارا من المعايب التي تلحقه بفراره من ميدان القتال ، والتي تأباهــا نفسه الأبية.ففضل الأسر الذى قد يكون وراءه الموت على الفرار الذى تلحقه به المعايب . ففي موقف أسره رأى الموت أمامه ، والمعايب خلفــه ففضــل أن يخوض غمار الموت عن أن تلحقه المعايب . ولا بأس أن تخون الفارس شجاعته في بعض المعارك فبنوا الوغى بين سليب بالرماح وسالب .

وأعنف عتاب وجهه أبو فراس لسيف الدولة نقرأه في روميته اللاميـــة التي بعث بها إليه ، وصور فيها آلامه وآلام أمه بعد أن ردها ســـيف الدولـة خائبة حينما ذهبت إليه تستعطفه في فداء ولدها . وفيها يقول معاتبا ســـيف الدولة : [1]

يا ســـيِّداً مـــا تُعَـــدُّ مكرمـــةٌ   إلاَّ وفى راحيتـــهِ أكمَلُـــــها
بـــأىِّ عـــذرٍ رددتَ والهـــةً   عليك دونَ الـــورى معوِّلُهـــا ؟
جاءتك تمتـــاحُ ردَّ واحدِهَـــا   ينتظر النـــاسُ كيـــف تقفلُـــها
سَمَحْتُ منى بمهجـــةٍ كرُمَـــتْ   أنـــت علـــى يأسِـــها مؤمِّلُـــها
إن كنتَ لم تبذل الفـــداءَ لهـــا   فلـــم أزلْ في رضـــاك أبذُلهـــا
تلك المودات كيف تمهلُـــها ؟   تلك المواعيدُ كيـــف تغفلُـــها ؟
تلك العقودُ التى عقدتَ لنـــا   كيف - وقد أحكمتْ - تحلِّلُـــها ؟

---

١ - ديوان أبى فراس ٢٦٤ .

أرحامُنا منك لِمْ تقطعُها ؟ ولم تزل دائماً توصِّلُها
أين المعالى التى عُرِفْتَ بها تقولُها دائما وتفعلُها ؟
يا واسعَ الدار كيف توسعُها ونحنُ في صخرةٍ نزلزلُها ؟
يا ناعمَ الثوب كيف تبدلُه ؟ ثيابُنا الصوفُ ما تبدِّلُها
يا راكبَ الخيل لو بَصُرْتَ بنا نحملُ أقيادَنا وننقلُها
رأيتَ في الضرِّ أوجهاً كَرُمَتْ فارقَ فيك الجمالَ أجملُها
قد أثَّر الدهرُ في محاسنِهَا تعرفُها تارةً وتجهلُها
فلا تكِلْنا فيها إلى أحَدٍ معلُّها محسنٌ يعلِّلُها
لا يفتح الناسُ بابَ مكرُمَةٍ صاحبُها المستغاث يُقفِلُها
أينبرى دونَك الكرامُ لها وأنت قمقامُها وأحملُها ؟

ولعل السبب في هذا العتاب القوى الموجع - بجانب ما ذكرناه فيما سبق عن طبيعة الشاعر - هو ما كانت تمتلئ به نفسه من اقتناعه بأنه لا يطلب غير الفداء الذى هو حق له ، وهو لا يطلبه لنفسه بقدر ما يطلبه لمصلحة سيف الدولة ودولته، وأنه لم يكن ينبغى أن يبطئ سيف الدولة في إجابة مطلبه . ويظهر اقتناعه بهذا الحق في قوله في رومية أخرى ، وهى قصيدته البائية التى قالها بعد أن امتنع سيف الدولة عن إخراج ابن أخت ملك الروم إلا بفداء عام[1] :

بنى عمّنا لا تنكروا الودّ إننا شدادٌ على غير الهوان صِلابُ

١ - ديوان ابى فراس ٤٧ .

وإنَّ رجالاً ما ابنُكُم كابن أختهم حريون أن يُقضَى لهم ويَهابُوا
فعن أيِّ عذرٍ إن دُعُوا ودعيتُمُ أبيتُمْ بني أعمامنَا و أجابُوا
وما أدعى ما يعلَمُ اللهُ غيره رحابُ " عليٍّ " للعفاةِ رحَابُ
وأفعالُه للراغبين كريمةٌ وأموالُه للطالبين نِهَابُ
ولكنْ نبَا منه بكفِّيَ صارمٌ وأظلمَ في عينيَّ منه شِهَابُ
وأبطأ عنيِّ والمنايا سريعةٌ وللموتِ ظفرٌ قد أطلَّ ونابُ
فإلاّ يكنْ ودٌّ قديمٌ عهدتُه ولا نسبٌ بين الرجالِ قِرابُ
فأحوطَ للإسلامِ ألا يضيعَني ولي عنه فيه حوطةٌ ومَنَابُ

وهكذا رأى أبو فراس في افتدائه من أسره حقا مكتسبا ، وفرضا واجبا على سيف الدولة • ولذلك أغلظ له في عتابه حينما تأخر في تلبية طلبه ، وتوانى في إنقاذ واجبه نحو الشاعر • ومع ذلك كله يمكننا القول بأن عتاب أبي فراس لسيف الدولة هو من قبيل عتاب المحب الحريص على مصلحة أميره وابن عمه ودولته • ففي أوقات الخطر نراه يرسل إلى ابن عمه ليأخذ حذره وليستعد لمواجهة أعدائه • ومن الأدلة على ذلك تلك القصيدة التي أرسلها إلى سيف الدولة من أسره حينما علم بنوايا الروم لغزو حلب • ومنها قوله إليهُ داعيا أياه أن يستعد بجيشه للقاء جيشهم : [1]

سيفَ الهُدى من حدِّ سيفِك يُرتَجَى يومٌ يُذِلُّ الكفرَ للإيمانِ
هذي الجيوشُ تجيشُ نحو بلادِكُمْ محفوفةً بالكفرِ والصُّلبَانِ

---

[1] - ديوان أبي فراس ٣٤٢ .

ألبغيُ أكـــثرُ مـــا تقـــل خيولُهُـــمْ	والبغيُ شرُّ مصـــــاحِبِ الإنســـانِ
ليسوا يَنُون فلا تَنَـــُوا في أمرِكُـــمْ	لا ينـــهضُ الـــوانى لغـــيرِ الـــوانى
غضبـــاً لديـــن الله ألاّ تغضَبُـــــوا	لم يشـــتهرْ في نصـــرِه ســـــيفانِ
حتى كأنَّ الوحـــيَ فيكُـــمْ مـــنْزَلٌ	ولكم تخُــص فضـــــائلُ القـــرآنِ
قد أغضبوكُمْ فـــاغضَبُوا وتـــأهَّبُوا	للحـــرب أهبـــةَ ثـــائرٍ غضبـــانِ

فالشاعر رغم كل ما حدث له مصر على إنقاذ قومه ، وعلـــى بقائـــه ناصحا لهم وموجها كلما احتاجوا إلى النصيحة والتوجيه ، وكلما استطاع هو إلى ذلك سبيلا.فالعتاب الذى صدر منه لم يكن في الحقيقة إلا رد فعـــل لهـــذا الحنين الذى سيطر على الشاعر تجاه الأسرة الحمدانية كلها •

أما العتاب في أسريات المعتمد فقد جاء في موضعين فقط : أولهمـــــا في عتاب يوسف بن تاشفين على سوء معاملته ، وعلى نقضه للعهد الذى قطعـــه معه على الوقوف بجانبه ضد أعداء الإسلام في الأندلس ، ونذكيره بسفره إليـــه وقطعه المغاوز وخوضه البحار حنينا إليه.وذلك في قصيدة الرائية التى قالها بعـــد أن امتنعت حواء بنت تاشفين من إعارته خباء طلبه منها يقول : [1]

يقـــلُّ لعينيـــكَ أن يجعلـــوا	سوادَ العيون عليكمْ شَـــعَارا
تراهُمْ نسُوا حين جزْتَ القفـــا	رَحنينًا إليهم وخضتَ البحَـــارا
بعهدِ لـــــزوم لســـبل الوَفَـــا	إذا حادَ منْ حادَ عنها وجَـــارا
وقلـــبى نـــزوعٌ إلى يوســـفٍ	فلولا الضلوعُ عليـــهِ لطَـــارَا

---

[1] - ديوان المعتمد ٩٧ •

والموضع الآخر عبارة عن مقطوعة من أربعة أبيات يعتب فيـها على الدهر الذى أساء إلى الشاعر الملك.ورغم ما فعله به من قبيح الفعال فإنه يـأبى أن يندم على فعله ، ويمحو الذنب الذى ارتكبه في حق الشاعر مع أنه ليـس كغيره من الغافلين ، وإنما هو ملك شجاع لا يجرؤ أحد أن يفتك بـه.يقـول المعتمد : (١)

أبى الدهرُ أن يُقْنِيَ الحيـاءَ ويندَمَـا	وأن يمحُوَ الذنبَ الذى كان قدَّمَـا
وأن يتلقَّى وجـهَ عتـبىَ وجهُـهُ	بغدرٍ يغشِّـى صفحتيْـه التذمُّـا
ستعلمُ بعدى من تكـونُ سيـوفُه	إلى كلِّ صعبٍ من مراقيك سُـلَّما
سترجعُ إن حـاولتَ دونى فتكـةً	بأخجلَ من خدِّ المبـارزِ أحجَمَـا

وهناك فرق واضح بين عتاب المعتمد في هاتين المقطوعتين وعتـاب أبي فراس في مقطوعاته وقصائده التى ذكرنا بعضاً منها فيما يسبق . فقد وجه أبو فراس عتابه إلى سيف الدولة بسبب تأخره فى افتدائه ، وتخليصه من أسر الروم ، أو إلى نفر من أهله وحساده لكرههم له ومحاولتهم إبعاده عن قلب سـيف الدولة وإبقائه في الأسر . أى أن عتابه كله كان سببه الأسر ووجـوده فيـه وعدم خلاصه منه . أما المعتمد فكان عتابه بسبب نقض عهود قطعها يوسـف ابن تاشفين معه على مواصلة الجهاد ضد أعداء الإسلام ، وتناسى ابن تاشـفين للود الذى كان بين المعتمد وبينه كما في المقطوعة الأولى ، ثم بسبب اعتـداء الدهر عليه ، وعدم ندمه على ذنبه معه ،كما في المقطوعة الثانية .

---

١ - ديوان المعتمد ١١٤ .

وفى ظنى أن المعتمد في مثل هذا اللوم والعتاب كان صادق الإحساس مع نفسه ، فهو يعانى تجربة السقوط المروعة بعد ماضيه الزاهر ، كما نظر إلى حاضره الذليل البائس . وكانت الكارثة التى نزلت به وبأهله من الشدة والقوة بحيث جعلته يبدى من السخط والتبرم بالزمان وأهله . وفى لومه وتعنيفه ما يتوافق مع وقع هذه الكارثة على نفسه .

ولعل السبب فى قلة العتاب الصادر عن المعتمد أنه لم يكن يجد هناك من يستمع إلى عتابه ، أو أنه أحس أنه لن يكون للعتاب جدوى بعد أن رأى جدية يوسف بن تاشفين فى القضاء على دويلات ملوك الطوائف ، وإصراره على أن تبقى الأندلس مجرد ولاية تابعة لدولة المرابطين في المغرب . ومن هنا فقد فقد الأمل في عفو يوسف عنه وفك أسره . فإما أن تقوم ثورة تعيده إلى عرشه وملكه بالقوة ، وإما أن يأتيه الفرج من عند الله – سبحانه وتعالى – بطريقة من الطرق . أما أن يعتب على يوسف فيتأثر بعتابه ويعيده إلى ملكه فلا. بعكس الأمر مع أبي فراس : فدولة بنى حمدان باقية وأميرها ابن عمه وزوج أخته ما يزال متوجا حاكما عليها ، والروم مستعدون لإطلاق سراحه مقابل فداء معين . فالظروف كلها متاحة لعودة حريته ومجده إليه فلما تأخر فدؤه غضب ، وعاتب ، ولام .وكان يكرر هذا العتاب واللوم كلما سمع ما قد يؤثر على إطلاق سراحه .

سادسا : الفخر .

الفخر:هو تعداد الصفات الطيبة وإلصاقها بالنفس ، أو بالآباء

والأجداد، وتحسين القبيح منها.وهو باب واسع من أبواب الشعر العربي يعبر عن ميل الشاعر العربي إلى الأنفة والعزة وبعده وآبائه وقومه عن قبيح الأفعال والصفات وأرذلها .

والفخر من الأغراض الشعرية القديمة في الأدب العربي . فلقد طبعت النفوس على حب الفخر . وكان العربي القديم يحرص على أن يلصق بنفسه وقومه أبهى الصفات وأعزها حتى يعلو شأنه ، وترتفع مكانته بين أبناء مجتمعه . ولذا فقد نظم الشعراء كثيرا من شعر الفخر أسبغوا فيه على أنفسهم العديد من الصفات الحسنة ، والمزايا الفاضلة .

وهناك علاقة قوية بين الفخر والمديح.وذكرابن رشيق أن الفخر " هو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه . وكل ما حسن فى المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار ".[١]

وذكر أبو هلال العسكرى :" أن الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة ، والعفاف ، والحلم والعلم ، والحسب ، وما يجرى مجرى ذلك ".[٢]

وينقسم الفخر في الشعر إلى نوعين : فخر فردى أو ذاتى ، وفخر جماعى . فالفخر الفردى أو الذاتى هو ما يعبر فيه الشاعر عن صفاته هو معددا محاسنه ، ومبعدا عن نفسه ما يسئ إلى ذاته ، أو ما ينزل من قيمتها. وهذا النوع من الفخر كثير فى الشعر العربى فما يكاد يخلو منه ديوان من

---

١ - العمدة ١٤٣ .

٢ - كتاب الصناعتين ١٣١ .

دواوين شعرائه • لأن العربي ميال دائما إلى التطلع إلى العلى ، وإلى التغني بما يرفع من مكانته وجاهه ، شديد التعلق بإظهار ما في نفسه من نزعات ، وتعداد ما في نفسه من حسنات ، قوى التطلع إلى ما مضى من الزمان ، وما كان فيه من مآثر الأباء والأجداد •

أما الفخر الجماعى فهو ما يعبر فيه الشاعر عن الصفات الطيبة التي تتصل بقبيلته أو حزبه ، وينفى عن جماعته أى عيب قد يظن غيرهم أنهم يتصفون به •

وقد كثر الفخر عند أبي فراس في رومياته ، وعند المعتمد في أسرياته • وإن كنا نراه عند أبي فراس أقوى وأكثر.كما كثر الفخر في شعر الأسر والسجن عامة •

"ولو ذهبنا نبحث عن علة لفخر الشاعر السجين لوجدنا أن الشاعر لابد أن يتخذ من نكبته موقفا : فإما أن يرتفع ويتسامى ، أو ينخفض ويرتكس. ومن الشعراء من تتسامى نفسه والأزمة تعتصره ، ويقف للاعداء في إباء معجب.وكثير من الشعراء ارتفع إلى هذا السمت وهم لا يجحدون النكبة الفادحة ، ولكنهم يجحدون أن توهن عزائمهم ، وأن تلفتهم عن أهدافهم • وكان بعض الشعراء يلقون أنفسهم في اختبار دقيق مع الرجولة فصابروا العذب ليخرجوا من المحنة منتصرين • وكان الموت عندهم هو الوهن والخضوع . فانتزعوا الإعجاب بالثبات والتحدى ، وعدت مواقفهم وأقوالهم

مضروب المثل "[١] ونقرأ أبيات الفخر في روميات أبي فراس في كل موقف من مواقف حياته في سجنه وفي كل مناسبة ينظم فيها • ومصدر الفخر عند أبي فراس هي نفسه الأبية وأسرته العريقة ، وأصله الكريم • وقد عاش أبو فراس في هذه البيئة المليئة بالفخر والاعتزاز •وفي لحظة وجد نفسه أسيرا في سجن الروم يعيش في غياهب السجون ويتحمل ألم الحديد والقيود ، ولكن نفسه الأبية أبت إلا أن تفتخر وتتيه وتتغنى بعزها وكرامتها •

" كان لأبي فراس من قبيلته تغلب ، ومكانة آبائه الذين اشتهروا بالشجاعة والجلد ، وعلو الهمة داع يستفزه إلى الفخر •ولا سيما أنه قد تفتحت عيناه للنور في قصر تملؤه طائفة من حملة السيوف ، وأرباب الأدب، ولما شب رأى في نفسه أنفة وفتوة ناضرة ، وشجاعة ترغب في قراع الأسنة واقتحام المخاطر ، وشمائل أثارت في نفسه الإعجاب ، ولما خاض ميدان القتال، وأحرز من الانتصار على مناهضي ابن عمه سيف الدولة ما هز أعطافه طربا هب يترنم بوقائعه ، وتمرسه بالشدة والتصلب في مجابهة الأخطار ، ثم لم يلبث أن أسر فتبدلت حاله ، ولكنه أبى المذلة فشرع يتعزى ويتنشط بذكر مآثره وخصاله •

، ولعل تيتمه في حداثة سنه الذى حرمه عطف والده ، وحفاوة المستزلفين دعاه إلى الفخر استعاضة عن مديح الشعراء" .[٢]

---

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٤٣ .
٢ - الفخر والحماسة - حنا الفاخوري - مجموعة فنون الأدب العربي - دار المعارف - ط ٤ ص ٣١ .

فمهما تكن النوائب التى كانت تنزل به ، ومهما تبلغ شدة وطئتها على نفسه ، فإن نفسه كانت تأبى الذل والانكسار ، أو تحمل الإهانة وهبوط العزيمة.

ومن أقوى شعر أبي فراس في الفخر قصيدته الرائية التى أنشدها حين من عليه الروم في أسره بأنه لم يؤسر عندهم أحد وبقي عليه ثيابه وفرسه وسلاحه غيره ، فرد عليهم بهذه القصيدة ، وفي بعضها يفخر بقوته الحربية وشجاعته وقت النزال ، وإن كان قد اسر فهذا قدر ولا مفر منه . يقول : [١]

وإنّ لجرّارٌ لكلّ كتيبةٍ ... معوّدةٍ ألا يُخلّ بها النّصرُ
وإني لنزّالٌ بكلّ مخوفةٍ ... كثيرٍ إلى نزالها النظرُ الشزْرُ
فأظمأُ حتى ترتوى البيضُ والقَنَا ... وأسغَبُ حتى يشبعَ الذئبُ والنسرُ
ولا أصبحُ الحيَّ الخلوفَ بغارةٍ ... ولا الجيشَ مالم تأته قبلى النُّذُرُ
ويارُبَّ دارٍ لم تَخَفْنِي منيعةٍ ... طلعتُ عليها بالردى أنا والفجْرُ
وحيٍّ رددتُ الخيلَ حتى ملكتُهُ ... هزيما وردّتني البراقعُ والخُمُرُ
وساحبةِ الأذيالِ نحوى لقيتُها ... فلم يلقَها جَهْمُ اللقاء ولا وَعْرُ
وهبتُ لها ما حازه الجيشُ كلّه ... ورحتُ ولم يكشَفْ لأثوابها سِتْرُ
ولا راحَ يطغيني بأثوابه الغنى ... ولا باتَ يثنيني عن الكرمِ الفقرُ

وفي هذه الأبيات فخر بالبطولة الحربية والشجاعة النادرة وتحقيق أغلى الانتصارات دون أن يأخذ العدو على غرة ، كما أن فيها فخرا بالعفة وعدم الاعتداء على الحرمات ، ثم بالكرم والتواضع الشديدين في كل الأحوال .

١ - ديوان أبي فراس ١٦٤ .

ويتحدث أبو فراس في هذه القصيدة عن أسره ، وجعله قدرا مقدرا وليس عجزًا منه أو ضعفا ، فلقد فضل الأسر مع ما قد يكون وراءه من الردى والعذاب الأليم على الفرار الذى يلحق به العيب • ويعبر عن شجاعته حينما يذكر أن بعض أصحابه أشاروا عليه بالفرار خوفا من الردى ، ولكنه لم يأبه بكلامهم وثبت أمام أعدائه حتى أسر ، وإن كان قد وقع في الأسر فإن ذلك أكرم لنفسه الأبية التى ترفض المذلة وإن كان فيها نجاته •

ويذكر أن أعداءه من الروم قد قدروا فيه قوته وبسالته فتركوا عليه ملابسه الحربية يرتديها في أسره ، وهي ملابس مضمخة بدماء أبطالهم ، فلطالما أعمل سيفه في نحورهم وصدورهم ، وإن كان الأعداء يعرفون عنه ذلك فإن قومه سوف يذكرون فروسيته ونضاله ، ولن ينسوا صولاته وجولاته في ميادين حروبهم كما يفتقد الناس البدر في الليالى المظلمة المدلهمة •

أُسِرتُ وما صحبي بعُزلٍ لدى الوَغَى ولا فَرَسِي مُهرٌ ولا ربُّه غَمْرُ
ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امرىءٍ فليس له برٌّ يقيه ولا بَحْرُ
وقال أُصَيْحابي الفرارُ أو الرَّدى فقلتُ هما أمرانِ أحلاهُما مُرُّ
ولكنَّني أمضي لما لا يَعيبُني وحسبُك من أمرَيْن خيرُهما الأسْرُ
يمنُّون أن خلَّوْا ثيابي وإنَّما عليَّ ثيابٌ من دمائهمُ حُمْرُ
وقائمُ سيفي فيهم اندَقَّ نصلُه وأعقابُ رمحى فيهمُ حُطِّمَ الصدرُ
سيذكرُني قومى إذا جَدَّ جِدُّهمْ وفي الليلةِ الظلماءِ يُفتقَدُ البدرُ
فإن عشتُ فالطعنُ الذى يعرفونَه وتلك القنا والبيضُ والضُمَّرُ الشُقْرُ

وإن مِتّ فالإنسانُ لابـد ميّتٌ   وإن طالت الأيامُ وانفسحَ العُمْـرُ

إن فخر أبى فراس هنا يدل على رسوخ فضيلة البطولة والفروسـية في سلوكه،وعلى أنه فارس وبطل مغوار لا يتورع عن خوض غمار أشد الحـروب ضراوة وشراسة ، ولا يفتأ أبو فراس يفتخر بذكر بطولاته وإقدامه في ميـادين القتال ، ومن ذلك قوله متحدثا عن صموده ضد الروم في مواقفـه معـهم ، واختياره للموت في كل لقاءاته بهم على الحياة أو الحرص عليها : [١]

تَـأَمَّلَنِى الدمسـتُقُ إذ رَآنى   فأبصرَ صيغةَ الليثِ الهُمَـامِ
أتنكرُنى كأنَّكَ لستَ تـدرى   بأنى ذلك البطـلُ المُحَـامِى
وإنى إذ نزلتُ على "دُلُـوكٍ"   تركتُك غير متصلِ النظـامِ [٢]
أبيتُ مبرأً من كـلِّ عيـبٍ   وأصبحُ سالماً من كـلِ ذامِ
ومن لَقِىَ الذى لاقيتُ هانَتْ   عليه مواردُ المـوتِ الـزُّؤَامِ
ثناءٌ طيِّبٌ لا خُلْـفَ فيـه   وآثـارٌ كآثـار الغمَـامِ
وعِلمُ فـوارسِ الحيَّيْنِ أنى   قليلٌ من يقومُ لهـم مقَـامِى
ألامُ على التعرُّضِ للمنايـا   ولى سمعٌ أصمُّ عـن المَـلامِ
ولو أنى رجوتُ بـه بقـاءً   لمكَّنْتُ العواذلَ من زمـامِى

ونظم أبو فراس في خرشنة التى كان بها سجنه قصيدة من أجمل قصـائده الوجدانية ، وكانت نغمة الفخر فيها واضحة ، وفيها يتعالى على جراحه ، ولا

---

١ - ديوان أبى فراس الحمدانى ٣١٨ .
٢ - دلوك:اسم بلدة .

يضعف أمام الكوارث ولا يستسلم للأحداث والنكبات ، فهو الـــذى أغـــار وحارب الروم وقاتلهم حتى أسر ، ولئن أصبح في خرشنة أسيرا فكـــم نزلهـــا محاربا مغيرا ، وكم أشعل بقصورها ومنازلها نارا ولهيبا : يقول : [١]

إن زرتُ خرشـــــنةً أســـــيرًا فكـــم أحطـــتُ بهـــا مُغِـــيرًا
ولقـــد رأيـــتُ النـــارَ تنـــــ ـــتهبُ المنـــازلَ والقصُـــــورًا
ولقـــد رأيـــتَ السَّـبْيَ يُجْـــــ ـــلَبُ نحونـــا حُـــوًّا وحُـــورًا [٢]
نختـــارُ منـــه الغـــادةَ الـــــ ـــحسنـاءَ والظَّـبيَ الغريـــرَا

ويهون الشاعر من أثر الحادثة على نفسه ، فلئن طال ليلـــه ، واشـــتد ظلامه في خرشنة ، ولاقى داخل جدران سجونها العذاب والحزن ، والألم ، فإنه قد حقق بها انتصارات كان بها مسرورا :

إن طـــالَ ليلـــي في ذُرا كِ فقد نعمتُ بـــه قصِـــيرا
ولئن لقيتُ الحـــزنَ فيـــ ـــكِ فقد لقيت بك السرورَا

ويتجمل الشاعر بالصبر عله يعينه على تحمل الألم ، وإن كـــان ســـجنه شيئا طبيعيا فمثله لا يبيت الا محاربا أو أسيرا :

ولئـــنْ رُميـــتُ بحـــادثٍ فـــلأ لفيـــنَّ لـــه صَبُـــورا
صـــبرًا لعـــلَّ اللهَ يفـــــ ـــتح بعده فتحـــًا يســـيرًا

---

١ - ديوان أبي فراس ١١٦ ·
٢ - الحو : الواحدة : حواء وهي التي في شفتيها سمرة ، الحور : جمع حوراء ، وهي التي في عينيها حور ·

مَنْ كـــانَ مثلــي لم يبــِتْ إلا أســـيرًا أو أمـــــيرا
ليســـتْ تحَـُلُّ ســــــراتُنا إلا الصـــدورَ أو القبـُــورا

إن الشاعر بهذه القصيدة يخفف من مأساته ، ويرفع من معنوياته ، ويعلى من قيمته البطولية والروحية ، فهو أكبر مما يترله به الروم في سجنه بهذه المدينة.
فقد كان بالأمس القريب يذيقهم مر الهزيمة ، وذل الغلبة ، فلا بأس عليه من أن يروه اليوم بخرشنة أسيرا . كما أن أسره أمر طبيعي فهو فارس محــــارب ، ومن كان هكذا كان معرضا للهزيمة بعد تحقيق بعض الانتصارات . فمن كـــان مثله لم يبت إلا أسيرا أو أميرا .

ونرى أبا فراس لا يكف فى رومياته عن الفخر بنفسه حتى في أصعــــب اللحظات،ففى الوقت الذى يتحسر فيه على نفسه ، ويستعطف سيف الدولـــة ويرجوه أن يخلصه من أسره،نراه يفتخر بكرمه وببطولته الحربية . فبعـــــد أن قيده الأسر بكاه أبناء السبيل لانقطاع معروفه عنهم،وبكتـــه الخيــول الــتى أحست بأن فارسها غير موجود،وتعطلت سمر الرماح لعدم وجود من يعملـــها في رقاب الأعداء ، وأغمدت السيوف لأنه لم يعد هناك من هو جدير بحملـــها بعد فراق أبي فراس لها ، يقول أبو فراس عن نفسه : [١]

فقـــدَ الضيـــوفُ مكانــَـهُ وبكـــاهُ أبنـــاءُ الســــبيلِ
واستوحشَــــتْ لفراقِــــهِ يومَ الوغى سربُ الخيـــولِ
وتعطَّـَـتْ سمــرُ الرِّمــــاحِ وأغمِدَتْ بيضُ النصُــولِ

---

١ - ديوان أبى فراس ٢٧٣ .

وهناك الكثير والكثير من أقوال الفخر التي امتلأت بها روميات أبي فراس ، وفي معظمها كان يتغنى ببطولاته الحربية ، وبشجاعته في القتال والنزال ورأى أن فخر أبي فراس ببطولته وشجاعته ، أمر طبيعي ينسجم مع ما جبل عليه من فخر وتيه ، وإعجاب بنفسه ، وبمكانته الاجتماعية والسياسية . ومعظم فخره جاء في موقعه الصحيح ، لأنه أمير وابن أمير ، ومن أسرة أمراء ، وهذا ما سوغ له الفخر بالمحتد ، والتباهي إلى أقصى غايات التباهي . وإن كان الدكتور خليل شرف الدين يرى أن فخر أبي فراس ببطولاته هو من نوع الفخر الرمزي ، وأن بطولاته بطولات نفسية أكثر منها مادية ، مثلها في ذلك مثل بطولات الرضى الشاعر العباسي [١]. وهذا الرأي إن صدق فإنه إنما يصدق على بعض مواطن فخر أبي فراس الحربي . وديوان الشاعر مليء بالقصائد التي قيلت في مناسبات حربية حقيقية حقق فيها أبو فراس بطولات نادرة .

وفي فخر أبي فراس في رومياته فخر جماعي قبلي ، يخفت فيه الشاعر من صوت (الأنا) ، ويعلو فيه صوت الجماعة ، ويذيب في هذا الفخر شعوره الفردي في الشعور القبلي العام . ومن هذا الفخر قوله في ختام رائيته الشهيرة : " أراك عصي الدمع شيمتك الصبر " : [٢]

ونحن أناسٌ لا توسُّطَ عندَنَا ... لنا الصدرُ دونَ العالَمينَ أو القَبْرُ

١- انظر كتاب أبو فراس الحمداني ١٨٤ .
٢ - ديوان أبي فراس ١٦٥ .

تهونُ علينَــا في المعـالِي نفوسُــنا ومن خَطَبَ الحسناءَ لم يغلها المَــهْرُ
أعزُّبني الدنيا وأعلَــى ذوى العُــلا وأكرمُ من فوقِ الترابِ ولا فَخْــرُ

ومنه ما جاء به في قصيدته التي يرد بها على مقولة الدمستــق في تلــك المناظرة التي جرت بينهما : " إنما أنتم كتاب أصحاب أقلام ولستم بأصحــاب سيوف • ومن أين تعرفون الحروب ؟." فقال له أبو فراس : "نحن نطأ أرضـك منذ ستين سنة • بالسيوف أم بالأقلام ؟ ".ثم أنشد قصيدة منها قوله مفتخــرا بشجاعة آل حمدان في بعض وقائع الحمدانيين ضد الروم :

أتزعُمُ يا ضخــمَ اللغـاديدِ أننَــا ونحن أسودُ الحربِ لا نعرفُ الحربَـا
فويلكَ منْ للحربِ إن لم تكُنْ لهَــا ومن ذا الذى يمسِي ويضحِي لها تِرْبـا
ومن ذا يلفُّ الجيشَ مـــن جنباتِــهِ ومن ذا يقودُ الشُمَّ أو يصدِمُ القلبَــا
أقوعدُنا بـــالحربِ حــتى كأنَّنَــا وإياكَ لم يُعصَبْ بها قلبُنَــا عصْبَــا
لقد جمعتنا الحربُ من قبـــل هــذه فكنَّا بها أُسْداً وكـنْـتَ بهـا كلبَــا
فسَلْ " بَرْدَسًا "عنا أباكَ وصـــهرَه وسل آلَ " برداليس"أعظمَكُم خطبَا
وسل " قُرقُواسًا"و"الشميشَقَ صهرَه وسل سبطَه " البطريقَ " أثبتَكُم قلبَا
وسل صِيدَكُم آل الملايـــين إننــا نهبنا ببيـــض الهنــد عزَّهُــم نهبَــا
ألم تفنِهِمٌ قتــلاً وأســرًا ســيوفُنا وأسدَ الشَّرى الملأى وإن جَمَدَتْ رُعْبا
بأقلامِنَــا أجْحِــرْتَ أم بســـيوفنا وأسدَ الشرى قدْنَا إليكَ أم الكُتُبَــا
تركناك في بطـــنِ الفَــلاةِ تجوبُهــا كما انتفقَ اليَربوعُ يلتثِــمُ التُّربَــا

وتمتاز هذه القصيدة بالوجدانيه الخالصة ، وبتنـــوع المشــاعر وغناهــا

وعلوها مع صدقها ، وقد صدرت عن منبع واحد وهو العزة والكبرياء والتيه بمكارم الآباء والأجداد .

إننا نقرأ فخر أبي فراس في رومياته فنحس بأن كلامه كلام الرجل الحر الطليق لا كلام الأسير المقيد." وقد يقول معترض : وكيف صح لأبي فراس أن ينظم أشعار الحماسة وهو في القيد ؟ ونجيب بأن الليث المأسور في حديقة الحيوان يتمثل أحداث الغابة في كل حين ، والنفس تجتر ماضي النعيم في أيام الحرمان، وصور النعيم السالف هي القبس الذى يبدد غياهب البؤس ، ويمحق ظلمات البأساء ".[1]

هذا عن الفخر في روميات أبي فراس . أما الفخر في أسريات المعتمد بن عباد فكثير أيضا ، وإن كان أقل مما وجدناه في روميات أبي فراس .

وأول ما نلتقى به من فخر للمعتمد في أسرياته قصيدته التي قالها يصور ما كان عليه قبيل وقوعه في الأسر ، وقد خرج مدافعا عن نفسه وأهله وملكه ، وفي هذه القصيدة يفخر المعتمد بنفسه وشجاعته في مواجهة المرابطين حين هوجمت أشبيلية ، وذكر أنه رفض ما أشار به عليه وزراؤه من الخضوع والاستسلام والاستعطاف . رفض هذا واستنكره ورأى أن الأفضل منه أن يتجرع السم النقيع وخرج إلى أعدائه ولم ينتظر حتى يلبس درعه ، وإنما برز إليهم وليس عليه سوى القميص ، ورمى بنفسه وسط سيوفهم كي تسيل مع دمه ، ولكن أجله تأخر . وكيف يذل نفسه ويخضع لأعدائه وهو من نسل

---

١ - الموازنة بين الشعراء - زكى مبارك ٢٧٨ .

فرسان شجعان ، ولم يخض ميدان قتال في يوم ما إلا وكان أمله أن يقتل بسيوفهم بعد أن ينال منهم ، ويعمل سيفه في رقابهم . هذه عادته وعادة آبائه ، لم يخض منهم أحد هول معركة وهو يأمل العودة منها سالما : [1]

لما تماسكتِ الدموعُ	وتنبّه القلبُ الصديعُ
قالوا الخضوعُ سياسةٌ	فليبدُ منكَ لهم خضوعُ
وألذُّ من طعم الخضو	ع على فمي السمُّ النقيعُ
أن يسلُبِ القومُ العدا	ملكي وتسلمني الجموعُ
فالقلبُ بين ضلوعِهِ	لم تَسلِمِ القلبَ الضلوعُ
لم أستلِبْ شرفَ الطبا	عِ أيُسْلَبُ الشرفُ الرفيعُ
قد رمتُ يومَ نزالِهِمْ	ألّا تحصنُني الدروعُ
وبرزتُ ليس سوى القميـ	ـص على الحشا شيءٌ دفوعُ
وبذلتُ نفسي كي تسيلَ	إذا يسيلُ بها النجيعُ
أَجَلي تأخّر لم يكن	بهواي ذُلّي والخضوعُ
ما سرتُ قط إلى القتا	ل وكان من أملي الرجوعُ
شيم الأُلى أنا منهمو	والأصلُ تتبعهُ الفروعُ

وواضح أن الفخر في هذه القصيدة يدور في فلك بعض المحاور التي ذكر النقاد دوران الفخر في نطاقها ، فالفخر فيها يقوم على الشجاعة ، وجرأة القلب ، وعدم الخضوع للعدو ، وشرف الطباع ، وكرم الأصل . وفيها ما

---

١ - ديوان المعتمد ٨٨ .

يدل على تحدى المعتمد لظروفه التى يعيشها فى أسره رغم قسوتها وشدتها .

ومعانى الأبيات الأولى من هذه القصيدة شبيهة بمعانى أبيات أبى فـــراس التى تعرضنا لها فيما سبق وهي : [١]

أُسرتُ وما صَحْبِي بعُزْلٍ لدى الوَغَى ... ولا فَرَسِي مُهْرٌ ولا ربُّه غمرُ

ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امرىءٍ ... فليس له بَرٌّ يقيه ولا بحرُ

وقال أُصَيْحابي الفرارُ أو الرَّدى ... فقلتُ هما أمران أحلاهُما مُرُّ

ولكنَّني أمضي لما لا يعيبُني ... وحسبُك من أمرين خيرُهما الأسرُ

يقولون بعتَ السلامة بالرَّدى ... فقلتُ أما والله ما نالني خُسْرُ

فالمعتمد بن عباد أشار عليه أصحابه بالاستسلام والخضوع للأعداء حتى ينجو بنفسه ، كما أشار أصحاب أبى فراس عليه بـالفرار حـتى لا يتعـرض للموت ، وقد رفض كل منهما ما أشار عليه أصحابه بفعله لما فيه من الخسـة والخزى والعار الذى يأباه ، وقد برر أبو فراس موقفه هذا بأنه فعل ما يرفع من شأنه ومكانته وما يبعده عن العار والمذلة ، وبرر المعتمد موقفه هذا بأن مكانتـه ومكانة آبائه لا تسمح له أن يخاف الموت ويستسلم لعـدوه هروبـا منـه ، فالشاعران متفقان فى تبرير موقفهما فى تفضيل القتال ومواجهة الأعداء علـى الأستسلام لهم . وهو تبرير وجيه ومشرف لكل منهما .

وللمعتمد قصيدة أخرى يفخر فيها بآبائه وأجداده ويتبـاهى بمجدهـم

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٥ .

وانتسابهم إلى المنذر بن ماء السماء ، معددا ملوك أسرته الذين شهروا شـــهرة الشمس الساطعة ، وأنه لا يضيره ولا يضيرهم ما لحق ببعضهم من حنق الدهر وعدم وفائه لهم ، وما دام الذين قد قوى في نفوسهم وحرصوا على رعايتـــه فحقير أمر هذه الدنيا ، وما يحدث فيها . وذكر ابن بسام في مناســـبة هـــذه القصيدة : " أن رجلا رأى في منامه إثر الكائنة على بني عباد كأن رجلا صعـــد منبر جامع قرطبة فاستقبل الناس ينشدهم :

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخُوا عيسَـــهُم ... في ذُرا مجدهِـــمْ حـــين بَسَـــقْ
سكتَ الدَّهرُ زمانـــًا عنـــهمو ... ثم أبكاهُمُ دمـــًا حـــينَ نطـــقْ

فلما سمع المعتمد ذلك أيقن أنه نعي لملكه ، وإعلام بما انتثر من ســلكه " . فقال هذه القصيدة .[1] وفيها يقول :[2]

مَنْ عَزَا المجدَ إلينا قد صَـــدَقْ ... لم يَلُمْ من قال . مهما قالَ حـــقْ
مجدُنا الشمسُ سناءً وســـنًا ... من يَرُم ســـترَ ســـناها لم يُطِـــقْ
أيُّها النّـــاعى إلينـــا مجدَنـــا ... وهل يضيرُ المجدَ أن خطبٌ طَـــرَقْ
لا تَرُعْ للدمـــع في آماقِنـــا ... مَزَجَتْه بـــدمٍ أيـــدى الحُـــرَقْ
حَنَقَ الدهرُ علينـــا فســـطَا ... وكذا الدهرُ على الحـــرِّ حَنِـــقْ
وقديمًا كَلَـــفَ الملـــكُ بنـــا ... ورأى منـــا شموســـًا فعشِـــقْ
قد مضى منّا ملوكٌ شُـــهِرُوا ... شهرةَ الشمس تجلّت في الأفُـــقْ

---

١ - انظر: الذخيرة - القسم الثاني - المجلد الأول / ٥٨ .
٢ - ديوان المعتمد ١٠٩.

نحنُ أبناءُ بنى مـــاءِ السَّـمَا نحوَنا تطمـــحُ ألحـــاظُ الحِـــدَقْ
وإذا ما اجتمعَ الديـــنُ لنـــا فحقيرٌ ما مـــن الدنيـــا افـــتَرَقْ

ويختم الحديث عن مجد هذه الأسرة التى ينتسب إليها بذكر مدة دولـــة هؤلاء الملوك ، وأنهم ساسوا الرعية سبعين سنة عاشت فيها دولتهم مشـــرقة متألقة :

حِجَجًا عشراً وعشراً بعدَهـــا وثلاثـــين وعشـــرين نسَـــقْ
أشرقتْ عشرون من أنفَسِـــها وثـــلاثٌ نـــيراتٌ تـــأتَلِقْ

وقد أجمل المعتمد في البيت الأول عمر دولة بنى عبـــاد في الأندلـــس ، وخص المدة التى حكم هو فيها هذه الدولة بالبيت الثانى ، وذكر أنها كـــانت ثلاثا وعشرين سنة ، منها عشرون سنة مشرقة من أنفس سنى هذه الدولـــة ، وثلاث أتت بعدها نيرات متألقة .

وواضح من هذه القصيدة مدى تحدى المعتمد للكارثة التى مـــنى بهـــا ، وكأنه يرفض الخضوع لها ، وأن ما حدث له هو مجرد (خطب طرق) ويمكـــن أن يزول في أي وقت .

ومن فخره بنفسه واعتداده بقومه وبأسه قوله متحدثا عن شجاعته الـــتى قيدها سجنه ، وذلك بعد أن أخبر بأنباء قيام ابنه عبد الجبار بثورته بـــأركش القريبة من أشبيلية : [1]

---

١ - ديوان المعتمد ١١٦ .

كذا يهلكُ السـيفُ في جفنِـهِ إلى هزِّ كفِّـى طويـلَ الحنـينِ
كذا يعطَشُ الرمـحُ لم أعتقلْـهُ ولم تَـروِه مـن نجيـعٍ يمينـي
كذا يمنعُ الطِّرفُ علكَ الشكيـ ـمِ مرتقبـاً غـرَّةً في كمـينِ
كأن الفـوارسَ فيه ليـوثٌ تُراعِـى فرائسَـها في عريـنِ

وفي هذه الأبيات يصور نفسه من خلال تحسره على ما حـدث لـه - بالشجاعة وقوة إعماله السيوف في رقاب الأعداء ، حتى لقـد طـال حنـين السيف إليه ، كما أن الرمح قد طال ظمؤه إلى دماء الأعداء لأنه لم يعد يجـد من يعتقله،والفرس قد حرم بأسر الشاعر شد لجامه ارتقابا لاقتحـام ميـادين المعارك التي تضم الفرسان المغاوير •

ثم ينتقل الشاعر إلى تمنيه وحنينه إلى حمل السلاح ، وضـرب الهـام ، وإراقة الدماء في ميادين المعارك فيقول :

ألاَ شـرَفٌ يرحـمُ المشـرفيَّ مما به مـن شَمـاتِ الوتـينِ[1]
ألاَ كـرمٌ يُنعِـشُ السـمهريَّ ويشفيه مـ[illegible] كـل داءٍ دفـينِ
ألاَ حنـةٌ لابـن محنيـةٍ شديدِ [illegible]ـيف الأنـينِ[2]
يؤمِّـل مـن صدرِهـا ضمَّـةً تبوئُـه صـدرَ كـفٍّ معـينِ

ونحس حين نقرأ هذه القصيدة وكأنها خرجت من روح إنسان قد غمس

١ - يراد بشمات الوتين : الشماتة في صاحب الوتين بقطع هذا العرق الذى يموت من قطع منه •
٢ - حنة : رأفة ورحمة ، ابن محنية : هو القوس •

في عذاب النفس والجسد معا. و هي تدل على طابع صاحبها بأنه من ذوى النفوس الشماء التى تتحدى العذاب والآلام حتى الموت من غير أن تستسلم أو تلين حتى تخفف عنها الألم .

" والمعتمد عند ما يفرط في مدح نفسه ويعدد محاسنه وصفاته لا يفعل ذلك زهوا ولا تكبرا ، فهو لا يملك من أمر نفسه شيئا وهو يعلم أن هذه الصفات التى يلصقها بنفسه لم يعد لها وجود ، فقد ولت وولى زمانها ، ولكنه يسوق كل هذا يعزى نفسه ، ويذكر الناس بأمجاده وأفعاله الكريمة حتى لا ينسوه ، خاصة وأنه على وشك أن يطويه القبر ، ويخطفه الموت دون أن ينصفه أحد أو يشعر به إنسان " .[1]

نفهم هذا من قصائده التى سقناها فيما سبق.ومن هذه الأبيات الأخرى التى يفخر فيها بنفسه الأبية ، ويلوم الدهر الذى أوقع الظلم بهذه النفس التى كانت تحرص على إقالة عثرات المكروبين ، وتبذل العطاء الجزيل للمحتاجين ، فقد طبع على الجود ، والبعد عن الخنا ، والإسراع إلى تلبية حاجة المعتفين . يقول :[2]

قُبِّحَ الدهرُ فماذا صَنَعَا ... كلَّما أعطَى نفيساً نزَعَا
قد هَوَى ظلماً بمن عاداتُه ... أن ينادِي كلَّ منْ يهوِى (لَعَا)
من إذا الغيثُ همَى منهمِراً ... أخجَلتْهُ كفُّهُ فانقطعَا

---

١ - رثاء الدول والممالك الزائلة - د / عبد الرحمن حسين محمد ١٥٩ .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد ١٠٨ .

مَنْ غمامُ الجودِ مـــن راحتـــهِ عصفتْ ريـــحٌ بـــه فانقشـــعا
مـــن إذا قيـــل الخَنَـــا صَـــمّ وإنْ نطقَ العافُون همســـاً سمعـــا

وفخر المعتمد في هذه الأبيات يبرز من بين إحساس مهول بالحسرة والألم نتيجة وقوع ظلم به لا يستحقه .

وللمعتمد نتف أخرى من الفخر وردت في ثنايـــا بعـــض قصـــائده في الأغراض الأخرى ، ولكن الفخر عنده بكل المقاييس أقل بكثير مما وجدنـــاه عند أبي فراس الحمدانى . ولعل السبب في ذلك هو حياة اليأس التى عاشـــها المعتمد في سجنه بعد أن زال ملكه ، وقلب الدهر له ظهر المجـــن ، وعلـــم أن الدنيا قد أدبرت عنه ، وأن طول الأسر قد قضى على آماله في الحياة . ولذلك نجد أن فخره فى أسرياته ممزوج دائما بتحقير أمر الدنيا وكرهها ، وبـــالحديث عن واقعه البائس الحزين.ولا ننسى قبل ذلك كله أن المعتمد كان حينذاك قـــد بلغ سنا يبدأ فيها الإنسان - حتى الذى يعيش في ظـــروف عاديـــة - يفكـــر فى الموت وما سيكون بعده أكثر من تفكيره في أمر الدنيا وافتخاره بمآثره فيـــها . فقد دخل السجن وقد تعدى الخمسين من عمره . عكس أبى فراس الـــذى كان -وهو في الأسر- في مقتبل عمره ، وكان قوى الأمل في الرجوع إلى ماضى عهده ، وإلى حياة الفتوة والفروسية ، وأن الدنيا سوف تضمه إلى أحضانها مرة أخرى ليواصل أمجاده وتحقيق آماله : فكان يتيه ويفتخر وهو في أسره وكأنـــه طليق لا أسير مقيد.

وجاء فخر أبى فراس في أسره قائما على اجترار مفاخره القديمة مشـــوبا

بالأسى والحسرة ، ولكنه لم يتخل فيه عن إبائه وأنفته • وتضاءل فخره بقومه مع تطاول فترة الأسر وتأخر الفداء • كما جاء فخره ممتزجا بغيره من بعض الأغراض الأخرى كالعتاب ، والشكوى ، والاستعطاف ، والغزل • ولم يعد غرضا مستقلا كما كان قبل الأسر . [١] وهذا الكلام ذاته يصدق على الفخر في شعر المعتمد في أسره •

والحق أن الفخر في شعر الأسر عموما مهما علا وقوى لا يدل على حقيقة باطن الشاعر الأسير وما يضمره في نفسه من إحساس ، لأن هذا الفخر يصدر من الشاعر لتمويه الحقيقة الكامنة ." وتمويه الواقع لا يغير حقيقته ، ولا يمحو أسواءه إلا فيما بين الشاعر ونفسه في لحظات يترضى فيها ذاته . ويبقى الإحساس بواقع الحبس أقوى من أي احتجاج أدبي طريف.ومن ثم لم يقبل بعض الشعراء هذا الطلاء المموه ، وحبذوا التصريح بالحقيقة على ما فيها من المرارة والأذى . لما كانوا يجدون من ضغط السجن على صدورهم ".[٢]

سابعا : الرثاء :

الرثاء : هو تعداد الصفات الطيبة لشخص ميت • ويشترك مع المديح في أن كلا منهما تعداد للفضائل التى يتحلى بها أو كان يتحلى بها شخص ما •

وذكر النقاد أنه " ليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل " كان " أو " عدمنا به كيت وكيت " وما

---

١ - انظر : عناصر الإبداع في رائية أبى فراس - د / محمد عارف حسين ٦٨ .
٢ - الأسر والسجن في شعر العرب د / مختار البرزة - ٤٥٨ .

يشاكل هذا ليعلم أنه ميت "[1]

والرثاء يقوم على الوفاء ، ويتسم ، في معظمه بصدق العاطفة لأن الشاعر لا تحركه فيه رغبة أو طمع في نوال ، وإنما يقوله وفاء واعترافا لشخص كانت تربطه به رابطة ما في حياته .[2]

وقد تعددت قصائد الرثاء في روميات أبي فراس وأسريات المعتمد ، وامتلأ شعر كل منهما في هذا الباب بالصور التي تعبر عن شعور عميق بالألم والحزن . وأبرز شعر في الرثاء أنشده أبو فراس في أسره قصيدته في رثاء والدته ، فلقد أعلت أمه بعد أن طال أسره ، وبعد أن صم سيف الدولة أذنه عن النداءات الكثيرة التي أرسل بها إليه أبو فراس طالبا منه فداءه ، وزاد الداء وتغلغل في جسد الأم حتى أودى بحياتها ، فرثاها ابنها الأسير بقصيدة وصف فيها الفاجعة وامتلأت بالمعاني المثيرة ، والعاطفة الحزينة ، والصور المعبرة عن اللوعة والألم ، وقد بدأها أبو فراس بقوله :[3]

أيَا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ	بكرهٍ منك ما لَقِيَ الأسيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ	تحيَّرَ لا يقيمُ ولا يسيرُ
أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ	إلى مَن بالفِدَا يأتي البشيرُ

---

١ - العمدة ٢ / ١٤٧ ، وانظر : نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي - مكتبة الكليات الأزهرية - ط١ / ١٩٧٨م ص ١١٨ .

٢ - انظر : الأدب العربي في الأندلس - د/ عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية - بيروت ط٢/ ١٩٧٦ م. ١٩٤ .

٣ - ديوان أبي فراس ١٦١ .

أيا أمَّ الأسـير لمن تُـرَبَّى وقدَّمتَ الذوائبُ والشـعورُ
إذا ابنُكِ سارَ في برٍ وبحـر فمَنْ يدعُو لـه أو يسـتجيرُ

فهو هنا يخاطبها ويناديها " بأم الأسير " حتى يبين لنا مدى المصيبة الـتي نزلت به بوفاة أمه ، والتى أضيفت إلى مصيبته الأولى وهي أسره ، ووجـوده بعيدا عن أمه التى ماتت فأصبح وحيدا في الحياة ، وحيدا في سجنه وعذابـه . وبعد الدعاء للأم في الأبيات الأولى من القصيدة أخذ الشاعر في تصوير حالـه بعد موت الأم ، لقد اشتد عليه الأسر وأُصبح وحيدا موحشا ، فقد كانت أمه تؤنس وحدته بأدعيتها وسؤالها عنه ، وانتظارها له ، وبمحاولاتها فك أسـره ، أما الآن :

فإلَى منْ بالفِدا يأتى البشيرُ ؟
ولمَنْ تربِّي الذوائبُ والشعورُ ؟

وتتصاعد حسرات الشاعر المفجوع حينما يطلب البكاء من كل مظاهر الكون حوله على هذه الأم التى كانت عنوان الحب والعطـف والحنـان . فيهتف بالأيام التى صامتها تقربا إلى الله أملا في خلاص ابنها من أسره رغم حر الهجير فيها ، وجفاف شمسها أن تشاركه بكاءه وحزنه ، ويصـرخ في تلـك الليالي التى قامتها مصلية متبتلة خاشعة ضارعة إلى ربها ، ومناجية وحيدهـا أن تشاركه بكاءه ولوعته ، أما أولئك المضطهدون الذين طالما استجاروا بها فـهم جديرون بالبكاء عليها ، وأما أولئك الفقراء والمساكين الذين طالمـا نعمـوا

بعطفها عليهم وتفريج كربهم فهم أولى الناس ببكائها والحزن عليها :

لِيبكِكِ كلُّ يومٍ صمتِ فيه ... مصابرةً وقد حُمِي الهجيرُ
ليبكِك كلُّ ليلٍ قمتِ فيه ... إلى أن يبتدِي الفجرُ المنيرُ
ليبكِكِ كلُّ مضطهدٍ مخوفٍ ... أجرتيه وما في العظم ريرُ

ويعود الشاعر إلى نداء أمه بلهفة وحسرة على تلك الهموم الطويلة التى تحملتها وحدها وليس بجانبها من نصير ولا معين ، إلى جانب ما حدث لها أثناء غيابه عنها ولم يعلم هو به . ولقد جاءتها العديد من البشارات التى تبشرها بقرب قدوم ابنها ، ولكن الأجل لم يمهلها ، لقد كان أمله في لقاء أمه يوما بعد خروجه من السجن ينعشه ويحييه ، أما الآن فلم يعد له من أمل يعيش من أجله ، ويحن إلى حريته رجاءً في تحقيقه :

أيا أمَّاهُ كمْ همٍّ طويلٍ ... مضى بكِ لم يكن منه نصيرُ
أيا أمَّاهُ كمْ سرٍّ مصونٍ ... بقلبك مات ليسَ له ظهورُ
أيا أماهُ كمْ بشرَى بقربي ... أتتكِ ودونَها الأجلُ القصيرُ
إلى مَنْ أشتكي ولمنْ أناجي ... إذا ضاقتْ بما فيها الصدورُ
بأي دعاءِ داعيةٍ أوفي ... بأي ضياءِ وجهٍ أستنيرُ

ويختم القصيدة بتسلية نفسه وتعزيتها بأن هذا قدر مقدور ولا مفر منه ، وبأن الموت مكتوب على كل مخلوق ، وعما قليل سنصير إلى ما صار إليه السابقون :

بمن يستقبحُ الأمـــرُ العســيرُ	بمن يَستدفعُ القـــدَرَ المُـوقّى ؟
إلى ما صرتِ في الأخرى نصيرُ	نسلّى عنكِ : أنا عـــن قليـــلٍ

ولأبي فراس في رومياته قصيدة ومقطوعة في رثاء أخت سيف الدولـــة : أما القصيدة فقد بدأها بتصوير عظم المصيبة التي أصيب بها سيف الدولـــة ، والتي من أجلها يوصي الشاعر الأمير بالحزن ؛ لا بالتجلد فلا يصح لمثل مـــن أصيب بمصيبة سيف الدولة أن يعنف أو يلام على حزنه وعدم تماسكه ، كمـــا أن الأمير قد أصيب بمصيبة لا تكفي معها التعزية وإنما ينبغي للمآقي أن تســيل دموعها حزنا وأسفا على خير مفتقد ، يقول أبو فراس : [1]

جلَّ المصابُ عن التعفيفِ والفَنَـدِ	أوصيكَ بالحزنِ لا أوصيكَ بـالجَلَدِ
عن خيرِ مفتقَدٍ يا خـــيرَ مفتقِـدِ	إني أجلُّـكَ أن تُكْفَـى بتعزيـــةٍ
منها الجفونُ فما تسخُو على أحَـدِ	هي الرزيّةَ إن ضنّتْ بمـا ملكَـتْ

وامتلأت هذه القصيدة بالأنات الحزينة ، واللوعات المشجية ، من مثـل قول الشاعر معربا عن حزنه على الفقيدة ، ومشاركا سيف الدولة في حزنـــه عليها ، وعن بعده منذ اليوم عن الفرح وأسبابه ، وامتناعه عن النوم :

وقد لجأتُ إلى صبرٍ فلـــم أجِـدِ	بي مثلُ ما بك من حزْنٍ ومن جَـزَعٍ
هي المواساةُ في قـــربٍ وفي بُعُـدِ	لم ينتقصني بُعدى عنك من حُـــزُنٍ
كما شركتُك في النعماءِ والرَّغَـدِ	لأشركنَّكَ في اللأواءِ إن طَرَقَـــتْ

---

١ - ديوان أبي فراس ١١١ .

أبكي بدمعٍ له من حسرتي مَدَدٌ ... وأستريحُ إلى صبرٍ بلا مَدَدِ
ولا أسوِّغُ نفسي فرحةً أبداً ... وقد عرفتُ الذي تلقاهُ من كَمَدِ
وأمنعُ النومَ عيني أن يُلِمَّ بها ... علما بأنكَ موقوفٌ على السُّهُدِ

وينتهز الشاعر هذه الفرصة لتذكير الأمير بسجنه وانتظاره لفدائه ، وهي الفكرة التى ما وني أبو فراس عن ترديدها وتذكير سيف الدولة وجميع أهله بها ؛ فبعد أن قال له في الأبيات السابقة : (لم ينتقصني بعدى عنك من حزن) مذكرا إياه ببعده عنه في سجنه ببلاد الروم نجده يختم القصيدة بنفس الفكرة ، مرددا على مسامع الأمير أنه بوفاة أخته أصبح مثله مفردا وحيدا ، وان الشاعر ما زال أسيرا لم يقدم له أحد الفداء . يقول :

يا مفردًا باتَ يبكى لا مُعينَ لَه ... أعانَكَ اللهُ بالتسليمِ والجَلَدِ
هذا الأسيرُ المبقَّى لا فداءَ لَه ... يفديك بالنفسِ والأهلينَ والولَدِ

وتتراءى لنا في هذه القصيدة صدق العاطفة ووقعها الأليم في نفس الشاعر ، والتى تراكمت فيها الآلام من فجيعتين في آن واحد : فجيعة الأسر ، وفجيعة موت أخت سيف الدولة •

أما المقطوعة فهي من ثلاثة أبيات ردد فيها أبو فراس بعض ما جاء في القصيدة السابقة زيادة على تذكير سيف الدولة بأن الموت قد كتب على كل إنسان ، وليس أحد بباق أو مخلد :

قَولَا لهذا السيدِ الماجدِ ... قولَ حزينٍ مثلِهِ فاقِدِ

هيهاتَ ما في النّــاس مِــن خــالدٍ   لابد مــــن فقــدٍ ومــن فــاقِدِ
كــن المعــزّى لا المعــزّى بــــه   إن كان لابدَّ مــــن الواحــدِ [١]

ونغمة الحزن والتأثر بالمصيبة البادية من وراء العبارات وأبيات القصيدة أشد مما هو محسوس من أبيات المقطوعة ، ويظهر أن الشاعر قد قال هذه الأبيات الثلاثة بعد موت الفقيدة بفترة هدأت فيها نفسه وخفت فيها حدة الألم عليه .

وفي روميات أبي فراس في باب الرثاء مقطوعة أخرى من بيتين يرثي بهما أبا العشائر الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان ، وكان أسيرا هو الآخر ببلاد الروم ومات في أسره - يقول فيهما : [٢]

أَ " أَبا العشائرِ " لا محلّــك دارسٌ   بين الضلوعِ ولا مكانُك نــازحُ
إني لأعلَــمُ بعــد موتِــكَ أنـــّه   ما مــرَّ للأســراءِ يــومٌ صــالحُ

ولم يبد الشاعر شيئا من مظاهر أسفه على المرثى الذى كان يشاركه في الأسر غير ذكره بأنه لن ينساه ، وأنه لن يكون هناك يوم يسر فيه الأسراء بعده.وكنت أنتظر من الشاعر أن يتخذ من أسر المرثى قبل موته مناسبة للبكاء والعويل ، وبيان مدى تأثير الأسر في حياة الأسرى ، وفي التعجيل بموتهم ، وكيف عانى المرثى من آلام الأسر حتى مات ... إلى آخر هذه المعانى التى كان من الممكن أن يستوحيها من مثل هذا الموقف .

---

١ - ديوان أبي فراس ١١٠ .
٢ - ديوان أبي فراس ٧٥ .

بقي من شعر الرثاء في روميات أبي فراس قصيدته في رثاء أبي المكارم بن سيف الدولة ، وقد بدأها بالحديث عن عظم المصيبة ، وكيف وقف سيف الدولة أمامها صابرا محتسبا صامدا كالجبل رغم أن المفقود ولده ، في حين نرى غيره من الرجال باكيا حزينا : يقول أبو فراس : [١]

يا عمَّر اللهُ " سيفَ الدين " مغتبطـاً ... فكلُّ حادثـةٍ يُرمَـى بهـا جَلَـلُ

مَنْ كان عن كلِّ مفقودٍ لنا بـدَلاً ... فليس منه علـى حالاتِـهِ بـَدَلُ

يبكي الرجالُ و"سيفُ الدين" مبتسِمٌ ... حتى عن ابنِكَ تُعطَى الصبرَ يا جبلُ!

لم يجعَلِ القومُ منه فضلَ ما عرَفُـوا ... لكن عرفتَ من التسليمِ ما جَـهِلُوا

وينتقل إلى الحديث عن المرثى وحال الأهل بعده ، وكيف اقتحمت المنايا كل هذه الموانع التى أحيط بها المرثى حتى وصلت إليه :

هل تبلُغُ القمـرَ المدفـونَ رائعـةٌ ... من المقالِ عليها للأسَـى حُلَـلُ

ما بعدَ فقدِكَ في أهـلٍ ولا وَلَـدٍ ... ولا الحياةِ ولا دنيـا لنـا أمَـلُ

يا مَنْ أتتـهُ المنايـا غـيرَ حافلـةٍ ... أين العبيدُ؟ أين الخيلُ والخَـوَلُ ؟

أين الليوثُ التى حوليك رابضَـةٌ ؟ ... أين الصنائعُ؟ أين الأهلُ؟ ما فعلُوا؟

أين السيوفُ التى يحميك أقطعُـها ... أين السوابقُ؟ أين البيضُ والأَسَلُ؟

يا ويحَ خالِكَ ! بل يا ويحَ كلِّ فتى ... أكلَّ هذا تخطَّى نحوَك الأجَـلُ ؟

وتبقى رائعة أبي فراس في رثاء والدته هي أم المراثى التى قالها في أسره ،

---

١ - ديوان أبى فراس ٢٤٥ .

وأقواها حزنا وأصدقها عاطفة ، وذلك لما عرف عنه من شدة تعلقه بأمه وقوة حنينه وشوقه إليها ، وكان كل أمله أن يخرج من أسره فيجدها في استقباله ليرتمي بين أحضانها ، فلما ضاع منه هذا الأمل اشتد حزنه وعظمت مصيبته. وتأتي قصيدته في رثاء أخت سيف الدولة بعد قصيدته في رثاء أمه في درجة الحزن والألم ،

أما المعتمد بن عباد فله هو الآخر أكثر من قصيدة في الرثاء قالها وهو في الأسر ، أقواها ما قاله في رثاء ولديه المأمون والراضي ، وجاء رثاؤه لهما من باب الندب الذى هو " النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية ، والألفاظ المحزنة التى تصدع القلوب القاسية . وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع ".[١]

وقد رثى المعتمد بن عباد ولديه المأمون والراضى بثلاث قصائد : الأولى – وهي النونية – من ثلاثة عشر بيتا [٢] ، بدأها بخطاب الغيم المليء بالمطر ذاكرا أن عينيه أقوى منه فيضا وغزارة ماء ، لأنه يبكى لحزنه ، أما الغيم

١ – الرثاء – شوقى ضيف – سلسلة فنون الأدب العربي – دار المعارف – ط ٣ – ص ١٢.
٢ – لم يذكر الدكتور حامد عبد المجيد ، والدكتور أحمد أحمد بدوى محققا ديوان المعتمد بن عباد هذه القصيدة ، ولا القصيدة التالية لها ضمن شعر المعتمد في الأسر ، والصحيح أنهما من قصائده التى قالها وهو أسير.فقد قتل ولداه : المأمون (بقرطبة) ، والراضى (برندة) على ايدى جيش المرابطين قبيل القضاء على ملك والدهما في أشبيلية ، ولم يرثهما إلا بعد اسره ، ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه قال هاتين القصيدتين قبل أسره ، في حين ذكرهما الدكتور رضا الحبيب السويسي محقق ديوان المعتمد ضمن ما قاله المعتمد في شعر الأسر : (ص ١٦٦ ، ١٦٤) من الديوان .وهو الصحيح.

فليس محزونا مثله ، كما يذكر أن نار قلبه المشتعلة دائما أشد وأقوى من نـــار البرق التي تخبو سريعا .

ويعجب المعتمد كيف يجمع قلبه الحزين بين ماء الدموع الغزيرة ،ونـــار الحزن الموقدة في آن واحد ؟ ويعزو ذلك إلى هذا الخطب العظيم الذى ألـــف بين هذين الضدين في نفسه ، يقول المعتمد : [١]

يا غيمُ عيني أقـــوَى منـــك هَتانَـــا	أبكي لحزني وما حُمِّلْـــتَ أحزانَـــا
ونارُ برقِـــك تخبُـــو إثـــرَ وقدتِهَـــا	ونارُ قلبي تبقَى الدهـــرَ بُركانَـــا
نارٌ وماءٌ صميمُ القلـــبِ أصلُـــهُما	متى حَوَى القلبُ نيرانًا وطوفانَـــا
ضدَّان ألَّف صرفُ الدهر بينـــهُما	لقـــد تلـــوَّن فيَّ الدهـــرُ ألوانَـــا

ويصور المعتمد بعد ذلك تفطر قلبه بوفاة كل منهما الآخر إثـــر الأول ، فقد رحل الفتح وقبل أن يسلوه تبعه يزيد ؛ فازدادت نيران قلبـــه اشـــتعالا ، وينادى على ولديه فلذتى كبده اللذين ذهبا وتركاها تتقطع حزنـــا عليـــهما طوال الدهر ، فقد رحلا بعد صعود نجمهما ، ولكن ما يخفف حزنه عليـــهما شيئا ما أنهما سيكونان سببا في ثقل ميزانه يوم القيامة :

بكيتُ فتحاً فإذا ما رُمْتُ ســـلوتَه	ثوَى يزيدُ فزاد القلبَ نيرانـــا [٢]
يا فلذتيّ كبـــدِي يـــأبى تقطُّعـــها	من وجدِها بكما ما عشتُ سُلوانا
لقد هَوَى بكما نجمانِ مـــا رُمَيَـــا	إلا من العُلُو بالألحـــاظ كيوَانـــا

---

١ - ديوان المعتمد بن عباد - تحقيق : حامد عبد المجيد ، وأحمد بدوى - ص ٦٩ .

٢ - الفتح : هو المأمون بن المعتمد ، ويزيد هو الراضى بن المعتمد .

مخففٌ عن فــؤادى أن ثُكلكُمـا   مثقّلٌ لى يـومَ الحشـر ميزانـا

ثم يفرد الشاعر كلا من ولديه بخطاب بعد الحديث المجمل عنهما في الأبيات السابقة ، فيتوجه إلى الفتح أولا ذاكرا أنه قد فتح له بابا من الطمع في لقائه يوم القيامة مع الشهداء فرحا بفوزه بأجرهم . أما يزيد فبه يرجو أن يزيد الله إحسانه إحسانا جزاء صبره على فقده . ثم يدعو لولديه بالرحمة والرضوان . ويختم القصيدة ببكائه وأمهما على ولديه داعيا النساء لبكائهن معه :

يا فتحُ قد فَتَحتْ تلكَ الشـهادةُ لى   بابَ الطماعةِ في لقياك جذلانـا
ويا يزيدُ لقـد زادَ الرَّجـا بكمـا   أن يشفع الله بالإحسانِ إحسـانا
لما شفعتَ أخـاكَ الفتـحَ تتبعـه   لَقّاكُمـا الله غفرانـًا ورضوانـا
منى السـلامُ ومـن أمٍّ مفجَّعَـةٍ   عليكما أبـدًا مَثْـنَى ووحدانـا
أبكِى وتبكِى ويبكى غيرُنـا أسـفًا   لدى التذكرِ نسـوانًا وولدانـا

وفي القصيدة الثانية يبكى المعتمد ولديه المأمون والراضى من خلال مقارنة أجراها بين حاله بعد فقدهما ، وحال قمرية رآها تنوح على إلفها الذى فقدته بعد أن ترك لها فرخين يرددان نغما حزينا ، فهاجت أحزان المعتمد وأشجانه . ويذكر في هذه المقارنة أنه يفوق هذه القمرية في الحزن والبكاء . وحق له ذلك ، فلئن كانت القمرية تبكى وتنوح لفقد إلفها الذى عدا عليه الدهر وترك لها إلفين تتعزى بوجودهما فبكاؤها عليه من غير دموع ، أما هو

فيبكي على ولديه بدموع غزيرة لا تجف ، ولئن كانت القمرية قـــد نـــاحت وباحت بسرها فاستراحت دون أن تنطق حرفا فهو الإنسان المعذب الذى يحق له أن يبكي ، لأنه يحمل بين جنبيه قلبا نابضا مليئا بالحزن والألم .

ثم يستفهم استفهاما استنكاريا : لم لا ينوح ؟ هل القلب صخرة لا تحس ؟ ويجيب على نفسه : حتى على فرض أن القلب كذلك فقد يتفجر الصخـــر بالأنهار ، ولئن كانت القمرية تبكى أليفا واحدا ، فإن المعتمـــد يبكـــي لآلاف كثيرين ، فولداه عنده بمنزلة الكثيرين من الآلاف والأحبـــاب الذيـــن يعـــتز بوجودهم بجانبه ، وكانا لديه كنجمين نيرين ، وزينة تزين له وجـــه زمانـــه ، وبموتهما أفل نور هذين النجمين ، يقول المعتمد : [1]

بكَتْ أنْ رأتْ إلفيْنِ ضمهما وكـــرٌ	مساءً وقد أخنَى على إلفِهَا الدهـــرُ
بكتْ لم تُرِقْ دمعًا وأسبلتُ عـــبرةً	يقصِّرُ عنها القطرُ مهما هَمَى القطـــرُ
وناحَتْ وباحَتْ واستراحتْ بسرِّها	وما نطقتْ حرفًا يبوحُ بـــه ســـرُّ
فمالِي لا أبكى أم القلبُ صخـــرةٌ	وكم صخرةٍ فى الأرضِ يجرى بها نَهَرُ
بكتْ واحدًا لم يشجِهَا غيرُ فقـــدِه	وأبكى لآلافٍ عـــدِيدهُـــمُ كـــثْرُ
بُـــنَيٌّ صغـــيرٌ أو خليـــلٌ موافِـــقٌ	يمـــزَّقُ ذا فقـــرٌ ويغـــرقُ ذا بحـــرُ
ونجـــمان زينٌ للزمـــانِ احتواهما	بقرطبةَ النكـــداءِ أو رندةَ القبرُ

ويختم المعتمد القصيدة بالإعلان عن عدم تسليه عنـــهما ، ووجـــوب

---

١ - ديوان المعتمد ٦٨ .

البكاء عليهما ومن الغدر أن يضن عليهما بالدموع المنهمرة ، فما هو لئيم النفس حتى يصبر أو يصاحب الصبر فليبكهما ، ولتبكهما معه النجوم الزاهرة:

غدرتُ إذنْ إن ضنَّ جفنى بقطرهِ ... وإن لأمتْ نفسِى فصاحَبَها الصَّبرُ

فقلْ للنجوم الزُّهْرِ تبكيهمَا معى ... لمثلهِمَا فلتحزن الأنجُمُ الزهرُ

وقد امتلأت قصيدة المعتمد هذه بالدموع ، حتى تجعل من يقرأها يقتنع بوجوب بكاء الوالد على ولديه المقتولين بأيدى عدوه ، وأنه إذا كانت هذه القمرية ناحت وبكت على إلفها حينما رأت إلفين مجتمعين ضمهما وكر فهو الأولى و الأحق بتذكر ولديه والبكاء عليهما — وهو الوالد الملتاع المصاب — وأن تنهمر عيناه بالدموع التى تفوق القطر غزارة وانهمارا ولولم يفعل ذلك لكان قلبه صخرة أو أشد من الصخر . بل لا تهم بالغدر ولؤم النفس .

أما القصيدة الثالثة التى أنشدها المعتمد فى رثاء ولديه فهى قصيدته الرائية المبدوءة بقوله: [1]

يقُولُون صبراً لاسبيلَ الى الصَّبرِ ... سأبكى وأبكِى ماتطاوَلَ من عُمُرى

وفيها يكرر الكثير من المعانى التى تناولها فى القصيدتين السابقتين من عدم قدرته على الصبر ، وأن من أصيب بمثل مصيبته لا يتأتى منه الصبر . ويشبه ولديه المرثيين بالكوكبين اللذين هويا فأقامت الكواكب الزهر مأتما عليهما . فإذا كانت الكواكب تفعل ذلك حزنا وأسفا على المرثيين أيصح منه

---

[1] - ديوان المعتمد ١٠٥ .

هو أن يصبر ؟ هيهات ، فما لقلبه من عذر إذا صبر . ثم يستبكى الغمام لهمـــا ويحتسبها عند الله ـــ تعالى ـــ ذخرا وزيادة فى الأجر:

يقولون صبرًا لاســـبيلَ إلى الصـــبر ... سأبكى وأبكِى ماتطاوَلَ من عُمْـــرى

هوَى الكوكبان الفتحُ ثم شـــقيقُهُ ... يزيدُفهل عند الكواكب ِمـــن خُـــبْرِ

نرى زُهرَها فى مـــأتم كـــلَّ ليلـــةٍ ... تخمَّش لهفاً وسطَه صفحـــةَ البـــدرِ

ينُحْنَ على نجمين أُثكلـــتُ ذا وذا ... وأصبرُ؟ ماللقب فى الصبر من عُـــذرِ

مدى الدهرِ فليبكِ الغمامُ مُصَابَـــه ... بصنويْه يعذَر فى البكاء مدَى الدهـــرِ

بعينِ سحابٍ واكفٍ قطرُ دمعِـــهَا ... على كلِّ قبرٍحلَّ فيه أخُـــو القطـــرِ

وبرقٍ ذكيٍّ النـــارِ حـــتى كأنمَّـــا ... يُسعَّر مما فى فـــؤادى مـــن الجمـــرِ

أفتحُ لقد فتَّحْتَ لى بـــابَ رحمـــةٍ ... كمـــابيزيدَ اللهُ قـــد زادَ فى أجـــرى

هَوَى بكما المقدارُعـــنى ولم أمُـــتْ ... وأُدْعَى وفيًّا قد نكصتُ الى الغـــدرِ

توليتُمـــا والســـنُّ بعـــدُ صغـــيرةٌ ... ولم تلبث الأيامُ أن صغَّرَتْ قـــدرى

توليتُما حين انتهتْ بكمَـــا العُـــلا ... إلى غايـــةٍ كـــلٌّ إلى غايـــةٍ يجـــرى

ثم ينتقل الشاعر الى وصف ما آل إليه أمره بعد موت ولديه من الأســـر والسجن والقيود التى حولت شأنه إلى حالة من الذلة والصغار، ومعه أخواتهمـــا الهالكات الباكيات عليهما ،وأمهما الثكلى التى لايجف لها دمع ولايـــهدأ لهـــا قلب. إذ كلما تصبرت ونزعت إلى التقوى فهدأت عنت لهـــا ذكـــرى مـــن ذكرياتهما ففزعت الى البكاء:

فلو عدتما لاخترتما العودَ فى الثَّرى | إذا أنتما أبصرتمانى فى الأسر
يعيدُ على سمعى الحديدُ نشيدَه | ثقيلاً فتبكى العينُ بالجسّ و النقر
معى الأخواتُ الهالكاتُ عليكما | وأمكما الثكلى المضرَّمةُ الصدر
فتبكى بدمع ليس للقطر مثلُه | وتزجرُها التقوى فتصغى الى الزجر

ويختم المعتمد القصيدة بالتعبير عن حسرته هو، وبكائه عليهما, وعلى أخيهما المفقود قبلهما وهو ابنه سراج الدولة الذى قتله ابن عكاشة سنة ٤٦٨ هـ:

أبَا خالدٍ أورثتَنِى الحزنَ خالداً | أبا النصرِ مذْ ودعتَ ودَّعَنى نصرِى[1]
وقبلكُما قد أودعَ القلبَ حسرةً | تجدَّدُ طولَ الدهر ثكلُ أبى عمرو[2]

وفى هذه القصيدة رفع الشاعر من شأن ولديه المقتولين ـ فجعلهما كوكبين فى علوهما وارتفاع شأنهما. ولقد هوى كل منهما من علوه بالموت. وفى هذا مسوغ لأن يكونا صنوين للغمام فى علوه و ارتفاع شأنه بما ينزله على أهل الأرض من خير. ولذا فهو لا يلام إذا بكاهما بدمع دائم الهطلان.

كما أن البيت:

فلوعدتما لا خترتما العودَ فى الثَّرَى | إذا أنتما أبصرتمانى فى الأسر

يدل على شدة الأسر وثقله على الشاعر وأهله شدة تجعل من مات من

---

[1] - أبو خالد : هو ابنه يزيد الملقب بالراضى والذى قتله اللمتونى غدرا برندة.وأبو النصر هو ابنه الفتح الملقب بالمأمون ، وقتل بقرطبة .
[2] - أبو عمرو : هو ابنه سراج الدولة أبوعمرو عباد بن محمد قتيل ابن عكاشة .

ولده يفضل البقاء فى الثرى على رؤية الوالد مقيدا أسيرا.

كما أن المعتمد قد صور شدة حزن الأم على ولديها فى هذه القصيدة . وهذا مالم يعبر عنه فى قصيدتيه السابقتين. وجعل موت هذين الولدين مجددا لذكرى قتل ابنه سراج الدوله . وهذا أيضا مالم يتناوله فى القصيدتين السابقين.

هذا عن رثاء المعتمد لأولاده ولم يعرف عنه رثاء لغيرهم من الأشخاص. وكانت تطوف بالمعتمد فى سجنه الذكريات على قصوره بالأندلس مثل قصر (المبارك)، وقصر (الزاهى)، وقصر (الثريا) ، وقصر (الوحيد). فيتحسر على تلك الأيام التى قضاها بين رحابها، ويتحدث عن خوائها وخلوها بعد رحيله وأهله عنها، فى شعر يمكن أن نجعله من باب رثاء الممالك .ومن هذا الشعر ما قاله بعد أن نقل من بلاده بالأندلس و حمل فى السفينة التى نقلته إلى سجنه بأغمات ،ورأى نفسه وحيدا فتذكر منازله وقصوره، وتصور بهجتها، وتخيل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطانه وإظلام جوه من أقماره، وخلوه من حراسه وأسماره [1] فقال باكيا قصوره ، ومصورا بكاءه عليها وعلى أيامه بها: [2]

بكى المبارَكُ فى إثْرِ ابنِ عبَّادِ	بكى على إثرِ غزلانٍ وآسَادِ
بكتْ ثريَّاهُ لاغُمَّتْ كواكبُها	بمثل نوءِ الثريَّا الرائحِ الغادِى
بكى الوحيدُ بكى الزاهى وقبَّتُهُ	والنهرُ والتاجُ كلٌّ ذلُّه بادِى

١ - انظر: نفح الطيب ٢٧٤/٤ ، قلائد العقيان ٢٣ ، ٢٤ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٥ .

وقد حرص المعتمد هنا على ذكر أسماء قصوره لما يمثله ذلك بالنسبة له من لذة تريح صدره وقلبه حينما يتخيل كلا منهما من خلال ذكر اسمه وأهم ما تربطه به من ذكريات.و عندما أحس المعتمد بدنو أجله وقربه من الموت نعى نفسه فى سجنه بأبيات حزينة تعبر عن ألمه، ويأسه، وشعوره بالظلم والضياع. وأوصى بأن تكتب هذه الأبيات على قبره. وهذه الأبيات هى: [1]

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغادى ... حقًّا ظفرتَ بأشلاءِ ابنِ عبَّادِ

بالحلم بالعِلم بالنُّعمَى إذا اتصلَتْ ... بالخصبِ إن أجدبُوا بالرِّى للصادِى

بالطاعنِ الضاربِ الرامِى إذا اقتتلُوا ... بالموتِ أحمرَ بالضرغامةِ العادى

بالدهرِ فى نِقَمٍ بالبحرِ فى نِعَمٍ ... بالبدرِ فى ظُلَمٍ بالصَّدرِ فى النَّادِى

نعمْ هو الحقُّ وافانِى به قَدَرٌ ... من السماءِ فَوافانِى لِميعادِ

ولم أكنْ قبلَ ذاكَ النعشِ أعلمُهُ ... أنَّ الجبالَ تَهادَى فوقَ أعوادِ

وظاهر هذه الأبيات أن الشاعر يفخر بنفسه، و يعدد صفاته الحسنة، ولكنها تنم عن يأس شديد وحزن قاتل.

وإذا كان الرثاء فى النقد الأدبى يشترك مع المديح فى تعداد الصفات الطيبة ولكن لشخص ميت، فإن رثاء النفس يشترك مع الفخر- وليس مع المديح،لأن هذه الصفات الطيبة التى يذكرها الشاعر فى رثائه لنفسه يتوجه بها الى نفسه وهو ما يزال حيا كما يحدث فى الفخر. فنرى الشاعر فى هذه الأبيات التى رثى بها المعتمد نفسه ينادى قبره ، داعيا له بالسقيا من ماء

---

[1] - ديوان المعتمد ٩٦ .

السحاب الرائح الغادى، ويجعل من قبره طرفا ثانيا يحاوره ويمن عليه ويحسده في بداية حواره لأنه ظفر بأشلاء بطل مغوار كريم. ولذا فهو جدير بالدعاء له بالسقيا. ويفخر الشاعر فى البيت الثانى بالصفات الخلقية من مثل: الحلم، والعلم، والجود والكرم. وفى البيت الثالث يفخر بالصفات الحربية فيتذكر ما كان يقوم به من صولات وجولات فى ميادين القتال، وكأنه يقابل بذلك بين صفاته قبل الأسر، وما أصبح عليه حاله بعد الأسر. "فالطعن و الضرب والرمى" يقابلها الآن القيود والأغلال، وذل الأسر، والسجن والضعف المفضى به إلى الهلاك لا محالة. أما الخصب و الرى وهما من معانى الحياة فقد آلت الآن إلى حدب وصدى وهما من رموز الموت. وهذا التقابل بين رموز الحياة والموت خير تعبير عن حالة الشاعر النفسية التى يحاول التغلب عليها بالتسليم لقضاء الله وقدره الذى وافاه لميعاد مقدر ومعلوم. ثم إن الجبال - وهى رمز للثبات و الشموخ والعظمة تمثل ماكان عليه المعتمد قبل أسره وبعده حيث لم يذل لآسره. ولم يخضع له كما فعل غيره من ذوى النفوس الضعيفة هذه الجبال التي ترمز للشاعر شالت كفتها وأمست تهادى فوق أعواد نعشه وكأنما نسفت نسفا فباتت كالعهن المنفوش ".[1]

وينادى الشاعر قبره مرة أخرى طالبا منه أن يرفق به بعد الموت . ويدعو له ـ مرة أخرى بالسقيا لما ضم فى باطنه من كان عنوانا للكرم، وأخا للغيث. ولذا فالغيث يبكيه بدموع لا تجف كما تبكيه الزهر بدمع الطل

---

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٥٣ ، ١٥٤ .

المنهمر. ويختم الشاعر القصيدة باستنزال صلوات الله ورحماته على النفس التى ضمها هذا القبر. يقول المعتمد :

كفاكَ فارقُقْ بما استودِعتَ من كَرَمٍ ... روَّاك كلُّ قطوبِ البرقِ رعّادِ
حتى يجودَك دمعُ الطَّلِّ منهمرًا ... من أعينِ الزَّهْرِ لم تبخَلْ بإسعادِ
و لاتزلْ صلواتُ الله دائمةً ... على دفينِك لا تُحْصَى بتعدادِ

وهكذا عبر كل من شاعرينا أبى فراس والمعتمد فى شعرهما فى الأسر عن عن موقفهما من الموت من خلال هذه المراثى الشجية المؤثرة. وقد ساعدت ظروف الأسر التى عاشها كل منهما على الإبداع فى هذه المراثى. وكان للمعتمد فى هذا الغرض شرف السبق و التفوق على أبى فراس، بما قدمه من مراث رائعة لأولاده، ثم لما كتبه من أبيات معبرة فى رثاء نفسه.وربما كان السبب المؤدى إلى تفوق المعتمد فى موضوع الرثاء هو أن هذا الموضوع يتفق مع وقار النفس وثباتها وهدوئها. وخاصة إذا هذبها الألم، وأخضعها القيد، وضعضعها ذل الأسر وآلامه. وهذا ما كان عليه المعتمد فى سنوات أسره بعد إحساسه بالهوة العميقة بين ماضيه قبل الأسر وحاضره فيه. وهو غير الحال الذي كان عليه أبو فراس الذي كان أمله قويا فى العودة إلى الحياة بكل آمالها بعد أن يتخلص من أسره. ولذا لم نقرأ له رثاء لنفسه أو توديعا لحياته فى الأسر. وحتى تلك الأبيات التي رثى بها نفسه بعد خروجه من الأسر وقبيل موته تقل فى قوتها، ودرجة حرارتها كثيرا عن أبيات المعتمد فى رثاء نفسه.

ثامنا : المدح

المديح: هوتعداد الصفات الطيبة لشخص حي. وقد تأخر ظهور المديح عن غيره من أغراض الشعر التقليدية في العصر الجاهلي. لأن العرب لم تكن تتكسب بالشعر إلا بعد مرور فترة طويلة من العصر الجاهلي. " وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها "[1]

ويرى ابن رشيق في المدح أنه على الشاعر « إذا مدح ملكا أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكر الممدوح ، وأن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية ، ويجتنب — مع ذلك — التقصير و التجاوز والتطويل — فإن للملك سآمة وضجرا ربما عاب من أجلها مالا يعاب، وحرم من لا يريد حرمانه" [2] أما إن كان الممدوح من السوقة فيجب ألا يتجاوز به قدره. فإنه متى تجاوز به مقداره كان كمن نقصه منها. كما لا يجوز أن يصف أحدا من الممدوحين بصفة غيره كأن يصف الكاتب مثلا بالشجاعة، ويصف القاضى بالحمية و المهابة [3] .

" ولاشك أن السجن يصبغ الشعر — و منه المديح — بصبغة خاصة. فالمدح في شعر السجن يختلف عن المدح فى غيره من الشعر. حيث يميل إلى

١ - العمدة لابن رشيق ٨٠/١ .
٢ - المرجع السابق ١٢٨/٢ .
٣ - انظر، المرجع السابق ١٢٩/٢ .

الاستعطاف ويختلط به. و لا يكاد ينفك عنه. إذ يقدمه الشاعر بين يدى استعطافه أو يمزجه به" .[١]

وجاء المدح فى روميات أبى فراس موجها لسيف الدولة الحمدانى. ومزجه أبو فراس فى بعض الأحيان بعتابه لسيف الدولة. كما جاء به قريبا من الاستعطاف الذى يوجهه الشاعر لسيف الدولة حتى يمن عليه بالفداء. ونعنى بالمدح القريب من الاستعطاف أنه مدح غير خالص بالمعنى المعروف للمدح ، بل يضفى فيه الشاعر العديد من الصفات الطيبة على الممدوح، وفى نفس الوقت يحافظ الشاعر فيه على ذاته وكرامته أمام ممدوحه ، فلا ينزل من قيمتها أمام ممدوحه كثيرا . فهو يمدحه بالكرم وحسن التدبير، والسماحة، والتقوى ، والصلاح ، والنجدة ، وكظم الغيظ ، وإلباس البلاد والرعية ثوبا من الأمن ... وغيرها من مثل هذه الصفات التى لا تكلفه من ذات نفسه كثيرا. بل إن حديثه فى معظم مديحه لسيف الدولة أشبه بحديث الند للند، وليس بحديث العبد لسيده. فلا خضوع ولا تذلل و لكن تذكير بما بينهما من تعاون فى ميادين الحرب و السياسة ، وصلات فى الرحم و القربى. و هو مدح احتفظ فيه أبو فراس لنفسه بكثير من الاحترام و التقدير[٢].

ومن مديح أبى فراس فى رومياته لسيف الدولة قوله:[٣]

---

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس د / بسيم عبد العظيم ابراهيم ٩٤ .

٢ - انظر حديث الدكتور احمد مختار البرزة عن هذا النوع من المديح في شعر ابن زيدون في الأسر . كتاب الأسر والسجن في شعر العرب ص ٥٢٧ وما بعدها .

٣ - ديوان أبى فراس ٢٤ .

أسيفَ العِدى وقريعَ العربْ ... علامَ الجفاءُ وفيمَ الغَضَبْ؟
ومابالُ كتبك قد أصبحتْ ... تُنكّبُني مع هذى النُّكَبْ؟
وأنت الكريمُ وأنت الحليمُ ... وأنت العطوفُ وأنت الحَدِبْ
و مازلتَ تسبقُني بالجميل ... وتنزلُني بالجناب الخصِبْ
وتدفع عن حَوْزتَيَّ الخطوبَ ... وتكشِفُ عن ناظِرَيَّ الكُرَبْ
وإنَّكَ للجَبَلُ المشمخِـ ... ـرُّ لى بل لقومِك بل للعربْ
عُلاً تستفادُ وعافٍ يقادُ ... وعزٌّ يشادُ ونعمَى تُرَبْ

هذه الأبيات جعلها أبو فراس مقدمة لقصيدته فى الاعتذار لسيف الدولة بعد أن اتهم هو و أصحابه بأنهم عزموا على مكاتبة صاحب خراسان فى تخليصهم من الأسر لتأخر سيف الدولة فى افتدائهم.

وقد مدح أبو فراس سيف الدولة فى هذه الأبيات بعدة صفات ، ثم اعترف له ببعض أفضاله عليه، ثم شبهه بالجبل الشامخ الذى يلجأ إليه الشاعر بل قومه كلهم ، بل العرب جميعهم في الملمات و الشدائد، فينعم على كل منهم بما يحتاج إليه . وقبل أن ينتقل الشاعر إلى الاعتذار، ونفى ما اهتم به عن نفسه افتخر بنفسه حتى يبين لأميره أنه ليس بعيدا عن كثير من هذه الصفات التي أسبغها عليه في مديحه له فقال:

وما غضَّ مني هذا الإسارُ ... ولكنْ خَلَصتُ خلوصَ الذهبْ

ومثل هذا المديح قوله في قصيدة أخرى: [١]

---

١ - ديوان أبى فراس ٤١.

إذاكان سيفُ الدولةِ المَلْكُ كافِلي | فلا الحزمُ مغلوبٌ ولا الخَصمُ غالبُ
عليَّ لسيفِ الدولةِالمَلْكِ أنعمٌ | أوانِسُ لاينفِرْنَ عني ربائبُ
أأجحدُه إحسانَه بي إنني | لكافِرُ نُعْمَي إن فعلتُ مواربُ
لعلَّ القوافي عقنَ عما أريدُه | فلا القولُ مردودٌ و لا العُذرُ ناضبُ
و لاشكَّ قلبي ساعةً في اعتقادِهِ | ولا شابَ ظني فيه قطُّ الشوائبُ

ومن يطلع علي هذه القصيده في ديوان الشاعر يجد هذه الأبيات جاءت بعد أبيات قالها الشاعر في الفخر بنفسه، كما أتبعها بأبيات أخرى في الفخر كذلك ، ومع اعترافه لممدوحه بالجميل والفضل عليه، وقوة مديحه له. لم ينس الشاعر نفسه، ولم ينزل من قدرها أمام ممدوحه، بل مدح نفسه قبل وبعد مديحه لسيف الدولة.

واقرأ معي قوله لسيف الدولة(١):

فمثلُكَ من يُدْعَي لكلِّ عظيمةٍ | و مثلِي من يُفْدَى بكلِّ مسوَّدِ

فقد قسم البيت بينه و بين ممدوحه، وجعل نفسه ندا له.وبعد أن استعطفه في هذه القصيدة حتى يمن عليه بالفداء، ويخلصه من سجنه قائلا:

أقلني أقلني عثرةَ الدهر إنه | رماني بسهمٍ صائبِ النَّصلِ مقصِدِ

مدحه بعدة أبيات عاد بعدها الي الاستعطاف قال فيها:

وإنك لَلمَوْلَى الذي بك أقتدي | وإنك للنَّجمُ الذي بك أهتَدي
وأنتَ الذي عرَّفتني طرقَ العُلا | وأنتَ الذي أهديتَني كلَ مَقصِدِ

---

١ - ديوان أبي فراس ٩٧ .

وأنت الذي بلّغتني كلَّ رتبةٍ مشيتُ إليها فوقَ أعناقِ حسَّدِي
فيا مُلبِسي النُّعمَى التي جلَّ قدرُها لقد أخلقَتْ تلك الثيابُ فجدِّدِ

فمزج المديح هنا بالاستعطاف وكأنه بذلك يريد استدرار عطفه ويعلن عن حبه له حتى يكون أدعي إلي إجابة مطلبه.

ومن مديح أبي فراس لسيف الدولة. والذي مزجه بعتابه له قوله:[١]

يا سيِّداً ما تُعَدُّ مكرمةٌ إلاَّ وفي راحتيْهِ أكملُهَا
أنتَ سماءٌ و نحنُ أنجمُها أنتَ بلادٌ و نحنُ أجبُلُهَا
أنتَ سحابٌ ونحنُ وابلُه أنتَ يمينٌ ونحنُ أنملُهَا

ونراه في هذه الأبيات يصف سيف الدولة بأوصاف رائعه، و يرفع من شأنه إلي أعلي مكانة ،و مع ذلك لم ينس الحديث عن نفسه ، فتحدث عن مكانته هو الآخر، ومزج تعداده لصفات الممدوح ببعض صفاته هو. فإذا كان سيف الدولة بلادا في رحابتها وسعتها فهو وبنو عمه جبالها الحامية لها ، وإذا كان الممدوح سحابا فالشاعر وبنو عمه ماؤه ومطره. وإذا كان الأمير يمينا ف الجود و الكرم فالشاعر وبنوعمه أنامل هذه اليد التي لا قيمة لليد بدونها.وهكذا . و ينتقل الشاعر من هذا المدح الممزوج بالفخر إلى العتاب الموجع لسيف الدولة لرده أم الأسير دون إجابة مطلبها في فداء ولدها. وبعد أبيات طويلة في العتاب يعود إلى المدح ، ولكنه المدح الممزوج بالاستعطاف هذه المرة فيمدحه بالكرم والجود ، ويذكر أن كرم سيف الدولة إن كان قد

١ - ديوان أبي فراس ٢٦٤ .

عم الناس كلهم فإن الشاعر أحق الناس برعاية الأمير وكرمه وأولاهم بعنايته .
فياليته يمن عليه ببعض كرمه ويخلصه من مأساته فى خرشنة:

لم يبقَ في الناس أمـــةٌ عُرِفَـــتْ	إلاَّ وفضلُ الأمـــيرِ يشـــمَلُها
نحن أحـــقُّ الـــورَى برأفتـــهِ	فأين عنَّـــا؟ وأيـــن معدِلُهـــا؟
يامنفقَ المـــالِ لا يريـــدُ بـــه	إلا المعـــالي الـــتي يؤثِّلُـــــها
أصبحتَ تشْرِى مكارماً فُضُـــلاً	فداؤنا ـــ قدعلمتَ ـــ أفضلُها

وهكذا قدم أبو فراس في أسره مديحا رائعا لسيف الدولة ينم عن حبـــه وتقديره له ، واعتراف بفضله ومكانته في نفسه ولكنه لم ينس نفسه في كـــل مرة كان يمدحه فيها ، فأعلى من مكانتها ، ومزج مديحه لسيف الدوله بفخـــره بذاته وصفاته تارة ، وباستعطافه تارة أخرى ، وبعتابه إياه لتـــأخره في إجابـــة مطلبه مرة ثالثة . بحيث نستطيع القول بأن مديح أبي فراس لأمـــيره لم يكـــن مقصودا لذاته ، وإنما كان تقدمة لغرض من هذه الأغراض الأخرى ، ولذلـــك لا نجد في رومياته قصيدة خالصة في مدح سيف الدولة . ومع ذلك نلحظ أنـــه ليس في مديح أبي فراس في رومياته توسل ولا تصاغر رغم ما فيه مـــن مخافـــة وقوة . وهو بهذا يحقق ضربا من التوفيق بين الكرامة والتصون ، وبين المـــدح الفخم المنصف لأميره .

أما المعتمد بن عباد فليس في أسرياته مدح ليوسف بن تاشفين ولا لغـــيره عدا أبيات قليلة قالها في مدح متواضع جدا ليوسف بن تاشفين في قصيدته الـتى عاتب فيها أخته حواء بنت تاشفين حين اعتذرت عن إعارته خباء،ولم يتجـــاوز

المعتمد في هذا المديح الحقيقة ، ولم يذل نفسه لممدوحه ، ولم يستعطفه وإنما فقط تحدث عن يوم العروبة (معركة الزلاقة) ، وبلاء يوسف بن تاشفين فيها حيث تصدى للأعداء فيها وأبى الفرار في ذلك اليوم العصيب فانتصر للهدى والإسلام . ولولا خشية الأعداء له واتقاؤهم بأسه لكانت الأندلس دارا للكفر والإلحاد ، فقد كانت الرماح في ضحى ذلك اليوم كالنجوم وسط الغبار الكثيف الذى حول النهار ظلاما .

ثم يدعو الشاعر للممدوح على طريقة القدماء فيقول : (لله درك) في هول ذلك اليوم فقد زاد بأسه من شهرته، وكان يزداد جرأة و بسالة كلما ازدادت الحرب قوة وضراوة واشتعالا. وكأنه كان يحسب الرماح عند اشتجارها نرجسا فيدير عليها دماء الأعداء وكأنها الخمر. أو كأنه كان يرى الرماح قدودا تنثني فيقبل عليها، أو يظن السيوف المخضبة بالدماء خدودا حمراء فيزداد قربا منها اشتهاء لها. ولذا يراه من يراه في وسط المعركة وكأنه عاشق لها كما يعشق الرجل الفتاة ذات القد اللين ، والخدود الحمراء. وهو إذا اشتعلت نار الحرب أو قد من الأسنة شرارا. يقول المعتمد:[1]

ويـومَ العُروبـةِ ذُدتَ العِـدَا	نَصَرْتَ الهدى وأبيْتَ الفِـرَارا
ثبـتَّ هنـاكَ وإن القلـو	بَ بين الضلـوعِ لتَـأبَى القَـرارَا
ولولاك يـا يوسـفُ المتقِـي	رأينـا الجزيـرةَ للكفـرِ دارَا
رأينا السيوفَ ضحىً كالنُّجو	مِ وكالليلِ ذاكَ الغبارَ المثـارَا

---

١ - ديوان المعتمد ٩٧ .

فللّـــــه درّكَ في هوْلِــــــهِ | لقد زادَ بأسُــك فيــه اشــتِهارا
تزيدُ اجــــتراءً إذا مــا الرمّــا | حُ عند التنــاجُز زدنَ اشــتِجارا
كــأنك تحســبُها نرجســــًا | تديــرُ الدمــاءَ عليــها عُقَــارا
تريك الرماحُ القـــدودَ انثنــاءً | وتجلو الصِّفاحُ الخــدودَ احمــرارَا
إذا نــارُ حربــكَ ضَرَّمْتَــــها | حسبنَا الأســـنةَ فيــها شِــرَارا

ويختم المعتمد حديثه مع الممدوح ببيان أن الله ــ ســبحانه وتعــالى ــ سيجازيه يوم الحساب خير الجزاء وسيثنى عليه الشهداء بحسن مقامه في ذلــك اليوم. ويستبشر الشهداء به ألا يصيبه خوف أو ضرر، و يلقى في الجنة نعيمــا ينسيه شقاء الحرب، ويجنى حرية وسراحا ينسيه أسر الدنيا وآلامها:

ستلقَى فعالُك يــومَ الحســابِ | تنشُرُ بالمسك منــك انتــشَارا
وللشــهداء ثنــاءٌ عليــــكَ | بحســنِ مُقــامك ذاك النّــهَارا
وأنهــمُ بــك يستبشــــرو | نَ ألاّ تخـــافَ وألا تُضَـــــارا
وتلقى نعيمـــًا ينسِّــى الشــقا | وتجنى سراحًا ينسِّى الإسَـــارا[١]

ويظهر المعتمد فى البيت الأخير وكأنه يذكر ابن تاشفين بأنــــه يتمــنى الخلاص من أسره وأن يلقى نعيما ينسيه ماعاناه فيه من شقاء.

ونلحظ علي هذا المدح أنه مجرد تقرير عما أبداه يوسف بن تاشفين مــن بطولة في معركة الزلاقة ، وكأنهيحاول بذلك أن يستميل يوسف ويستلين قلبه

١ - البيت الأخير لم يرد في النسخة التى حققها الأستاذان الدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد بدوى من ديوان المعتمد ، واثبته في موضعه هذا الكتور / رضا السويسي في النسخة التى حققها من الديوان.

بالإشادة بموقفه في هذا اليوم. أما أنه يقصد مدحه بالمعنى المعـــروف للمـــدح فاحتمال بعيد ، خاصة أنه قال هذه الأبيات عقب أبيات قالها في عتاب أخـــت يوسف التي رفضت إعارته خباء.

والمعتمد بذلك يعد مثالا حيا " للبطل الذي لم يذهب الأسر و الحبـــس بشيء من عظمة نفسه ، ولم يبتعث فيه غير التحدي الذاتي المســـتمر. وقلـــة أولئك الذين يعيشون ويموتون أبطالا. وقد شهدت له معركة الزلاقة وغيرهـــا من الوقائع أنه كان مقاتلا حميا مصابرا من الطراز الأرفع. ولما استأنف يوســـف ابن تاشفين الغارة علي ملوك الطوائف ينتزع ما بين أيديهم خـــاض المعتمـــد معركة يائسة في الدفاع عن عرشه، وخرج إلي القتال عن قصره جاســـرا. ولم يلق السيف حتى كثرته الجموع. وكأنه خرج ليموت دون ملكه ولكن القـــدر شاء له أن يعيش بعد المعركة خمس سنوات أسيرا في أغمات. ومن الناس مـــن يرضى من الحياة بالسلامة غنيمة كيف اتفقت له . ولكن المعتمد ما تمناها أبـــدا ذليلة، وكان أمله أن يعود إليه ملكه، لا أن يطول بقاؤه". [١]

كما أن المعتمد كان يرى نفسه أرفع مكانة ومنزلة من يوسف بن تاشفين؛ ولذلك لم تطاوعه نفسه الأبية أن تلين أمامه، أو تخضع له. فلم يرق لـــه ، ولم يتزلف إليه، أو يستعطفه حتى يخرجه من سجنه. فكيف يتأتى له مدحه؟! .

تاسعا : الإخوانيات والمطارحات :

" الإخوانيات : هي الأشعار التي يسوقها الشعراء فيما يدور بينهم وبـين

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٥٣٥ .

إخوانهم ، وتتميز بصدق العاطفة ، وسهولة العبارة ، والبعد عن المبالغة ، والغلو في المجاملة.حيث ترفع الكلفة بين الأصدقاء ".[١]

وتتنوع مجالات شعر الإخوانيات: فنجد فيه شكرا، وعتابا ، واستعطافا، واستهداء ، وتعزية ، وتسلية ، وشوقا ، وفكاهة . وفي هذا اللون من الشعر "ينسى عظماؤهم أو يتناسون جانبا من عظمتهم أو كبريائهم ، فيترلون إلي مستوى شعرائهم . ويحس الشعراء عن قصد وغير قصد أنهم وملوكهم ووزراؤهم سواء . وهنا تنطلق النفوس علي سجيتها وترسل شعرها بعيدا عن التزوير المصطنع والتكلف الممقوت. وإن ما يقال في هذه الإخوانيات لا يكلف الشاعر عنتا ولا يقتضي منه جهدا كهذا الجهد الذي ينهض به في المواقف الرسمية عندما يمدح أو يرثي ، وعندما يصف أو يتغزل ».[٢]

أما المطارحات فهي لون من شعر الإخوانيات ، وقد تعرف بالمراسلات الشعرية وفيه تقوم القصيدة الشعرية مقام الرسالة النثرية . ولا تسمى مطارحة إلا عندما يرد الصديق علي شعر صاحبه بشعر مثله يتفق معه وزنا وقافية[٣] .

وقد كثر شعر الإخوانيات في روميات أبي فراس، وفي أسريات المعتمد أيضا وإن جاءت المطارحات في أسريات المعتمد أكثر من الإخوانيات. وكثرة

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٠٥ .
٢ - البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر - سعد اسماعيل شلبي - دار نهضة مصر للطبع والنشر - بدون تاريخ ص ٤٨٥ .
٣ - انظر المرجع السابق ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

هذا اللون من الشعر في شعر الأسر عند أبي فراس و المعتمد ترجع إلى رغبة كل منهما - والسجناء عموما - في التخفيف من المعاناة و الآلام عن طريق التحدث إلى إخوانهم ومعارفهم وأصدقائهم . فيبوحون لهم بالشكوى صراحة مما يلقون في أسرهم من هموم وعذاب ، ومما تمتلىء به صدورهم من ضيق وأحزان . و السجين " متى أخذ من ميدانه فقد وسائل تأثيره ونفوذه وتولى عنه أولو المآرب، و تحفظ في مواصلته والعناية به خاصته درءا للأذى عن أنفسهم ، وأظهر الشماتة به من كان لا يناله خيره ، و تألب عليه من رغب في ممالأة خصمه . وقل من بقي على مودته وتفقده له إلا من سلم من انتهازية وغدر وخوف . ولذلك كان السجناء أقدر الناس على تقدير الإخلاص والترحيب به إذا عن لهم . فكانوا يبادرون بالشكر إلى من يتعاطف أو يتوجع لهم ، ويطيرون سعادة بمن ينتصر لهم ، ويعتدون المعروف منه يدا لا يفيها شكر وزيارة المجاملة فضلا يفيض له الثناء"[1].

وكثير من قصائد الإخوانيات التي نظمت في السجن تكشف عن حاجة السجين النفسية الى البوح، و الإفضاء بمكنون نفسه ، عله يستعين بذلك "على احتمال المحنة، ويحقق نوعا من الاتصال النفسي بين السجن وخارجه، وبين ماضيه وحاضره "[2].

وجاءت إخوانيات أبي فراس شبيهة بالرسائل الشعرية التي يرسل بها إلى أقاربه، أو إلى غلاميه منصور ووصاف ، أو إلى سيف الدولة في غرض من

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٥٥٧ .
٢ - المرجع السابق ٥٥٨ .

الأغراض التي يأتى فيها هذا اللون من الشعر . ومن أمثلته في روميات أبي فراس الأبيات التالية التي كتب بها إلى أخيه أبي الهيجاء حرب بن سعيد بن حمدان يعبر فيها عن شوقه إليه [1]:

تقرُّ دُمُوعِي بشوقي إليكَ ... ويشهدُ قلبي بطولِ الكُرَبْ
وإنِي لمجتهدٌ في الجمودِ ... و لكنَّ نفسَي تأبَى الكَذِبْ
وإنِّي عليكَ لجارى الدموعَ ... وإني عليك لَصَبٌّ وَصِبْ[2]
وماكنتُ أُبقِي على مهجَتِي ... لوانى انتهيتُ إلى مايجبْ
ولكنَّ سمحتُ لها بالبقاءِ ... رجاءَ اللقاءِ على ما تُحِبْ
ويبقِى اللبيبُ له عدَّةً ... لوقتِ الرِّضا في أوانِ الغَضَبْ

وفي هذه الأبيات يعبر أبو فراس عن شدة شوقه إلى أخيه، وشدة ما أصيب به من كرب بسبب بعده عنه، حتى إنه كان يفكر في التخلص من حياته لولا أمله في لقاء الأخ الحبيب يوما ما ، فهو عدته وأمله في الحياة.

ونلحظ أن أبا فراس قد صاغ هذه الأبيات بلفظ عذب ، وعبارات رقيقة، تتناسب مع مابين الأخوين من ود وحب ، وتتناسب كذلك مع موضوع الرسالة وهو الشوق و الرغبة في إطفاء ظمئه بالرؤية و اللقاء .

ومن شعر الإخوانيات في باب التسلية قول أبي فراس في أبيات بعث بها إلىُ سيف الدولة – و قد خبر بعلة أصيب بها – : [3]

---

١ - ديوان أبى فراس ٢٦ .
٢ - الصب : العاشق : الوصب : العليل .
٣ - ديوان أبى فراس ٥٥ .

وعلـــةٍ لم تـــدَعْ قلبـــاً بـــلا ألمٍ   سَرَتْ إلى طلبِ العُليا وغاربِهَـــا
هلْ تقبَلُ النفسُ عن نفسٍ فأفدِيَهُ   اللهُ يعلَـــمُ مـــاتغلُو علـــيَّ بِهَـــا
لئن وهبْتك نفساً لا نظيرَ لهَـــا   فمَا سمحتُ بِهـــا إلا لواهِبِـــهَا

وقد أبدع أبو فراس فى تسلية الأمير عن علته فقد جعل سبب علـــة الأمير أنها سرت فى محاولة منها إلى طلب العلا فلم تجد إلا نفـــس الأمـــير.ثم يعرض عليه نفسه لو تقبل نفس مكان نفس ، ويقسم أنه مستعد لذلك، و هـــو بذلك لا يتعدى درجة من قد رد النفس لواهبها. ونلاحظ هنـــاقوة العبـــارة وقوة المعانى معاً مع حرص أبى فراس على نفسه ومكانته ، وعدم الإنزال منـــها أمام أميره ؛ فمع استعداده لبذل روحه فداء للأمير افتخر بنفسه وجعلـــها لا نظير لها . وكتب أبو فراس إلى أخيه من القسطنطينية يشكو بعده عنه فقال:[١]

لقد كنتُ أشكُو البعدَ عنكَ وبيننا   بلادٌ إذا ما شئتَ قربَّها الوخـــدُ[٢]
فكيفَ وبيننا ملـــكُ " قيصَـــر "   ولا أملٌ يُحيِى النفوسَ ولا وعـــدُ

فقد كان يشكو من بعده عنه وعدم رؤيته، ولم يكن يفصل بينهما غـــير مسافة قصيرة يمكن تجاوزها.فكيف الحال الآن وبينهما بلاد واسعة ، ولا أمل فى اللقاء ولا وعد به.إنه لا شك سيكون اللقاء أصعب ، والفرقة أبعد.

ويفيد الشطر الثانى من البيت الثانى بضيق الشاعر بهذا الأســـر الـــذى يفصل بين الشاعر وبين أهله وخلانه دون أمل فى الخلاص منه أو حتى وعـــد

---

١ - ديوان أبى فراس ٩٥ .
٢ - الوخد : الجرى السريع .

به. ومن شعر أبي فراس فى الإخوانيات قوله إلى غلامه منصور : [١]

إرثَ لصَبٍّ فيه قـد زدتَـهُ ... على بلايـا أسـرِه أسـرَا

قد عـدِمَ الدنيـا ولذاتِهـا ... لكنَّـه مـا عـدمَ الصبْرا

فهو أسيرُ الجسـمِ فى بلـدةٍ ... وهو أسيرُ القلبِ فى أُخرى

وله أيضا إلى غلامه " منصور" :[٢]

مغرمٌ مـؤلمٌ جريـحٌ أسـيرُ ... إن قلبـاً يطيـقُ ذا لصَبـورُ

وكثيرٌ من الرجـالِ حديـدٌ ... وكثيرٌ من القلـوبِ صخـورُ

قلْ لمَن حلَّ بالشـآمِ طليقـا ... يأبى قلبُـك الطليـقُ الأسـيرُ

أنا أصبحتُ لا أطيقُ حراكـا ... كيف أصبحتَ أنتَ يا "منصورُ"

وأبيات أبي فراس فى المقطوعتين تشبه الخواطر النفسية التى يجمعها سلك واحد هو سجن الشاعر وما يحس به.وقد وجد أبو فراس فى خطاب غلامه متنفسا يعبر من خلاله عن همومه وأحزانه ، ويتصل عن طريق هذا الخطاب بالعالم الذى يحن إليه خارج أسره.

ومن إخوانيات أبي فراس ما كتب به إلى أخيه أبي الفضل يستزيره وهما أسيران وكان أبو فراس قد أفرد فى سجنه وحده إجلالا له و إكراما :[٣]

أتتركُ إتيـانَ الزيـارةِ عـامدًا ... وأنتَ عليها لو تشـاءُ قديـرُ

وعيشِكَ لولا ما علمتَ لما وَنَتْ ... إلى الدار منّي رَوْحـةٌ وبكـورُ

---

١ - ديوان أبي فراس ١١٨ .
٢ - ديوان أبي فراس ١٦٧ .
٣ - ديوان أبي فراس ١٥٨ .

فكم كانَ رأيي فى لقائِكَ نـــافذًا ... ورأيُــكَ فيـــه ونيَــةٌ وفتـُـورُ
تقول: غدًا آتى ولو كنتَ راغبـًا ... لطالَ عليكَ الليلُ وهْوَ قصـــيرُ
ولكنَّ وقتًا أنــت فيـــه محبَّــبٌ ... إلَيَّ ودهرًا أنـــتَ فيـــه نضـيرُ
يضيقُ علىَّ الحبسُ حتى تـــزورَهُ ... فما هـــو إلا روْضَـــةٌ وغديـــرُ
صبرتُ على هذا فما أنا بعدَهـــا ... على غيرِها مما صـــبرتُ قديـــرُ

وقد مزج أبو فراس طلبه لأخيه بالزيارة فى هذه الأبيات بالعتاب علـــى تسويفه فى زيارته، كما مزجه بالحديث عن بعض ما يلاقيه فى أسره من ضيـــق وآلام حتى يبين له مدى حاجته إلى زيارته للتخفيف من آلام الأسر وضيقـه . وقد عبر عن ذلك كله بلفظ واضح ، وعبارات سهلة سلسة .

ومن إخوانيات أبى فراس فى رومياتة قصيدتـــه إلى غلاميــه وصـــاف ومنصور "(١)

يـــاخليليَّ بالشـــآم أفيقَـــــا ... هل تحسَّـــان لى رفيقـًا رفيقَـــا
كثُرَ الغدرُ والخيانـــةُ فى النَّـــا ... سِ فما إنْ أرَى صديقًا صدوقَـــا
قلَّ أهلُ الوفاءِ واتَّبـــع النـــا ... سُ من الغدرِ والجفـــاءِ طريقَـــا
لا رَعَى اللهُ يـــاخليليَّ دهـــرًا ... فرَّقتنـــا صروفُـــهُ تفريقَـــا
كنتُ مولاكُما وما كنـــتُ إلا ... والدًا محســـنًا وعمًّـــا شـفيقَا
فاذكُرانى وكيف لا تذكُـــرانى ... كلما استخونَ الصَّديقُ الصَّديقَـا
بتُّ أبكيكُمَـــا وإن عجيبـــًا ... أن يبيتَ الأسيرُ يبكى الطليقَـــا

١- ديوان أبى فراس ٢٢٥ .

وواضح أن موضوع هذه القصيدة الشكوى من الزمان وأهله ، فهو يشكو من انعدام الوفاء بين الأصدقاء والرفقاء ومن شيوع الغدر والخيانة بين الناس ، ثم يشكو من غلاميه اللذين لا يذكرانه رغم شوقه الشديد إليهما وبعد أن كان لهما ـ وهو مولاهما ـ كالأب والعم الشفيق.

هذه بعض إخوانيات أبي فراس . ونلاحظ عليها تميزها بعدة أشياء : أولها سهوله اللغة التي استخدمها الشاعر للتعبير عن معانيه فيها.والثاني : هو كفه فيها عن فخره بنفسه إلا قليلاً علي غير عادته في أغراض شعره الأخرى. ويمكن إرجاع ذلك إلي عدم ملاءمة شعر الإخوانيات للفخر إلا إذا استدعى المقام ذلك . وثالثها : أن أغلب إخوانيات أبي فراس جاءت في شكل مقطوعات قليلة الأبيات ، وجاء القليل منها في شكل قصائد قصيرة ، ونادرا ماجاء في شكل قصائد طويلة كقصيدته التي كتبها إلى أخيه أبي الهيجاء حرب ابن سعيد يعذله على عظيم مالحقه عند أسره من الجزع ، ويذكر قوما عجزوا رأيه في الثبات يوم أسره . فقد جاءت هذه القصيدة في ستة وستين بيتا لو اعتبرناها كلها من باب الإخوانيات ، ففيها فخر وشكوى من الخلان والناس، ومديح لسيف الدولة وشوق إلى أخيه، وعتاب له ، وحديث عن معاداة الدهر له ، وغير ذلك من الموضوعات . فلو اعتبرناها من باب الإخوانيات لكانت هي القصيدة الطويلة الوحيدة التي أنشدها أبو فراس في هذا الباب .كما نلاحظ أن إخوانيات أبي فراس قد خلت من المطارحات أو المساجلات الشعرية ، وربما كان سبب ذلك أنه لم يراسل أحدا من الشعراء وهو في الأسر،

ويمكن أن يكون حسد شعراء بلاط سيف الدولة له لمكانته وقربه من سيف الدولة دخل في ذلك .

أما المعتمد بن عباد فله فى أسرياته كثير من المطارحات الشعرية بجانب بعض الشعر فى الإخوانيات . ومن إخوانياته تلك التي كتب بها إلى الطبيب الوزير أبي العلاء بن زهر الإشبيلى حين رغب فى علاج إحدى كرائمه فقام الوزير بعلاجها بنفسه ، ودعا للمعتمد بطول البقاء ، بعد أن رفع من قدره بالتبجيل والإعظام فكتب المعتمد إليه قصيدة من أحد عشر بيتا بدأها بقوله فى الرد على الوزير بالدعاء بطول البقاء :[1]

دَعَا لى بالبقاءِ وكيف يَهْوَى أسيرٌ أنْ يطولَ به البقاءُ

وفيها يصف المعتمد حاله وحال بناته فى الأسر مما صرف عنه الرغبة في العيش بعد أن ناله وأهله ما نالهم ، حتى أصبح بناته يخدمن بنت من كان خادما لأبيهم.وختم القصيدة بشكر ابن زهر داعيا الله أن يجزيه على بره خير الجزاء وأن يرفع قدره، ويعلى شأنه .ثم ينهى القصيدة بتفويض أمره إلى الله وتسليمه نفسه عما فات .وأنه لا يسلم أحد مما قدره الله له • يقول المعتمد :

جُزيتَ أبَا العلَاءِ جزاءَ برٍّ ثَوَى برًّا وصا حبَكَ العَلَاءُ
سَيَسْلَى النفسَ عمن فاتَ علمِي بأنَّ الكلَّ يدركُهُ الفَنَاءُ

وسأله رجل يعرف بابن الزنجارى أن يزوده بشئ من شعره ، فكتب إليه المعتمد قصيدة من تسعه أبيات يعتذر إليه فيها عن اكتفائه بالشعر دون المال

١ - ديوان المعتمد ٩٠ -

في تزويده به ، وتمنى أن لو كان يملك ذهبا لأهداه إليه بدلا من الشعر ولكن هيهات بعد أن تبدل حاله ، وتغيرت دنياه . يقول المعتمد :[١]

لو أستطيعُ على التزويدِ بالذَّهبِ ... فعلتُ لكن عَدَانِى طارقُ النُّوَبِ

يا سائلَ الشعرِ يجتابُ الفَلاَةَ بهِ ... تزويدُك الشعرَ لايُغنِى عن السَّغَبِ

زادٌ من الرِّبحِ لاريٌّ ولا شِبَعٌ ... غَدا له مؤثرًا ذُو اللُّبِّ والأدبِ

أصبحتْ صفرًا يدى مما تجودُ بهِ ... ماأعجبَ الحادثَ المقدورَ في رجبِ

ذلٌّ وفقرٌ أزالاَ عزةً وغِنًى ... نُعمَى الليالي من البلوَى على كَثَبِ

قد كان يستلبُ الجبارَ مهجتَهُ ... بطشِى ويحيَا قتيلُ الفقرِ في طَلَبِي

والملكَ يحرسُهُ في ظلِّ واهبِهِ ... غُلْبٌ من العَجم أوشُمٌّ من العَرَبِ

فحينَ شاء الذى آتاهُ يترعُهُ ... لم يُجْدِ شيئًا قراعُ السمرِ والقُضُبِ

فهاكَهَا قطعةً يطوَى لها حسدًا ... السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُبِ

ونلحظ في هذه القصيدة أن الشاعر ملأها بالتحسر على ماضيه ، وبضيقه بحاضره الذى لم يمكنه من تلبية حاجة طالبى معروفه.

أما المطارحات في شعر الأسر عند المعتمد فكثيرة لكثرة الشعراء الذين بادلوه أحزانه ، ووقفوا بجانبه في محنته . بجانب بعض أبنائه الذين ردوا على شعر أرسله اليهم .فقد عتب على ابنه الرشيد وهو في طريقه إلى سجنه من مكناسة إلي أغمات عتبا أفرط فيه .فكتب إليه ابنه يستعطفه بأبيات مطلعها[٢]:

١ - ديوان المعتمد ٩٢ .

٢ - ديوان المعتمد ٩٣ ، واقرأ الأبيات في الحلة السيراء ٦٩/٢ ، ٧٠ .

ياحليفَ النّدَى وربَّ السَّماحِ وحبيبَ النفـــوسِ والأرْواحِ

فأجابه المعتمد بقصيدة قصيرة من نفس الوزن والقافية والروى يقـــول فيها :[١]

كنتُ حلفَ الندى وربَّ السماحِ وحبيـــبَ النفـــوسِ والأرْواحِ
إذْ يميـــنى للبـــذلِ يـــومَ العطايـــا ولقبضِ الأرواحِ يومَ الكفـــاحِ
وشمـــالِي لقبـــضِ كـــلِّ عنـــانٍ يُقحِمَ الخيلَ فى مجـــالِ الرِّمـــاحِ
وأنا اليـــومَ رهـــنُ أســـرٍ وفقـــرٍ مستباحُ الحِمى مَـــهيضُ الجنـــاحِ
لاأجيبُ الصريخَ إنْ حضـــرَ النـــا سُ ولا المتعفينَ يـــومَ السَّـــمَاحِ
عادَ بِشْرى الذى عهدتَ عبوســـا شغلتنى الأشجانُ عـــن أفراحِـــى
فالتمـــاحِى إلي العيـــونِ كريـــهٌ ولقـــد كـــان ترفـــةَ اللمَّـــاحِ

ونراه في البيت الأول ينقض دعوى ابنه بأنـــه حليـــف النـــدى ورب السماح ، وحبيب النفوس والأرواح.ويستعين في ذلك بإعاده ألفاظ بيت ابنه كلها ماعدا ما يفيد بأنه كان بهذه الصفة في الماضى حينما كـــان علـــي رأس مملكته . ثم أخذ المعتمد فى المقارنة بين حاله في الماضي وما أصبح عليـــه الآن في سجنه .فكانت يمينه فى الماضى تجود بالمال يوم العطـــاء ، وتقبـــض أرواح الأعداء يوم الكفاح ، أما شماله فكانت تقبض عنان الخيل للدفع بها في ميـــادين المعارك . أما الآن فقد أصبح رهين أسر وفقر، مســـتباح الحمـــى ، مـــهيض الجناح، لايستطيع إجابة من يستصرخ به ولا من يلجأ إليه للبذل والعطـــاء .

---

١ - ديوان المعتمد ٩٤ .

وقد تحول بشر... معهود إلى عبوس وتجهم ، فقد شغل بالأحزان عن الفـــرح والسرور ، و... حاله يسر الناظرين ، فأصبح كريها إلى العيـــون بعـــد أن كانت تتنـــزه ... ظر إليه .

"والمعتمد ... من خلال هذه المطارحة يفضي إلى ولده بمكنـــون نفســـه ، ويشركه معه في ... حزانه وأشجانه ، ويخفف العبء عن نفسه بالبوح والإفضاء، ولمن يبوح وبمن ... إن لم يبح لولده ؟ فلعل هذا البوح يخفف عن نفسه ثقـــل الهموم عندما ... بمشاركة ولده الذي هو أمله في الحياة ".[1]

وكتب ... محمد من أسره إلى الشاعر ابن حمديس الصقلي قصيدة يأســـى فيها على قصه ... بأشبيلية ، ويتحسر على ماضيه ، و يتألم من حـــاضره . ثم يعلن عن حنينه ... الزمن الماضي ، ويتمنى عودته إلى رحاب ملكه وقصـــوره . ومنها قوله : ...

غريبٌ بـ... ض المغربَـيْن أسـيرُ	سيبكي عليـــه منـــبرٌ وسـريرُ
وتندبه البيـ... الصـــوارمُ والقَنَـا	وينهلّ دمـــعٌ بينـــهنّ غزيـــرُ
سيبكيه في ... هيه والزاهرُ النَّـدي	وطلّابُـــه والعـــرفُ ثَمّ نكـــيرُ
إذا قيلَ في ... نعماتَ قد ماتَ جودُه	فما يُرتجى للجودِ بعدُ نشُـورُ
مضى زمن ... الملكَ مستأنسٌ بـــه	وأصبحَ عنه اليومَ وهـــو نفُـورُ
برأيٍ من ... دهرِ المضلّـــلِ فاســـدٍ	متى صلَحَتْ للصالحينَ دهُـورُ

١ - شعر الأ... والسجن في الأندلس ١١٧ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٨ .

أذلَّ بني مـاءِ السـماءِ زمـانُهُمْ ... وذلُّ بني ماءِ السـماءِ كثـيرُ

فما ماؤُهَـا إلا بكـاءٌ عليـهمُ ... يفيضُ على الأكبادِ منه نُحُـورُ

وفي هذه المجموعة من أبيات القصيدة يصف حاله وقصوره بعد فراقه لها، ويتحدث عن ماضيه ، وعما ألحقه به الزمان من ذل وهوان بعد عزة وبهاء.

أما بقيه القصيدة فهي في حنينه إلي قصوره بأشبيلية . وقد عرضت لها قبل ذلك .

وقد رد الشاعر ابن حمديس الصقلي على المعتمد بناء على طلبه بقصيدة على نفس الوزن والقافيه وحرف الروى يقول فيها: [١]

جرَى بـكَ جـدٌّ بـالكرام عثـورُ ... وجارَ زمانٌ كنـتَ فيـه تجـيرُ

لقد أصبحتْ بيضُ الظُّبَى في غمودِهَـا ... إناثًا لترك الضَّربِ وهي ذكُـورُ

تجـيءُ خلافـًا للأمـورِ أمورُنَـا ... ويعدلُ دهرٌ في الـوَرَى ويجـورُ

أتيـأسُ في يـوم ينـاقض أمسَـهُ ... وزهرُ الدرارى في البروجِ تـدورُ

وقد تنتخِي الساداتُ بعـد خمولِهَـا ... وتخرُجُ من بعد الكسوفِ بـدورُ

لئن كنتَ مقصورًا بـدارِ عمرهَـا ... فقد يقصُرُ الضرغامُ وهو هَصُـورُ

فقد تعثر حظ المعتمد وهو الكريم، وجار عليه زمان كان يجير فيه من يلجأ إليه، فتعطلت السيوف في أغمادها، وصارت كالإناث في تركها الضرب وهي ذكور ، وما كان أحد يتوقع مثل هذا الذي حدث للمعتمد ولكن الأمور

---

١ - ديوان ابن حمديس ٢٦٨ .

تدور بغير ما نقدر ، والدهر من شأنه أن يجور ولا يعدل.

ثم يبث ابن حمديس الأمل في نفس المعتمد، فإذا كانت النجوم تدور في أفلاكها ولا تستقر ، فكذلك الأيام . فعلى الأسير ألا ييأس ولا يحزن ، فعسى الأيام تدور به مرة أخرى فتعود به إلى سابق عهده . وإن كان المعتمد مضيقا عليه في سجنه وهو الأبي الشجاع ، فهذا لا يقلل من شأنه ، فقد يؤسر الضرغام وهو أسد هصور ......

وهناك مطارحة أخرى بين المعتمد وابن حمديس. فقد جاء ابن حمديس لزيارة المعتمد في سجنه بأغمات ، فصرفه بعض خدمه بأنه لا يوجد في ذلك الوقت ، فرجع ابن حمديس إلى منزله . فلماعلم المعتمد بمجيء ابن حمديس ورجوعه عسر ذلك عليه ، وعنف خدمه ، وكتب إلى ابن حمديس بشعر يعتذر إليه فيه ، ويهجو خدمه قائلا :[1]

حُجِبتَ فلا واللهِ ماذاكَ عن أمرِى ... فأصغِ فدتك النفسُ سمعًا إلى عذرِى

فما صارَ إخلالُ المكارمِ لى هوًى ... ولا دارَ إخجالٌ لمثلِكَ في صدرِى

ولكنَّه لما أحالتْ محاسِني ... يدُ الدهر – شُلَّتْ عنك دأبا يدُ الدهرِ

ثم يهجو خدمه قائلا :

عدِمتَ من الخدَّام كلَّ مهذَّبٍ ... أشيرُ إليه بالخفيِّ من الأمرِ

ولم يبقَ إلا كلَّ أدكنَ ألكنٍ ... فلا آذنٌ في الإذنِ يبرأ من غَرٍّ

حمارٌ إذا يمشِي ونسرٌ محلِّقٌ ... إذا طارَ بُعْدًا للحمارِ و للنسرِ

---

١ - ديوان المعتمد ١٠١ .

وليس بمحتاجٍ أتانا حمارُهُمْ ... ولا نسرُهُمْ مما يحنُّ إلى وَكْرِ

وينتقل المعتمد إلى الحديث عن تقديره لابن حمديس وإعزازه له، وذكر بعض صفاته الطيبة، ويعبر عن شوقه إليه فيقول:

وهل كنتَ إلا الباردَ العذبَ إنما ... به يشتفي الظمآنُ من غلةِ الصدرِ

ولو كنتُ ممن يشربُ الخمرَ كنتَها ... إذا نزعَتْ نفسي إلى لذةِ الخمْرِ

وأنت ابنُ حمديسِ الذي كنتَ مُهْدِيًا ... لنا السحرَ إن لم نأتِ في زمنِ السِّحْرِ

وفي ثنائه على ابن حمديس يصفه بأنه كالماء القراح الذي يرتوى به الظمآن . ولو كان المعتمد ممن يشرب الخمر لكان ابن حمديس هو خمره كلما تاقت نفسه إلى تجرعها و لذتها . وذلك لأنه كان يهديه في سابق عهدهما من بيانه العذب شعرا هو كالسحر. وإن كان عهد السحر قد انتهى.

وقد أجابه ابن حمديس بقصيدة على نفس الوزن والقافية وحرف الروى مطلعها: (١)

أمثلَكَ مولًى يبسُطُ العذرَ بالعذرِ ... بغيرِ انقباضٍ منك يجرى إلى ذكْرِ

لَهَدَّ قريضُ الفضل ماهُدَّ من قُوَى ... وحلَّ به ماحلَّ من عقدةِ الصبرَ

وإني امرؤٌ في خجلةٍ مستمرةٍ ... يذوبُ لها في الماءِ جامدةُ الصخرِ

أتتنى قوافيكَ التي جَلَّ قدرُها ... بما نقطةٍ منهنَّ مغرقةٌ بحرى

لعلك إذ أغنيتَني منكَ بالنَّدَى ... أردتَ الغِنى لى من مديحِكَ بالفخرِ

وفيها يمدح المعتمد ويثنى على شعره ويلتمس له ولخدامه العلل

---

١ - ديوان ابن حمديس الصقلى ٢٧١ .

والمعاذير. ثم يتذكر ماضى المعتمد وجوده عليه. ولذا يبكى هذا الزمان الذي كان ضاحكا له في رحاب المعتمد. ثم يتعجب لما حل بالمعتمد ويعبر عن حيرته وأسفه على غدر الزمان.

أما عن مطارحات المعتمد مع شاعره الوفي أبي بكر الداني المعروف بابن اللبانة فهى متعددة ، وتدل على الوفاء وقوة المودة بين الشاعر و مليكه.

وفد ابن اللبانة على المعتمد لزيارته في أغمات فسر المعتمد بزيارته ، وشكره عليها . ولما أزمع ابن اللبانة على الرحيل استنفد المعتمد وسعه ودفع إليه عشرين مثقالا وثوبين ، ومعها قصيدة من اثنى عشر بيتا يقول في أولها معتذرا لشاعره لقلة صلته : [١]

إليك النزرُ من كفِّ الأسيرِ ... فإن تقبلْ تكنْ عينَ الشكورِ
تقبَّلْ مايذوبُ له حياءً ... وإن عذرتْهُ حالاتُ الفقيرِ

ثم أخذ المعتمد في الحديث عن أسره ، وأثره عليه وعلى حياته ،وتبدلها من عز إلى ذل ، وتحسره من أجل ذلك فيقول:

ولا تعجبْ لخطبٍ غضَّ منهُ ... أليسَ الخسفُ ملتزمَ البدور
ورجِّ بجبرِهِ عُقْبى نداهُ ... فكم جَبَرَتْ يداهُ من كسيرِ
وكم أعلتْ علاه من حضيضٍ ... وكم حطَّتْ ظُباه من أميرِ
وكم أحظَى رضاهُ من حظيٍّ ... وكم شهرت علاه من شهيرِ

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٢ .

وكم مـــن منــبرٍ حنَّــتْ إليـــهِ   أعــالِي مرتقــاهُ ومــن ســَـــريرِ

إلى أن ختم القصيدة بقوله:

فقد نظرتْ إليه عيونُ نحسٍ   مضَتْ منه بمعـــدومِ النَّظيرِ

نحوسٌ كنَّ في عُقْبَي سعودٍ   كذاك تدورُ أقـــدارُ القديرِ

وقد شغل المعتمد في هذه القصيدة بحاله ووصف واقعـــه في ســـجنه ، ومقارنة ذلك بماضيه عند شاعره الذي تجشم عناء السفر حتى زاره في سـجنه، فلم يتحدث عن زيارته وأثرها في نفسه ، ولم يثن على الشاعر كما فعل مـــع ابن حمديس .

وقد رد الداني صلة المعتمد لإحساسه بمدى حاجة المعتمد إليها ، وكتب إليه قصيدة يقول في أولها : (١)

سقطتَ من الوفاءِ على خبيرِ   فذَرْنِي والذي لكَ في ضميرِى

ومنها قوله :

أســـيرٌ ولا أســـيرُ إلى اغتنـــامٍ   معـــاذَ اللهِ مـــن ســُوءِ المصـــيرِ

جذيمةُ أنـــتَ،والزبـَّــاءُ خـــانت   وما أنا من يقصِّـــرُ عـــن مصـــيرِ

أنا أدرَى بفضلِـــكَ منـــك إني   لبستُ الظـــلَّ منـــه في الحـــرورِ

غنيُّ النفسِ أنـــت وإن ألحَّـــت   على كفيِّـــكَ حـــالاتُ الفقـــيرِ

أحدثُ منك عن نبـــعٍ غريـــبٍ   تَفتَّحَ عـــن جَـــنَى زَهـــرٍ نضـــيرِ

وأعجبُ منك أنَّك في ظـــلالٍ   وترفَـــعُ للعُفَـــاةِ منـــارَ نـــورِ

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٣ واقرأ الأبيات في الذخيرة قسم ٢ مجلد ١ ص ٦٣ .

رُوَيْدَك سوفَ توسعُني سروراً ... إذا عادَ ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلّني رتبَ المعالي ... غداةَ تحُلُّ في تلك القصور
تزيد علي ابن مروانٍ عطاءً ... بها وأنيفُ ثَمَّ على جرير
تأهَّبْ أن تعودَ إلى طلوعٍ ... فليس الخسفُ ملتزمَ البدور

وهكذا يعلن ابن اللبانة أنه ماجاء المعتمد طامعا في عطاء ، وإنما جاء بداعي الوفاء ، فهو شقيق الدين عنده . ثم يمدح المعتمد ويعدد فضائله ، ويتعجب كيف يكون المعتمد في ظلام الأسر ، ومع ذلك ينير للعفاة وطالبي جوده وعطائه حياتهم. ثم يفتح أمام المعتمد باب الأمل في الخروج من أسره والعودة إلي ملكه ، وحينذاك ستعود عطاياه تنهال على طلابه وقاصديه . وفي لفتة كريمة من الشاعر يدعو المعتمد إلى التأهب للعودة إلى ملكه فليس الخسف ملتزم البدور كما يدعي ذلك المعتمد في أحد أبيات قصيدته:

ولا تعجَبْ لخطبٍ غضَّ منه ... أليسَ الخسفُ ملتزمَ البدور ؟!

فقال الداني :

تأهَّبْ أن تعودَ إلى طلوعٍ ... فليس الخسفُ ملتزمَ البدور

وقد راجعه المعتمد بمقطوعة من خمسة أبيات يشكره فيها على بره ووفائه ، ويثني عليه فيها فيقول : [١]

ردَّ برّي بغينا عليَّ وبرّا ... وجَفَا فاستحقَّ لوماً وشُكْرَا
عافَ نزري إذ خافَ تأكيدَ ضُرّي ... فاستحقَّ الجفاءَ إذا عافَ نَزْرَا

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٤ .

فإذا ماطويتَ في الحمـــدِ بعضـًـا عاد لَوْمي في البعضِ سرًّا وجـــهرَا
يا أبـــا بكـــرِ الغريـــبَ وفـــاءً لاعَدِ مْنَـــاكَ في المغـــارِب ذُخْـــرا
أيّ نفعٍ يجدى احتيـــاطُ شَـفيقٍ مُتّ ضُرًّا فكيفَ أرهَـــبُ ضُـــرَّا

وتكشف هذه الأبيات وغيرها من إخوانيات ومطارحات المعتمد عـــن الحالة النفسية التي كان يحس بها الشاعر إذا قام أحد هؤلاء الإخوان بزيارتـــه . إذ كان يجد في هذه الزيارات نوعا من التخفيف من الآلام التى يحس بها بعد أن يجد من يبوح له بآلامه ومشاعره . فتعينه هذه الزيارات على احتمال المحنة التى يعيشها في سجنه ، و يحقق بها نوعا من الاتصال النفسي بين ماضيه قبل الأســـو ، وحاضره الذي يعيشه داخل سجنه . فكان لهذه الزيارات أثرها الكبـــير في نفس الشاعر الأسير خاصة إذا عرفنا أن السجين كان إذا أخذ وتوارى عنـــه سلطانه تولى عنه ذوو المآرب و الحاجات ، وتحفظ في مواصلته وزيارته خاصته وإخوانه درءا للأذى عن نفوسهم ، وبعدا عن مواطن الريبة و التهمـــة عـــن حياتهم . ناهيك عمن يظهر الشماتة به ممن كان لايصل إليه خيره ، أو رغـــب في ممالأة خصمه. وقل من بقى على مودته ووفائه له.

وقد راجع ابن اللبانة المعتمد مرة أخرى ورد علي شعره بقصيدة مـــن سبعة أبيات يقول فيها : [١]

أيّها المـــاجدُ الســـميذعُ عـــذرًا صَـــرْفي الـــبرَّ إنمـــا كـــان بـــرَّا
حـــاشَ لله أن أُجيـــحَ كريمـــًا يَتَشكّي فقرًا وكـــم ســـد فقـــرا
لا أريـــدُ الجفـــاءَ فيـــه شـــقُوقًا غدَرَ الدهرُ بي لئن رُمْـــتُ غـــدرا

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٤ ، وانظر الذخيرة ق٢ من ١ ص ٦٤ .

ليت لي قوةً أواوى لركنٍ ... فترى للوفاء منّي سرّا
أنتَ علّمتني السيادةَ حتى ... ناهضتْ همّتي الكواكبَ قدرا
ربحتْ صفقةٌ أزيلُ بُرودًا ... عن أديمي بها وألبسُ فخرا
وكفاني كلامُك الرطبُ نيْلاً ... كيف أُلقى دُرًّا وأطلُبُ تِبْرَا
لم تمُتْ إنما المكارمُ ماتتْ ... لا سَقَى اللهُ بعدَك الأرضَ قطْرَا

وقد أجاد الداني في التخفيف عن المعتمد ، و أبدع في الا عتذار عن قبول الصله حينما جعل من كلام المعتمد معه درا وصلته تبرا. وقد اختار أن يحظى بالدر بدلا من التبر:

وكفاني كلامُك الرطبُ نَيْلاً ... كيف أُلقى دُرًّا وأطلُبُ تِبْرا

ومن المساجلات الشعرية بين ابن عباد وشاعره ابن اللبانة أن الشاعر أرسل إلى المعتمد حين كان بأغمات زائرًا و أراد مغادرتها بعدها قصيدة مطلعها: [1]

وداعٌ ولكنّي أقولُ سلامُ ... وللنَّفس في ذكر الوداع حِمَامُ

وقد أجابه المعتمد بقصيدة على نفس الوزن والقافية و الروى أثنى في بدايتها على الكلام الطيب الذى سمعه من شاعره الوفى ، وتمنى عدم مفارقته، ثم سأله أن يزوده بشئ من شعره فقال : [2]

كلامُكَ حُرٌّ والكلامُ غُلامُ ... وسحرٌ ولكنْ ليسَ فيه حرَامُ

١ - النص في الذخيرة ق٢ م. ١ ص ٦٥ .
٢ - ديوان المعتمد ١١٣ .

وردٌ ولكن بين جَنْبَيْكَ بحرُه ... وزَهرٌ و لكنَّ الفؤادَ كِمَام
وبعدُ فإن ودَّعتَني بخداعةٍ ... فحقِّي أن يجني عليه سَلام
أعنِّي على نفسي بتزويدِ أسهُلي ... بِلا وقولُ لا شيءٌ عليَّ حَرامُ
فدونَكَهُ إذْ لم أجدْ لي حيلَةٌ ... وقلبي فاعلَمْ في الطعام طعَامُ
فهنئته زادًا وفي الصَّدرِ وقَدَةٌ ... و لَلصَّبرُ من دون الفؤادِ غَرَامُ

ثم توجه إلى الشاعر بالشكر على هذه الزيارة التى كان خلالها أنيسا لـه في وحشته ، وأبدى عجبه بهذه الدنيا التي لا يدوم فيها شيء . و سرعان ما تمر فيها الأوقات السعيدة . ويذكر للشاعر أن وجوده بأغمات أضاءها، ومغادرته لها أعادها إلى ظلامها ، ويحسد الملك الأسير شاعره على مغادرته أغمات ليترل بأرض الأندلس التي اشتد شوقه إليها ، وتركه وحيدا في ذل الأسر وغربته. ويدعو للشاعر أن يبلغ أرض الأندلس في أمن وسلام وغبطة .

يقول المعتمد:

لوكان فألٌ من سمائِكَ مؤنِسٌ ... فقد عادَ ضِدًّا والعزاءُ رِمامُ
تحلَّيتَ بالدَّاني وأنتَ مباعِدٌ ... فياطيبَ بدءٍ لو تَلاه تَمَامُ
رياجباً حتى السماتُ تخونُني ... وحتى انتباهِي للصديقِ منَامُ
أضاءَ لنا أغماتَ قربَكَ بُرْهَةً ... وعاد بها حينَ ارتحلتَ ظلامُ
تسيرُ إلى أرضٍ بها كنتَ مضغَةً ... وفيها اكتسَتْ باللَّحمِ منك عظَامُ
وأبقَى أُسامُ الذلَّ في أرضِ غربةٍ ... وماكنتُ لولا الغدرُ ذاكَ أُسَامُ
فبلَّغتَها في ظلِّ أمنٍ وغبطةٍ ... وسُنَّى لي مما يعوقُ سَلَامُ

وتؤكد هذه القصيدة أهمية زيارة الطلقاء للسجناء وأثرها في نفوسهم وفي التخفيف من وقع السجن الأليم الذى يحس به الأسير. كما تدل على مدى سعادة الأسرى حينما يرون أخا وفيا أوصديقا مخلصا يقف بجوارهم، ويحمل عنهم عبء همومهم، وضيقهم.

هذا وقد تميزت إخوانيات ومطارحات المعتمد بكثرة حديثه فيها عن نفسه وحاله في سجنه، والمقارنة بين ماضيه وحاضره. كما تميزت بأن نفسه الشعري فيها لم يقل عنه في غيرها من الموضوعات عكس ما رأيناه في إخوانيات أبي فراس حيث تغلبت فيها المقطوعات بدلا من القصائد. كما اتسمت بخفة أسلوبها، وعذوبة ألفاظها كغيرها من شعر المعتمد.

عاشرا : الغزل

الغزل : هو التعبير عن ميل أوصبوة جنس إلى الجنس الآخر ، و البوح بمشاعره وعواطفه نحوه. وهو شعور فطري ، وميل غريزي . وقد يكون عفيفا يتسم بالحشمة و الحفاظ على الحرمات فتتقبله أكثر النفوس. وقد يكون شهوانيا مكشوفا فيكون تطرفا و ضربا من المجون.

وقد حدد النقاد العرب مذهب الشعراء في الغزل ، فرأى ابن رشيق أن " حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعاني سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ماكان ظاهر المعنى ، لين الإيثار ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخف الرصين "[1]

---

١ - العمدة ١١٦/٢ .

ويذكر ابن رشيق أن " النسيب و التغزل و التشبيب كلها بمعنى واحد. وأما الغزل فهو إلف النساء و التخلق بما يوافقهن . وليس مما ذكرته في شيء. فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ" [١] . وعلى ذلك فنحن نقصد بالغزل في هذا الباب التغزل على مذهب ابن رشيق . وإن كان من الشائع بين الأدباء إطلاق لفظ (الغزل) على كل من التغزل و النسيب و التشبيب .

ويرى أبو هلال العسكري أنه " ينبغي أن يكون التشبيب دالا على شدة الصبابة وإفراط الوجد ، والتهالك في الصبوة، ويكون بريئا من دلائل الخشونة ، و الجلادة .وإمارات الإباء ، و العزة" .[٢]

و يقول : " و يستجاد التشبيب أيضا إذا تضمن ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بهبوب الرياح ، ولمع البروق ، وما يجرى مجراهما من ذكر الديار والآثار ...... وكذا ينبغى أن يكون التشبيب دالا على الحنين ، والتحسر ، وشدة الأسف ... وينبغى أن يظهر الناسب الرغبة في الحب وألا يظهر التبرم".[٣]

وقد فطن الشعراء العرب فى العصور الأدبية القديمة إلى قيمة الغزل - أو التغزل - وأثره القوى في استمالة النفوس ، وجذب انتباه السامع إلى ما يقوله الشاعر فاهتموا به ، وجعلوه في مقدمة قصائدهم - حتى إذا بلغ الغاية من ذلك انتقل إلى الغرض الأصلى من القصيدة .

---

١ - المرجع السابق ٢/١١٧ .
٢ - كتاب الصناعتين ١٢٩ .
٣ - المرجع السابق ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ .

أما عن الغزل - أو التغزل-في شعر الأسر فمكانه فيه ليس كبيرا لأن الدافع إلى القول فيه غير موجود عند الغالبية العظمى من الشعراء السجناء ، فهموم الشاعر وآلامه في سجنه لم تدع من هذا اللون من الأحاسيس والعواطف ما تجعله يعبر عنها تعبيرا يطرب النفس ، ويهز الوجدان إلا قليلا. ومع قلة هذا اللون من الشعر نلحظ أنه يخلو - فى معظمه - من حرارة العاطفة، وصدق الأداء ، وكثير منه يأتي في مطالع القصائد أو يرد في أثنائها دون أن يفرد به الشاعر قصيدة أو مقطوعة .

وجاء شعر الغزل قليلا إلى حد كبير في روميات أبي فراس للسبب الذى ذكرناه قبل قليل وهو عدم مناسبة الغزل مع المصيبة التى يصاب بها المأسور ، ولا مع ما فيه من ذل القيد والحرمان والأسى .

وجاء الغزل في روميات أبي فراس في صورة ذكريات وأحلام كسيرة ، وكلما اشتدت عليه وطأة الحب غلبت عليه فروسيته ، واعتبر الحب مذلة وصغارا ، إذ لم يتمرد على جفاء الحبيب وعذله وغدره .

ولم يفرد أبو فراس في رومياته للغزل قصيدة ولا مقطوعة ، وإنما اكتفى منه ببعض المقدمات لبعض القصائد في الأغراض الأخرى. ومع ذلك جاء غزلا فاترا ممزوجا بغيره من الأغراض الشعرية خاصة الفخر ، كما أننا " لا نرى في غزله عامة أصالة وتعبيرا فنيا عن حب حقيقي ، فلا أثر في غزله لشخصية حبيب معين له صفات محددة بل هو تغنى فتى أمير بمفاتن جميلات أميرات ، نرى في غزله المرأة الجميلة لاامرأة جميلة بعينها ، وليس في الديوان ، ولا في

أخباره أنه أحب فتاة معينة .كل ما في غزله تصور للجمال و تصوير لنفسه أمامه»[١].

لقد جاء بعض غزل أبي فراس في رومياته ، و كأنه فخر بثباته ، و قوة شخصيته أمام نوائب الدهر ، وأهوال الأسر . اقرأ معي قوله :[٢]

أَمَا لجميلٍ عندكُنَّ ثَوَابُ	ولا لمسيءٍ عندكُنَّ متابُ
لقد ضلَّ من تحوي هواهُ خريدةٌ	وقد ذُلَّ من تقضي عليه كِعَابُ
و لكنّني-و الحمدُ لله- حازمٌ	أُعِزُّ إذا ذلَّتْ لهنَّ رقابُ
و لا تملكُ الحسناءَ قلبيَ كلَّه	وإن شملتْهُ رقةٌ و شبابُ
وأجري ولا أُعطي الهوى فضلَ مقوَدي	وأهفو و لا يخفَى عليَّ صوابُ

فغزل الشاعر في هذه الأبيات يختلف تماما عن كل ما فضله النقاد في قصيدة الغزل ، و ما ذكرنا بعضا منه علي لسان أبي هلال العسكري . و إنما نقرأ في هذه الأبيات فخرا بالثبات و القوة أمام شخصية الحبيبة . بل يمكن أن نقول :إننا نقرأ فيها دعوة للشموخ و التعالي ،ورفض الهوي والخضوع لذل الحب وآلامه.وجاءت هذه الأبيات مقدمة لقصيدة يفخر فيها أبو فراس بنفسه ويعاتب سيف الدولة لامتناعه عن افتدائه بابن أخت ملك الروم . فالأبيات جاءت تمهيدا للفخر القوي الذي عبر به أبو فراس عن شموخه وإبائه قبل أن ينتقل إلي عتاب سيف الدولة .

أما رائيته الشهيرة التي شغلت كثيرا من الأدباء و النقاد و المبدوءة

١ - أبو فراس الحمداني - خليل شرف الدين ١٧٧ .
٢ - ديوان أبي فراس ٤٥ .

بقوله:[١]

أراكَ عصِيَّ الدمعِ شيمتُك الصبرُ   أمَاَ للهوَي نَهيٌ عليكَ و لا أمَرُ

فقد جاء نصفها في الغزل ، و نصفها في الفخر بنفسه و بآبائه و أجداده. ونلاحظ علي الغزل فيها أنه غزل أشبه ما يكون بالذكريات الحزينة التى يكتنفها هاجس الموت ، و عدم الأمل في اللقاء.[٢]

و يلاحظ على المعاني الغزلية في هذه القصيدة "أنها معان شائعة متداولة على ألسنة الشعراء الغزليين الذين ابتلوا بنار الحب ولوعته ، وذاقوا هجر الحبيب وغدره ، فأسقمهم الحب، وأضناهم الوجد.. فراحوا يستعطفون الحبيب ، ويتضرعون اليه ..... وكلها معان فيها يأس وإحباط ، و بداخلها أسى وضنى لأن حبيبة متقلبة غادرة مخلفة للوعد .وهى معان تتفق والحالة النفسية التى أحاطت به في أسره ...".[٣]. فالشاعر اجتمعت عليه في هذه القصيدة عدة هموم :هم الأسر والذل الذى لقيه من الأعداء، وهم الهجر والصدود والإعراض من الحبيبة ، وهم الإهمال وعدم الاحساس به من جانب قومه وابن عمه سيف الدولة .[٤]

وأنا أرى متفقا مع الدكتور أحمد مختار البرزة[٥] بأن غزل أبي فراس في

---

١ - ديوان أبى فراس ١٦٢ .
٢ - انظر كتاب:أبى فراس الحمداني - د / خليل شرف الدين ١٨٢ وما بعدها .
٣ - عناصر الإبداع في رائية أبى فراس ٦٥ .
٤ - المرجع السابق ٥٨ بتصرف .
٥ - انظر : الأسر والسجن في شعر العرب ٥٦٧ ، ٥٦٨ .

هذه القصيدة ليس غزلا حقيقيا فى فتاة حقيقية ، وإنما هو رمز لعواطف وآلآم شتى تعتلج فى داخل الشاعر . وقد اتخذ أبو فراس من الغزل التقليدي فى هذه القصيدة تعبيرا عن آلام وحقائق امتلأ بها وجدانه وليس ذلك العتاب الشيق بين أبى فراس وفتاته الحسناء المدللة فى قوله :

بنفسِي من الغادِينَ في الحَيِّ غـادةٌ هوايَ لها ذَنْبٌ وبهجتُها عُذْرُ
وَ فَيّتُ وفى بعضِ الوفـاءِ مذلّةٌ لآنسةٍ فى الحيِّ شيمتُها الغَدْر
وَقُورٌ وَريْعَانُ الصِّبَا يستفزُّهَا فتأْرِنُ أحياناً كما يأْرِنُ المُهْرُ
تُسائِلُنِي مَنْ أنتَ وَهْيَ عليمةٌ وهل بفتىً مثلي على حالهِ نُكْرُ
فقلتُ كما شاءَتْ وشاءَ لها الهوَى: فتيلكُ،قالت :أيُّهم ؟ فهُم كُثْرُ
فقلتُ لها :لو شئتِ لم تتعنَّتِي ولم تسألِي عنى وعندَكِ بى خُبْرُ

أقول: ليس هذا العتاب الشيق بين أبى فراس وفتاته إلا غزلا رمزيا ظاهره كما نقرؤه شكوى ، وأشواق، و لوعة ناجمة عن حرمان من الوصل ، وهجران وصدود من الحبيب ، أما باطنه فهو شكوى من انصراف ابن عمه سيف الدولة عن افتدائه ،وهجران أصدقائه وإخوانه له ، وشكوي من أوجاع الأسر وهوانه وعذابه . ومن يقرأ روميات أبى فراس و يتأمل لغتها وما كان يدور فيها بين الشاعر وابن عمه عرف أن المقصود بهذه الغادة الحسناء هو سيف الدولة الذى أحبه أبو فراس وكان يجله ويقدره ،وأن (ابنة العم) فى قوله :

فلا تُنكرِينِي يا ابنةَ العمِّ إنّهُ لَيَعرِفُ من أنكرتِهِ البدوُ والحَضَرُ

هو (ابن العم) سيف الدولة .

وإذا كانت الفتاة المتغزل فيها في هذه القصيدة ما هي إلا رمز كما رأيناه فإن الشاعر يهدف بهذا الغزل إلى شيئين : الأول فني وهو بدء القصيدة بمطلع غزلي يثير السامع ويطربه ،ويشده إلى قراءة القصيدة ، ويجره بالتالي — إلى تذكر الشاعر الأسير والإحساس به.والثاني وجداني .وهو إعطاء الشاعر نفسه سبيلا إلى استعادة ذكريات الماضي الجميلة مع من كان يحبهم ويأنس بهم ، فيجد في البوح راحة وهدوءا .

و يرى الدكتور محمد عارف حسين أن الغزل في هذه القصيدة غزل حقيقي ؛ لأن الرائية من أول ما قاله أبو فراس في الأسر و قبل أن يتبين له موقف الأمير من افتدائه بدليل خلوها من طلب الفداء .[١]

و أنا أرى أن الشاعر و إن لم يصرح بطلب الفداء فإنه قد ألمح إلى ذلك حينما عاتب من يلومه على ثباته أمام أعدائه ، و عدم فراره حتى وقع في الأسر في قوله :

يقولونَ لي :بعتَ السلامةَ بالرَّدَى ... فقلتُ : أمَا و اللهِ ما نالَني خُسْرُ

كما أن في القصيدة ما يدل على لومه قومه لتأخرهم في مفاداته مثل قوله :

سيذكُرني قومي إذا جَدَّ جدهُمْ ... وفي الليلةِ الظلماءِ يفتَقَدُ البدرُ

---

١ - انظر؛ عناصر الإبداع في رائية أبي فراس ٦٣ .

كما أن ما فيها من شكوى ولوعة وعتاب يدل على أنه يريد الخلاص من هذا الأسر وعذابه . وعلى هذا فالغزل فى القصيدة قد يكون رمزا لعواطف وآلام تعتلج فى داخل الشاعر وليس غزلا حقيقيا .

ويؤيد رأى الدكتور محمد عارف حسين فى أن هذه القصيدة من أول ما قاله أبو فراس فى الأسر الدكتور زكى مبارك . بل إنه ليرى أن هذه الرائية يمكن أن تكون هى أول ماقاله فى الأسر، و يرجح أن يكون قالها فى الأسبوع الأول من أسره .[1] وهذا يخالف ماهو مشهور من أن أول قصيدة قالها أبو فراس فى أسره هى قصيدته الدالية : [2]

دعوتُكَ للجفنِ القريحِ المسَّهدِ لدىَّ و للنومِ القليلِ المشَرَّدِ

إذ يقال : إن هذه القصيدة بعث بها أبو فراس إلى سيف الدولة عقب أسره يسأله المفاداة بعد أن عرض عليه الروم إطلاق سراحه مقابل إطلاق سراح ابن أخت ملك الروم من أسر سيف الدولة .[3]

و يرى الدكتور خليل شرف الدين أن الحسناء التى يحاورها الشاعر فى هذه القصيدة ليست "سوى رمز من رموز تشامخه وفتوته ، ومعايشته للجمال الأميرى أيام كان فتى طليق الجناحين يثير حوله إعجاب الرجال والنساء على السواء ".[4]

---

١ - انظر: الموازنة بين الشعراء ٢٩٠ .
٢ - ديوان أبى فراس ٩٦ .
٣ - انظر: ديوان أبى فراس ٩٦
٤ - أبو فراس الحمدانى ١٨٢ .

وليس في روميات أبي فراس ما يندرج تحت باب الغزل إلا ما جـــاء في هاتين القصيدتين السابقتين على ما أرى •

أما المعتمد بن عباد فلم ينشيء شيئا من الغزل في أسره ، ولم يتعـــرض لشيء يتصل بالعلاقة بين الرجل والمرأة غير بيتين أشار فيهما إشارة خفيفـة إلى إعاقة القيد له عن قضاء وطره من أهله كغيره من الرجال ، وهما قوله : [١]

قضَى وَطَراً من أهلِهِ كلُّ نازحٍ وكرَّ يداوِى علةً في الجوارحِ

سوايَ فإني رهنُ أدهَمَ مبـــهَمٍ سبيلُ نجـــاتي آخذٌ بالمبارحِ

فقد صرفته هموم الأسر وآلامه وقيوده وضيقه وبكاؤه علـــى ماضيـــه الزاهر عن القول في هذا الغرض أو إعارته اهتماما •

" وخلاصة ما تقدم أن الغزل في مطالع بعض قصائد الحبوس هو رمـــز للتيارات النفسية التي تستأثر بالسجين عند النظم وتسري في باقي القصيـــدة غير خفية.ولا شك أن التنبه لهذه الظاهرة يجعل للغزل قيمة خاصـــة للسببين التاليين :

الأول : هو كونه المفتاح النفسي الشعوري للقصيـــدة وليـــس جـــزءا تركيبيا مضافا إليها • والثاني :كونه اتخذ في التعبير رموزا مألوفة مـــن تعابـــير النسيب وتراكيبه وصوره للدلالة على معان حارة حيه " .[٢]

---

١ - ديوان المعتمد ٩٣ -

٢ - الأسر والسجن في شعر العرب ٥٦٩ .

حادى عشر : الهجاء :

الهجاء من فنون الشعر القديمة في الأدب العربي وهو إلصاق الصفات الخبيثة بشخص المهجو سواء كانت حقيقية أو مدعاة ، وهو من الفنون التى تستدعى من الشاعر موهبة خاصة تتيح له أن يلمح الجزئيات والدقائق في شخص المهجو ويبرزها بمهارة ودقة .

وليس لشعر الهجاء مكان واضح في شعر الأسر بصفة عامة لأن "الأسير والسجين يكون في موقف لا يسمح له بالهجاء ، أو بمعنى أصح لا يسمح له بالجهر بالهجاء ، فهو وإن كان يلعن آسره وساجنه في نفسه إلا أنه يتظاهر بمدحه ، ويلجأ إلى استعطافه والاعتذار إليه ، ولا يلجأ الشاعر السجين إلى الهجاء إلا إذا استولى عليه اليأس ، وأيقن أنه لا سبيل إلى النجاة ، ولا أمل له في الخلاص مما هو فيه من أسر أو سجن ".[1]

إنما قد يلجأ الأسير أو السجين إلى الهجاء إذا كان قوى الإحساس بنفسه ، ولا يعبأ بأمر آسره لاعتقاده أنه أعلى من آسره مكانة وأفضل منه قوة وحسبا ، كما نرى في روميات أبي فراس الحمدانى .

والهجاء قليل في روميات أبي فراس ، وتوجه ببعضه نحو الروم الذين ظلموه وقيدوه وأبعدوه عن وطنه وأهله ، وتوجه ببعضه الآخر نحو كارهيه ومبغضيه الذين حاولوا أن يبعدوه عن سيف الدولة وبلاطه ودولته .

ومن الأول هجاؤه للدمستق ملك الروم بعد المناظرة التي جرت بينهما ،

---

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٧٧

والتي اتهم فيها ملك الروم أبا فراس وقومه بأنهم أصحاب أقلام وليسوا بأصحاب سيوف ، وبأنهم لا يعرفون الحرب.وقد رد عليه أبو فراس بقوله : "نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ " ثم أنشده هاجيا له ومفتخرا بقومه: [١]

أتزعُمُ يا ضخْمَ اللغاديدِ أنَّنَا ... ونحن أسودُ الحربِ لانعرفُ الحربَا

فويلكَ مَنْ للحربِ إن لم نكنْ لهَا ... ومنْ ذا الذي يُمسي ويضحَى لها ترْبَا

وويلكَ منْ أردَى أخاكَ بمرعَش ... وجلَّلَ ضربًا وجهَ والدِك العَضْبَا

وويلكَ من خلَّى ابنَ أختِك موثقًا ... وخلاَّك (باللَّقَان) تبتدرُ الشِّعْبَا

أتوعدُنا بالحربِ حتى كأنَّنا ... وإياك لمْ يعْصَبْ بها قلبُنا عَصْبَا

لقد جمعتْنَا الحربُ من قبلِ هذهِ ... فكنَّا بها أُسْدًا وكنتَ بها كَلْبَا

بأقلامِنَا أجْحِرْتَ أم بسيوفنا ... وأسدَ الشَّرى قدنَا إليك أم الكُتْبَا

تركناكَ في بطنِ الفَلاةِ تجوبُها ... كما انتفقَ اليربوعُ يلتثِمُ التُّربَا

تفاخرُنا بالطَّعنِ و الضربِ في الوَغَى ... لقد أوسَعَتْكَ النفسُ ياابنَ استِها كَذِبا

وجدتَ أباكَ العلْجَ لمَا خَبرتَه ... أقلَّكُمُ خبرًا وأكثرَكُم عُجْبَا

فقد هجا الشاعر الدمستق وألصق به و بقومه عدة صفات مذمومة. فوصفه بأنه ضخم اللغاديد ، وهي صفة مذمومة في الرجل ، و كرر دعاءه عليه بالويلُ و الهلاك ، وشبهه في حروبه مع الحمدانيين بالكلب في الذلة والدناءة ، و تهكم به وبقومه في حروبه التي جمعتهم بالحمدانيين، ووصفه بالدنو

---

١ - ديوان أبي فراس ٣١ .

والحقارة في قوله : " لقد أوسعتك النفس يا ابنَ استها كذبا" ، وهجـا أبـاه العلج بأنه أكثرهم قولا وعجبا وتيها ، وأقلهم خبرة ودراية بأمور الحياة.

وفي مقابل هذه الصفات الذميمة التي ألحقها الشاعر بمهجوه كان يثبت لنفسه و لقومه ما يقابلها من صفات القوة والبأس و الشرف.

وينم هجاء أبي فراس للدمستق هنا بفخره ، وإحساسه القوى بنفسـه ، وإعجابه بها ، وبعدم اهتمامه بأمر أسيره ، وعدم المبالاة بشأنهم.

ومن هذا الهجاء أيضا قوله في الدمستق وبطارقته : (١)

أَمَا من أعجبِ الاشـياءِ عِلْـجٌ ... يعرِّفـني الحـلالَ مـن الحـرامِ

وتكنُفُـهُ بطارقـةٌ تيـوسٌ ... تبـاري بالعثـانينَ الضخـامِ

لهم خَلَقُ الحَمير فلسـتَ تلقَـى ... فتىً منـهمْ يسـيرُ بـلا حِـزَام

يُريغـون العيـوبَ وأعجزتْهُـمْ ... وأيُّ العيب يوجَدُ فى الحسـام؟ !

وأصعَـبُ خطـةٍ وأجـلُّ أمـرٍ ... مجالسـةُ اللئـامِ علـى الكِـرَام

أُنَـاجي كـلَّ طِبْـلٍ هَرْثَمـيٍّ ... عريـضُ الذقـنِ بـزَّاقِ الكـلام

وقد أقذع أبو فراس فى هذا الهجاء فألصق بمهجويه أخـس الصفـات وأدناها. فوصف الدمستق بالغلظة والشدة ، ووصف بطارقتة بـالتيوس ذات اللحى الضخمة الكريهة المنظر ، وشبه خلقتهم وهم يضعون الأحزمة علـى وسطهم بالحمير التى تلف بطونها بالأحزمة حتى تثبت البرذعة على ظـهورها . وهم يبحثون مع صفاتهم هذه عن العيوب التى يحاولون إلصاقها بالشاعر وقومه

١ - ديوان أبى فراس ٣١٨

فتعجزهم ، لان الشاعر وقومه كالسيوف البتارة التى لا عيب فيها غير تقطيع رقاب الأعداء . كما وصفهم أبو فراس باللؤم وبشاعة المنظر ، وبقبح أشكالهم ونكران أصواتهم.

ويوحي هذا الهجاء القوى بضيق أبى فراس بهؤلاء الطغاة ، وبشدة بغضه لهم ولأعمالهم ، كما يوحى بجرأته ، وعدم اهتمامه بهم وبأمرهم.

ومن اللون الثانى من الهجاء فى روميات أبى فراس قولـــه فى التعريـــض ببعض أهله وحساده والفخر بنفسه : [١]

لمَنْ جاهَدَ الحسادَ أجــرُ المجــاهدِ ... وأعجَزُ ما حاولتُ إرضاءَ حاســدِ
ولم أرَ مثلى اليومَ أكثرَ حاســـداً ... كأنَّ قلوبَ الناس لى قلبُ واحـــدِ
ألم يَرَ هذا الدهرُ غـــيرِىَ فـاضلاً ... ولم يظفرِ الحسَّادُ قبلـــى بمــا جِــدِ
أرَى الغلَّ من تحتِ النفاقِ وأجتَــنِى ... من العَسَلِ الماذِىِّ ســـمَّ الاســاوِدِ

وهجاء أبى فراس فى هذه الأبيات جـــاء خفيـــف اللهجـــة ، مـــهذب الأسلوب إلى حد كبير ، وانشغل فيه الشاعر بالفخر بنفسه ، وتعداد صفاتـــه الطيبة أكثر من انشغاله بهجاء حاسديه ومبغضيه . فكأنه لم ينس أنهم من أهلـــه وعشيرته وإنما أراد أن يمسهم مسا خفيفا.

أما الهجاء فى أسريات المعتمد فقد شغل عدة أبيات فى عدة مقطوعات . فقد هجى المرابطين بثلاثة أبيات جاءت فى مقدمة قصيدة قالها حينما رفضـــت حواء بنت تاشفين إعارته خباء طلبه منها. فقال واصفا إبعادهم إياه عن وطنـــه

١ - ديوان أبى فراس ٩٩ .

وأهله، وانتزاعهم ملكه :

هُمُ أوقدُوا بـينَ جنبيْكَ نـارًا   أطالُوابهـا فى حُشَـاك اسـتعَارا
أما يُخجلَ المجـدَ أن يَـر حلُـو   ك ولم يُصحبُـوك خبـاءً مُعَـارا
فقدقنّعـوا المجـدَ أن كـان ذا   ك - وحاشَاهُمُ - منكَ خزيًا وعَارا

وهجاء المعتمد فى هذه الأبيات أشبه ما يكون باللوم أو العتاب الخفيف . فلم يتناول مهجويه بأى نوع من أنواع السباب أو الشتائم ، وإنما كان مقررا لما حدث منهم ، وأنهم بذلك أخجلوا المجد وقنعوه ، وارتكبوا بذلك خزيا وعارا ستكون عاقبته وبالا عليهم.

وفى أسريات المعتمد أبيات أخرى قالها فى هجاء خدمه غير المهذبين . وذلك فى القصيدة التى اعتذر فيها إلى الشاعر ابن حمديس الصقلى بعد أن منعوه من مقابلة المعتمد فى أسره ، فقال المعتمد فى هجائهم: [1]

عدمتُ من الخدّام كلّ مهذّبِ   أشيرُ إليـه بـالخفىّ مـن الأمـرِ
ولم يبقَ إلّا كـلُّ أدكَـنَ ألكَـنِ   فلا آذنٌ فى الإذنِ يبرأ مـن عَـرِّ
حمـارٌ اذا يمشىونسـرٌ محلّـقٌ   إذا طارَ بُعْـدًا للحمـارِ وللنسـرِ
وليس بمحتـاجٍ أتانـًا حمـارُهُمْ   ولا نسرُهُمْ ممـا يحـنُّ الى وَكْـرِ

وهجاء المعتمد فى هذه الأبيات أشد لهجة وأقوى لغة من الهجاء فى الأبيات الأولى في هجاء المرابطين . فقد وصف خدامه بأنهم غير مهذبين ، وبأنهم غلاظ العقول والقلوب ، سود الوجوه لكن الألسنة . ويشبههم فى عدم

---

١ - ديوان المعتمد ١٠١ .

فيهم بالحمير الوحشية أو بالنسور الجارحة ، ثم يدعو عليهم بالبعد والهلاك.

ولعل قوة الهجاء في هذه الأبيات ترجع إلى قوة السبب من وراء هـذا الهجاء ، فقد منعوا عنه لقاء أحد إخوانه ، وكان فى أشد الشوق لزيارتـه أو لزيارة غيره من الأوفياء . عله ينسى معه _ لبعض الوقت _ بعض عناء أسره .

ومن هنا غضب وثار ، وصب عليهم جام سخطه . وهذا يدل على أهمية مثل هذه الزيارات التي كان يترقبها أو ينتظرها المعتمد الأسير من أحد أصدقائه وخلانه.

كما أن فى أسريات المعتمد بعض الأبيات التي توجه فيها إلى الدهر بالهجاء _ لو صح اعتبارها من باب الهجاء لا اللوم والعتاب _ وفيها يقول:[١]

قُبِّحَ الدهـرُ فمـاذا صَنَعَـا ... كلَّمـا أعطـى نفيسـاً نَزَعَـا

قد هوى ظُلماً بمـن عاداتُـه ... أن ينادي كلٌّ من يهوى ((لَعا))

من إذا الغيثُ همى منـهمِراً ... أَخْجَلَتْـهُ كفُّـه فانقطَعَـا

والهجاء هنا جاء ممزوجا بفخر الشاعر بنفسه ، وليس فيه ما يدخل في باب الهجاء إلا ما يتصل بوصف الدهر بالقبح لقضائه على كل شيء طيب يهبه الله تعالى للإنسان ، ووصفه بالظلم لقضائه على مجد الشاعر وهمته ، وكما نرى جاء الهجاء عند المعتمد خفيفا قصيرا ، في شكل أبيات قليلة ، واتسمت لغته بالبساطة والسهولة ، والبعد عن التوعر والإغراب ، متفقا في ذلك مع اللغة العامة لشعر المعتمد ، وجاء الهجاء عند أبي فراس أقوى منه لغة ، وأشد إيلاما ، وأبرع تصويرا .

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٨ .

ثانى عشر : الزهد :

الزهد:ضد الرغبة والحرص على الدنيا.[١] وشعر الزهد هو ذلك الشعر الذى يركز فيه الشاعر حديثه على الإنسان ودوره في الحياة ، وموقفه منها ومما فيها من متاع ، ويعلن فيه عن عدم التعلق بها وبمتاعها ، وترقب زوالها ، والصبر على ما يصيبه فيها من مكروه .[٢]

وورد شعر الزهد قليلا فى روميات أبى فراس ، فهو فيها عبارة عن أبيات من بعض القصائد في أغراض أخرى كالفخر ، أو العتاب ، أو غيرها •

ومن ذلك قوله معلنا أن ما وقع فيه من أسر إنما هو من قضاء الله وقدره ولا يستطيع أحد أن يدفع ما قدره الله وقضى به عليه ، فليس لما قضى به الله وقدره غالب ولا مهرب :[٣]

وهل يدفعُ الإنسانُ ما هُوَ واقِعٌ ؟	وهل يعلمُ الإنسانُ ما هو كاسِبُ ؟
وهل لقضاءِ اللهِ في الخلقِ غالبٌ ؟	وهل لقضاءِ الله في الخلقِ هـارِبُ
إذ اللهُ لم يحرُسْكَ مما تخافُـهُ	فلا الدِّرعُ منّاعٌ ولا السيفُ قاضِبُ
ولا سابقٌ ممـا تخيلْتَ سـابقٌ	ولا صاحبٌ مما تخيَّرْتَ صـاحِبُ

وفي أبيات أخرى يعلن أبو فراس تمسكه بالله - عز وجل - ويجعله عدته

---

١ - لسان العرب - طبعة دار المعارف - مادة (زهد) •
٢ - انظر كتابنا : فن الزهد في شعر البارودى - ط ١ - ١٩٩٨ م. - ص ١٣ وما بعدها .
٣ - ديوان أبى فراس ٤١ •

في الملمات والشدائد عسى أن يكشف الله غمته فهو أقدر من يستند إليه الإنسان ، يقول : [١]

إذا كانَ غيرُ الله للمرءِ عُدةً ... أتته الرزايا من وجوه الفوائدِ
عسى اللهُ أن يأتي بخيرٍ فإنَّ لي ... عوائدَ من نعماهُ غيرَ بوائدِ
فكمْ شالَني من قعرِ ظلماءَ لم يكُنْ ... لينقذني من قعرها حشدُ حاشدِ

أما الزهد ، والصبر وتسليم الأمر لله عز وجل والتعبير عن بغض الدنيا في أسريات المعتمد فهو أكثر مما هو موجود في روميات أبي فراس.وربما كان لشباب أبي فراس وحداثة سنه وإحساسه بالفتوة ، وبأن الدنيا سوف تضحك له مرة أخرى أثر في قلة شعر الزهد عنده • بخلاف المعتمد الكبير السن ، اليائس من خلاصه من سجنه ، فمن الطبيعي أن يميل إلى القول في هذا الباب أكثر ، فكان المعتمد من كثرة همومه وأحزانه في سجنه يطيل التفكير في غير الدهر ، وتغير الأيام ، ويعبر عن ذلك بشعره •

وزهد المعتمد في أسرياته " زهد حكمي توجيهي ، وليس زهدا حقيقيا لأنه زهد من تصرمت الدنيا من بين يديه ، فلم يعد يملك من أمر نفسه شيئا • ولكنه في الوقت نفسه خلاصة تجربة عملية حقيقية • ولذلك يتسم بصدق العاطفة ، وقوة الانفعال ، ويؤثر في نفس الملتقى".[٢] ومنه قول المعتمد بن عباد : [٣]

---

١ - ديوان أبي فراس ١٠١ •
٢ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٦٩ •
٣ - ديوان المعتمد ٩٣ •

أرى الدنيا الدنيَّة لا تُواتي ... فأجملْ في التصرُّفِ والطلابِ
ولا يغرُرْكَ منها حسنُ بُرْدٍ ... له علمان من ذَهَبِ الذهابِ
فأولها رجاءٌ من سرابٍ ... وآخرها رداءٌ من ترابِ

وهو هنا يرغب في ترك الدنيا وفي عدم الإقبال عليها ، ويحذر من الاغترار بها ؛ فأولها رجاء لا يتحقق لأنه لا وجود له ، وآخرها رداء من ترابها يرتديه الإنسان في قبره .

ويقول المعتمد : (١)

اقنَعْ بحظِّكَ في دنياكَ ما كانَا ... وعزِّ نفسَك إنْ فارقْتَ أوطانَا
في الله من كلِّ مفقودٍ مضَى عِوَضٌ ... فأشعِرِ القلبَ سُلوانًا وإيمانَا

وواضح أن المعتمد يدعو نفسه في هذين البيتين إلى القناعة والرضا بما قضى الله به على الإنسان في هذه الدنيا ، وإلى الثقة في الله وعوضه عن كل مفقود كما يدعو إلى شغل القلب بالإيمان والسلوان ، وعدم البكاء على ما ضاع من سلطان وجاه . فكم من سلطان نزع منه سلطانه .

وهكذا تعرفنا من خلال صفحات هذا الفصل على شعر الأسر والسجن عند أبي فراس الحمداني ، والمعتمد بن عباد من خلال الحديث عن أهم موضوعاته ، ومدى وجود كل منها في ديوان الشاعرين .

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في إعطاء القارىء تصويرا عاما عن موضوعات هذا الشعر عند الشاعرين قبل الانتقال إلى التعرف على خصائص وسمات هذا الشعر في الفصل التالي إن شاء الله .

---

١ - ديوان المعتمد ١١٤ .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر الأسر عند الشاعرين

أولا : البناء الفنى لقصيدة الأسر عند الشاعرين :

- لعل أول ما يطالعنا في بناء قصيدة الأسر عند أبي فراس والمعتمد هو استقلاليتها عن غيرها من أشعار الشاعر خارج الأسر ، بمعنى أن قصيدة الأسر عند كل منهما جاءت غير مختلطة بغيرها من القصائد التى أنشدها الشاعر قبل الأسر أو بعد الأسر عند أبي فراس.فلم يعرف عن أبي فراس أنه أنشد بعد الأسر شعرا ألحقه برومية من الروميات التى أنشدها في سنوات أسره ، كما أنه لم يلحق شعرا أنشده في أسره بشعر أنشده قبل الأسر ، فروميات أبي فراس مستقلة بذاتها عن شعر أبي فراس قبل الأسر وبعده ، وكذا أسريات المعتمد أنشدها كلها في سنوات أسره ، بمعنى أنه لم يلحق شعرا أنشده في أسره بشعر أنشده قبل الأسر ٠

- ومن أهم مميزات قصيدة الأسر والسجن عند أبي فراس والمعتمد من حيث نظامها الفنى أنها جاءت خاليه من المقدمات التقليدية للقصيدة العربية ، والتى جعلها النقاد عنصرا مهما فى بناء القصيدة الشعرية.حيث رسموا للقصيدة العربية نظاما أعلوا من شأنه ، وجعلوه علامة تدل على إجادة الشاعر ٠يقول ابن قتيبة : " سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها

بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد ، وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه .... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر ، فإن علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة التأميل .. بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح .. "[1] ويقرر ابن قتيبة أن هذا هو النهج الواجب الاتباع حتى يحكم لصاحبه بالإجادة فيقول: " فالشاعر الجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام . فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظماء إلى المزيد "[2] ولا يكتفى بهذا بل يرفض كل خروج على هذا التقليد فيقول : " وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام " .[3]

وأكد ابن رشيق هذا المذهب بقوله : " وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب ، واستدعاء القبول ، بحسب ما في الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء ، وأن ذلك استدراج لما

---

١ - الشعر والشعراء - أو طبقات الشعراء - تحقيق : مفيد قميحة - دار الكتب العلمية بيروت ط٢-١٩٨٥ - ص٢٧ .

٢ - المرجع السابق ٢٨ .

٣ - الشعر والشعراء ٢٨ .

بعده[١]" غير أن ابن رشيق تنبه فأشار إلى أن هذه الحدود لا تنطبق على جميع الشعر العربي بأغراضه المتعدده . فذكر أنه " ليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيبا ، كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء ".[٢]

وواضح أن هذا النهج الذى رسمه النقاد ينطبق أكثر ما ينطبق على قصيدة المديح بدليل قول ابن قتيبة في تفسيره السابق لهذا النهج " .. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وذمامة التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح ".

وجعل ابن رشيق المقدمة الغزلية أنسب بغرض المدح والهجاء بدليل قوله: " ... كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء ".

أما بالنسبة لقصيدة الأسر والسجن في شعر أبي فراس والمعتمد فقد ابتعد فيها الشاعران عن المقدمة الغزلية إلا في القليل النادر عند أبي فراس وحده . بل إن أبا فراس لم يبدأ - في شعره في الأسر - بمقدمة غزلية إلا في روميتين فقط من رومياته . وجاء الغزل في أولاهما في أبيات محدودة ، وبعيدا عن التهالك والتذلل أمام عز المحبوبة ودلالها وتمنعها . وإنما ملأ أبياته بالحديث عن كبريائه هو وعدم خضوعه وتذلله أمام حبه لفتاته ، فقال :[٣]

أَمَا لِجَمِيلٍ عِندَكُنَّ ثَوابُ ... ولا لمسيءٍ عِندَكُنَّ مَتابُ

---

١ - العمدة ١/ ٢٢٥ .

٢ - المرجع السابق ١/ ١٥١ .

٣ - ديوان أبي فراس ٤٥ .

لقد ضلَّ مَنْ تحوِي هــواه خريــدةٌ وقد ذلَّ من تقضي عليــه كِعَــابُ
ولكنَّــنِي - والحمــدُ لله -حــازمٌ أُعــزُّ إذا ذلَّــتْ لهــنَّ رقــابُ
ولا تملــكُ الحسنــاءُ قلــبِيَ كلَّــه وإن شملتْــها رقــةٌ وشــبَابُ
وأجرِي ولا أُعطِي الهوَى فضلَ مقودِي وأهفُو ولا يخفَى علــيَّ صَــوَابُ

والقصيدة الثانية هي رائيته الشهيرة التي جعل نصفها غــزلا . وهــي المبدوءة بقوله : (١)

أراكَ عصيَّ الدمع شيمتُكَ الصبرُ أما للهوَى نهيٌ عليــكَ ولا أمْــرُ
بلَى أنا مشتاقٌ وعنــدِيَ لوعــةٌ ولكنَّ مثلِي لا يــُذاعُ لــه سِــرُّ

وعرفنا أن هناك من قال إن الغزل في هذه القصيدة ليس غزلا حقيقيــا وإنما هو رمز لعواطف وآلام شتى تعتلج في داخل الشاعر ، وأن الشاعر قــد اتخذ من الغزل التقليدي هنا تعبيرا عن آلام وحقائق امتلأ بها وجدانه .

ويمكن أن نقول : أن المقدمة الغزلية في روميات أبي فراس تحولت مــن كونها غزلا عاديا إلى كونها مقدمة تحمل الكثير من الألفاظ والعبارات المعــبرة عن آلام الأسر حملها الشاعر طاقة إضافية ، واكتسبت طاقة إيحائية في ســياقها الجديد ، حيث جاء بها الشاعر متناسبة مع جو القصيدة فالألفاظ :ضــل ،ذل حازم ، أعز ، رقاب ، أجرى ، مقودى ... في مقدمة القصيــدة الأولى . والألفاظ : الصبر ، لوعة ، الكبر ، تضئ النار ، صحائف ، وقر ، بــدوت ، حاربت ، مذلة ، الهم ... في القصيدة الثانية.هذه الألفاظ وغيرها لا توحــي

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٢ .

في جو الأسر بالصبابة والهيام ، بل بظلال الهموم والآلام ، فتساعد غيرها من العبارات في الإفصاح عن مكنون الشاعر وخفايا ضميره. فليس الغزل في مثل هذا الشعر إلا رمزا ومتنفسا ، ووسيلة للبوح بما يعانيه الشاعر .

كما أن الشاعر لم يأت في هاتين المقدمتين إلا بما هو معروف من المعاني المعتادة واللفظ القوى . ولكن بأسلوب قد يختلف عن أسلوب الأقدمين .

أما عن المقدمة الطللية فلم تأت أيضا في مقدمة أية قصيدة أومقطوعة من شعر المعتمد في الأسر .أما فى روميات أبى فراس فقد جاءت المقدمة الطللية مقدمة لقصيدتين فقط أولاهما : هى قصيدته البائيه التى كتب بها إلى أخيه أبى الهيجاء بن حرب والمبدوءة بقوله : [١]

أبيتُ كــأنِّيَ للصَّبابَــةِ صــاحبٌ ... وللنوم مُذْبــانَ الخليــطُ مجــانِبُ
وما أدَّعِي أنَّ الخطوبَ فجَــأْنَنِي ... لقد خــبَّرتْنِي بــالفراقِ النَّواعِــبُ
ولكننى مازلتُ أرجــو و أتَّقــى ... وجدَّ وشيكُ البينِ والقلبُ لاعِــبُ
علــيَّ لربــعِ العامريَّــةِ وقفــةٌ ... تُملُّ عليَّ الشوقَ والدمــعُ كــاتِبُ
فلا وأبي العشاقِ ما أنــا عاشــقٌ ... إذا هي لم تلعَبْ بصبرِى الملاعِــبُ
ومن مذهبى حبُّ الديارِ لأهلِــهَا ... وللناسِ فيما يعشَــقونَ مذاهِــبُ

والثانية هى قصيدته النونية التى بعث بها إلى سيف الدولة يعرفه بخروج الدمستق والروم إلى الشام ، ويحرضه على الاستعداد للروم . وقد بدأها بقوله : [٢]

---

١ - ديوان أبي فراس ٤٠ .

٢ - ديوان أبي فراس ٣٣٩ .

أتعزَّ أنتَ علـى رسـوم مغـانِ — فـأقيمَ للعـبرات سـوقَ هـوانِ

فرضٌ علـيَّ لكـلِّ دارٍ وقفـةٌ — تقضي حقوقَ الـدارِ والأجفـانِ

لولا تذكّرُ من هويتُ بـ "حاجرٍ" — لم أبـكِ فيـه مواقـدَ النـيرانِ

ولقد أراه قُبيلَ طارقـةِ النّـوى — مأوى الحسانِ ومـنزلَ الضيفـانِ

ومكانَ كلّ مهندٍ ومجـرِّ كـ — ـلِّ مثقفٍ ومجالَ كـلِّ حصـانِ

نشرَ الزمانُ عليـه بعـد أنيسـه — حُلَلَ الفناءِ وكـلُّ شـيءٍ فـانِ

ولقد وقفتُ فسرّني مـا سـاءني — فيه وأضحكـني الـذي أبكـاني

ورأيـتُ في عرصاتـه مجموعـةً — أسدَ الشـرى وربـائبَ الغـزلانِ

والمقدمة الطللية متناسبة تماما مع موضوع القصيدتين ، فالقصيدة الأولى بعث بها إلى أخيه في دياره وبلاده التي يشتاق إليها وإلى ربوعها كما يشتاق إلى أخيه ، كما أنه أراد أن يعلن لأخيه الذي جزع جزعا شديدا عند أسـره ، أن أسره - رغم شدته وقسوته عليه - لم ينسه بلاده وربوعها ومعاهدها .

أما القصيدة الثانية فأراد الشاعر أن يعلن في مقدمتها أن بلاده في قلبـه وعقله ، وأنه يخاف عليها من أي عدو غادر حتى وإن كان هذا العدو مالكـا لجسمه ، وقادرا على معاقبته ، فعمل على إفساد خطة عزموا على تنفيذهـا ، فحرصه على سلامة بلاده ليس أقل من حرصه على سلامة نفسه ، ومن هنـا أعلن عن شوقه إليها من خلال الحديث عن أطلالها ورسومها وتذكر ماضيها ، قبل أن يخبر سيف الدولة بما عزم عليه الروم ، ويحرضه على الاستعداد لهـم والوقوف أمام هجماتهم .

أما في غير هذه القصائد فلا نجد معلما من معالم المقدمة التقليدية في بداية أية قصيدة أو مقطوعة من شعر الأسر عند الشاعرين ، وإنما كان الشاعر يبدأ شعره بالغرض الذى كان من أجله ينشد قصيدته مباشرة .

" وهذه المباشرة لها دلالتها النفسية وانعكاساتها الوجدانية ، فهو ليس في حالة مرتاحة أو مناخ نفسي مطمئن لكي يسير على سنن الفارغين من الشعراء حين يبدأون قصائدهم بالغزل ، أو الخمرة،أو الطرد ، ثم ينتهون إلى غايتهم الرئيسية من مدح أو فخر ، أو رثاء ".[1]

كما أن مجيء كثير من شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد على شكل مقطوعات قصيرة لا تحتمل مقدمات القصيدة الشعرية الطويلة كان له أثره في أن يبدأ الشاعر شعره بالغرض الأصلي مباشرة . كما أن شعر الأسر شعر ذاتي صرف يعبر عن آلام الشاعر وخلجاته الداخلية ، ولا يبغي الشاعر من ورائه أن يسمع في ناد أو يقرأ على ملأ من الناس إلا في القليل من هذا الشعر .

- وعلى نحو ما رأينا من دخول الشاعر في الموضوع الذى من أجله أنشد شعره مباشرة نجده يسكت ويتوقف عندما ينتهى من الكلام عن موضوع القصيدة أو المقطوعة ، ولم يحرص أي من شاعرينا على ختام معين لقصيدته أو مقطوعته في الأسر عدا بعض القصائد التى ختمت بحكمة مستمدة من الموقف الذى يتحدث عنه الشاعر،أو بسلام يهديه الشاعر إلى من توجه إليه بقصيدته.

---

١ - أبو فراس الحمداني - خليل شرف الدين ١٢٥ .

ومن ذلك ختام أبى فراس لقصيدته في وصف أيامه ومنازلـــه في منبـــج والتشوق إليها بقوله : [١]

يغترّ بالدنيا الجهول وليس في الدنيا مملّا

ويقول في ختام قصيدته التى يتحدث فيها عن أسره ، ويذكر منـــاظرة جرت بينه وبين الدمستق في الدين ، ويهجوه وبطارقته فيها : [٢]

إذا ما لاحَ لى لمعانُ برقٍ بعثتُ إلى الأحبّةِ بالسّلامِ

ويقول المعتمد في ختام مقطوعة له ملخصا حال الدنيا : [٣]

فأولها رجاءٌ من سرابٍ وآخرها رداءٌ من ترابِ

ويقول في ختام وداعه لأبى بكر الدانى بعد زيارة له في سجنه : [٤]

فبلّغتها في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ وسنّي لى مما يعوق سلامُ

وختام القصيدة ليس أقل شأنا من مقدمتها ، وقد أعلى النقاد من شأن الخاتمة ، كما أعلوا من شأن المطلع أو المقدمة ، فخاتمة الكلام " أبقـــى في الســـمع ، وألصق بالنفس لقرب العهد بها ، فإن حسنت حسن ، وإن قبحت قبح " [٥].

---

١ - ديوان أبى فراس ٢٤٢ .
٢ - ديوان ابى فراس ٣١٩ .
٣ - ديوان المعتمد ٩٣ .
٤ - ديوان المعتمد ١١٤ .
٥ - العمدة ٢١٧/١ .

- ومن الظواهر الفنية المتعلقة بالبناء الفنى لقصيدة الأسر عند أبى فـــراس والمعتمد كثرة حديث الشاعر فيها عن نفسه فيلاحظ القارىء لشعر الأســـر عند الشاعرين أن كلا منهما كان يخص نفسه بحديث طويل . غير أن اتجاه كل منهما قد اختلف عن الآخر في هذه الظاهرة ، فكان أبو فراس يكثر من الفخر بنفسه ، وتعداد صفات البطولة والشجاعة التى يتصف بها ، وتفوق في هـــذا الجانب على المعتمد في أسرياته . وقد ذكرنا الكثير من فخـــر أبى فـــراس في الفصل السابق .

وعن فخر أبى فراس في رومياته وأهم ما يتميز به يقول الأستاذ / حنـــا الفاخورى : [١]

" يتوكأ أبو فراس في فخره على مفاخر قدامى العرب ، من مثل عمـــرو ابن كلثوم ، والمهلهل ، فيكثر من ذكر أسماء الرجال ، ومواقـــع القتـــال ، ويجعل فخره قوميا أكثر منه ذاتيا ، إلا أنه لا يجيد وصف القتال ، ولا يطيـــل فيه كما كان يفعل المتنبي ، فكانت قصائده في هذا الباب تعداد مفاخر تزخـــر بعواطف الزهو والمجد ، وينفخ فيها نفس عال فيه من الكبرياء والعزة القوميـــة الشيء الكثير ، ولا يخلو فخر أبى فراس من العلو ولكنه غير مفرط ، ولا يخلـو من اللطف الذى يسمو به عن الفخر الصبيانى ، وأبو فراس صادق العاطفـــة ، مندفع الحماسة ، وإن كان ضعيف الوصف ، غير دقيق التصوير ، زد علـــى ذلك أن لفخر أبى فراس قيمة تاريخية كبيرة لأنه سجل لأعمال الرجل ، ومآثر

١ - الفخر والحماسة ٣٣ .

قومه وأجداده " .

أما المعتمد فقد تحدث عن نفسه ووصف حالته في كثير من شعره ، وأطال الحديث عما يعانيه ويقاسيه في أسره ، وما آل إليه حاله بعد غدر الزمان به . وهو في هذا الجانب يتفوق على أبي فراس الذى لم يلتفت إلى نفسه وحاله في سجنه كثيرا ، وانشغل بفخره بشجاعته وبطولاته عن الوقوف الطويل ليصف للقارئ حالته ، ويحلل أحاسيسه وشعوره الداخلى في سجنه ، وراح في كثير من شعره يتحدث عن مبررات أسره ، ويعدد مظاهر بطولته ، ويتغنى بفضله على ابن عمه سيف الدولة ، وترسيخ مجد دولته ، دون أن يلتفت إلى واقعه وحاله في سجنه إلا قليلا .ومن هنا وجدنا الفخر كثيرا واضحا في شعر أبي فراس عكس ما نجده عند المعتمد بن عباد الذى اتجه في كثير من الأحيان إلى تصوير حالته لا موقفه الذاتى مما حدث له .

- ومن الظواهر البارزة المتعلقة بالبناء الفنى للقصيدة كثرة المقطوعات في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد ، فقد جاء الكثير من شعرهما في الأسر في صورة مقطوعات أو قصائد قصيرة ، وهذا طبيعى في مثل هذا النوع من الشعر. فالمقطوعات والقصائد القصيرة موافقة للخواطر التى تلم بالأسير فيصوغها في أبيات موجزة واضحة معبرة عما ألم به .

وأهم مزايا هذه المقطوعات أو الأشعار قليلة الأبيات أنها تحوى الكثير من الأفكار المركزة ، ويتجه الشاعر بها نحو الهدف الذى من أجله أنشدها مباشرة، إذ لا تحتمل أن يأتى لها بمقدمات أو تمهيد : " فإذا بضعة أبيات تحوى

من مضمون الفكر والشعور مالا تقل عن جملة قصيدة في موضوعها ".(١)

وجاءت هذه السمة بارزة في شعر المعتمد ، إذ نجد أن شعره في أسـره جاء كله في شكل مقطوعات أو قصائد قصيرة ، وأهم سمات هذه القصـائد والمقطوعات التركيز في تعبير الشاعر عن الغرض الذى من أجلـه أنشـدها؛ فالمقطوعة أو القصيدة القصيرة رغم قلة أبياتها تسع تجربة الشاعر وتفى بها مـن غير تشعبات جانبية قد تؤدى إلى تشتت الحركة النفسية واختفاء بعض معالمـها. " وربما كان ذلك راجعا إلى تميز المقطوعة بالإيجاز ، وقصر النفس ، مما يتيـح للشاعر السجين أن يبث فيها شحنة عاطفية أو انفعالية ، أو ينفث فيها آلامـه وهمومه ، وأحزانه في سجنه ، فهي تتسم غالبا بالصدق النـابع مـن حـرارة الانفعال كما تتميز بوحدة الموضوع والتركيز ، والتكثيف ".(٢)وهذا ما يجعلها تتناسب مع حياة السجين ، وما يعرض له في سجنه من انفعالات يعبر عنـها في صورة سريعة وتلقائية •

وليست آسريات المعتمد بدعا في ذلك ، فإن السـمة البـارزة لشـعر الأندلس عامة هي غلبة المقطوعات وتفوقها في العدد على القصائد الطويلـة تفوقا واضحا • فالمقطوعات القصيرة أكثر انتشارا في الشعر الأندلسي عامـة من القصائد الطويلة •

ويلاحظ تفوق أبي فراس الحمداني على المعتمد بن عباد في عـدد

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٦٣٨ •
٢ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٨٤ •

القصائد والمقطوعات التى أنشدها كل منهما في أسره . وكذلك في العـــدد الإجمالى للأبيات . فقد بلغت روميات أبي فراس حوالى أربعا وخمسين قصيـدة ومقطوعة تقريبا حسب الإحصائية التى قمت بها في هذا الصـــدد ، ضمـت حوالى ثمانمائة وواحد وثلاثين بيتا ، منها خمس وعشرون مقطوعة تحوى ثلاثـا وثمانين بيتا ، وتسع وعشرون قصيدة مجموع أبياتها سبعمائة وثمانية وأربعـون بيتا .

أما أسريات المعتمد فبلغت ثلاثا وأربعين قصيدة ومقطوعة ، ضمت ثلاثا وثلاثمائة بيت ، منها إحدى وعشرون مقطوعة تحوى سبعين بيتـا ، واثنتـان وعشرون قصيدة ضمت مائتين وثلاثة وثلاثين بيتا ، أي أن شعر المعتمـد في أسره يزيد قليلا عن ثلث ما أنشده أبو فراس في أسره .

كما يلاحظ أن قصائد المعتمد جاءت كلها من نوع القصائد القصـيرة القليلة الأبيات ولم نجد عنده قصيدة واحدة تزيد عن عشرين بيتا.أما أبو فراس - وإن وجد في رومياته العديد من القصائد القصيرة - إلا أننا نجد فيها عـددا لا بأس به من القصائد الطويلة . فهناك قصيدتان يزيد عدد أبيات كل منـهما عن ستين بيتا ، وقصيدتان أخريان يزيد عدد أبيات كل منهما عن خمسين بيتا ، وأربع قصائد كل منها أربعون بيتا فأكثر ، وقصيدتان يزيد عدد كل منهما عن عشرين بيتا ، وهذا يدل على طول نفس أبي فراس الشعرى من ناحية ، وعلى كثرة لجوئه إلى الشعر في أسره يعبر به عما في نفسه من ناحية أخـرى ، مـع ملاحظة زيادة عدد القصائد عن عدد المقطوعات قليلا في شعر كل مـن أبي

فراس والمعتمد .

وكما قلت إن الميل إلى المقطوعات والقصائد القصيرة سمة بارزة في الشعر الأندلسي عامة ، وليست مقصورة على شعر المعتمد وحده ، ولعل لحياتهم اللاهية العابثة في عهود الرخاء إبان قوة الدولة الإسلامية في الأندلس ، ثم لحياة الخوف والقلق من العدو الأسباني المتربص بهم في فترات ضعف الدولة وتفككها أثر في ذلك . فلم تترك حياة اللهو والعبث فرصة الركون الطويل إلى الشعر ، كما لم يترك الخوف والقلق الشاعر لأن يمكث طويلا مع شعره . فكان الشاعر في الحالتين يعبر عما يحتمل في نفسه في أبيات محدودة دون تأن أو تمهل ، ودون تحبير أو تطويل . ومن هنا اتسم الشعر الأندلسي في معظمه بالصدق الفني ، والتعبير عن تجارب حقيقية عاشها الشاعر الأندلسي ، فعبر عنها بآيات تسعها ، وتحيط بها دون اللجوء إلى تشعبات جانبية ، أو الحديث عن انفعالات غير حقيقية .

ثانيا : الوحدة الموضوعية والعضوية :

" يراد بالوحدة في الشعر : اندماج عناصر القصيد ، واتحاد أجزائه ، بحيث تبدو القصيدة كلا مجمعا لا أجزاء مبددة ، فكأنه واحد ، وكأن فيه وحدة.فالتجمع المنشود في القصيدة يسمى وحدة لأنه سبيل إلى هذه الوحدة ، والمثل من الهيكل البشري ، فهو كل - وواحد - بما يجمع من أطرافه وأعضائه المركب هو منها ، وقد يكون لكل طرف أو عضو وظيفة ذاتية ، ولكنها وظيفة في خدمة الكل - الواحد - ولا يستطيع أن يستقل بها . وكذلك يمكن

أن يتصور الهيكل الشعرى : هو كل - وواحد - بعناصره وأجزائه الداخلة في تركيبه ، وتتفاعل هذه العناصر والأجزاء في سبيل تكوين الهيكل واستوائه ووحدته ".[1]

والوحدة في الشعر على نوعين : وحدة موضوعية ، ووحدة عضوية .

فالوحدة الموضوعية يقصد بها : أن يكون موضوع القصيدة واحدا ، كأن يكون مديحا أو هجاءا ، أو غزلا ، أو فخرا .. إلى غير ذلك.لا أن تشتمل على أكثر من موضوع ، كأن يبدأ بالغزل ، ثم ينتقل إلى وصف الناقة ، ثم ينتهى إلى المديح ، أو الهجاء ، أو الفخر ، أو الغزل ....

وعلى ذلك فإن القصائد التى يتعدد فيها الموضوع تكون بعيدة عن الوحدة الموضوعية .

وهناك شيء آخر تتحقق به الوحدة الموضوعية بجانب وحدة الموضوع في القصيدة ، وهو ترتيب أفكار القصيدة ، وتناولها تناولا مرتبا مع تسلسلها، والانتقال من إحداها إلى الأخرى انتقالا منطقيا .

وقد كثر الحديث في النقد العربي عن عدم توافر الوحدة الموضوعية في القصيدة العربية القديمة ؛ فالدكتور محمد مندور ينكر وجود هذه الوحدة في الشعر العربي القديم فيقول : " والناظر في الشعر العربي القديم لا يلبث أن يلاحظ أن وحدة القصيدة العربية لم تكن تتمثل إلا في اتحاد الوزن والقافية .

---

١ - قضايا النقد الأدبي الحديث - د / محمد السعدى فرهود - دار الطباعة المحمدية - ط ٢-١٩٧٩ م. ص ٩٦ .

وأما الغرض أو الموضوع فقلما نراه موحدا في القصيدة العربية القديمة " .[١]

ويقول : " وهكذا تكونت القصيدة العربية ذات الأغراض المتباينة المتتابعة ، وأصبحت هذه الظاهرة تقليدا شعريا ثابتا عند العرب " .[٢]

والحق أن الوحدة الموضوعية لم تنعدم في الشعر العربي جملة ، ولكنها توجد بوضوح في كثير من قصائده في بعض الأغراض الشعرية ، وعلى سبيل المثال نجد قصائد الرثاء قد تحققت تلك الوحدة في معظمها على مدار العصور الأدبية المختلفة ، فالشاعر في الرثاء يضمن قصيدته موضوعا واحدا في معظم الأحيان ، تدور حوله وتتمحور وهو الرثاء ، بالإضافة إلى وجودها في بعض القصائد في الأغراض الشعرية الأخرى .

أما شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد فقد تحققت الوحدة الموضوعية في كثير من القصائد عندهما ، وخاصة في باب الرثاء ، وفي كثير من القصائد القصيرة في الأبواب الأخرى ، بجانب توافرها في كل المقطوعات عند الشاعرين تقريبا . لأن طبيعة المقطوعة لا تجعلها تستوعب أكثر من خطرة واحدة يعبر عنها الشاعر في قليل من الأبيات ، وليس فيها مجال لتعدد الموضوعات ، أما القصائد الطويلة ـ وخاصة عند أبي فراس ـ فقد انعدمت في معظمها الوحدة الموضوعية ، مثلها في ذلك مثل الكثير من قصائد الشعر العربي القديم وخاصة في غير باب الرثاء .

---

١ - الشعر المصرى بعدشوقي ـ الحلقة الأولى ـ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ بدون تاريخ ـ ص ١٨ .

٢ - المرجع السابق ص ١٩ .

والآن مع بعض القصائد التى تحققت فيها الوحـــدة الموضوعيـــة عنـــد شاعرينا أبي فراس والمعتمد :

لو استعرضنا قصيدة أبي فراس في رثاء أمه [١] ، لوجدنا الشاعر يبدؤهـا بخطاب أمه المرثية ، والدعاء لها ، وبيان حاله بعد وفاتها ، وأنها قد ماتت وليس بجوارها أحد من أبنائها وعشيرتها ، وغاب عنها حبيب قلبها الذى كانت تتمنى رؤيته بعد خروجه من السجن :

أيا أمَّ الأســـيرِ ســـقاكِ غيْـثٌ ... بكرهٍ منك ما لَقِـــيَ الأســـيرُ

أيا أمَّ الأســـيرِ ســـقاكِ غيْـثٌ ... تحـيَّرَ لا يُقيـــمُ ولا يســـيرُ

أيا أمَّ الأســـيرِ ســـقاكِ غيْـثٌ ... إلى مَنْ بالفدا يـــأتى البشـــيرُ

أيـــا أمَّ الأســـيرِ لمـــن تُــــرَبيّ ... وقدمْتِ الذوائبَ والشـــعورُ

إذا ابنُكِ ســـارَ في بـــرٍّ وبحْـــرٍ ... فمَنْ يدعُو لـــه أو يســـتجيرُ

حرامٌ أن يبـــيتَ قريرَ عيـــنٍ ... ولـــؤمٌ أن يلمّ به الســـرورُ

وقد ذُقْـــتِ المنايـــا والرزايـــا ... ولا ولَدٌ لديكِ ولا عشـــيرُ

وغابَ حبيبُ قلبِكِ عن مكـــانٍ ... ملائكةُ السماءِ بـــه حضـــورُ

وبعد الدعاء لها ، وبعد بيان الحالة التى توفيت عليها ، وبعد أن أعطانـــا صورة مصغرة لحاله هو بعد وفاتها. كان من الطبيعي أن ينتقل إلى الحديث عـــن صفاتها الطيبة ، وأعمالها الخيرة التي ستنقطع بوفاتها ، أو التي ستشفع لهـــا في

---

١ - ديوان أبى فراس ١٦١ .

آخرها. وهذا ما فعله الشاعر. فلقد تحدث عن أيامها التي صامت نهارها صابرة محتسبة مع شدة هجيرها، وعن لياليها التي قضتها في القيام والركوع والسجود تعبدا لله — سبحانه — حتى يبتدي الفجر المنير، وعن هؤلاء المضطهدين الذين وقفت بجوارهم، ودافعت عنهم في الوقت الذي لم يجدوا فيه مجيرا غيرها. وعن هؤلاء الفقراء المساكين الذين فرجت كربتهم، وأغاثتهم بمالها وبرها:

ليبكِكِ كلُّ يوم صمتِ فيه مصابرةً وقد حَمِيَ الهجيرُ
ليبكِكِ كلُّ يوم قمتِ فيه إلى أن يبتدي الفجرُ المنيرُ
ليبكِكِ كلُّ مضطهَدٍ مخوفٍ أجرتيه وقد قلَّ المجيرُ
ليبكِكِ كلُّ مسكينٍ فقيرٍ أغثتيه وما في العظم ريرُ

وكان من الطبيعي أن ينتقل من ذلك إلى وصف ما لقيته الأم من عناء وهم وتعب تحملته وحدها بعد أن ابتعد عنها ولدها في أسره بالروم:

أيا أمَّاهُ كمْ همٍّ طويلٍ مضَى بكِ لم يكنْ منه نصيرُ
أيا أمَّاهُ كمْ سرٍّ مصونٍ بقلبكِ ماتَ ليس له ظهورُ
أيا أمَّاهُ كم بشرَى بقربي أتتكِ ودونَها الأجلُ القصيرُ

وفي البيت الأخير يذكر الشاعر أن هم هذه الأم كان قد أوشك على الزوالُ بالبشريات التى أتتها تبشرها بقرب قدوم ولدها من أسره، ولكن الموت قد عاجلها فلم يمهلها. وهذا البيت جعله الشاعر وسيلة للحديث عن حياته بعدها، وأنها ستكون حياة مظلمة تسودها الوحدة، ويملؤها الحزن

والكآبة بعد رحيل من كان يلجأ إليه الشاعر ، يبثه شكواه ومناجاته، ومن كان يلهج بالدعاء للشاعر للوقاية من كل سوء ، ومن كان ينير له حياته، ومن كان الشاعر يستعين به وبتشجيعه لاقتحام أهوال الحياة. ولذلك يتمنى الشاعر أن يلحق بأمه التي كانت له بمثابة كل هذا . ويذكر أن إحساسه بقرب لقائه بها في الآخرة هو العزاء الوحيد له:

إلىَ مَنْ أشتكي ولمَنْ أناجي ... إذا ضاقتْ بما فيها الصدورُ

بأيِّ دعاءِ داعيةٍ أوقَّى ... بأيِّ ضياءِ وجهٍ أستنيرُ

بمَنْ يستدفعُ القَدَرُ الموقَّى ... بمَنْ يستفتحُ الأمرُ العسيرُ

نُسلَّي عنكِ أنَّا عن قليلٍ ... إلى ما صرتِ في الأخرى نصيرُ

فبجانب وحدة الموضوع في هذه القصيدة وهو الرثاء ، نجد ترتيبا في الأفكار وتسلسلا بينها ، وانتقالا منطقيا بينها. وهذا ما يجعلنا نحكم بوجود الوحدة الموضوعية في هذه القصيدة.

والآن مع قصيدة رثاء للمعتمد بن عباد في رثاء ولديه ، وهي قصيدته الرائية التي بدأها بقوله: [1]

يقولونَ صبراً لا سبيلَ إلى الصبرِ ... سأبكي وأبكي ما تطاولَ من عمري

بدأها الشاعر بالحديث عن شدة مصابه الذي جعله لا يقدر على الصبر بعد مصيبته في ولديه. ومن أجل فداحة الخطب ، وعظم المصيبة أبان أنه لا

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٥ .

يبكي وحده، وإنما أقامت نجوم السماء مأتما في كل ليلة يخمشن في وسطه صفحة البدر ، وينحن على نجمين هويا من بينهما. كما بكى الغمام بدموع لا تجف ولا تتوقف يسقي بها قبر من كانا صنويه في الجود و الكرم ويقوم البرق بدوره في هذا الخطب فتشتعل ناره بين آن وآخر ، وكأنما يستمد ناره مما في فؤاد الشاعر الوالد من جمر ملتهب :

يقولون صبرًا لا سبيلَ إلى الصَّبرِ ... سأبكي وأبكي ما تطاوَلَ من عمري
هَوَى الكوكبانِ الفتحُ ثم شقيقُه ... يزيدُ فهل عندَ الكواكب من خُبْرِ
تَرَى زُهرَها في مأتمٍ كلَّ ليلةٍ ... يخمِّشْنَ لهفاً وسطَه صفحةُ البدرِ
ينُحنَ على نجمَيْن أثكِلْنَ ذَا وَذا ... وأصبرُ ما للقلبِ في الصَّبرِ من عذرِ
مدى الدهرِ فليبكِ الغمَامُ مُصابَه ... بصنويْه يعذَر في البكاءِ مدَى الدهرِ
بعينِ سحابٍ واكفٍ قطرُ دمعِها ... على كلِّ قبرٍ حلَّ فيه أخُو القطرِ
وبرقٍ ذكيِّ النارِ حتى كأنَّما ... يسعَّرُ مما في فؤادي من الجمرِ

وبعد أن عبر الشاعر عن فجيعته، وعظم مصيبته في ولديه، وأشرك معه بعض مظاهر الكون عاد برهة إلى رشده، واحتسب ولديه عند الله طمعا في رحمة الله، وزيادة في أجره ، ثم ما لبث أن تذكر ولديه والسن الذي توفيا فيه، وانتقل من ذلك إلى ما حل به من مصيبة الأسر فحمد الله على وفاتهما قبل أن يرياه في قيوده وأغلاله:

أفتحٌ لقد فتَّحتَ لي بابَ رحمةٍ ... كما بيزيدَ اللهُ قد زادَ في أجْري
هَوَى بكما المقدارُ عنيَّ ولم أمُتْ ... وأُدْعَى وفيًّا قد نكصتُ إلى الغدرِ

توليتما حين انتهت بكما العلى ... إلى غاية كل إلى غاية يجري
فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى ... إذا أنتما أبصرتماني في الأسر
يعيد على سمعي الحديد نشيده ... ثقيلاً فتبكي العين بالجس و النقر

وبعد أن أبان عن حاله هو إزاء وفاة ولديه وتردده بين الجزع والثبات ، كان من الطبيعي أن يتحدث عن حال الأم والأخوات وما أصبحن عليه من الحزن والجزع الذي قد يؤدي بهن إلى الهلاك:

معي الأخوات الهالكات عليكما ... وأمكما الثكلى المضرمة الصدر
تذللها الذكرى فتفزع للبكا ... وتصبر -في الأحيان -شجا على الأجر
فتبكي بدمع ليس للقطر مثله ... وتزجرها التقوى فتصغي إلى الصبر

وبعد أن ذكر أن حال الأم كحاله في التردد بين الجزع والصبر ، أو بين الحزن وابتغاء الأجر ، ختم القصيدة بالعودة إلى نفسه فذكر أن حاله تبدل تماما بعد فقد ولديه. فابنه الراضي المكنى بأبي خالد قد أورثه الحزن الخالد . كما أنه قد ودع نصره في الحياة مع توديعه لابنه المأمون المكنى بأبي نصر. وقد جدد وفاقهما على قلبه ذكرى موت أخيهما أبي عمرو وحزنه عليه:

أبا خالد أورثتني الحزن خالدًا ... أبا النصر مذ ودعت ودعني نصري
وقبلكما قد أودع القلب حسرة ... تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو

ونلحظ في هذه القصيدة أيضا وحدة الموضوع وهو الرثاء، وقوة الترابط بين الأفكار، وتتابعها تتابعا منطقيا. مما يحقق الوحدة الموضوعية فيها.

أما عن نماذج تحقق الوحدة الموضوعية في القصائد القصيرة من شعر الأسر عند الشاعرين فمنها قصيدة أبي فراس التي بعث بها إلى أخيه أبي الفضل يستزيره وهما أسيران: [1]

ففي هذه القصيدة تحدث الشاعر عن موضوع واحد وهو طلب الزيارة من أخيه و لومه وعتابه على عدم القيام بزيارته رغم قدرته عليها ، ورغم علمه بمدى شوقه إليه، وتسويفه في ذلك. ثم التخفيف من حدة العتاب ببيان أثر زيارته عليه وعلى حياته في الأسر، وأنه صابر متماسك حتى الآن ولكنه لن يستطيع الصبر على فراقه أكثر من هذا :

أتتركُ إتيانَ الزيارةِ عامدًا	وأنتَ عليها لو تشاءُ قديرُ
وعيشِك لولا ما علمتَ لما وَنَتْ	إلى الدَّارِ مني رَوْحةٌ وبكورُ
فكَمْ كانَ رأيي في لقائِكَ نافذًا	ورأيُك فيه ونيةٌ وقتورُ
تقول (غدًا آتي) ولو كنتَ راغبًا	لطالَ عليك الليلُ وهوَ قصيرُ
ولكنَّ وقتًا أنتَ فيه محبَّبٌ	إليَّ ودهرًا أنت فيه نضيرُ
يضيقُ عليَّ الحبسُ حتى تزورَه	فما هُو إلا روضةٌ وغديرُ
صبرتُ على هذي فما أنا بعدَها	على غيرها مما صبرتُ قديرُ

فالقصيدة جاءت نابضة بالحياة، تنم عن خبرة تامة للشاعر بمجموعة من المشاعر والأفكار والأحاسيس التي تتصل كلها بموضوع واحد، وكل فكرة تسلم إلى صاحبتها بانسجام وترابط ودون تفكك أو تنافر. وهذا مايؤكد توافر

---

١ - ديوان أبي فراس ١٥٨ .

الوحدة الموضوعية في القصيدة.

وهذه قصيدة قصيرة للمعتمد بن عباد يتحدث فيها عن أسره الذي طال أمده حتى سمع به كل أهل الأرض. [1] ففيها يبدي الشاعر أساه وحسرته على ما حدث له، ويجيب على تساؤل الناس في كل مكان عن سبب ماهو فيه من انكسار وذل، وغلبة، بعد أن كان قويا منتصرا. ويذكر أن خطوب الدهر وصروفه التي لا تترك شيئا على حاله هي التي فعلت به ماهو فيه:

أنباءُ أسرِكَ قد طبَّقْنَ آفاقَا ... بل قد عمَمْنَ جهاتِ الأرضِ إقلاقَا
سارَتْ من الغربِ لا تُطوى لها قَدَمٌ ... حتى أتتْ شرقَها تنعاكَ إشراقَا
فأحرَقَ الفجْعُ أكبادًا وأفئدَةً ... وأغرَقَ الدمْعُ آماقًا وأحداقَا
قد ضاق صدرُ المعالي إذ نُعيتَ لها ... وقيل : إنَّ عليكَ القيدُ قد ضاقَا
أنِّي غُلِبْتَ وكنتَ الدهرَ ذا غَلَبٍ ... للغالِبِينَ وللسُّبَّاقِ سَبَّاقا
قلتُ الخطوبُ أذلَّتْنِي طوارِقُها ... وكان عزمِي للأعداءِ طوَّاقَا
متى رأيتَ صروفَ الدهرِ تاركةً ... إذا انبرتْ لذوى الأخطارِ أرماقَا

فالقصيدة كلها تدور حول فكرة واحدة وهي انتشار أنباء أسره ، وذيوعها في ربوع الأرض ، وحزن كثير من أهلها على ما حدث للشاعر، وتساؤلهم عن سبب ما حدث له والإجابة عن هذا التساؤل. وأبيات القصيدة متماسكة كل بيت يؤدي إلى ما يليه في قوة ترابط وتمازج. مما يجعل الوحدة الموضوعية متحققة في هذه القصيدة.

١-ديوان المعتمد ١١٠ .

وغير ذلك كثير من قصائد شعر الأسر في شعر الشاعرين، تحققت فيها الوحدة الموضوعية. مما يجعلنا نحكم بوجودها فيه وتوافرها في كثير من قصائد الشاعرين ومقطوعاتهما.

أما الوحدة العضوية فذكر الدكتور محمد غنيمي هلال أن المقصود بها هو " وحدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع ، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئا فشيئا،حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور. على أن تكون أجزاء القصيدة كالبينة الحية لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر " .[(١)]

ويقول:" ولابد أن تكون الصلة بين أجزاء القصيدة محكمة صادرة عن ماهية وحدة الموضوع، ووحدة الفكر فيه، ووحدة المشاعر التي تنبعث منه. أي أنها صلة تقضي بها طبيعة الموضوع ، ووحدة الأثر الناتج عنه" .[(٢)]

ومعنى هذا أن تحقق الوحدة العضوية في القصيدة يستلزم أولا وحدة الموضوع فيها. وهذا ليس صحيحا، فقد تتعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة ولكن يربط بينها وحدة المشاعر والأحاسيس والانفعالات، والعواطف، ويستدعى بعضها البعض الآخر، نتيجة لتسلسل الأفكار

---

١ - النقد الأدبي الحديث - دار الثقافة ودار العودة - بيروت - طبعة عام ١٩٧٣ م. - ص٣٩٤ .

٢ - المرجع السابق ٣٩٥ .

والأحداث تسلسلا منطقيا . حينئذ يمكن أن نقول: إن هذه القصيدة قد تحققت فيها الوحدة العضوية مع تعدد الموضوع.

وقد عرفنا قبل ذلك المقصود بوحدة الموضوع. أما وحدة المشاعر فالمراد بها: أن تكون العواطف والانفعالات التي حركت الشاعر إلى نظم قصيدته متساوية في قوتها وحدتها. بحيث تنتظم القصيدة من أولها حتى آخرها عاطفة لا تختلف قوة وضعفا في بعض أبيات القصيدة دون البعض الآخر.

والمقصود بوحدة التعبير أن تكون القصيدة متلاحمة البناء، منسجمة في درجة التعبير. والشكيل الفني ، بحيث تعد القصيدة كلا متناسقا في أجزائه مستويا في بنائه ، من حيث الصور والألفاظ والتراكيب.

أما وحدة الأثر فالمقصود بها أن يكون تأثر المتلقي بالقصيدة واحدا في جميع أجزائها فلا ينفعل بجزء منها دون جزء، أو يكون مشدودا مأخوذا إلى جزء من القصيدة دون جزء آخر. وهذا يتوقف على مدى إحساس الشاعر بتجربته الشعرية ، وعلى مدى صدقه في التعبير عنها. [1]

وبناء على اشتراط الدكتور محمد غنيمي هلال وحدة الموضوع في تحقق الوحدة العضوية في القصيدة ذكر أن القصيدة العربية القديمة — لتعدد الموضوع فيها — لم تعرف الوحدة العضوية ، ونفى وجود هذه الوحدة في القصيدة القديمة بشكل قاطع فقال: " فليست للقصيدة الجاهلية وحدة عضوية

١ - انظر عناصر الإبداع في رائية أبي فراس ٧٤ ، ٧٥ .

في شكل ما من الأشكال لأنه لا صلة فكرية بين أجزائها . فـالوحدة فيـها خارجية لارباط فيها إلا من ناحية خيال الجاهلي وحالته النفسـية في وصفه الرحلة لمدح الممدوح. وكان لهذا الرباط الواهي مبررمن المبررات في العصـر الجاهلي، ثم صار تقليداً على مر العصور " . (١)

ووافقه الدكتور شوقي ضيف في هذا الرأي ولكنه ذكر وجود الوحـدة العضوية في النادر من قصائد الشعر القديم فيقول : " ومن الحق أن القصيـدة العربية لم تكن تعرف هذه الوحدة العضوية معرفة واضحة قبل عصرنا الحديث إلا نادرا.. ". (٢)

ويكشف عن سبب هذا بشكل واضح فيقول " . وربما كـان مرجـع ذلك إلى تقيد شعرائنا في العصور الوسطى بنموذجها الذي وضعه لها شـعراء العصر الجاهلي ؛ حيث نجد القصيدة متحفا لموضوعات مختلفة ولا تربط بينهما أي رابطة قريبة. فالشاعر يبدؤها بوصف الأطلال والديـار، والنسـيب ، ثم يستطرد إلى وصف الصحراء وحيوانها الأليف والوحشي ، حتى إذا فرغ مـن هذا الوصف خرج إلى الغرض الأساسي لقصيدته من الفخـر أو المـدح ، أو الهجاء، أو الاعتذار، أو الرثاء. وربما ختمها بالحكم والأمثال ". (٣)

والحق أن وحدة المشاعر والأحاسيس، وترابط الأفكـار وتسلسـلها،

---

١ - النقد الأدبي الحديث ٣٩٥ .

٢ - في النقد الأدبي - شوقي ضيف - دار المعارف - ط ٥/ ١٩٦٢م. ص١٥٤ .

٣ - في النقد الأدبي - ١٥٤ .

وتماسك أجزاء القصيدة قمين بتحقيق الوحدة العضوية في القصيدة، حتى ولو كانت متعددة الموضوع. إن تحقق ذلك كله " في بناء القصيدة تعوضه مما قد يكون قد أضعفه من تعدد الأغراض. حيث تربط بين هذه الأجزاء برباط نفس واحد يذيب هذه الفواصل بين الأغراض، ويشيع بينها روح الوحدة والائتلاف ".[١]

وعلى أساس ما ذهبنا إليه نجد الوحدة العضوية قد تحققت في الغالبية العظمى من قصائد ومقطوعات شعر الأسر عند شاعرينا أبي فراس و المعتمد. سواء منها ما كان موضوعها واحدا أم لا. لأن كلا منهما قد عاني في أسره وقاسى من آلام الغربة وذل الوحدة والانكسار، مما جعله يجد في شعره الملاذ والملجأ الذى يركن إليه ويجد فيه راحته. وقد انتظمت قصائد كل منهما في الأسر نغمة واحدة ومشاعر وانفعالات نابعة كلها عن أسى وعذاب، وآلام سرت بين أجزائها.

وقد عرفنا أن القصيدة في شعر الأسر عند كل منهما تخلو — غالبا — من المقدمة التقليدية ، وإنما تبدأ بمقدمات ذاتية تتصل بالواقع الذي يعيشه الشاعر في الأسر وانعكاساتها في نفسه. وبعد المقدمة يأخذ الشاعر في الحديث عما يتصل بغرضه من قصيدته حديثا متماسكا متناسبا ومتلاحما إلى حد كبير. بحيث يمكننا أن نكتشف من غير عناء وحدة فنية في القصيدة تدعمها وحدة شعورية أو نفسية قوية.

---

١ - عناصر الإبداع في رائية أبي فراس ٧٥ .

وإذا أردنا أن نتعرف على صدق ذلك من خلال الأمثلة لوجدناها عديدة متوافرة. فمن الأمثلة التي تحققت فيها الوحدة العضوية وموضوعها واحد تلك القصائد التي ذكرناها فيما سبق من شعر الشاعرين . فقد تحققت في كل منها الوحدة العضوية من خلال وحدة المشاعر والأحاسيس التي سرت في أبيات وأفكار كل منها. فقصيدة أبي فراس في رثاء والدته، وقصيدة المعتمد في رثاء ولديه ربطت بين أفكار كل منهما مشاعر الحزن والأسى التي انتابت الشاعر بعد رحيل أعز الناس لديه . فقد كان أبو فراس شديد التعلق بأمه قوي الحنين إليها. وكانت أعظم أمنياته أن يخرج من سجنه فيجد أمه في انتظاره يرتمي في أحضانها، وليعوض شيئا من حنانها الذي افتقده بعد نزوله السجن. ولكنه فقدها قبل أن يتحقق له هذا الأمل فعظمت مصيبته، واشتد عليه الخطب. فعبر عن ذلك بأبيات هذه القصيدة التي امتلأت بمشاعر الأسى والحسرة والألم والضياع بعد فقد الأم.

وكان المعتمد يأمل أن يشتد عود ولديه فيخلفانه في حكم مملكته وكان شديد التعلق بهما بعد أن فقد أخاهما سراج الدولة ،وكان يرى فيهما ما يعوضه عنه، ولكنه فقدهما بعد أن علا نجم كل منهما، واقتربا من تحقيق أمل أبيهما فعز عليه الفقد، واشتد عليه الكرب وأنشد في رثائهما ثلاث قصائد امتلأت كل منها بمشاعر الأسى والحزن والألم التي ربطت بين الأفكار التي تناولها في كل قصيدة.

فقصيدتا أبي فراس والمعتمد السابقتان توافرت فيهما وحدة المشاعر

والأحاسيس والانفعالات والعواطف التي أدت إلى وحدة الأثر مما يحقق في كل منهما الوحدة العضوية بجانب الوحدة الموضوعية.

وفي قصيدة أبي فراس التي يستزير بها أخاه ربطت بين أبياتها مشاعر الحنين والشوق إلى أخيه. بحيث نلحظ في كل بيت مزيدا من الدلالة على حاجة الشاعر إلى لقاء أخيه. مما جعله يتوجه إليه بالعتاب واللوم على تسويفه في القيام بالزيارة. وقد تماسكت الأبيات، وساهمت في التعبير عن مشاعر أبي فراس تجاه أخيه، ومدى شوقه إلى لقائه. مما يجعل بها وحدة عضوية بجانب الوحدة الموضوعية.

وفي قصيدة المعتمد التي يتحدث فيها عن سريان أنباء أسره بين الشرق والغرب ، وإحساس كثير من سكان المشرق والمغرب بما حدث للملك الشاعر، وتساؤلهم عن سبب ما وقع له سادت مشاعر الأسى والحسرة التي نلمحها ونحسها في أبيات الشاعر وهو يتحدث عن تجربته ، وينقل إلينا انفعال أهل الأرض شرقا وغربا بما حدث له، وإجابته على تساؤلهم بشأن انقلاب حاله، وتغير الدهر له. هذه المشاعر والأحاسيس وما ينتج عنها من وحدة الأثر تجعلنا نحكم بتحقق الوحدة العضوية فيها بجانب الوحدة الموضوعية.

أما عن القصائد التي تحققت فيها الوحدة العضوية رغم تعدد الأغراض فيها فمنها من شعر أبي فراس قصيدته البائية المبدوءة بقوله. [1]

أَمَا لجميلٍ عندكُنَّ ثوابُ ... ولا لِمُسيءٍ عند كُنَّ متَابُ

١ - ديوان أبي فراس ٤٥ .

فإذا استعرضنا هذه القصيدة وما فيها من أفكار، وما تحمله أبياتها من مشاعر، لوجدنا أن الوحدة العضوية قد تحققت فيها إلى حد كبير. فقد هيمن الجو النفسي المتحد على جو هذه القصيدة فربط بين الأغراض التي تناولها الشاعر فيها — الغزل والفخر، والعتاب، والاستعطاف — برباط وثيق لا يشعر القاريء معه بانفصام. وقد بنى أبو فراس هذه القصيدة على ثلاثة محاور: أولها : الحديث عن الأسر وما يلقاه فيه من آلام يواجهها، ويزيدها تخلي بعض أقاربه وأصحابه عنه.. وإساءاتهم إليه بتحريض سيف الدولة على بقائه في أسره، مما يؤدي إلى عدم ثقته في الناس من حوله. وكل هذه الآلام يواجهها بالصبر و الرضا لإيمانه بالموت، وبالمصير الذي قدره الله لكل إنسان:

صَبُورٌ ولَوْ لَمْ تَبْقَ مِنِّي بَقِيَّةٌ ... قَؤولٌ ولَوْ أَنَّ السُّيوفَ جَوَابُ

وَقورٌ وأحْداثُ الزمانِ تنوشُني ... وللموتِ حولي جيئَةٌ وذَهَابُ

بمَنْ يَثِقُ الإنسانُ فيما ينوبُهُ ... ومن أينَ للحرِّ الكريمِ صِحَابُ

وقد صارَ هذا النَّاسُ إلا أقَلَّهُمْ ... ذئاباً على أجسادِهِنَّ ثِيَابُ

إلى اللهِ أشكو أنَّنا بمنازلٍ ... تحكَّمُ في آسَادِهِنَّ كِلابُ

وثانيها : الحنين الذي يجعله مشتاقا إلى أهله ووطنه، ومرابع صباه، ومهد فروسيته وبطولاته:

تَمُرُّ الليالي ليسَ للنَّفْعِ موضِعٌ ... لَدَيَّ ولا للمعتفينَ جَنَابُ

ولا شُدَّ لي سَرْجٌ على ظهرِ سابحٍ ... ولا ضُرِبَتْ لي بالعراءِ قِبَابُ

ولا بَرَقَتْ لي في اللقاءِ قواطِعٌ ... ولا لَمَعَتْ لي في الحروبِ ضِرَابُ.

سـتذكُر أيـَّامي نمـيرٌ وعـامرٌ ... وكعبٌ علـى علاَّتهـا وكـلابُ
أنا الجارُ لا زادي بطيءٌ عليـهمُ ... ولا دونَ مالي للحـوادثِ بـابُ
وأسطُو وحبِّي ثابتٌ في صدورهـمُ ... وأحلُـمُ عـن جُـهَّالهِمْ وأهَـابُ

وثالثها: العتاب الذي توجه به إلى سيف الدولة ـ ومعـه أقاربـه ـ لتأخرهم في افتدائه:

بَني عمِّنَا لا تنكرُوا الـوُدَّ إنَّنَـا ... شدادٌ على غيرِ الهوانِ صِـلاَبُ
بني عمِّنا نحنُ الـسـواعدُ والظُّبَـا ... ويوشِكُ يومًا أن يكونَ ضِـرابُ
وإنَّ رجالاً ما ابنهُمْ كابنِ أختِـهِمْ ... حريُون أن يُقْضَى لهم ويُـهَابُوا
فعن أيِّ عذرٍ إن دُعُوا ودعيتُـمُ ... أبيتُـمْ بـني أعمامنا وأجَـابُوا

وقد سبق هذه المحاور مقدمة تبدو غزلية أجاد الشاعر استغلالها في عرض موقفه النفسي من الناس في هذه الحياة:

أمَـا لجميـلٍ عندكُـنَّ ثـوَابُ ... ولا لمسـيءٍ عندكُـنَّ متَـابُ
لقد ضلَّ من تحوِي هـواهُ خريـدةٌ ... وقد ذلَّ من تقضِي عليه كِعَـابُ
ولكنَّـنِي والحمـدُ لله حـازمٌ ... أعِـزُ إذا ذَلَّـتْ لهُـنَّ رقَـابُ
وأجرِي ولا أُعطِي الهوَى فضلَ مقـوَدي ... وأهفُو ولا يخفَى علـيَّ صـوَابُ
إذا الخِـلُّ لم يـهجُرْكَ إلا مَلاَلَـةً ... فليسَ لـه إلا الفـراقَ عتَـابُ

كما ختمها الشاعر باسترضاء سيف الدولة وتطييب خاطره بعد العتاب الذي وجهه إليه ، فأعلن حرصه على بقاء الود الذي بينهما، وأن ذلك أغلى ما يتمناه في هذه الحياة. وقد أجاد الشاعر استغلال هذه الخاتمة أيضا في توصيل

ما في نفسه من حب للحرية، والانعتاق من هذا الأسر، وموقفه من هؤلاء الأقارب والأصحاب الذين لم ينصفوه عند سيف الدولة، وأن أفعالهم وأقوالهم لا تهمه ولا يعبأ بها. فكل همه وكل ما يتمناه هو بقاء الود والرضا بينه وبين سيف الدولة:

فليتَك تحلُو والحياةُ مريرَةٌ   وليتَكَ ترضَى والأنامُ غضَابُ
وليتَ الذي بيني وبيَنك عامرٌ   وبيني وبينَ العالَمين خَرَابُ
اذا نلتُ منكَ الوُدَّ فالكلُّ هيِّنٌ   وكلُّ الذي فوقَ التراب ترابُ

فالجو النفسي المتحد للشاعر قد هيمن على جو هذه القصيدة من بدايتها حتى نهايتها بحيث لا يشعر القاريء لها باختلاف في المشاعر والأحاسيس. والعواطف الحزينة التي سادت القصيدة كلهاـو التي تجعل تأثر القاريء بكل أجزائها واحداً-جاءت في درجة واحدة. كما جاءت المعاني والأفكار في القصيدة مترابطة، وكأنها حلقات في سلسلة متصلة تؤدي كل منها إلى الأخرى، ويسلم بعضها إلى بعض. مما يجعلنا نحكم بتحقق الوحدة العضوية في هذه القصيدة.

وقصيدة أبي فارس الرائية [1]:

أراكَ عصِيَّ الدمعِ شيمتُكَ الصَّبرُ   أمَا للهوَى نهيٌ عليكَ ولا أمْرُ

من القصائد التي تحققت فيها الوحدة العضوية رغم تعدد الأغراض فيها. فلو استعرضنا عناصر هذه القصيدة لوجدنا الشاعر يبدؤها بالغزل الذي

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٢.

يخدم به أغراضه وما يهدف إليه من حث سيف الدولة وأبناء عمـــه لمفاداتـــه. واستغرق هذا الغرض نصف القصيدة تماما (٢٧ بيتا) . ثم انتقل إلى الغـــرض الثاني وهو الفخر واستغرق النصف الآخر من القصيدة (٢٧ بيتا) كذلك.تبدأ بقوله :

وإنّي لجـــــرّارٌ لكلّ كتيبةٍ   معوّدةٍ ألا يُخلّ بها النّصْرُ

وهذه القصيدة تسودها روح واحدة هي روح الألم والأسى والشـــعور بالضيق والضنى مما يلقاه في أسره من جهة، وما يلقاه من إهمال من قبل أمـــيره سيف الدولة الذي رمز إليه بصاحبته التي يحبها ويتفانى في إبقاء المـــودة بينـــه وبينها ، ولكنها تتفانى في تضييعها وقطعها من جهة ثانية ، ومما يلقاه من التنكر من إخوانه وخلانه من جهة ثالثة ، مما جعله ينفث هذه العواطف الحارة المائرة، وتلك المشاعر المهتاجة في شعر يعبر عن ألمه وضيقه ولوعته.

وهذه الروح المتشحة بالألم والأسى التي فجرت صور التعبير عما يكابده من وجد ولوعة، ومن صدو هجران هي الروح التي جعلته يتغلب على آلامـــه ويحاول نسيانها عن طريق فخره بمجده وفروسيته وبطولاته.

- وهذا الجو النفسي الذي ساد القصيدة ربط بين الغرضين: الغزل والفخر برباط قوي وثيق، واكبه رباط فني بين المعاني والأفكار في الغرضين معا ، حـــتى بدت المعاني والأفكار وكأنها حلقات في سلسلة واحدة ، تؤدى كل منـــها إلى التي تليها حتى غدت هذه القصيدة بناء مكتملا تماسكت أجزاؤه وتناســـقت

أعضاؤه[١] وقد أجاد الشاعر استغلال المقدمة الغزلية " في عرض موقفه النفسي فيصوغ الحكمة متخذا منها رابطا عقليا دقيقا يشد خيوطها العاطفية، وإن كان الموقف العاطفي عنده يقود في تدرج منطقي مقبول إلى هذه الصور الحكمية التي يعرضها من خلال رؤيته للأيام نتيجة حفظ المودة من جانبه وفقدها من جانب صاحبته "[٢].

وهكذا نجد أن القصيدة كلها يجمعها خيط واحد ، وهو عبارة عن تيار قوي من المشاعر والأحاسيس التي امتلأت بها نفس الشاعر الأسير، ولا تكاد نجد في القصيدة عنصرا أو معنى يمكننا إغفاله أو تجاهله لعدم وجود الداعي إليه بل كل ما تناوله الشاعر فيها له مبرراته ودواعيه الذاتية . بحيث يجعلنا نحكم بتحقق الوحدة العضوية بها .

ومن قصائد المعتمد بن عباد التي تحققت فيها الوحدة العضوية رغم تعدد الأغراض فيها – وإن كان هذا النوع من القصائد قليلا في شعر المعتمد لقصر قصائده ، وعدم تحملها لأكثر من غرض – قصيدته الرائية التي يعاتب فيها أخت يوسف بن تاشفين ، ويهجو المرابطين ويلومهم على موقفهم منه بعد العهد الذي كان بينه وبين يوسف بن تاشفين .[٣]

ففي هذه القصيدة عتاب لحواء بنت تاشفين لرفضها إعارة الملك الأسير

---

١ - انظر كتاب : عناصر الإبداع في رائية أبي فراس - ٧٦ وما بعدها .

٢ - القصيدة العباسية - قضايا واتجاهات - د/ عبد الله التطاوي - دار غريب للطباعة والنشر ط٢ - ٣٣٣ .

٣ - ديوان المعتمد ٩٧ .

خباء طلبه منها ، وهجاء للمرابطين الذين قضوا على المجد وحطموه بأسرهم الشاعر الملك والقضاء على ملكه ، ونسيانهم العهد الذى كان بينه وبين أميرهم بالوقوف معا ضد الفرنجة وأعداء الإسلام ، ثم مدح ليوسف بن تاشفين وحديث عن بطولته وشجاعته في حرب الزلاقة . وقد بدأها الشاعر بلوم وعتاب هؤلاء الذين أوقدوا نارا حامية بين جنبيه وقضائهم على ملكه ، وبعد ذلك لا يمنون عليه بخباء عارية ، ويهجوهم بأن ما فعلوه به وبأسرته يدخل في باب الخزى والعار ، ونسيان للعهد ونكران للمودة ، فلقد كان الملك الإشبيلي يقطع القفار والبحار شوقا إليهم وحفاظا على المودة والعهد بينه وبينهم ولكنهم تناسوا ذلك ، وفعلوا بالملك الأسير ما لا يليق :

هُمُ أوقَدُوا بين جنبيْكَ نـاراً ... أطالُوا بها فى حشَاك استعَاراَ
أما يَخجلُ المجدَ أن يُرحِلُو ... كَ ولم يُصحبُوك خباءً معاراَ
فقد قَنعُوا المجدَ إن كان ذا ... كَ - وحاشاهمُ مِنكَ خزياً وعَارا
يقلُ لعينيكَ أن يجعلُوا ... سوادَ العيونِ عليكُمْ شعَارا
تراهُمْ نسُوا حين جُزْتَ القِفَا ... رَ حنيناً إليهم وخُضْتَ البحَارا
بعهدٍ لزوم لسُبلِ الوفَا ... إذا حادَ مَنْ حادَ عنها وجَارا
وقلبى نزوعٌ إلى يوسفٍ ... فلولا الضلوعُ عليه لطَارَا

ولما تحدث عن العهد الذى بينه وبين المرابطين وقطعه المفاوز والبحار شوقا إلى يوسف ، كان من الطبيعى أن يتحدث عن سبب هذه العلاقة والمودة التى بينه وبين ابن تاشفين . ومن هنا انتقل إلى الحديث عن يوم العروبة وما

أبداه فيه ابن تاشفين من ضروب البسالة والشجاعة مما جعل الشاعر يعجب به، ويتخذه رفيقا له في جهاده ضد أعداء الإسلام ، وليقطع المسافات الطويلة برا وبحرا لزيارته بين الآن والآخر تقوية للعهد ، وتأكيدا للمودة بينهما :

ويومَ العروبة ذُدْتَ العِدا نَصرْتَ الهُدى وأبيتَ الفِرارا
ثبتَّ هناكَ وإن القلو بَ بين الضلوع لتأبَى القَرارا
ولولاكَ يا يوسفُ المتَّقي رأينا الجزيرةَ للكفرِ دارا
رأينا السيوفَ ضُحَى كالنُّجُو م وكالليلِ ذاكَ الغُبارَ المُثارا
فللَّه دَرُّك في هولِهِ لقد زادَ بأسُك فيه اشتهارا

الى آخر القصيدة......وبالنظر والتأمل نجد الشاعر قد وفق بين أقسام القصيدة وموضوعاتها ، فجعلها ذات وحدة شعورية متوازنة ،وانتقل من معنى إلى آخر انتقالا منطقيا محكما جعلها ذات وحدة فنية محكمة ، بحيث تبدو كلا مجتمعا لا يفصل بين أعضائها فاصل ولا يحس القارئ لها بهوة تفصل غرضا من أغراضها عن الآخر .

وهكذا نلحظ تحقق الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية في الكثير من قصائد شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد بن عباد . وإن كنت أرى أن تحقق هذه الوحدة في شعر المعتمد أبرز وأظهر ، ولا تحتاج إلى عناء لاكتشاف معالمها نظرًا لقصر قصائده.فلا حاجة للتدليل على توفر الوحدة العضوية والموضوعية بها ، لأن من طبيعتها أنها لا تستوعب إلا موضوعا واحدا ووحدة واحدة من المشاعر .

ثالثا : العاطفة :

الأدب مهما كانت قوته يبقى قليل الماء والرونق مالم تزينه العاطفة.فـهى الحياة التى تسرى فى النص الأدبى فتكسبه الجمال والحيوية ."وقد كثر فى تعبير الأدباء المحدثين أن فلانا مشبوب العاطفة أو هو ذات عاطفة بليـدة . وهـذه العاطفة هى التى تمنح الأدب الصفة التى نسميها بالخلود " .[١]

ولم أجد فى كتب النقد القديمة من يشير إلى العاطفة كما يعرفها النقاد فى العصر الحديث ، كما لم اجد فيما رجعت إليه من مراجع من أشار من النقـاد القدامى إلى عاطفة الشاعر وأثرها فى قصيدته ، أو فضل قصيدة على أخـرى من أجل العاطفة .وإنما كانوا يفضلون قصيدة على أخرى ، وبيتا على بيـت دون تعليل لذلك ." ومع علم الأقدمين بها فإن اسمـها لم يسـتعمل فى الأدب العربى إلا حديثا ، كالذى قالوا عن الأدب الألمانى فيه عشق كثير ولكن ليـس فيه كلمة عشق.فأنت تقرأ طبقات الشعراء لابن قتيبة مثلا فتجد فيـه قـول الشعر للرغبة أو الرهبة ،ولكن لا تجد فيه كلمة العاطفة . لأنها لم تخـترع إلا فى العصر الحديث . وكذلك فى كتاب العمدة لابن رشـيق ، وفى غـيره مـن الكتب".[٢]

وأطلق ابن رشيق على العاطفة اسم قواعد الشعر . وهى عنده : "الرغبة

---

١ - النقد الأدبي . أحمد أمين . دار الكتاب العربي . بيروت . لبنان . طبعة رقم ٤ . ١٩٦٧م. ص٣٨ .

٢ - المرجع السابق ٣٨ .

والرهبة ، والطرب والغضب . فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب . ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد ، والعتاب الموجع "[١] . وحين سأل عبدالملك بن مروان أرطاة بن سهية :" أتقول الشعر اليوم فقال : والله ما أطرب ، ولا أغضب ، ولا أشرب ولا أرغب . وإنما يجئ الشعر عند إحداهن".[٢]

وفى رد الشاعر على سؤال عبد الملك ما يدل على أن الشاعر وإن كان مطبوعا على قول الشعر لا بد له من دافع يبعثه على قول الشعر . وهى ما نسميه اليوم بالعاطفة . وقد ذكر ابن رشيق بواعث الشعرعند دعبل الخزاعى فقال : " قال دعبل فى كتابه : من أراد المديح فبالرغبة ، ومن أراد الهجاء فبالبغضاء ، ومن أراد التشبيب فبالبشر والعشق ، ومن أراد المعاتبة فبالإستبطاء ". [٣] فهذه بواعث الشعر فى كل فن وهى ما يعرفه النقاد اليوم باسم العاطفة .

والذى نلحظه فى نقد القدماء للشعر تمييزهم لعاطفة الشاعر و الحكم عليها بالصدق أو الكذب ، وأن الشعر الجيد هو الشعر الصادق العاطفة الذى ينبعث من النفس .

---

١ - العمدة ١٢٠/١ .
٢ - المرجع السابق ١٢٠/١ .
٣ - المرجع السابق ١٢٢/١ .

" ويراد بصدق العاطفة أن تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع ، حتى تكون عميقه تهب للأدب قيمة خالدة . فموت الابن يبعث الحزن العميق والرثاء الحار . وانتصار الحق يثير فرحا قويا وشعرا مطربا ، والمنظر الجميل يوقظ الإعجاب الحق والوصف البديع . وهكذا متى كان هناك داع أصيل طبيعى هاج انفعالا ت أصيلة صحيحة تجعل الأدب مؤثرا , وباعثا في نفوس القراء عواطف كالتى في نفوس الأدباء . أما إذا كان الباعث تافها أو خداعا زائفا كان الأدب سطحيا لا أثر له يبقى " [١].

وقد اتشح شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد بعاطفة الأسى والحزن والألم . فلقد اتشحت روميات أبي فراس بالأسى العميق ، والألم الممض ، وهتفت من خلالها روح حزينة لبطل أسير تخلى عن أقرب الناس إليه وتركوه مثقلا بالحديد مقيدا بذل الأسر ، وظلم الآسر ، بعد أن كان يصول ويجول في ميادين حلب وخرشنة ومنبج والجزيرة . كما أفعمت أسريات المعتمد بالحزن القاتل ، والهموم المضنية ، والآلام المبرحة التى عبرت عن نفس مهمومة لملك ملأ الدنيا خوفا ورهبة زمنا طويلا ، وكان له سلطانه وبأسه . فقلب له الدهر ظهر المجن ، وجاء الغدر ممن وثق به وسعى إليه وتعاهد معه على الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، فذل بعد عز ،وخضع بعد تيه وتكبر ، وقيد وضيق عليه بعد ملك واسع ، وقتل أعز ولده ، وشرد من بقى من أهله ، وهو عاجز عن حمايتهم أو التخفيف عنهم ، ولم يجد إلا كلماته التى سطرها شعرا خرج من

---

١ - أصول النقد الأدبي - أحمد الشايب - مكتبة نهضة مصر - طبعه ١٠- ١٩٩٩م. ص ١٩٠ .

قلبه الحزين . ونفسه المكلومة ينعى بها روحه ، ويبكى عزه وسلطانه الضائعين.
وليس معنى أن عاطفة الأسى والحزن التى اتشحت بها الروميات والأسريات أن قصائد الأسر عند الشاعرين لا تضم عواطف أخرى أو أنها لا تثير فى القارئ ألوانا أخرى من الأحاسيس والانفعالات . فلو صدق هذا لاختفى ذلك الإحساس المتنوع الذى يحس به القارئ لمجموعة من القصائد المتنوعة من روميات أبى فراس ، أو من أسريات المعتمد . صحيح أن عاطفة الحزن والأسى والألم هى الغالبة المهيمنة على هذه الأشعار ولكنها ليست النوع الوحيد من العواطف بها كلها ، وإنما تتنوع العواطف فيها بجانب عاطفة الحزن العامة .
"ويمكن حصر هذا التنوع فى اتجاهين : تنوع مستوى العاطفة (العامة) من حيث درجة عاطفة الحزن وعنفوانها وهدوئها ، أو صعودها و هبوطها . وتنوع فى الألوان العاطفية كظهور عواطف أخرى فى القصيدة غير عاطفة الحزن ".[١]

وسوف نلحظ هذا التنوع فيما تعرض له من أمثلة من شعر الأسر عند الشاعرين إن شاء الله . مع التأكيد بأن شعر الأسر عند شاعرينا يتسم فى معظمه بصدق العاطفة . فقد نبع من نفس عايشت الألم والحسرة ، واكتوت بنار الأسر والقيد والهوان . وهذه نماذج من شعر الشاعرين وبيان مصادر صدق العطفة فى كل منها :

إن من يقرأ دالية أبى فراس الحمدانى : [٢]

---

١ - رثاء الأبناء في الشعر العربي - مخيمر صالح موسى - مكتبة المنار-الأردن - طبعة ١ بدون تاريخ ص١٧٩ .
٢ - ديوان أبي فراس ٩٦ .

دعوتُكَ للجفنِ القريحِ المسهَّدِ لدىَّ وللنَّومِ القليلِ المشرَّدِ

هذه القصيدة فى حقيقتها جراح يتكلم ، ووجدان يئن ، وشعور يتوجع ومزيج من الكبرياء الجريح ، والعتاب المتعالى . ويجد أن هذه الرومية تعبر تعبيرا صادقا عن الحالة النفسية التى يعانيها الشاعر فى تجربة الأسر القاسية، أكثر منها حديثا جدليا يعبر عن موقف سيف الدولة من افتدائه .

بدأها الشاعر بالحديث إلى ابن عمه طالبا فداءه من خلال وصفه لسهره وقلقه ، ويذكر أنه لا يطلب الفداء رغبة فى الحياة ، وإنما هو - ككل أفراد أسرته النجيبة - يريد أن يموت مثلهم (على صهوات الخيل) . فهو لا يحرص على الحياة ، وإنما هو على استعداد لأن يبذلها (لأول مجتد) يطلبها . وطالبها دائما هو المجد والعزة :

دعوتُك للجفنِ القريحِ المسهَّدِ	لدىَّ وللنَّوْمِ القليلِ المشرَّدِ
وما ذاكَ بُخْلاً بالحياةِ وإنَّما	لأولَ مبذولٍ لأولِ مجتَدِ
وما الأسرُ مما ضقتُ ذَرْعاً بحملِهِ	وما الخطبُ مما أنَّ أقولَ له : قَدِ
ولكنَّنى أختارُ موتَ بنى أبى	على صَهَواتِ الخيلِ غيرَ موسَّدِ
وتأبَى وآبَى أن أموتَ مُوَسَّداً	بأيدى النصارَى موتَ أكمدِ أكبدِ

وعدم تمكن الشاعر من نيل هذا المطلب النفسى هوما يجعله حزينا غاضبا على تلك الأيام التى تضيع من عمره فى هذا الأسر بعيدا عن تحقيق هدفه فى الحياة.وهذا سر تكراره الدعوة لابن عمه بطلب فدائه وتخليصه من أسره فى هذه القصيدة.فبعد بدء القصيدة ، وتبريره الصادق لتحقيق مجد

الأسرة الحمدانية نراه بعد أبيات يكرر الدعوة قائلا :

دعوتُكَ والأبوابُ ترتَجُّ دونَنَا ... فكنْ خيرَ مدعوٍّ وأكرمَ منجدِ

ثم يعود مرة ثالثة إلى نفس الدعوة قائلا :

أُناديكَ لا أنِّيَ أخافُ من الرَّدَى ... ولا أرتــــجى تأخيرَ يوم إلى غد

ولكنْ أنفتُ الموتَ في دارِ غُربَةٍ ... بأيدي النصارَى الغلفِ ميتةَ أكمدِ

ثم يعود مرة رابعة إلى الدعوة نفسها فيقول :

أقلني .أقلِني .عثـــــرةَ الدهرِ إنَّه

رمَاني بسهمٍ صائبِ النَّصْلِ مقصِدِ

ويختم القصيدة بتكرار نفس الدعوة ولكن بطريق غير مباشر فيدعـو الله ألا يحرمه رؤيا أميره ، والقرب منه ، والعيش بجواره :

فلا يحرمـَـــــنِّي اللهُ رؤياكَ إنَّها ... نهــــايةُ آمَــــالِي وغايةَ مقصِدِي

ولا يحرمَـــــنِّي اللهُ قربَك إنَّه ... مرادِي من الدنيا وحظِّي وسؤدُدِي

إن تكرار الشاعر طلبه بإخراجه من سجنه يدل على ما يعيش فيه داخل هذا السجن من هم وحزن وضيق . وأن عاطفة الحزن و الكآبة هي المهيمنــة المسيطرة على جو هذه القصيدة بكل مـــا تحويـــه مـــن أغـــراض العتـــاب، والاستعطاف ، والمديح ، وإن كان الشاعر أراد أن يواري هذا الحزن الــــذي عمه قليلا فأنشد بعض أبيات الفخر في محاولة منه للخروج من حالة الحـــــزن ومحاولة نسيانها :

متى تُخلِفُ الأيامُ مثلي لكم فــتًى   طويلَ نجادِ السيفِ رحبَ المقلَّــدِ
متى تُخلفُ الأيامُ مثلي لكم فــتىً   شديدًا على البأساءِ غيرَ ملــهَّدِ[1]
فإن تفتدُوني تفتدُوا شرفَ العُــلا   وأســرعَ عــوَّادٍ إليــها معــوَّدِ
وإن تفتدُوني تفتــدُوا لعلاكُــمُ   فتىً غيرَ مردودِ اللسانِ أو اليــدِ
يطاعِنُ عن أعراضِكُم بلســانِهِ   ويضربُ عنكُمْ بالحسام المــهنّدِ

فبجانب عاطفة الحزن العامة فى هذه القصيدة نجد عاطفة الفخر و العـزة فى بعض أبياتها التى أنشدها الشاعر لخدمة الغرض الذى عبر عنه مرات عديـدة فى هذ القصيده ، وهو الإسراع فى مفاداته وتخليصه من أسره ، حتى يكــون بجوار قومه فى الملمات وأوقات الشدائد .

ونحس عاطفة الحزن هذه فى إحساس الشاعر بالعيد الذى مر عليه وهــو بخرشنة أسيرا . وإن كان حزن أبى فراس فى هذه الأبيات حزنا سطحيا مفتعــلا إلى حد كبير . فقد نظر إلى مظاهر العيد فرآها غير مبهجة كما كانت من قبـل.

والسبب أن العيد مر عليه هذا العام وهو أسير معنى القلب مكروب. وهــذه الحالة حجبت عنه كل حسن للعيد أو سرور به .كما توقع أن يكون العيد قــد طلع على أهله بمنبج ، والشام بوجه لاحسن فيه ولا طيب . بســبب غيــاب فارسهم عن ديارهم:[2]

يا عيدُ ما عدتَ بمحبــوبِ   على مُعَنَّى القلبِ مكــروبِ

---

١ - غير ملهد:أي غير ذليل .
٢ - ديوان أبي فراس ٥٤ .

ياعيدُ قد عدتَ على نـــاظرٍ عن كلِّ حسن فيك محجـوبِ
يا وحشةَ الدارِ الـــتى ربُّهَـــا أصبحَ فى أثـــوابِ مربـــوبِ
قد طلعَ العيدُ علـــى أهلِـــهِ بوجهِ لاحُسْـــنٍ ولا طِيـــبِ
مـــالِى وللدَّهـــرِ وأحداثِـــهِ لقـــد رَمَـــانى بالأعـــاجيبِ

ولا شك أن الأبيات تنم عن شاعر حزين حرم بهجة وســـرورا كـــان يعيشها بين أهله وأحبابه فى العيد ، فإذا به يجد نفسه أسيرا وحيدا حزينا ذليـــلا فى يوم ينبغى أن يكون فيه فرحا سعيدا . ولكن الفرق كبير بين درجة الحزن فى هذه الأبيات وحزن الشاعر فى القصيدة السابقة عليها .

أما رومية أبى فراس الرائية : [١]

أراكَ عصِيَّ الدمعِ شيمتُكَ الصبرُ أمَا للهوَى نَهْىٌ عليكَ ولا أمْرُ

فقد تعددت فيها عاطفة الشاعر ما بين شكوى وحزن وافتخار وتهكـــم بالأعداء . ولكن المؤكد أن الشاعر تغزل وافتخروتهكم بأعدائه وهـــو مفعـــم بالحزن والألم ، وكأنه أراد أن يتخلص مما تمتلئ به نفسه من هموم وآلام فلجـــأ إلى هذه الأساليب التى حاول من خلالها أن يعيش كما يعيش غيره من الشعراء الطلقاء ، حيث يتغزلون أو يفخرون ، أو حتى يتهكمون بأعدائهم . وهذا سر من أسرار براعة الشاعر فى هذه القصيدة ، أن يتغزل وهو جريح معـــذب ، وأن يتيه ويفتخر وهو محطم أسير مقيد ." فأية شاعرية هذه التى ترسل الغـــزل والروح معذبة بالألم الجلود ، والدمع الكاوى تحاجر العـــين دون أن تفضـــح

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٢ .

عشقها أو ترى مكامن شوقها للحبيب . إن العشق النبيل النابع من شـــوامخ القصر الحمداني المترف بجميل مايرى ، والمعذب يشقى ما يخفــى . إن غــزل الحمداني يذيع على الملأ عنوان عظمة الإمارة في قانون الحب فيقول : للقلــب كل الحق أن يحب من يشاء، ولكن ليس له الحق بأن يذل النفــس أو يشــقى الروح أمام الناس إذا آلمه الحب . بل عليه أن يخفى لوعتـــه ويظـــهر صــبر الرجولة الحقة " .[1]

إن غزل أبي فراس في هذه القصيدة هو غزل يعبر عن رجولة تتعــــذب كالأطفال . ولكنها تكتم الحب بقوة الرجولة والفروسية :

أراكَ عصيَّ الدمع شيمتُكَ الصَّبرُ ... أمَا للهوَى نَهيٌ عليـــكَ ولا أمـــرُ
بلَى أنا مشتاقٌ وعنـــدِي لوعَــةٌ ... ولكنَّ مثلِي لا يــُـذاع لــه سِــرُّ
إذا الليلُ أضوَاني بسطتُ يدَ الهوَى ... وأذللتُ دمعًا من خلائقِــه الكـــبرُ

هذه الرومية وإن خلت من طلـــب الفـــداء ، وان امتـــلأت بـــالغزل والكبرياء والفخر، فإنها لم تخل من الشكوى والتشكي . ففيها الافتخار البـــارع والنسيب الرقيق ، وفيها نفس أبي فراس القوية.

ولكن ما أخذ على الشاعر في القصيدة أنه بعد ثباته أمام دلال المحبوبـــة وبعد فخره القوي ببسالته وشجاعته ، نجده يذكر عددا من المبررات التي أدت به إلى الوقوع في الأسر ، حاول من خلالها أن يبريء نفسه من مسؤلية الوقوع

---

١ - أبو فراس الحمداني شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ٦٩ .

في الأسر.* أما الذي أساء إلى هذه القصيدة فهو كثرة التبريرات التي أوردها الشاعر. وكأنه يريد أن يقنعنا بها، وأن أسره كان معقولا ومقبولا... فكانت النتيجة بالطبع عكس ما أمل الشاعر، وقد أرهق بها شعره... كما أبعد وجدانه عن أن يتدفق بحرارة كافية". [١]

وقصيدة أبي فراس اللامية: [٢]

يا حسرةً ما أكادُ أحملُها آخرُها مزعجٌ وأولُها

هذه القصيدة بعث بها أبو فراس إلى سيف الدولة بعد أن علم أن أمه ذهبت إليه في حلب لتكلمه في مفاداة ولدها، ولكنه ردها خائبة.

في هذه الرومية تشجينا عاطفة الحزن المؤلم والإحساس الصادق العميق بمأساة الأم العجوز المريضة الحزينة التي لولا وقوع ولدها في الأسر لعاشت السنوات الأخيرة من حياتها سعيدة هانئة بما كانت ستسمعه وتراه من أمجاد ولدها. وفشلها في طلب مفاداته قد أحالها إلى أم باكية حزينة مسهدة.

ومعاناة هذه الأم وحزنها وبكاؤها وإحساسها بالذل والمهانة بسبب أسر ولدها جعل أبا فراس يذوب حسرات وآلام كلما سمع عن تردى حالة أمه ومعاناتها وآلامها بسببه. مما جعله يهتف بهذا الشعر الذي يصور فيه حالة الأم ويتحسر على ما أصابه وأصابها بسببه:

---

١ أبو فراس الحمداني - خليل شرف الدين ١٨٤ -

٢ - ديوان أبي فراس ٢٦٣ .

عليلةٌ بالشآم مفردةٌ بات بأيدى العِدا معلّلُها
تمسكُ أحشاءَها على حُرَقٍ تطفئُها والهمومُ تشعلُها
إذا اطمأنّتْ - وأينَ - أو هَدَأتْ عنّتْ لها ذِكْرَةٌ تُقلقِلُها

في هذه القصيدة توزعت عاطفة الشاعر بين التحسر الذي يتلظى به قلبه المفجوع بحال أمه ومعاناتها من أجله، وبيّن فجيعته بموقف ابن عمه منه وعتابه له لرده الأم خائبة حزينة. [1]

وجاءت القصيدة خالية من المقدمة التقليدية لعدم مناسبة هذه المقدمة للقصيدة وموضوعها وجوها النفسي. وإنما بدأها أبو فراس بالتحسر على ما حدث له في سجنه، وما حدث لأمه وهي بعيدة عنه فجاء مطلعها مترجما عن الألم المتوغل في نفس الشاعر، ومعبرا عن الحسرة التي اعترته. والآلام التي مزقت قلبه.

وقد حاول الشاعر في الجزء الأول من القصيدة أن يعلن عن آلامه، وما يحس به من أحزان على حال أمه التي رجعت مكسورة الخاطر من رحلتها إلى سيف الدولة وقد أرجع السبب في هذه الأحزان إلى تلك الأم العليلة التي غاب عنها ولدها أسيرا فى بلاد الأعداء. وقد برزت عاطفة الحزن في وصفه لحال الأم التي (تمسك أحشاءها على حرق)، والتي كلما حاولت إطفاءها بالصبر أشعلتها الهموم ثانية. وإذا أحست بالطمأنينة للحظات فإنها سرعان ما

---

١ - انظر كتاب:أبو فراس الحمدانى - خليل شرف الدين ١٥٥ .

تروع وتفزع. ومن أين لها بالطمأنينة والهدوء وذكرى ولدها تلوح أمام عينيها في كل لحظة تقلقها بل (تقلقلها).

وانتقل أبو فراس من ذلك إلى الحديث عن رحلة أمه من منبج إلى حلب في الطرق الوعرة تسأل كل من يصادفها عن ولدها الأسير المقيد في بلاد الروم، وتحملهم رسائل الشوق والحنين إليه، ودموعها لا تجف ولا ترقأ:

تسألُ عنّا الركبانَ جاهِدَةً   بأدمعٍ ما تكادُ تُمهلُها
يا مَنْ رأى لي بحصن خَرْشَنةٍ   أُسْدَ شرًى في القيودِ أرجلُها
يا مَنْ رأى لي الدروبَ شامخةً   دونَ لقاءِ الحبيبِ أطولُها
يا مَنْ رأى لي القيودَ موثقةً   على حبيبِ الفؤادِ أثقلُها

ومن منطلق عاطفة أبي فراس الحزينة وإحساسه بأمه وحالتها أخذ يهتف بعدة أبيات في صورة رسالة شعرية يبعث بها إليها في محاولة منه لتهدئة روعها والتخفيف من آلامها ومعاناتها. فيذكر لها — وهو المصاب — بأن حال الحياة هكذا لا دوام ولا استقرار، ويدعوها إلى التصبر والتجلد أمام ما نزل بها :

يا أيُّها الراكبانِ هلْ لكُما   في حمل نجوَى يخفُّ محملُها
قولَا لها إنْ وَعَتْ مقالكُما   وإن ذكري لها ليُذهِلُها
يا أمَّتَا هذهِ منازِلُنَا   نتركُها تارةً وننزلُها
يا أمتَّا هذهِ موارِدُنَا   نعلُّها تارةً وننهَلُها

ثم تتحول العاطفة الحزينة التي امتلأت بها نفس أبي فراس في الأبيات السابقة من القصيدة إلى عاطفة السخط والغضب ، بانتقاله إلى مخاطبة ابن عمه

سيف الدولة معاتبا إياه عتابا أبيا تارة ، ومعترفا بفضله عليه تارة أخرى ، وقد احتفظ الشاعر لنفسه في الحالتين بصفات الإنسان الوفي الأبي الذى لا يرضى لنفسه الاستسلام أو التنازل عن مكانته الرفيعة ، ولا يريد أن يقطع تلك الوشائج المتينة التى تربطه بابن عمه ، مع أن حزنه وألمه على أمه التى ردت خائبة يغلب على نفسه ومشاعره ، فنراه يلمح قبيل عتابه سيف الدولة بأبيات ثلاثة بأنه هو الذى أسلمه إلى هذه النوب العظيمة التى أيسر ما فيها القتل ، وبعد أسره استبدل به أقواما هم أدنى منزلة وأقل شأنا منه ، ورغم ذلك فهو يتحمل من أهوال الأسر وذل القيد ما يتحمل في سبيل رضا ابن عمه عنه :

أسلَمَنا قومُنَا إلى نُوَبٍ ... أيسرُهَا في القلوبِ أقتلُهَا
واستبدَلوا بعدَنا رجالَ وغًى ... يودّ أدنى عُلاى أمثلُها
ليستْ تنالُ القيودُ من قدمي ... وفي اتباعي رضَاكَ أحملُها

وبعد أبيات يسيرة في مدح سيف الدولة ينتقل إلى عتابه :

بأيِّ عذرٍ رددتَ والهَةً ... عليكَ دونَ الورَى معوِّلُها
جاءتكَ تمتاحُ ردَّ واحِدِهَا ... ينتظرُ الناسُ كيفَ تقفِلُها

وبعد عتاب طويل ترددت فيه لهجة الشاعر بين العنف والرقة يتحول الشاعر إلى مادح لسيف الدولة ومستعطف إياه لتخليصه من الأسر ، ويختم القصيدة بالتصريح بطلب الفداء من ابن عمه جاعلا ذلك من أفضل المكارم التى ترفع من قدره وتعلى مكانته :

يا منفِقَ المــــال لا يُريـــدُ بـــهِ   إلاّ المعالِي الـــتي يؤثِّلُــها
أصبحتَ تَشْرِي مكارمًا فُضُــلاً   فِداؤنا قد علِمتَ أفضلُـــها
لا يقبلُ الله قبل فرضِــــكَ ذا   نافلــةً عنـــدَه تنفُّلُـــــهَا

وهكذا اصطبغت عاطفة الشاعر بالحزن والألم في نهاية القصيدة ، كما اصطبغت بها في الجزء الأول منها ليعلن أن سخطه وغضبه في داخل القصيدة إنما كان سببه الحزن والضيق والألم الذى أحس به نتيجة إحساسه بحال أمه المتردى ، وما أصبحت عليه بعد أن ردها سيف الدولة خائبة بعد رحلتها الطويلة الشاقة إليه : " لقد عرف في محنة الأسر حقائق مروعة أسلمته إلى التشاؤم ، عرف الأصدقاء والأهل الذين تنكروا له وتنقصوه ، وشجعوا أميره على إهماله فكانت الخيانة والغدر فى هذا الموقف محور محنته ، ففر منهم إلى صدر أمه الذى لا يغدر ولا يخون ، وبثها فى موقف بنوى صريح مواجده وأحزانه وتوجساته وكانت أمه عالما كبيرا يدخله آمنا ، ويفضى إليه بذات نفسه "[1] .

إن شعره إلى أمه فى هذه القصيدة وفى غيرها من رومياته يعبر عن عاطفة امتزج فيها حنين الابن إلى صدر أمه ، واللجوء إلى أمنه ، بعد أن أحس بغدر خلانه وأصدقائه ، وبالألم والحزن على هذه الأم المريضة المسكينة المعذبة التى تعيش سنوات حياتها الأخيرة فى حالة من الشقاء والتعاسة بسبب بعد ولدها عنها ولا من مخلص له من أسره:

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٥٥٥ .

لولا العجُوزُ بمنبجٍ ... ما خِفتُ أسبابَ المنيَّةْ
ولكانَ لِي عمَّا سألْتُ من الفِدَا نفسٌ أبيَّةْ
لكنْ أردتُ مرادَهَا ... ولو انجذبْتُ إلى الدنيَّةْ
أمسَتْ بمنبجٍ حرَّةٌ ... بالحزنِ من بعدِي حريَّةْ
فيها التُّقَى والدِينُ مجموعَانِ في نفسٍ زكيَّةْ
ياأمتَا لاتحزَنِي ... وثِقِي بفضلِ الله فيَّهْ
ياأمتَا لاتيأسِي ... لله ألطافٌ خفيَّهْ
أوَصِيكِ بالصَّبرِ الجميلِ فإنَّه خيرُ الوصيَّةْ [1]

وبعد أن تردت حال الأم واشتدت عليها العلل والأمراض ماتت أم أبي فراس وهو في الأسر ، فبكاها بقصيدة مؤثرة فاضت بها عاطفة الشاعر الحزينة فجاءت مثيرة للحزن باعثة على الألم والحسرة لما اتصفت به العاطفة في هذه القصيدة بالصدق النابع عن شدة تعلق الشاعر بأمه وقوة ارتباطه بها مما جعل بكاءه لها بكاء حقيقيا وحزنه عليها حزنا واقعيا :

أيا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ ... بكرهٍ منكِ مالَقِيَ الأسيرُ
إذا ابنُكَ سارَ في برٍ وبحْرٍ ... فمَنْ يدعُو له أو يستجيرُ
حرامٌ أن يبيتَ قريرَ عيْنٍ ... ولؤمٌ أن يلَمَّ به السرورُ
وقد ذقتِ المنايَا والرَّزايَا ... ولا ولدٌ لديكِ ولا عَشيرُ
وغابَ حبيبُ قلبكِ عن مكانٍ ... ملائكةُ السماءِ بهِ حضُورُ [2]

---

١ - ديوان أبي فراس ٣٥٥ .

٢ - ديوان أبي فراس ١٦١ .

إن هذه القصيدة تبدو فيها عاطفة الحزن والحسرة على الوالدة ظاهرة متقدة ، لأن الدافع وراء رثاء أبي فراس لوالدته لم يكن مجرد الوفاء -كما ذكر النقاد فى الدافع إلى الرثاء.(١) وإنما لإحساسه بعظم المصيبة التى أصيب بها قلبه لاسيما أنه فقدها وهو أسير بعيد عنها وكان ارتباطه بها وحنينه إليها قويا شديدا .

إن الفرق عظيم بين حزن أبي فراس فى هذه القصيدة على أمه ، و بين حزنه فى قصيدة أخرى على أخت سيف الدولة - رغم قوة العاطفة فى القصيدتين ولكن الفرق - كما قلت فى درجة الحزن كبير لأن إنشاده قصيدته فى رثاء أخت سيف الدولة من باب الوفاء. ولذا نلحظ أنه تحدث فيها مع سيف الدولة أكثر مما تحدث عن المرثية وصفاتها ، وعما أصابه هو بموتها:

أُوصيكَ بالحزنِ لا أُوصيكَ بالجَلَدِ ... جَلَّ المصَابُ عن التعنيفِ والفَنَدِ
إنى أجلُّكَ أن تُكْفَى بتعزيةٍ ... عن خيرِ مفتقَدٍ يا خيرَ مفتقِدِ
هي الرزيَّةُ إن ضَنَّتْ بما مَلَكَتْ ... منها الجفونُ فما تسخُو على أَحَدِ
بى مثلُ مابكَ من حزنٍ ومن جَزَعٍ ... وقد لجأتُ إلى صبرٍ فلم أجدِ
لم ينتقصْنِى بُعدِى عنك من حزنٍ ... هى المواساةُ في قربٍ وفي بُعُدِ(٢)

إن البون شاسع بين قوة العاطفة فى رثائه لأمه ورثائه لأخت سيف الدولة.ففى القصيدة الأولى تبدو عاطفة الحزن متأججة قوية .أما فى القصيدة

١ .العمدة ١ / ١٢٣ .

٢ - ديوان أبى فراس ١١١ .

الثانية فتبدو أقل قوة. مما يجعلنا نحكم على عاطفة الشاعر في رثاء أخت سيف الدولة بالضعف إذا ما قورنت بعاطفته في رثاء والدته.

إننا حين نقرأ رثاء أبي فراس لوالدته نشعر بهذا الإحساس الفاجع الذي امتلأت به نفس الشاعر بموت أمه .فصرخاته الشجية المصحوبة بالدموع والآهات تنم عن شعور حقيقي بالوحدة في هذه الحياة ، وعن الفجيعة الداخلية التي تدل على البنوة المخلصة المعذبة بسبب فقد من كانت له عالما من الحنان والعطف والصدق ، وغيرها من المعاني الجميلة التي افتقدها فيمن حوله غيرها بعد أسره [١].

وننتقل مع عاطفة أبي فراس في رومياته إلى تلك الأبيات التي يناجي فيها حمامة تنوح على شجرة عالية بجوار أسره [٢]

أقولُ وقدْ ناحَتْ بقُربي حمامَةٌ	أيا جارَتا هل تشعُرينَ بحَالي
معاذَ الهوَى ماذقتِ طارقةَ النَّوَى	ولاخَطَرَتْ منكِ الهمومُ ببالِ
أتحملُ محزونَ الفؤادِ قوادمٌ	على غُصُنٍ نائي المسافةِ عالِ
أيا جارَتَا ما أنصفَ الدّهرُ بيننَا	تعالَي أقاسِمْكِ الهمومَ تعالَي
تعالَيْ ترَيْ روحًا لدىَّ ضعيفَةً	تردّدُ في جسمٍ يعذَّبُ بالِ
أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقَةٌ	ويسكُتُ محزونٌ ويندبُ سالِ
لقد كنتُ أولَى منكِ بالدمع مقلةً	ولكنَّ دمعي في الحوادثِ غالِ

---

١ - انظر: الأسر والسجن في شعر العرب ٥٥٥ .

٢ - ديوان أبي فراس ٢٨٢ .

إن عاطفة الشاعر في هذه الأبيات بمثابة المشاركة الوجدانية التي تبرز مدى الاحساس بالتجانس الوجداني بين الإنسان والحيوان.وهي تصدر من فتى عاطفي رومانسي الروح كله لهفة وحنين إلى عالمه الرحب وماضيه الجميل الذاهب ، وقد أوحت إليه الحمامة بنشيجها ونواحها بما هو فيه من أسر وقيد وضيق . فرأى نفسه أحق بالبكاء منها ؛ فهي الطليقة الحرة ولا ينبغي أن تبكي الطليقة ويضحك المأسور المعنى ، ولا يصح أن يندب الطائر السالي ويسكت الإنسان المحزون الفؤاد . هذه الحالة التي عاشها الشاعر بعد سماعه نواح الحمامة جعلته يصب غضبه على الدهر الذي لم ينصف بينه وبين هذا الطائر . فيغبطها على ما هي فيه من حرية وانطلاق .

" أما المعاني الجزئية في فلذة أبي فراس فلا يهمنا أن تكون عادية أومطروقة بقدر ما يهمنا أن تكون مطابقة لمقتضى الحال كما كان النقاد القدامى يقولون.أو منسجمة مع الحالة النفسية ولغته الخاصة كما نقول نحن اليوم.وإنها لكذلك . وقد أفرغها الشاعر بقالب بديعي معروف هو الطباق الذي يسهل على الشاعر تصوير حالة التضاد والتناقص التي هو فيها . ثم ذلك الاستفهام التعجبي أو السؤال الإنكاري : " أيضحك مأسور وتبكي طليقة ؟ ويسكت محزون ويندب سال ؟" الذي ساعد على شحن حالة التضاد بكمية من العجب والدهشة من طليق يبكي وسجين يضحك .كما ساعد على نقل حالة الحيرة والكآبة والمرارة المسيطرة على الشاعر وأحاسيسه إلينا .. ولقد بث أبو فراس في بيت واحد كل ما أراد أن يقول ، وأبعد مما أراد أن يقول.

وفي هذا مقدرة على البث وضغط التجربة .. كما أن فيه سـراً مـن أسـرار الإبداع الشعري حين يستطيع الشاعر أن يحمل معانيه أكثر مـن مدلولاتهـا المباشرة نفاذا إلى أعماق الحالة بكل أبعادهـا، والصـورة بكـل كثافتـها وإشعاعاتها[١] . والمفهوم بطبيعة الحال أنه لايناجي الحمامة باعتبارها كائنا لا يعقل ، وإنما هي مجرد رمز يناجي من خلاله من يعنيهم ويقصدهم بمناجاتـه ، وشعره مثل سيف الدولة وأمه وأصدقائه ، وملاعب صباه ، والزمن والقـدر .. إلى غير ذلك .[٢]

وفي مقابل عاطفة الحزن وما قد يطرأ عنيها من عواطف أخرى بسبب ما يلقاه الشاعر الفارس أبو فراس الحمداني في أسره ، نلتقي بتمثيلاتها عند المعتمد ابن عباد الملك الأسير الذي أذله الأسر،فعبر عن حزنه وأساه في صور مختلفـة، نراه في إحداها وهو يعبر عن ضيقه بأسره من خلال مخاطبة هذا القيد الـذي يحرمه حريته، بل ويحط من قدره أمام ابنه وبناته. ففي هذه القصيـدة تـبرز عاطفة الأبوة الحزينة من خلال تلك الصورة التي رسمها الشاعر لنفسه أمـام عيني ولده الصغير الذي تعود أن يرى أباه ملكا يجلس على عرش مملكتـه في أحد قصوره الفخمة المليئة بالخدم والحشم والجواري ، فإذا به يراه في سـجنه الضيق مقيدا ذليلا. ولا يجد الأب الحزين في هذا الظرف القاسي إلا أن يتوسل إلي قيده عله يرحمه ويبقى على ما بقى منه، حتى تنتهي زيارة ولده لـه رحمـة بالصغير وشفقة على الكبير المكلوم.إنها صورة الأبوة التي مزقها الألم والصغار:

---

١ - أبو فراس الحمداني . خليل شرف الدين ص ١٤٥ .

٢ - انظر: المرجع السابق ١٤٧ .

قيدى أما تعلمني مسلما أبيت أن تشفق أو ترحما

دمى شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأعظما

يبصرني فيك أبو هاشم فينثني القلب وقد حطما

ارحم طفيلا طائشا لبه لم يخش أن يأتيك مسترحما

وارحم أخيات له مثله جرعتهن السم والعلقما

منهن من يفهم شيئا فقد خفنا عليه للبكاء العمى

والغير لا يفهم شيئا فما يفتح إلا لرضاع فما[1]

إن عاطفة الحزن الممض، والكآبة السوداء تجلل أبيات هذه القصيدة كلها،والحزن الذي تفيض به عباراتها يفوق حزن أبي فراس في قصيدته الدالية:

دعوتك للجفن القريح المسهد

على طولها. رغم ما يجمع بينهما من ضيق بالأسر وذله وانكساره. ولذلك لانجد للمعتمد بيتا واحدا في الفخر ضمن أبيات هذه القصيدة. إذ كيف يفخر من يحس بالذل والمهانة أمام أبنائه الذين تعودوا على رؤية والدهم عزيزا مهابا ؟ إن الشاعر هنا قد شغله حزنه وألمه وذله عن تذكر أي عز مضى أو أي سلطان ضاع.

ونجد هذه الصورة المعبرة عن عاطفة الأبوة الحزينة البائسة قد تكررت في مشهد آخر للمعتمد مع أولاده. وذلك يوم دخل عليه بناته في يوم عيد فنظر إليهن وتأمل ما أصبحن عليه من ذل وانكسار، ورأى نفسه عاجزا عن

---

١ - ديوان المعتمد ١١٢ .

إزاحة بعض همومهن وهو الأسير المقيد . فانطوى على نفسه وتفجر قلبه بهذه الأبيات :[1]

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورًا فساءك العيدُ في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعةً أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدامُ حافيةٌ كأنها لم تطأ مسكًا وكافورا
لاخدَّ إلا ويشكو الجدبَ ظاهرُه وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
أفطرتَ في العيد لاعادتْ إساءته فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً فردك الدهر منهيًا ومأمورا
من بات بعدك في ملكٍ يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

إن الفرق كبير بين موقف المعتمد هذا من العيد وهو يرى بناته بهذه الصورة وبين موقف أبي فراس من العيد الذي مر عليه وهو بخرشنة أسيرا. فعاطفة الحزن والألم هي المهيمنة على كلا الشاعرين في نظرتهما إلى العيد.ولكن الفرق كبير بين حزن أبي فراس الذي عبر عن عدم إحساسه بالعيد لأنه مر عليه وهو معنى القلب مكروب، فلم يشعر بما كان يشعر به من حسن وبهجة للعيد في الزمن الماضي كما أن أهله لم يشعروا ببهجة العيد وهو بعيد عنهم. وبين حزن المعتمد الذي عبر عنه من خلال هذه الصورة البائسة التي رأى بناته عليها في هذا اليوم بعد أن كن فيما مضى يعشن بهجة العيد بكل صورها وأشكالها.

١- ديوان المعتمد ١٠٠

إن إحساس المعتمد الشديد بحالة الانقلاب القوي الذي حدث لحياته، وشعوره بالهوة السحيقة بين ماضيه الزاهر وحاضره البائس جعله يعبر عن الكارثة التي أصيب بها، والمأساة التي تعرضت لها أسرته تعبيرا يملأ نفس كل من يتأمله بالحسرة والألم على حال هذا الأب العاجز الذليل أمام أطفاله وأسرته البائسة الحزينة. وأبرز ما يميز هذا الشعر ويجعل القارىء يشارك السجين آلامه وأحزانه هو الصدق في التعبير عن عاطفة الأبوة التي لازيف فيها ولا تمويه.[١]

ومرة أخرى نحس بعاطفة الأبوة الحزينة عند المعتمد بن عباد حينما يتحدث عن بناته وهن يقمن بصنع الغزل ليعشن من أجره. ويشاء القدر أن يدخل عليهن فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها الذي كان من أعلى مهامه الإعلان بظهور الملك ودفع الناس من بين يديه يوم بروزه، والركوع بين يديه. وقد شق ذلك على الوالد الملك الأسير فتمنى الموت وفضله على البقاء في هذه الحياة التي يرى فيها بناته في هذه الحال المؤلمة البائسة. وعبر عن ذلك بشعر يقطر أسي وحسرة. فقال معقبا على دعوة الطبيب ابن زهر الإشبيلي له بالبقاء الطويل: [٢]

دَعَالي بالبقاءِ وكيفَ يَهوَى أسيرٌ أن يطولَ به البقاءُ
أليسَ الموتُ أروحَ من حياةٍ يطولُ على الشَقيِّ بها الشَّقَاءُ

---

١ - انظر، كتاب الأسر والسجن في شعر العرب ٥٥٠ .

٢ - ديوان المعتمد ٩٠ .

فمَنْ يكُ مِن هواهُ لقاءُ حِبٍّ ... فإنَّ هوايَ من حَتفي اللقاءُ

أأرغبُ أن أعيشَ أرى بناتي ... عواريَ قد أضرَّ بها الجَفاءُ

خوادمَ بنت مَنْ قد كان أعلى ... مراتبه - إذا أبدُوا - النداءُ

وطردُ الناس بين يدَيْ ممرِّى ... وكفُّهمُ إذا غصَّ الفِناءُ

وركضٌ عن يمين أو شمالٍ ... لنظم الجيش إن رُفع اللواءُ

يعنيه أمامٌ أو وراءٌ ... إذا اختلَّ الأمامُ أو الوراءُ

إن عاطفة المعتمد الحزينة فى حديثه عن أولاده فى هذه القصيدة ، وفى القصيدتين السابقتين ، وفى غيرها وهو سجين عاجز عن دفع الضم عنهم ، تذكرنا بعاطفة أبى فراس عندما يحدثنا عن أمه وحالها ، وما أصابها بعد أسره وهو عاجز عن التخفيف من آلامها وأوجاعها . إن شعر كل منهما فى هذا المجال يعبر عن القلق الذى يجرى فى نفس الشاعرين عن مصير من يتعلقون به: قلق أبى فراس على مصير أمه التى فارقها ولدها ، وقلق المعتمد على مصير أسرته المعذبة بعذابه و المشردة بأسره والقضاء على ملكه كما يعبر هذا الشعر عن الألم المصحوب بحالة من الغضب فى كثير من الأحيان - على الأمير الحمدانى - عند أبى فراس - الذى لم يرحم هذه الأم المريضة ويخلصها من عذابها بفداء ولدها ، والغضب على هؤلاء الذين حرضوا الأمير على إهماله ، وعدم افتدائه شفقة بهذه الأم الوالهة المعذبة . والغضب والسخط على الآسر الظالم عند المعتمد - الذى نقض العهد ونسى أيام المودة والمشاركة فى الحرب تحت لواء الإسلام وانتزع منه ملكه وقتل بعض أولاده ، وشرد بقيتهم دون ذنب أذنبه أو إثم ارتكبه . ولكن إحساسى بأن هذه العاطفة الحزينه عند

المعتمد فى حديثه عن أولاده وبناته أقوى . مع أن الحديث فى شعر كل من الشاعرين متصل بأقرب الناس إلى الشاعر - الآباء و الأبناء - " آباؤُكُمْ وأبناؤُكُمْ لا تدرُونَ أيُّهُمْ أقربُ لكم نفعًا :" (١) إلا أن تصوير المعتمد لأحوال بناته يجعل شعره مؤثرا فى نفس المتلقى بصورة أوضح مما نجده فى شعر أبى فراس .

ومن شعر المعتمد الفياض بعاطفة الحزن والألم شعره في رثاء ولديه المأمون والراضى . فبكاؤه لهما ينم عن صدق فى العاطفة وشعور حقيقى بالحزن والألم . فقد رفض طاعة من ينصحونه بالصبر على فقدهما ، بل وجعل صبره على فراقهما نوعا من الغدر بهما ، وأشرك العديد من مظاهر الكون فى بكائه لهما فزهر النجوم تبكيهما فى مأتم يقمنه كل ليلة :

ترَى زهرَها فى مأتمٍ كلَّ ليلةٍ
تُخَمِّشُ لهفاً وسطَه صفحةَ البدرِ
ينُحْنَ على نجمَيْنِ أُثكلتُ ذا وذا
وأَصبرُ ما للقلبِ فى الصَّبرِ من عُذْرِ (٢)

ويقول : (٣)

فقُلْ للنُّجوم الزُّهرِ تبكيهِمَا معِى ... لمثلهِمَا فلتحزَن الأنجُمُ الزهرُ

١ - من الآية ١١ من سورة النساء .
٢ - ديوان المعتمد ١٠٥ .
٣ - ديوان المعتمد ٦٩ .

والغمام يبكيهما بدمعه الوابل المستمر ، والبرق يشعل ناره التى يقتبسها من جمر نار قلب الأب الملتهب.

مَدى الدهرِ فليبكِ الغمامُ مُصابَه
بصنويْه يعذر فى البكاءِ مدَى الدَّهْرِ

بعينِ سحابٍ واكفٍ قطرُ دمعِها
على كلِّ قبرٍ حلَّ فيه أخو القطرِ

وبرقٍ ذكىِّ النار حتى كأنَّما
يسعر مما فى فؤادى من الجَمْرِ

ورغم قوة انهمار ماء القطر حزنا على المرثيين ورغم قوة النار التى يحترق بها البرق أسفا عليهما ، فإن ما يسكبه الشاعر من دمع أقوى من ماء القطر لأن حزنه عليهما أشد كما أن نار قلبه أقوى وأبقى من نار البرق . ويا عجبا كيف يلتقى الماء والنار فى قلب الشاعر الوالد فتجتمع فيه النيران والطوفان.

يا غيمُ عينى أقوى منكَ تَهْتَانَا ... أبكى لحُزنِى وما حُمِّلتَ أحزانَا
ونارُ برقك تخبُو إثرَ وقدتِهَا ... ونارُ قلبى تبقَى الدهرَ بركَانَا
نارٌ وماءٌ صميمُ القلبِ أصلُهمَا ... متى حوى القلبَ نيرانًا وطوفَانَا[1]

إن مثل هذه الصور لتعبر عن نفس ملأها الحزن والألم حتى أفقدها

---

١ - ديوان المعتمد ٦٩ .

صبرها وجعل الجزع يخيم عليها .

وقد عبر المعتمد عن فرط حزنه على أولاده ـ فى قصيدته الرائية الثانية ـ بطريقة أخرى،وهى عقد مقارنة أو مفارقة بينه وبين الحمامة التى رآها تنوح على إلفها،لا لأن الحمام رمز للحزن ولكنه رمز للعاطفة الصادقة الشديدة، مهما تنوعت هذه العاطفة . وقد أبان المعتمد أن حزنه على أولاده يفوق حزن الحمامة ونواحها على إلفها . يقول.[1]

بَكَتْ أنْ رأَتْ إلفيْنِ ضمهمَا وكـرٌ ... مساءً وقد أخنَى على إلفهَا الدهـرُ

بكتْ لم تُرِقْ دمعًا وأسبلتُ عَبْرةً ... يقصِّرُ عنها القطرُ مهما همَى القطْرُ

بكَتْ واحدًا لم يشجِهَا غيرُ فقدِهِ ... وأبكِى لآلاَفٍ عديدُهُمُ كثْرُ [2]

ومن مظاهر صدق العاطفة فى رثاء المعتمد لولديه أيضا إفراده كلا منهما بحديث مستقل بعد الحديث عنهما حديثا مجملا فى أول كل قصيدة . وذلك إمعانا منه فى تذكر كل منهما . واستحضار صورتهما ، وحبا فى ترديد اسميهما على لسانه.ففى أول القصيدة الرائية الطويلة يجمل الحديث عنهما فيقول :

يُحَّنَ على نجمَيْنِ أُثكِلْتُ ذا وذا
وأُصبرُ ما للقلبِ فى الصَّبرِ من عُذْرِ

مدى الدهرِ فليبكِ الغمامُ مُصابَهُ
بصنويْهِ يعذرْ فى البكاءِ مدَى الدهرِ

---

١ - ديوان المعتمد ٦٨ .

٢ - أنظر : رثاء الأبناء في الشعر العربي مخيمر صالح . ١٧٠ ، ١٧١ .

ويعود فيفرد كلا منهما بحديث مستقل فيقول :

هَوَى الكوكبانِ الفتحُ ثم شقيقُهُ　　يزيدُ فهلْ عندَ الكواكبِ من خُبْرِ
أفتحٌ لقد فتَّحتَ لي بـــابَ رحمةٍ　　كما بيزيدَ اللهُ قد زادَ في أجري

وفي القصيدة النونية يجمل نداءهما فيقول :

يا فلذتَيَّ كبدي يأبَى تقطُّعهـــا　　من وجدِها بكما ماعشتُ سُلوانا
لقد هَوَى بكما نجمانِ ما رَمَيَا　　إلاَّ من العُلو بالألـــحاظِ كيـــوانا

ثم يعود فينادي كلا منهما نداء منفصلا فيقول :

يافتحُ قد فتَّحَتْ تلكَ الشهادةُ لي　　بابَ الطماعةِ في لقياكَ جذلانا
ويا يزيدُ لقدْ زادَ الرَّجا بكـــمَا　　أن يشفعَ اللهُ بالاحسانِ إحسَانَا

كما نراه يستخدم في ندائهما في القصيدة الأولى أداة النداء التي للقريب إحساسا منه بقربهما إليه ووجودهما بجواره . وكأنهما لم يفارقانه. علـــى حـــين استخدم في ندائهما في القصيدة الثانية أداة النداء التي للبعيد (يا) للإحســـاس ببعدهما عنه حيث ماتا في الأندلس، ودفنا بها وهو أسير بأغمات. كما أن هـــذه الأداة بما فيها من مد تمكنه منّ أن ينفث همومه ويخرج ما في صدره مـــن ألم. ثم يلجأ إلى الجناس في غير افتعال أو تكلف بين (فتح وفتحت) في كـــــل مـــن القصيدتين، وبين (يزيد ـــ زاد) في كل منهما أيضا. فوفر هذا لشعره عنصرا موسيقيا يؤدي إلى زيادة التأثير في نفس المتلقي[1].

---

١ - انظر:شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٥٨ .

كما استخدم الشاعر مثل هذا الجناس مرة أخرى في قصيدته الرائيـــة في قوله:

أَبَا خالدٍ أورثتـــَـــنِي البثَّ خالدًا
أبا النَّصرِ مذْ ودَّعتَ ودَّعَنِي نصرِي

" فأبو خالد أورثه الحزن خالدا. وفي تعريف الحزن بـــأل دليـــل علـــى الاستغراق. وأبو النصر منذ ودع الدنيا ودع المعتمد نصره. فقد كانا عدتـــه وأمله في استرداد ملكه ".(١)

ومن مظاهر تنوع العاطفة في رثاء المعتمد لولديه بروز العاطفة الدينيـــة فيه بجانب عاطفة الحزن والجزع. فبعد أن ظهر جزع المعتمد في الأبيات الأولى من قصيدته الرائية، وإعلانه بصراحة عجزه عن الصبر في قوله:

يقولونَ صبرًا لا سبيلَ إلى الصَّبرِ
سأبكِي وأبكِي ما تطاوَلَ من عُمْرِي

وفي قوله:

وأَصْبرُ ما للقلبِ في الصَّبرِ من عذْرِ

وبعد أن جعل الصبر وبقاءه حيا بعد وفاهما نوعا من الغـــدر بهمـــا في قوله:

هَوَى بكما المقدارُ عنِّي ولم أمُتْ وأُدْعَى وفيًّا قد نكصتُ إلى الغَدْرِ

---

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٦١ .

ويقول في القصيدة الرائية الثانية:

غدرتُ إذًا إنْ ضنَّ جفني بقطرِه
وإنْ لؤمَتْ نفسِي فصاحَبَها الصَّبْرُ

بعد هذا الجزء مالبث الشاعر أن أظهر عاطفته الدينية وطمعه في الأجر والثواب من الله — سبحانه وتعالى — فقال:

أفتحٌ لقد فتَّحْتَ لي بابَ رحمةٍ
كما بيزيدَ اللهُ قد زادَ في أجْرِى

وبعد أن صور حزن الأم الشديد وجزعها عليهما عاد إلى إظهار عاطفتها الدينية، وطمعها هى الأخرى في الأجر من الله — سبحانه وتعالى — وركونها إلى التقوى والحرص على عدم مخالفة أوامرها فقال:

معي الأخَواتُ الهالكاتُ عليكُمَا — وأمُّكُمَا الثَّكلَى المضرَّمَةُ الصَّدرِ
تذكِّرُها الذكرَى فتفزَعُ للبُكَا — وتصبرُ في الأحيانِ شُحًّا على الأجْرِ[1]
فتبكي بدمعٍ ليسَ للقطرِ مثلُهُ — وتزجرُها التقوى فتُصْغِي إلى الزَّجْرِ

وكذلك في قصيدته النونية، فقد بدا المعتمد جزعا مفرطا في البكاء في أولها ثم غلبته العاطفة الدينية فخففت من وقع المصاب عليه فقال:

مخفِّفٌ عن فؤادي أنَّ ثكلَكُمَا — مثقِّلٌ لي يومَ الحشرِ ميزَانَا

---

١ - لم يرد هذا البيت بنسخة الديوان التي حققها الأستاذان حامد عبد المجيد وأحمد بدوى،وورد في ترتيبه هذا بالنسخة التي حققها الدكتور رضا الحبيب السويسي .

يا فتحُ لقد فتحتَ تلك الشــهادةُ لي ... بـــابَ الطّماعــةِ في لُقيــاك جَزْلانَــا
ويا يزيدُ لقـــد زادَ الرَّجَــا بكمَــا ... أن يشـــفَعُ اللهُ بالإحســـانِ إحْسَـــانا
لما شَـــفعْتَ أخــاكَ الفتــحَ تتبعُــهُ ... لقاكُمــا اللهُ غفرانــــًا ورضوانَـــا

وأرى أن العاطفة في رثاء المعتمد لولديه أقوى وأظهر مـــن عاطفـــة أبي فراس في رثائه لوالدته. فقد أظهر المعتمد شدة الجزع، وأعلن صراحة عجـــزه عن الصبر بعد موتهما،على حين اكتفى أبو فراس بخطاب أمه والدعاء لقبرهـــا بالسقيا.

وأشرك المعتمد في بكائه على ولديه العديد من مظاهر الكون، وجعـــل كل حركة من حركاتها مظهرا يدل على حزنها الحقيقي على ولديه. ولم يفعـــل ذلك أبو فراس وإنما اكتفى بطلب البكاء من أيام صيامها، وليالي قيامها، ومـــن كل إنسان كان ينتفع بحياتها.

كما أن العاطفة الدينية عند المعتمد أقوى. فقد جعل موت ابنيه وســـيلة إلى كسب رضا الله ورحمته وأجره وثوابه له ولأمهما، وغفرانا لذنوبهما. أما أبو فراس فأخذ يعدد ما كانت تقوم به الأم من وجوه البر والإحسان ؛ فكـــانت تصوم النهار وتقوم الليل، ولكنه لم يبرز عاطفته الدينية النابعة من إحساسه هو.

, وتظهر عاطفة الحزن القوية أيضا في رثاء المعتمد لنفسه بتلك الأبيـــات التي قالها بعد أن طال مكثه في أسره، وأحس بدنو وفاته، وأنه لن يخرج مـــن هذا الأسر إلا إلى القبر. ولذلك جاءت أبياته تعبر عن صدق في العاطفة نـــابع عن إحساس واقعي بأن الموت أخذ يغتال بواعث الحياة في نفسه وأن أيامـــه في

هذا الأسر تذبل كلما تقدم به العمر. فتأججت عواطف الحزن والحسرة داخله فأنشد هذه الأبيات، وأوصى بأن تكتب على قبره لتذكر الناس به وبصفاته وأفعاله:

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغادي ... حقًا ظفرتَ بأشلاءِ ابنِ عبَّادِ
بالحلمِ بالعلمِ بالنعمى إذا اتصلَتْ ... بالخصبِ إن أجدَبوا بالرِّيِّ للصادي
بالطاعنِ الضاربِ الرامي إذا اقتتلوا ... بالموتِ أحمرَ بالضرغامةِ العادي

إلى آخر القصيدة.[١]

وتنوعت عاطفة المعتمد في هذه الأبيات بين عاطفة الحزن، وعاطفة الفخر بصفاته وبطولاته، والعاطفة الدينية التي أوحى بها استحضار صورة قبره ووضعه فيه.

وحين نقرأ أبياته إلى شاعره أبي بكر الداني مع عطائه اليسير الذي أرسل به إليه في نهاية زيارة الشاعر له في سجنه:

إليكَ النزرُ من كفِّ الأسيرِ ... وإن تقنعْ تكن عينَ الشكورِ
تقبَّلْ ما يذوبُ له حياءً ... وإن عذَرتْهُ حالاتُ الفقيرِ
ولا تعجَبْ لخطبٍ غضَّ منه ... أليسَ الخسفُ ملتزمَ البدورِ
وركِّ بجبرِه عُقْبَى نداهُ ... فكمْ جَبَرتْ يداهُ من كسيرِ

إلى آخر الأبيات.[٢]

---

١ - ديوان المعتمد ٩٦ .
٢ - ديوان المعتمد ١٠٢ .

حين نقرأ هذه الأبيات نجدها تفيض بالحسرة والألم على ضياع ملكه وزوال سلطانه. ويدل أسلوبها على نفس سمحة معطاءة كان العفاة يقصدونها فتعطيهم وتفرج كربتهم، ولكن الدهر لم يمهلها، والأيام قضت عليها فقضت على آمال المحتاجين وحوائجهم ، ولم يعد أمامهم إلا الله يلجأون إليه.

إن الشاعر في هذه القصيدة قد عاني تجربة على جانب كبير من الخطورة. وهي تجربة سقوط الإنسان السقوط الأخير تحت وطأة الأحداث، وقوة الأحزان. فقد غدا فريسة سهلة المأخذ لاعتداء الآخرين الذين غدوا وحوشا ممعنة في الفتك والتمزيق، بعد أن كان ملكا مهابا يعمل له كل من حوله ألف حساب. ودليل هذا السقوط هو ذلك الاستسلام والخضوع للقوى الغالبة فهو لا يملك غير التعبير عن الحسرة والألم، وهو بعيد عن الاعتراض والثورة على ما أنزله به القدر:

فقد نَظَرَتْ إليه عيونُ نحس ... مَضَتْ منه بمعدوم النظير
نحوسٌ كُنَّ في عُقْبَى سعودٍ ... كذاك تدورُ أقدارُ القديرِ

ونصل في حديثنا عن العاطفة في أسريات المعتمد إلى تلك الأبيات التي يناجي فيها المعتمد سرب القطا. فقد رآها وهو في أسره تسرح منطلقة لا سجن يعوقها ، ولا كبل يقيدها، فهاجت أحزانه وتمنى أن يكون مثلها حرا طليقًا مجتمع الشمل لا حشاه وجيع ولا عيناه تبكيهما ثكل:

بَكيتُ إلى سِرْبِ القَطَا إذ مَرَرْنَ بي ... سوارحَ لا سجْنٌ يعوقُ ولا كَبْلُ
ولم تَكُ — والله المعيدُ — حسادةً ... ولكنْ حنينًا أن شَكْلى لها شَكْلُ

فأسرَحُ لا شَمْلي صديعٌ ولا الحَشَا وجيعٌ ولا عيناي يبكيهما ثُكْلُ[1]

إن عاطفة الحزن بادية واضحة في أبيات هذه القصيدة. هذه العاطفة التي أثارها صورة سرب القطا في السماء، والتي جعلت الشاعر يعقد تلك المقارنة بين حالها وحاله ، فيراها أفضل منه في كل شيء. فهي حرة طليقة وهو أسير مقيد ، وهي فرحة مسرورة وهو حزين باك . وهي مجتمعة الشمل وهو مشتت الأسرة، وفراخها آمنة أما فراخه هو فقد اخافها الماء والظل :

هنيئاً لها أن لم يفرِّقْ جميعَها ولا ذاقَ منها البعدَ من أهلِها أهْلُ
وأن لم تَبِتْ مثلي تطيرُ قلوبُها إذا اهتزَّ بابُ السجنِ أوصَلْصَلَ القُفْلُ
وما ذاكَ مما يَعتريني وإنما وصفتُ الذي في جِبْلَةِ الخلقِ من قبلُ
لنفسِي إلى لُقيا الحِمامِ تشوُّقٌ سوايَ يحبُّ العيشَ في ساقِهِ حَجْلُ
ألا عصمَ اللهُ القَطَا في فراخِها فإنَّ فراخِي خانَها الماءُ والظِّلُّ

إن هذه المقارنة التي عقدها المعتمد بينه وبين سرب القطا تذكرنا بتلك المقارنة التي عقدها أبو فراس بين حاله وحال تلك الحمامة التي ناجاها حين سمعها تنوح بجوار أسره. ولكن هناك فرق كبير بين موقفي الشاعرين. فقد ضن أبو فراس على الحمامة بحريتها، وحسدها على ما هى فيه من حرية وأمن، ودعاها لتقاسمه همومه وأحزانه:

أيا جارتَا ما أنصفَ الدهرُ بيننا تعالَيْ أقاسمك الهمومَ تعالي

أما المعتمد فهنأ سرب القطا على حريتها ، وأمنها واجتماع شملها، ولم

---

١ - ديوان المعتمد ١١٠ .

يحسدها على ما هي فيه ــ كما صرح بذلك في البيت الثاني من قصيدتــــه ــ وإنما فقط تمنى أن يكون مثلها.

ولم تكُ – واللهُ المعيذُ – حسادةً ولكنَّ حنيناً أن شَكلي لها شَكْلُ

بل ودعا لها بالتئام شملها والأمن على فراخها. فرغم ما اعتراه من حـزن وكآبة حين تدبر حالها وحاله إلا إنه لم يخرج عن طبيعته الســوية، ولم يخــالف طبيعة نفسه المهذبة، وتمنى أن يديم الله على هذا السرب نعمته، وأن يمن عليــه بما أنعم به على سرب القطا.

وهكذا تميزت عاطفة الشاعرين أبي فراس والمعتمد بالصدق والقوة ممــا جعلها تطبع الروميات والأسريات بطابع الشفافية والنقاء وقوة التأثير في نفس المتلقي.كما تميزت الروميات والأسريات معا بتنوع العاطفة بما ينســجم مــع عاطفة الحزن العامة ، فظهرت العديد من العواطف المظللة بظلال هذه العاطفة العامة . ففي شعر أبي فراس تجده يمزج بين رثائه لأمه في قصيدته الرائية، وبــين فخره بنفسه فخرا يوحي بحزنه على مكثه في أسره بعيدا عن أمه، وبين العاطفة الدينية. وفي قصيدته الرائية (أراك عصى الدمع...) نراه يمزج بين فخره بثباته أمام دلال محبوبته ، وبين فخره بنفسه وقومه فخرا يوحي بحزنه على بقائــه في الأسر رغم اتصافه بصفات العزة والبطولة، ورغم احتياج قومه إليه في الملمات والشدائد . وفى قصيدته فى رثاء أخت سيف الدولة يمزج رثاءه لها بمدح سـيف الدولة . وفى قصيدته اللامية التى بعث بها إلى سيف الدولة معاتبا بعد رده لأمه ردا خائبا يمزج حزنه على حال أمه ، وحزنه على بقائه فى الأسر ، وحزنه على

نسيان قومه له واستبدالهم إياه بمن هو أدنى منه ، وبين عتابه لسـيف الدولـة وغضبه منه على إهماله وتخليصه من أسره ، وبين استعطافه له ....

كذلك فى شعر المعتمد حيث نجد فى أبياته التى رثى بها نفسه مزيجا مـن الرثاء والفخر والعاطفة الدينية القوية فى قوله :

ولا تَزَلْ صلواتُ الله دائمةً على دفينِكَ لا تُحْصَى بتعدادِ

وفى قصائده فى رثاء ولديه نجده يجمع بين رثائه لهما ، ومدحهما، وتعداد صفاقهما ، وبين حزنه على حاله بعد أن ألقى فى أسره ، وبين رثاء ملكه بجانب العاطفة الدينية القوية التى برزت فى القصيدتين : الرائية :

يقولون صبـرًا لا سبيلَ إلى الصَّبرِ

وفى قصيدته النونية . كما سبق أن أوضحنا ......

وقوة العاطفة الدينية وبروزها فى الشعر عموما ، وفى شعر الرثاء خاصـة من الظواهر الطبيعية فى الشعر العربى . وقد تنبه إلى ذلك الدكتـور مخيمـر صالح . حيث رأى أن العاطفة الدينية فى شعر رثاء الأبناء تـأتى " علـى رأس العواطف التى ظهرت في قصائد رثاء الأبناء . ويمثلها بوضوح عنصر التأسـى والتصبر الذى أكثر منه الشعراء الإسلاميون.فقد فعلت العاطفة الدينية فعلـها فى نفوس الآباء ، وخففت من وطأة الحدث . فكثيرا ما أظهر الشاعر حزنـه المضطرم ، ثم لا يلبث أن يلجأ إلى التأسى ويزود نفسه بزاد ديـنى ، فتظـهر العاطفة الدينية بشكل بارز مع أنها تظل مظللة بظلال عاطفة الحزن العامة الـتى

تطبع القصيدة كلها " . [١]

رابعا : الصور الفنية :

تشكل الصورة الشعرية جزءا مهما فى عملية البناء الشعرى.إذ تعبر عن **أهم خصائص التعبير الشعرى . فهى تتعاون مع غيرها فى نقل التجربة الفنية** نقلا صادقا وواقعيا.وهى مع خاصية الإيقاع الموسيقى التى يكون بها الشعر شعرا .كما أنها " تعبر عن نفسية الشاعر وأنها تشبه الصور التى تتراءى فى الأحلام .. وأنها تعين على كشف معنى أعمق من المعنى الظاهرى للقصيدة ." [٢]

فالصورة الفنية وسيلة لنقل المعنى إلى السامع بطريقة قوية مؤثرة. إذ تقاس الصورة الأدبية بقدرتها على نقل الفكرة و العاطفة بدقة . وهذه الدقة تتطلب قوة اللغة وعناصرها البيانية حتى تستطيع التعبير عن المعنى بقوة وعمق[٣]. من هنا كان الأديب الموفق هو الذي يرى الأشياء و الأحداث، ويدرك ما فيها من أسباب الروعة والجمال ، ثم يعرضها علينا وكأنها حقائق بما يضفيه عليها من التفسير و التجسيم والإيضاح .[٤] هذه القوة التي يبثها الشاعر في أفكاره هي ما يسميه النقاد (الصورة الفنية). وقد عرفها الدكتور عبد القادر القط بأنها " هى الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ و العبارات بعد

---

١ - رثاء الأبناء في الشعر العربي ١٨٣ .

٢ - فن الشعر / إحسان عباس - دار الشروق - طبعة ٥ سنة ١٩٩٢ م. ص٢٠ .

٣ - انظر: أصول النقد الأدبي - أحمد الشايب ٢٤٩ وما بعدها .

٤ - انظر: المرجع السابق ٢١١ .

أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع ، و الحقيقة و المجاز ، والترادف و التضاد ، و التجانس ، وغيرها من وسائل التعبير الفني " [١].

وعرفها الدكتور أحمد الشايب بأنها " الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معا إلى قرائه و سامعيه ". [٢]

و الصورة الفنية تدور حول " تصور الشيء في غير صورته وتلونه بغير لونه . كما توحي بأن الصورة الجديدة المتخيلة أجمل من الصورة الأولى . وهذا المعنى اللغوي هو المعنى الذي أريد من الخيال في الفن . فهو يقتضي نقل الفكرة أو المعنى من صورة إلى أخرى أجمل منها وأكثر تأثيرا في النفس". [٣]

و الصورة الفنية هي نتاج العلاقة بين الشاعر والواقع أيا كان شكل هذه الصورة. فهي إعادة تنظيم جديد للعالم الخارجي . وكلما ابتعدت الصورة الشعرية عن الواقع المحسوس كلما أصبحت أكثر أناقة و أصالة . فليس المطلوب من الشاعر أن ينقل صورة الحياة كما هي في الواقع إنما المطلوب تشكيل الخارج حسبما تنسقه رؤاه الداخلية ويزودنا بصورة حدسية تعيننا على رؤية صورة غير منسوخة من الواقع ، وإنما تصبح كأنها ترينا الأشياء

---

١ - الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر - مكتبة الشباب بالقاهرة - طبعة عام ١٩٧٨م. ص٤٣٥ .

٢ - أصول النقد الأدبي ٢٤٢ .

٣ - قضايا النقد الأدبي الحديث/محمد السعدي فرهود/طبعه ٢ ١٩٧٩م. ص١٤٣ .

لأول مرة . ويكون هذا كشفا لميلاد جديد تتخلق فيه صورة غير مكسورة لإيقاع الكون. [١]

فالصورة الأدبية لها دور كبير في أداء المعنى و إيضاحه والتعبير عنه بطريقة أفضل من الطريقة المباشرة . فعن طريقها يتم إقناع السامع بالمعنى المراد، و الإقناع هو الخطوة الأولى لإيضاح المعنى . فالشاعر عندما يريد أن ينقل معنى من المعاني إلى سامعيه ، ويقنعهم به فإنه يشرحه ويوضحه لهم توضيحا يغري بقبوله و التصديق به.[٢] ولا يتسنى له ذلك إلا بعرض المعنى بصورة فنية توضح المعنى وتبينه. فالصورة تنقل المعنى من (الواضح إلى الأوضح أو من الناقص إلى الزائد).[٣]

وقد أتحفنا كل من أبي فراس الحمداني و المعتمد بن عباد في شعرهما في الأسر بالكم الكبير من الصور المعبرة . و الملاحظ أن الحزن يلف معظم الصور الوجدانية في شعر الأسر في الروميات و الأسريات. وإن كان كل من الشاعرين يحاول في بعض الأحيان أن يفخر بتجلده و شجاعته وقوته أمام ما أصيب به حتى لا يشمت به أعداؤه . فالنكبة التي حلت بكل منهما طوت نفسيهما على هم مقيم و حزن دفين تفجرت ينابيعه من حين لآخر في روميات

---

١ - انظر: دراسة في لغة الشعر د/ رجاء عيد/منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٩م.ص٣٢ وما بعدها .

٢ - انظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي . د/ جابر أحمد عصفور . دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٤م. ص٤٠٤ .

٣ - المرجع السابق ٤١٠ .

أبي فراس وأسريات المعتمد . وجاءت صورهما في كثير من الأحيان محملة بفيض من الشعور الملتاع والنفس الحزينة.

- وقد استعان كل من شاعرينا في صورهما - في كثير من الأحيان - باللفظ المجرد المعبر بجرسه وظلاله وألوانه عن المشهد أو المشاهد الجزئية المتتابعة في لوحة متكاملة.من ذلك في روميات أبي فراس أبياته التي يتحدث فيها عن أمه المريضة المجهدة التي ردها سيف الدولة دون تحقيق رجائها في فداء ولدها .

فقد صور حالة الأم في صورة معبرة عن معاناتها وآلامها . وجاءت صورته لوحة فنية متكاملة مكونة من مجموعة من الصور الجزئية المتضامنة والمتداخلة التي ساهمت في صنع اللوحة الفنية الكبيرة . هذه اللوحة رسمها أبو فراس بالأبيات التالية :[1]

عليلةٌ بالشآم مفرَدةٌ	باتَ بأيدى العِدى معلّلُها
تمسكُ أحشاءَها على حُرَقٍ	تُطفئُها و الهمومُ تشعِلُها
إذا اطمأنتْ - وأيْنَ - أو هَدَأَتْ	عنَّتْ لها ذكرةٌ تقلقِلُها
تسألُ عنا الركبانَ جاهدةً	بأدمعٍ ما تكادُ تُمهِلُها
يا مَنْ رَأَى لي بحصنِ خَرْشَنةٍ	أسدَ شرًى في القيودِ أرجلُها
يا منْ رأَى لي الدروبَ شامخةً	دونَ لقاءِ الحبيبِ أطولَها
يا مَنْ رأى لي القيودَ موثَقَةً	على حبيبِ الفؤادِ أثقلَها

فالفكرة العامة التي تقوم عليها الأبيات هي إبراز تململ الأم بعد فقد

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٦٣ .

وحيدها بإبعاده عنها . وقد أتى الشاعر بعدة صور جزئية تتكون منها اللوحة الكبيرة. ومنها:١-صورة الأم المريضة الوحيدة البعيدة عن ولدها، أو الطبيب المداوى لها ، والذى أصبح أسيرا بيد أعدائها.

٢ ـ صورة الأم التي تعاني من الهموم التي تشبه النار التي تحرق أحشاءها . وكلما حاولت إطفاءها أشعلتها الهموم من جديد.

٣ ـ تصوير حيرة الأم واضطرابها وفراق الطمأنينة لها. وكلما هدأت وحاولت السلو والنسيان غنت لها ذكرى من ذكرياتها مع ولدها فارتاعت واضطربت.

٤ ـ تصوير الدموع بصورة الماء المنهمر لا تكاد تجف أو ترقأ ولا تفارق هذه الأم الحزينة التي تقف على أول الطريق تسأل بلهفة كل من تظنه متجها إلى مكان ولدها.

٥ ـ تصوير ولدها ومن معه بأسد الشري التى رماها القدر للوقوع في أيدي الأعداء الذين وضعوا القيود بأرجلها، للحد من قوتها وباسها.

٦ ـ تصوير المسافات الشاسعة التي تفصلها عن ولدها بالشموخ بحيث لا تستطيع هذه الأم المريضة قطعها وتجاوزها لتصل إلى ولدها .

٧ ـ وأخيرا إبراز شجاعة ولدها وفروسيته ، وما أصبح عليه من ذل بعد أن أثقلت أرجله بالقيود والأغلال .

هذه الصور الجزئية استطاع الشاعر بخياله وعبقريته أن يضمها حتى

يكوّن منها صورة كلية ولوحة فنية توافرت فيها جميع العناصر من صوت ولون وحركه : **فالصوت نسمعه في مثل : (تقلقلها) وما ينتج عن هذه الحركات المضطربة من أصوات ، وفي مثل : (تسأل) فالسئوال لا يكون إلا** بالكلام ، وفي مثل النداء بـ (يا من رأى ...)

أما اللون فنراه في مثل : (عليلة) ، وفي (تمسك أحشاءها) وفي (اطمأنت) ، و (هدأت) وفي (أدمع ما تكاد تمهلها) وفي (في القيود أرجلها) وفي الدروب الشامخة ، وفي القيود الموثقة .

أما الحركة فاللوحة كلها تموج بها فتكاد تنتظمها حركة شجية دائمة ، فنجدها مثلا في انتقال الفارس من مكان الأم إلى أيدى العدى ، وفي اشتعال الهموم للحرق ، وفي (تطفئها) وفي (تقلقلها) و (جاهدة) وغيرها ، حيث يتحتم أن يتحصل من ذلك كله حركات .

ونلاحظ هذه اللوحة أيضا تشابك الأصوات وتعددها ، حيث لم نسمع فيها صوت الشاعر وحده ، وإنما هناك صوت الأم وصوت القيود ، و صوت الركبان . وكل ذلك أدى إلى تكامل هذه الصورة الفنية الكبيرة. [1]

وفي أسريات المعتمد نجد هذا اللون من الصور الفنية في تلك اللوحة التي رسمها المعتمد لبناته حين دخلن عليه أسره في يوم عيد ، حيث بين في تلك اللوحة دور الأسر في تبدل حال بناته، و رسم صورة تفصل مأساه سجنه

---

١ - انظر كتاب بين الأنا والآخر في مدحيات المتنبي - د/ عبد اللطيف الحديدى / طبعة ١ / ١٩٩٨ ص١٣٥ وما بعدها.

على وجوههن وثيابهن ، وحياتهن كلها فقال : [١]

تَرَى بناتِكَ في الأطمــارِ جائعــةً يغزلْنَ للناس مــا يملكْنَ قطمــيرَا
برزْنَ نحــوَكَ للتســليم خاشــعةً أبصارُهُنَّ حســيراتٍ مكاســيرَا
يطأْنَ في الطين والأقــدامُ حافيــةٌ كأنَّها لم تطأْ مِسْــكاً و كــافُورا
لاخدَّ إلا ويشكو الجدبَ ظــاهِرُهُ و ليسَ إلا مع الأنفاسِ ممطُــورَا

فالفكرة العامة في هذه اللوحة هي إبراز حالة البؤس و الهــوان الــتي تعيشها بنات المعتمد بعد زوال ملك أبيهن و أسره. وقد أتى الشــاعر بعــدة صور جزئية ليكون منها اللوحة الفنية الكبيرة التي تبرز هذه الفكرة العامــة . ومنها:

١ – صورة البنات وهن يرتدين الأطمار ويضطرهن الجوع إلى العمــل بالغزل للناس نظير أجر يعينهن على إنهاء إحساسهن بالجوع.

٢ – صورة البنات وقد برزن خاشعات للتسليم على أبيهن ، و هــن ينظرن إلى الأرض حسيرات مكاسيرا.

٣ – صورتهن وهن حافيات الأقدام يطأن في الطين والأوساخ بعــد أن كانت هذه الأقدام تطأ طينا من نوع خاص خلط بالمسك والكافور .

٤ – صورة وجوههن وقد بدا عليها أمارات الفقر و الذل و الحرمـان. هذه الصور استطاع الشاعر بخياله، و إحساسه أن يجمع بينها ليكــوّن منــها

١ - ديوان المعتمد ١٠٠ .

الصورة الكلية المعبرة عن الحالة البائسة التي عليها بناته حين دخلن للتسليم عليه في يوم العيد . وقد توافرت في هذه اللوحة أيضا جميع العناصر المبرزة لها من صوت و لون وحركة:

فالصوت نسمعه في صوت الغزل ، و الصوت الخافت المعبر عن الخشوع وقت التسليم على الأب ، و صوت الأقدام الحافية التي تطأ الطين ، و صوت الشكوى من الجدب ، و صوت الأنفاس المتتابعة اللاهثة.

و اللون نراه في مثل : (ترى بناتك في الأطمار) وفي عملهن بالغزل ، وفي (أبصارهن حسيرات مكاسيرا) وفي (الأقدام حافية)، وفي الخد الذي يشكو ظاهره الجدب.

أما الحركة فتبدو في عملية الغزل ، وفي بروزهن للتسليم ، وفي حركة الأبصار وهي تنظر إلى الأرض حسيرات مكاسيرا ، وفي وطء الأقدام الطين.

وهذه اللوحة بجزئياتها وعناصرها قامت بتصوير الفكرة العامة وإبرازها على خير وجه . " فهي صورة شعرية مكتملة سلسة الإيقاع متماسكة الصياغة، منسجمة العناصر ، ينظمها السياق الخارجي في دفقة شعورية واحدة ترفع دلالة الصورة من مجرد تصوير حال بنات المعتمد إلى التعبير عن موقف إنساني عام يتجلى في اختلاف الأقدار على الإنسان ، وبخاصة حين تتزل به وتضعه بعد رفعة ومنعة ".[1]

ومع براعة التصوير ودقته ودلالته على ما أراد الشاعر إبرازه من خلاله

---

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ٢٥٤ .

في أبيات المعتمد إلا أنني أرى أن تصوير أبي فراس لحال أمه في الأبيات السابقة أكثر براعة وقوة ، و ذلك لما بثه في أبياته من صور جزئية معبرة ، وعناصر أعطت اللوحة الفنية مزيدا من الحركة و الحيوية جعلها ترسم صورة دقيقة لهذه الأم الوالهة المعذبة بسبب غياب ولدها عنها أسيرا في بلاد الأعداء.

- كما نجد في شعر الشاعرين العديد من الصور التي أسقط الشاعر عليها من ظلال نفسه الكئيبة الحزينة. فجاءت الصورة رمزا لما تجيش به نفس الشاعر من المخاوف و الآلام.

ومن تلك الصور في روميات أبي فراس تلك الصورة التي رسمها لنفسه وهو في الأسر بسبب ما يلقاه فيه من ألوان العناء و الشقاء فيقول :[1]

مَصَابي جليلٌ والعَزَاءُ جميلُ	وظنّي بأنَّ اللهَ سوفَ يديلُ
جِراحٌ وأسْرٌ واشتياقٌ وغُربَةٌ	أُحمَّلُ إني بعدَها لحَمُولُ
وإني في هذا الصَّباحِ لصَالِحٌ	و لكنَّ خطبي في الظَّلام جَليلُ
وما نالَ منّي الأسرُ ماترَيانِه	ولكنّني دامِي الجِراحِ عليلُ
جِراحٌ تحامَاها الأُسَاةُ مخوفةٌ	وسقمان: بادٍ منهما ودخيلُ
وأسرٌ أقاسيه وليلٌ نجومُهُ	أرَى كلَّ شيءٍ غيرَهُنَّ يزُولُ
تطولُ بي الساعاتُ وهي قصيرةٌ	وفي كلِّ دَهرٍ لايَسُرُّكَ طُولُ
تَنَاساني الأصحابُ إلاّ عُصْبَةً	ستلحَقُ بالأُخرَى غداً وتحُولُ

فالفكرة العامة التي يريد الشاعر إبرازها من خلال هذه الأبيات هي

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٥٢ .

تصوير مأساته في سجنه، و الآلام التي يعانيها فيه. وقد رسم الشاعر لنفسه لوحة فنية كبيرة مكونة من عدة صور جزئية تضامت إلى بعضها لتكون هذه اللوحة الفنية ، فقد صور نفسه بإنسان تجمع عليه الجراح، والأسر ، وألم الشوق إلى الأهل و الوطن ، وألم الغربة و الوحدة ـ بجانب العلل و الأمراض التي يعانيها . ثم أبان أن جراحاته التي أصيب بها من الأنواع الخبيثة التي تخيف حتى الأطباء من الاقتراب منها حتى لا يصابون بالعدوى . أما أمراضه فهي قسمان منها : الظاهر البادي ، ومنها الدخيل الخفى. وفوق ذلك كله يعاني الشاعر من تنكر الأصحاب له، وبعدهم عنه بعد أسره إلا القليلين منهم. ويتوقع الشاعر أن يلحقوا بنظرائهم من أصحابه الذي تجنبوه قريبا.

ولنا بعد هذا أن نتخيل الشاعر : فهو إنسان أسير ، وحيد ، شديد الشوق إلى أهله ووطنه ، غريب ، تفرق عنه أصحابه وأصدقاؤه،مريض بعدة أمراض وعلل منها الظاهر البادى ومنها الخفى المستتر ، يعيش ليله في ظلام دامس مخيف. وفوق ذلك كله فهو جريح بجراحات خبيثة مخيفة تجعل حتى الأطباء يبتعدون عنه وعن مداواته خوف العدوى . ولذلك تمر عليه الساعات طويلة بطيئة ، ويطول به الليل طولا يظن معه أن نجومه لن تزول . وإنسان بهذه الصورة هو إنسان بائس بكل ما تحمله كلمة البؤس من معان. ولا أظن أنه يوجد إنسان تتجمع عليه كل هذه الآلام و الهموم، وإنما أسقط الشاعر على صورته وحاله من ظلال نفسه الكئيبة الحزينة ما جعلها رمزا لما تمتليء به نفسه من المخاوف و الآلام .

وأعتقد أن أبا فراس يقصد بالأساة الذين تحاموه وتجنبوه سيف الدولة، وأصدقاءه ، وخلانه ، الذين تفرقوا عنه وأهملوه في أسره. فصور تفرقهم عنه وتنكرهم له بمن يفر من الجريح جرحا خبيثا خوفا من العدوى.

وأجمل المعتمد بن عباد صور هوانه وهمومه وآلامه في أسره في هذين البيتين اللذين صور بهما حال زوجته بعد أسره وقد هالها وروعها تغير حالها وانقلاب حياتها من عز إلى ذلة، ومن رفعة إلى ضعة فقال: [١]

قالَتْ : لقد هُنَّا هُنَا	مولايَ أين جاهُنَا ؟
قلتُ لها: إلى هُنَا	صيّرنا إلهُنا

إن هذين البيتين على إيجازهما و قصرهما، وقلة ألفاظهما يبرزان معنى اختلاف الأقدار على الإنسان، ويحملان العديد من صور الهموم و الآلام المجملة التي أصيب بها الشاعر و زوجته. فتعبير الزوجة (لقد هُنّا هُنا) يوحي بالتغيير الهائل و السقوط الفظيع، و التحول الكبير في حياتها وحياة زوجها وأسرتها. فقد كانوا في أشبيلية يرفلون في النعيم و الترف ، وكانوا يعيشون حياة الملوك بكل مافيها من قصور وجنات وعيون وخدم وحشم وإعظام وتبجيل. أما هنا — في أغمات — فقد أصيبوا بالهوان بكل ماتحمله كلمة الهوان من الذلة و الحقارة ، و الفقر ، و العجز.

أما تعبيره عن ندائها له بلفظ " مولاى " فيصور مدى تألم الشاعر وتحسره على ماضيه حيث كان كل من حوله يناديه بهذه الكلمة المعبرة عن

---

١ - ديوان المعتمد ١١٤ .

التبجيل والتعظيم ، والخضوع لجاهه وسلطانه. وكأنها تقول له: أين معاني هذه الكلمة هنا بعد هذا الهوان الذى نعيشه ؟.

ثم يأتي سؤالها (أين جاهنا ؟) لتذكره بالماضي الزاهر الذى مضى وتولى وبالعز الذى فارقهم ، وبالجاه الذى كانوا يتباهون به وبالهيمنة الـــتي كـــانوا يسيطرون بها على غيرهم .كل ذلك انقضى وانتهى وحل محله الهوان . أما رده على كلامها : (إلى هُنَا صيرنا إلهُنَا) فيصور مدى الاستسلام والخضوع الذي عليه المعتمد للحالة الراهنة التي يعيشها في سجنه ، ويصور مدى عجز المعتمـــد بعد القدرة ، و الذل بعد العزة ، و الهوان بعد الجاه و السلطان.

أرأيت كيف أسقط المعتمد على هذه الكلمات المجملة من نفسه الكئيبـــة الحزينة ماجعلها على اختصارها وقلتها تصور ما يعيشه وأهلـــــه وأســـرته في سجنه؟.

ــ وإذا ما انتقلنا إلى الألوان البلاغية المستخدمة في الصورة الفنية الـــواردة في شعر الأسر عند شاعرينا أبي فراس و المعتمد لو جدنـــا أهمـــها: التشـــبيه، والاستعارة ، الكناية ، و التجسيم . إضافة إلى بعض الألوان البديعية من مثل : الجناس و الطباق والمقابلة .

ــ وكان التشبيه من أهم الألوان البلاغية في صور الشاعرين. وكان يعتمد عليه كل منهما في إبراز جوانب الصورة التي يريد رسمها لنفســـه وحالتـــه في أسره.ومن ذلك في روميات أبي فراس ما جاء في مديـــح ســـيف الدولـــة في

قصيدته التي يعاتبه فيها على رده لأمه دون إجابة مطلبها في فداء ولدها: [١]

أنتَ سماءٌ ونحنُ أنــجُمُها　　　أنتَ بلادٌ ونحن أجبُلُها
أنتَ سحابٌ و نحن وابلُه　　　أنتَ يمــينٌ و نحن أنمُلُها

فأبو فراس يصور سيف الدولة بالسماء وبالبلاد وبالسحاب وباليمين في العطاء. أما هم ــ الشاعر ومن معه ــ فهم في صور تتفرع عن هذه الصــــور الكبيرة . فإذا كان سيف الدولة سماء فهم أنجمها ، وإذا كان بلادا فهم جبالهـا الشم الحامون لهاءوإذا كان سحابا فهم وابله، وإذا كان يمينا فهم أناملها.

وهذه الصور ترمز إلى التسامي والإشراق ، ورحابة الصدر ، والمــؤازرة والجود . كما ترمز إلى مقاسمة الشاعر الممدوح مجده وتســـــاميه، وترمـــز إلى العلاقة القوية التي تربط الشاعر بممدوحه. [٢]

وتوحي هذه الصور أيضا بأن سيف الدولة لن يستطيع الحفاظ على مجده وتساميه بدون الشاعر ومن معه. وأنه بدونهم ينقصه الكثير . فالسماء بــــدون نجومها تنقص زينتها وبهاءها وضياءها ، و البلاد بدون الجبال المانعة الحاميــــة تفقد أمنها وقدرتها على الدفاع عن نفسها ، و تفقد حصنها المنيع الذي يحجــز الأخطار عنها ، والسحاب بدون وابله ومائه لا قيمة له إلا في حجز شــــعاع الشمس عن الرؤوس في أوقات الحر . ولم يهتم الناس والشعراء بالســحاب إلا من أجل ما يحمله من ماء ، و لولا ذلك ما أعاروه اهتماماءواليمــــين بــــدون

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٦٤ .

٢ - انظر: بين الأنا والآخر في مدحيات المتنبي ١٣١ .

الأنامل عاجزة عن العطاء و المنح . ومن هنا كان الشاعر ومن معه شيئا مهما وضروريا في حياة سيف الدولة و دولته ، و الحفاظ على مجده وسلطانه. ولذا فينبغي عليه أن يجد في افتداء أبي فراس وتخليصه من أسره حتى يكون بجواره فيكتمل عزه وجاهه. وهذا ما قصد إليه الشاعر من وراء تلك الصور التي اعتمد فيها على التشبيه لإبراز جوانبها.

ويصور أبو فراس تعوده وقومه على الحروب وخوض أهوالها ضد الروم بمن عصبت قلوبهم بها عصبا . ويصور نفسه وقومه في حروبهم ضد الروم بالأسود ، ويصور قائد الروم فيها بالكلب فيقول مخاطبا الدمستق: [1]

أتوعِدُنا بالحربِ حتى كأنَّنا ... وإياكَ لم يُعْصَبْ بها قلبُنا عَصْبَا
لقد جمعَتْنا الحربُ من قبل هذه ... فكُنَّا بها أُسْدًا و كنتَ بها كَلْبَا

فقد استعان بالتشبيه على تصوير تعودهم على خوض أهوال الحروب ضد الروم وكثرة لقاءاتهم بهم بمن ربطت قلوبهم بها فهم لا يتحولون عنها، وكلما انتهت معركة سرعان ما تبدأ أخرى . وفي كل معركة تجد الحمدانيين فيها أسودا يواجهون كلابا سرعان ما تفر أمام قوتهم وبأسهم. وقد أوضحت الصورة في البيتين مدى شجاعة وقوة الحمدانيين في حروبهم المتلاحقة ضد الروم، و مدى حقارة وجبن الروم في هذه الحروب . فترى الفريقين في المعركة وكأنها حرب بين أسود وكلاب، وشتان بين قوة وبأس ومنزلة الجنسين.

ورسم المعتمد صورة للحروب المشتجرة بين المسلمين والأسبان المسيحيين

---

١ - ديوان أبي فراس ٣١ .

حين قال متحدثا عن يوم العروبة ودور يوسف بن تاشفين فيه : [١]

ويومَ العروبةِ ذُدتَ العِدَا ... نصَرْتَ الهُدَى وأبيْتَ الفِرَارا

ثبتَّ هناكَ وإن القلو ... بَ بين الضلوع لتأبَى القَرَارا

رأينا السيوفَ ضُحًى كالنجو ... مِ وكالليْلِ ذاك الغبارَ المثَارَا

فحين اشتدت المعركة تحول النهار ظلاما بذلك الغبار الكثيف ، وظهرت السيوف فيه وكأنها نجوم تبرق وسط الظلام . وقد عبر بلفظ (الضحى) ليبرز كثافة هذا الغبار الذي تحول به النهار المضيء إلى ليل شديد الظلام، وظهرت فيه السيوف وكأنها نجوم مضيئة.

ونجد أن صورة المعتمد أقوى دلالة على إبراز قوة الحرب واشتعالها من صورة أبي فراس . كما أن بيتي أبي فراس أقوى دلالة على قوة المسلمين وضعف جند الروم من أبيات المعتمد. وهذا لأن مراد أبي فراس إبراز تفوق الحمدانيين على أعدائهم من الروم في الحروب التي اشتعلت بينهم. بينما يريد المعتمد تصوير قوة الحرب ـ وليس الجند ـ حتى يظهر شجاعة يوسف بن تاشفين في اقتحام نيرانها وثباته أمام أهوالها.

وهذه صورة صور فيها أبو فراس جانبا من طبيعة منبج في قصيدته التي كتبها في الحنين إليها: [٢]

وإذا نَزَلْنَا بـِ (السَّوا ... جير) اجتَنَيْنَا العيشَ سَهْلا

١ - ديوان المعتمد ٩٧ .

٢ - ديوان أبي فراس ٢٤١ .

و الماءُ يفصِلُ بين زَهْـ ـرِ الروضِ في الشطَّيْنِ فَصْلا
كبِسَاطِ وشي جَرَّدَتْ أيدي القيونِ عليه نَصْلا

فزهور الروض بألوانها المختلفة الزاهية على شطى النهر يفصل بينهما الماء المفضض اللامع ، كصورة بساط وشى مزركش ألقت عليه القيون نصلا أبيض لامعا. وهذه الصورة توحي بجمال طبيعة هذا المكان، وحسن منظرها . مما جعل الشاعر يحن إليها ويتشوف إلى العيش السهل بها.

وشبه أبو فراس الناس فى هذا الزمان بالذئاب فقال: [١]

وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلَّهُم ذئاباً على أجسادِ هِنَّ ثيابُ

وصور التشبيه الناس في هذا الزمان – إلا القليلين منهم – بالذئاب في الغدر وعدم الوفاء ، وأكل لحوم البشر . و الفرق الوحيد بينهم وبين الذئاب الحيوانية أنهم يرتدون على أجسادهم ثيابا لا يوجد على أجساد الذئاب الحيوانية مثلها.

وصور أبو فراس حاشية الدمستق تصويرا ساخرا مثيرا للضحك والاستهزاء مستخدما في ذلك التشبيه فقال:[٢]

أَمَا مِنْ أعجَبِ الأشياءِ عِلْجٌ يعرِّفُني الحلالَ من الحرامِ
وتكنُفُهُ بطارقةٌ تيُوسٌ تُبارِى بالعَثَانينِ الضِّخَامِ
لهم خَلَقُ الحميرِ فلستَ تلْقَى فتىً منهم يسيرُ بلا حِزَامِ

١ - ديوان أبي فراس ٤٦ .
٢ - ديوان أبي فراس ٣١٨ .

فقد صورهم في بلادهم ، وضخامة أجسامهم، وغياب عقولهم بـالتيوس التي تتباري بضخامة اللحى . كما صورهم في سوء خلقتهم وقلـة إدراكـهم بالحمير ، وأوجد لذلك رباطا يربطهم بهذا الحيوان الأبله وهو الحـزام الـذي يضعونه على وسطهم فشبهه باللجام الذي يتمنطق به الحمار لئلا يسقط لجامه.

ومن التصوير البارز عن طريق التشبيه في أسريات المعتمد قوله في رثـاء ولديه المأمون و الراضي : [1]

هوَى الكوكبانِ الفتحُ ثم شـقيقُهُ ... يزيدُ فهلْ عندَ الكواكبِ من خُـبْرِ
ترى زُهرَها في مأتمٍ كـلَّ ليلـةٍ ... تُخمِّشُ لهفًا وسطَه صفحةَ البـدرِ
ينُحنَ على نجمينِ أثكلـتُ ذا وذا ... وأصبرُ مالِلقلبِ في الصَّبرِ من عُذْرِ

فقد صور ولديه بالكوكبين هويا فانطفأ نورهما ، فأقـامت الكواكـب الزهر مأتما عليهما. فتراها كل ليلة تخمش لهفا وسطه صفحة البدر ، وتنـوح على هذين النجمين الآفلين اللذين فقدهما المعتمد.

يقول الدكتور مخيمر صالح عن هذه الصورة : (أما المعتمد بن عباد فقد شبه ابنيه بالكوكبين لا ليصور حسنهما أيضا ، ولكن ليصور سرعة موتهمـا . وإذا ما استذكرنا سقوط ملك المعتمد وموت أبنائه، وزوال حكمهما أحسسنا بجمال الصورة وعلاقتها الوثيقة بنفسيته. إن سرعة موت أبنائه ، وسرعة زوال ملكه لتشبهان سرعة سقوط هذين الكوكبين) .[2]

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٥ .

٢ - رثاء الأبناء في الشعر العربي ١٦٨ .

وصور المعتمد القيود الحديدية الملتوية و الملتفة حول جسمه بالثعابين في شكلها وهيئتها، وبالأسود في بطشها وقوتها فقال: [١]

تخلَّصتمُ من سجْن أغماتَ و التَوَتْ   عليَّ قيوُدُ لم يحِــنْ فكُّــهَا بعْــدُ
من الدَّهم أمَّــا خلقُـــهَا فأسَــاوِدٌ   تَلَوَّى وأما الأيدُ و البطشُ فالأُسْدُ

وقد وفق المعتمد في هذا التصوير إلى حد بعيد، واستعان بالشكل والهيئة التي تتفق فيها القيود الحديدية مع الثعابين ، ولكن إحساسه بآلامها وقوتها أشد على نفسه من آلام الثعابين ، ولذا صورها في قوتها وبطشها بالأســود الــتي تنقض على فريستها فتنهشها بقوة .

وقد كرر المعتمد هذه الصورة في بيتين آخرين يقول فيهما : [٢]

قد كانَ كالثعبَانِ رمحُكَ في الوَغَى   فغـــدَا عليكَ القيدُ كالثعبَانِ
متمدِّداً بحـــــذاكَ كلَّ تمــدُّدٍ   متعطِّـــفًا لا رحــمةً للعاني

فقد كان رمحه في الوغى - قبل الأسر - متمددا كالثعبان يحصـــد بـــه رءوس الأعداء ، أما الآن فغدا عليه قيده كالثعبان في شكله وتمـــدده علـــى جسمه ، يعنيه ويخيفه ولا يرحمه . وهذه الصورة قد عبرت بوضوح عن القيود التي كان يرسف فيها المعتمد وعن مدى الضيق الذى كانت تسببه لـــه هـــذه القيود .

ومن الصور الطريفة التى صور فيها المعتمد قيوده في الأسر تصويره لهـــا

---

١ - ديوان المعتمد ٩٥ .

٢ - ديوان المعتمد ١١٥ .

في ساقه وإمساكها به بصورة الأفعى التي توالى عض ساقيه ولكن بأنياب أسد فيقول : [١]

تعطفَ في ساقِي تعطُّفَ أرقَمٍ　　　يساوِرُها عضًّا بأنيابِ ضيغَمِ

فقد جمع لهذه القيود بين سم الأفاعي ، وعض الضيغم . وكل منهما أشد إيلاما وأذى من الآخر.

— أما الاستعارة فتعد إحدى القوالب التي تقوم عليها الصورة الشعرية. وفضيلتها الجامعة — كما حددها عبد القاهر الجرجاني — أنها تبرز البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا ، وتعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر. وتجني من الغصن الواحد ألوانا من الثمر. [٢]

وهى أقدر من التشبيه على إبراز الصورة الشعرية . ففي الاستعارة يتحول الطرفان المستعار و المستعار له في صورة واحدة ، وتحطم الفواصل بينهما. بينما في التشبيه يظل الطرفان منفصلين مع وجود الأداة الرابطة .

ومن الصور القائمة على الاستعارة في روميات أبي فراس تلك الصورة التي أبرز من خلالها حقد الحانقين عليه من أهله وحساده فقال : [٣]

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٨ .

٢ - أسرار البلاغة / تحقيق وتعليق/محمد رشيد رضا / دار المعرفة / بيروت/ لبنان/ بدون تاريخ/ ص ٣٢ ، ٣٣ بتصرف .

٣ - ديوان أبي فراس ٩٩ .

كأنَّ قلوبَ الناسِ لي قلبُ واحدِ	ولم أرَ مثلي اليومَ أكثرَ حاسدًا
ولم يظفرِ الحسَّادُ قلبي بما جِدِ	ألم يَرَ هذا الدهرُ غيريَ فاضلاً
من العَسَلِ الماذِيِّ سمَّ الأساوِدِ	أرَى الغِلَّ من تحتِ النفاقِ وأجتَنِي

فلقد تكاثر عليه الحساد والدهر معهم ، وكأنهم اجتمعوا عليه، وأصبحوا ضده كقلب رجل واحد. وكأن الدهر لم يعد يرى غير الشاعر فاضلا،فهو يحقد عليه ويحسده،وكأن هؤلاء الحساد لم يظفرو قبله بماجد فهم يستكثرون عليه نعمة المجد. ثم يصور حسدهم له وحقدهم عليه برؤيته لغلهم منه مجسدا بارزا من تحت كلامهم المعسول ، والذي به يحاولون مداراة غلهم وحسدهم له. ويصور كلامهم المعسول بسم الأفاعي القاتل ، فهم يظهرون له المودة ، ويبطنون الغل والحنق ، ويظهرون الحب ويتمنون له الويل والهلاك .

ويصور أبو فراس همومه التي يعيشها في أسره، وما تصيبه به من السهر والقلق وعدم الراحة فيقول : [١]

حبيبٌ باتَ ممنوعَ المنامِ	يَعِزُّ على الأحبةِ بالشآمِ
تقلِّبُهُ على وَخْزِ السِّهامِ	تبيتُ همومُهُ والليلُ داجٍ
ويُسلِمُه الظلامُ إلى الظلامِ	يؤولُ به الصباحُ إلى صَبَاحٍ
ولكنَّ الكِلامَ على الكِلامِ	وإني للصَّبُورُ على الرَّزايا

فهو أسير معنى تتمثل له همومه على فراشه كلما حل عليه الليل في صورة سهام يظل يتقلب عليها حتى الصباح ، فلا يذوق طعما للنوم أو

---

١ - ديوان أبي فراس ٣١٧ .

الراحة، بل يظل قلقا معذبا من الصباح حتى يشرق عليه نور الصباح التالي ، ويظل ساهرا يقظا طول الليل حتى يحل به الظلام التالي ، وكما صبر على تحمل لون من ألوان الهم والقلق تبعهما هم وقلق جديدان . فجراحاته متوالية وهمومه متتابعة.

وصور أبو فراس ـ مستعينا بالاستعارة ـ جيش الروم الذي أعدوه لغزو حلب بقوله في تحذيره سيف الدولة ، ودعوته إياه بإعداد العدة لمواجهته:[1]

(سيفَ الهدى) من حدِّ سيفك يُرتَجَى	يومٌ يُذِلُ الكفرَ للإيمانِ
هذي الجيوشُ تجيشُ نحو بلادِكُمْ	محفوفةً بالكفرِ والصُّلْبَانِ
ألبغيُ أكثرُ ماتَقِلُّ خيولهُمْ	والبغيُ شرٌّ مُصَاحِبِ الإنسانِ
ليسُوا يَنُون فلا تَنُوا في أمرِكُمْ	لا ينهضُ الواني بغيرِ الواني

فجيوش الروم محفوفة بالكفر . والبغي هو أقوى الأسلحة التي يحملها جند الروم .فصور مايبدو من مظاهر الكفر من أدعية وعبادات وصلبان في صورة عدة أعدها هذه الجيوش لغزو بلاد الحمدانيين . كما صور البغي في صورة شيء خطير تحمله خيولهم وجنودهم لحرب المسلمين ، وهو شر مايُصحبه الإنسان . ولذا فقد دعا الشاعر سيف الدولة حتى يستعد لهذا الجيش بيوم يذل الإيمان فيه الكفر والكفار . وينبه الشاعر سيف الدولة إلى أن

١ - ديوان أبي فراس ٣٤٢ .

الروم جادون في أمرهم . فيجب أن يكون المسلمون كذلك . لأنه لا يثبت الضعيف الواني أمام القوي الجاد.

ومن الصور القائمة على الاستعارة في أسريات المعتمد تلك الأبيات التي يصور بها حزنه على ملكه ، بل حزن ملكه وقصوره عليه. فيقول : [١]

بكى المبارَكُ في إثرِ ابنِ عبّادِ ... بكى على إثرِ غزلانٍ وآسادِ
بكتْ ثريّاهُ لا غُمّتْ كواكبُها ... بمثل نوءِ الثريّا الرائحِ الغادي
بكى الوحيدُ بكى الزاهي وقبتُهُ ... والنهرُ و التاجُ كلٌّ ذلُّهُ بادي

فقد بكت قصور المعتمد على فراقه لها - على سبيل الاستعارة بالكناية .

وأوحت الاستعارة بتجسيد حزن هذه القصور ، ومدى ماكانت تموج به في عهد صاحبها الزاهر من أنس وبهجة وإشراق وتلألؤ . فقدته بأسر صاحبها وفراقه لها . وقد كرر الاستعارة مع ذكر أسماء قصوره كل على حدة ليصور حزن كل واحد منها وبكائه على حدة ، وأن كل واحد قد ناله نصيب من الحزن جعله يبكي ويئن أسفا على فراق صاحبه.

وإذا كان أبو فراس قد صور حسد الناس له على مجده، وشماتتهم بأسره وغلهم وحقدهم عليه ، فإن المعتمد قد صور حزن الناس لأسره، وتفطر أكبادهم، وتفجعهم حزنا على القضاء على ملكه فقال : [٢]

أنباءُ أسرِك قد طبّقْنَ آفاقَا ... بل قد عَمَمْنَ جهاتِ الأرض إقلاقَا

---

١ - ديوان المعتمد ابن عباد ٩٥ .

٢ - ديوان المعتمد ١١٠ .

سَرَتْ من الغروب لا يُطوَي لها قَدَمٌ حتى أتتْ شرقَها تنعـــاكَ إشــرَاقا
فأحرَق الفجعُ أكبـــادًا وأفئِـــدةً وأغرق الدمـــعُ آماقـًا وأحداقـَـا

فقد جسم أنباء أسره وجعل لها قدما تطوى جهات الأرض من غربها إلى شرقها ، لتعلن على الناس أسر عزيزهم ، والقضاء على ملكه، وتنعاه إليــهم . فأحرقت نار الفجع أكباد محبيه ، وتفطرت قلوبهم ، وأغرقت عيونهم وأحداقها بالدموع أسفا عليه.

والصورة في هذه الأبيات صورة نابضة بالحياة ، مفعمة بالحزن ، مشعرة بالتعاطف مع هذا الملك الذي ذل بعد أن أفل نجمه ، والأســير الــذي قيــد وأهين، و السلطان الذي حيل بينه و بين عزه وجاهه.

ولا شك أن كلا الشاعرين أبي فراس والمعتمـــد ، أراد مـــن خـــلال الصورتين السابقتين أن يبرز مجده وفضله على الناس ، ويجســـد أثـــر أســـره عليهم. ولكن تعجل أبي فراس في الخلاص من أسره، وتسرعه في الحكم علـــى من حوله خيلا له ــ حينما مرت به الأيام دون فداء ــ أن بقاءه في الأســـر ، وعدم خروجه السريع منه سببه كره الناس له وحقدهم عليـــه، وحســـدهم لمكانته في الدولة الحمدانية وقربه من سيف الدولة ، فصب عليهم جام غضبه ، واقمهم بالغل و الحسد و النفاق. أما المعتمد فكان لوقاره، وحسن ظنه بالناس وإيمانه بقضاء الله و قدره، وإن ما أصيب به هو من عند الله. كل هذا جعلـــه يعتقد أن الناس في كل جهات الأرض قد وقفوا بجانبه، وتعاطفوا معه، فحزنـوا لحزنه، وتفطرت أكبادهم لأسره ، وملأ الحزن قلوبهم حيثما قضى على ملكه.

وصور المعتمد سروره بزيارة شاعره أبي بكر الداني له ، وحزنه لمفارقته فقال: [١]

أضاءَ لنا أغماتَ قُربك برهَةً وعادَ بها حين ارتحلتَ ظَلامُ

فقد صور قرب شاعره منه ، ووجوده بجواره في أغمات بصورة النهار المضيء المشرق الذي تختفي فيه أحزان الحزين. فعم النور أغمات وقت وجود الشاعر بها . كما صور فراق الشاعر له بالليل الذي حل بأغمات فخيم بحلوله الظلام على أنحائها وعاد جوها معتما كريها، وعادت معه آلام المعتمد الأسير وهمومه.

ولاريب في أن الاستعارة في كل الصور السابقة التي اخترقها من شعر الشاعرين أفادت تجسيم المعنى وقوته، وساعدت على تشخيصه وإبرازه في أشكال محسوسة وهذا من أبرز مهام الاستعارة ، ودواعي استخدامها في الأساليب الأدبية.

- ومن الصور الخيالية التي يأتي بها الشاعر لكي يكسب المعنى امتلاء وقوة ما جاء في قول أبي فراس في رثاء أبي المكارم بن سيف الدولة : [٢]

يا مَنْ أتتهُ المنايـا غـيرَ حافلـةٍ أين العبيدُ؟ وأين الخيلُ و الخَـوَلُ؟

أين الليوثُ التي حولَيْكَ رابضـةً أين الصنائعُ؟ أين أهلُ ؟ مـا فعلوا؟

أين السيوفُ التي يحميك أقطعُـهَا أينَ السوابقُ؟ أين البيضُ والأَسَلُ؟

---

١ - ديوان المعتمد ١١٣ .

٢ - ديوان أبي فراس ٢٤٥ .

ياويحَ خالِكَ بل يا ويح كل فتى   أكلَّ هذا تخطَّى نحــوَك الأجَــلُ؟

فقد تخيل الشاعر المنايا كائنا حيا اخترق كل هذه الحواجز، واختطـف المرثي.هذا التخيل جسم به الشاعر المنية ، وأبان عن قوتها ، وعدم اكتراثـها بالتحصينات التي قد يحصن بها الإنسان نفسه . ولاشك أن هذه الصورة بمـا تحمله من إيحاء تنقل إلينا المعنى بطريقة أقوى وأوقع من التعبير المباشر الصريـح الذي يدل على المعنى نفسه.

— ومن الصور الموحية بالمعنى المراد عن طريق الكناية في روميات أبي فراس قوله لسيف الدولة : [1]

شَرَيتكَ من دهري بذي الناسِ كلِّهمْ
فلا أنَا مبخـوسٌ ولا الدهرُ باخِسُ

فقد كنى بعملية البيع و الشراء عن حبه لسيف الدولة دون غيره مـن الناس ، وأقام من نفسه شاريا، ومن الدهر بائعا، وجعل من الناس كلهم ثمنـا لسيف الدولة . ليعبر عن شدة حبه له ، وقوة شوقه إليـه ، ويصـور مـدى استعداده لكسب رضاه حتى ولو خسر – في مقابل ذلك – رضا الناس كلـهم عداه.

ومن هذا اللون من الصور أيضا في روميات أبي فراس تصويره لكـثرة همومه في أسره ، وقلة ما يحس به من لذة في هذه الحياة بقوله: [2]

---

١ - ديوان أبي فراس ١٩٧ -

٢ - ديوان أبي فراس ٢٠٩ -

وصرتَ إذا مارستَ في الخيرِ لذةً
تتبعتَها بينَ الهمومِ تتبُّعَا

فقد تعود على ملاقاة الهموم والآلام ، وبعد العهد بينه وبين لذات الحياة حتى أنه إذا أراد أن يستمتع بخير فيها تتبع لذته به بين همومه وأوجاعه . فصور نفسه بمن تراكمت عليه وحوله الهموم. فإذا أراد أن يعيش لحظات خير ومتعة أخذ يبحث عن هذه اللحظات بين هذاالكم المتراكم من الهموم عله يظفر بها. وعموما فإن (الصورة التعبيرية الإيحائية أقوى فينا من الصور الوصفية المباشرة. إذا أن للإيحاء فضلا لا ينكر على التصريح). [1] (وهم يضعون الكناية في مكانة أرفع من التصريح ، ويعللون ذلك بأن الأديب في الكناية يقرن دعواه إثبات أمر من الأمور بما يجعل النفس ترتاح إلى إثباته، وتطمئن إلى هذا الإثبات . إذ كأنه يأتي ببرهان على دعواه) .[2]

اقرأ معي هذه الأبيات التي يبرز بها أبو فراس ما يتصف به من الجود والشجاعة عن طريق الكناية، فيقول عن نفسه بعد أن ضمه الأسر : [3]

فقدَ الضيوفُ مكانَه وبكاهُ أبناءُ السبيل
واستوحشَتْ لفراقِه يومَ الوغى سربُ الخيُول
وتعطّلتْ سمرُ الرماحِ وأُغمِدَتْ بيضُ النُّصول

---

١ - النقد الأدبي الحديث - د/ محمد غنيمي هلال ص٤٥١ .

٢ - أسس النقد الأدبي عند العرب - أحمد أحمد بدوى ٥٢٩ .

٣ - ديوان أبي فراس ٢٧٣ .

فيوحي البيت الأول بجود أبي فراس الذي سيفتقده الضيوف وأبناء السبيل.ويوحي البيت الثاني بفروسية أبي فراس. كما يوحي البيت الثالث بشجاعته التي لا نظير لها ، والتي ستعطل سمر الرماح ، وتغمد السيوف بسبب تعطلها بهذا الأسر.

وللمعتمد أبيات تصور معنى الشجاعة الذي صوره أبو فراس في أبياته المذكورة يقول فيها: [1]

كذا يَهلِكُ السيفُ في جفنِهِ ... إلى هزِّ كفِّي طويلَ الحنينِ
كذا يعطَشُ الرمحُ لم أعتقِلْهُ ... ولم تُروِهِ من نجيعٍ يميني
كذا يَمنَعُ الطِّرفُ علَّكَ الشكيمِ ... مرتقباً غَــرَّةً في كمينِ

فقد وضعت السيوف في أغمادها بعد أسر المعتمد ولم يجد من يعمله في رقاب الأعداء حتى طال حنينه إليه . أما الرماح فقد اشتد بها الظمأ إلى دماء الأعداء بعد أسر المعتمد الذي كان يرويها منها في ميادين القتال . وأما الطرف فقد فلك لجامه واستراح منه بعد أن كان دائم الإلجام ارتقابا لخوض المعارك .

فالسيوف – في الصورتين عند أبي فراس و المعتمد – أغمدت بأسر صاحبها، و الرماح تعطلت ، والخيول توقفت واستراحت لعدم وجود من يحل محل الأسير في إعمالها وري ظمئها ، واقتحام أهوال المعارك بها . ولكني أرى

---

١ - ديوان المعتمد ص١١٦ .

أبيات المعتمد أبلغ في الدلالة على هذا المعنى ، وأقوى ابرازا له وتجسيدا ، بما أضافه إلى صورته من معان تبرز المعنى وتقويه . فقد ذكر أن السيوف أغمدت بأسره كما فعل أبو فراس ، ولكنه زاد على ذلك طول حنينها إلى هز كفه. وذكر أن الرماح تعطلت كما ذكر أبو فراس ، ولكنه أضاف إلى ذلك ظمأها وعطشها الذي يحتاج إلى الري من دماء الأعداء . وذكر أن الخيل قد توقفت كما فعل أبو فراس ، وأضاف إلى ذلك أن لجامها قد وضع عنها . أي أنه لانية لأحد في ركوبها واقتحام أهوال المعارك بها بعد أسر المعتمد. وهذه الاضافات ساعدت على تشخيص المعاني و تجسيدها وقوتها.

ويجسم المعتمد حزنه على ما أصيب به في ملكه وأهله ، ويصور غزارة دموعه فيقول حينما مر بموضع من أرض العدوة فرأى أهله خارجين للاستسقاء: [١]

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم   دمعي ينوب لكم عن الأنواء
قالوا:حقيق في دموعك مقنع   لكنها ممزوجة بدماء

فالدموع حين تنوب عن ماء المطر في السقيا تكون دموعا غزيرة تنهمر انهمارا. ولن تكون كذلك إلا إذا كانت ناتجة عن شدة الحزن وفرط البكاء.

ويصور المعتمد حنينه إلى قصوره وشوقه إلى عودة أيامه بها فيقول:[٢]

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   أمامي وخلفي روضة وغدير

---

١ - ديوان المعتمد ٨٩ .

٢ - ديوان المعتد ٩٩ .

بمنبَةِ الزيتـــونِ موروثـــةِ العُـــلا   تُغـــنِّي قيـــانٌ أو تـــرنُّ طيـــورُ
بزاهِرِها السَّامي الذُّراجادَه الحَيَـــا   تشـــيرُ الثريـــَّا نحونَـــا ونشـــيرُ
ويلحظُنا الزَّاهِي وسعدُ ســـعودِهِ   غيورَيْنِ والصَّبُّ المحـــبُّ غيـــورُ
تـــراهُ عســـيرًاأم يســـيراً منالُـــه   ألاكُـــلُّ ماشـــاءَ الإلـــهُ يســـيرُ

فقد كنى بهذه الأبيات عن شدة شوقه إلى قصوره، وإلى أيامه الذاهبة بهـ حيث الروضة الغناء ، و الماء يحف بها من جميع الجهات . بجـــانب الأشـــجار المثمرة ، والقيان المغنية ، والطيور الصداحة ، والأنوار المتلألئة ، و المحبوبة التي تأخذها الغيرة كلما انصرف ببصره عنها. ويسأل : أترى عودة هذا النعيـــم يسيرا أم عسيرا ؟.ويجيب : إن ذلك على الله يسير لو شاء – سبحانه وتعالى – عودته.

وقد جعل المعتمد الكناية وسيلة لاستحضار هذه الصورة الجميلة الأثيرة لديه وتمنى عودتها وتحقيق استمتاعه بها. وحينما نقرأ الأبيات ونتخيل الصـــورة الموسومة بها نحس وكأن أمامنا منظر طبيعة القصور الخلابـــة بكـــل زينتـــها وسحرها ، وتنعم المعتمد بها. حيث افتن المعتمد في تشييد قصوره غاية الافتنان فغدت ذات جمال بارع، ووشي بديع، ورياض نضرة، ومياه ذات خرير مبهج، وضمت الكثير من التحف الفنية النادرة. وهذا كله جعل من الصعب عليه أن يسلوها أو ينسى أيامه و لياليه بها.

– و إلى جانب هذه الألوان البيانية التي اعتمد عليها أبو فراس و المعتمـــد في صورهما الشعرية تظهر بعض المحسنات البديعية التي اعتمد عليها كل منـــهما

في رسم بعض صورهما الفنية. و لكنهما لم تأت في هذا المجال كثيرا، بل ظهرت فقط في البيت و البيتين في القصيدة دون تكلف أو صنعة. وهما في ذلك يتفقان مع ماحبذه النقاد العرب القدماء ، ومنهم ابن رشيق الذي يقول في هذه القضية : " واستطرفوا ماجاء من الصنعة نحو البيت والبيتين في القصيدة بين القصائد . يستدل بذلك على جودة شعر الرجل ، وصدق حسه ، وصفاء خاطره . فأما إذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وإيثار الكلفة".[١]

- ومن ذلك الطباق في قول أبي فراس عن نفسه مفتخرا :[٢]

صبورٌ على طيِّ الزمانِ ونشرِه   وإن ظَهَرَتْ للدهرِ فيَّ نُدُوبُ

وأفاد الطباق هنا المبالغة في وصف صبر الشاعر على نوائب الدهر في كل الأحوال . ومنه قوله في تصوير قلقه وعدم نومه منذ أصيب بنكبة الأسر:[٣]

يرعَى النجومَ السـائرا   تِ من الطُّلوعِ إلى الأفولِ

وأفاد الطباق سهر الشاعر الليل كله ، وعدم نومه في أى وقت منه. وقد تعاونت الاستعارة و الطباق على تصوير أرق الشاعر و قلقه وعدم راحته أو نومه طوال ليله فهو يبيت ينظر إلى النجوم وكأنه يرعاها و يحصيها من وقت طلوعها في أول الليل حتى أوان أفولها في أول النهار.

---

١ - العمدة ١/١٣٠ .

٢ - ديوان أبي فراس ٣٨ .

٣ - ديوان أبي فراس ٢٧٣ .

ويصور أبو فراس كيف حافظ على المودة بينه و بين محبوبته في حين ضيعتها هي فقال :[1]

حفظتُ وضيّعتِ المودةَ بيننا
وأحسنُ من بعضِ الوفاءِ لك العذرُ

وصور الطباق حفظ المودة و العهد بين المحبوبين من جانب ، وتضييعها و التفريط فيها من جانب آخر، مما كان سببا من أسباب لوعة الشاعر وزيادة عذابه وآلامه نتيجة الاستهانة من جانب محبوبته بالعهود و الوعود التي بينهما.

ومن الطباق في أسريات المعتمد قوله مصورا الفرق بين ماضيه وحاضره:[2]

عادَ بِشْرِي الذي عَهِدتَ عبوسًا
شغلتني الأشجانُ عن أفراحِي

فقد ساهم الطباق في هذا البيت في رسم صورة لحياة المعتمد قبل أسره و بعده ، فقد كان قبل الأسر ضاحكا تتوالى أفراحه في حياته، أما الآن فقد أصبح عبوسا حزينا يغالب أشجانه وأحزانه المتوالية.

و من إسهام الطباق في رسم الصورة المرادة قول المعتمد في رثاء نفسه:[3]

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٢ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٤ .
٣ - ديوان المعتمد ٩٦ .

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرَّائحُ الغادِي
حقًا ظفرتَ بأشلاءِ ابن عَبادِ

فقد ساهم الطباق هنا في إبراز حاجة الشاعر الملحة في كثرة انصباب ماء المطر النافع على قبره، ليسقى صاحبه صباح مساء فلا يشعر فيه بظمأ، ولا يؤذى فيه بشمس .

ومنه قوله يصور تقلب الدهر به. [1]

مَنْ يصحب الدهرَ لم يعدَمْ تقلّبَهُ ... و الشوكُ ينبتُ فيه الوردُ والآسُ
يمرُّ حيناً وتحلو لي حوادثُهُ ... فقلّما جَرَحَتْ إلا انثنَتْ تَاسُو

ويلاحظ وجود الطباق في أسريات المعتمد بدرجة أكبر مما هو في روميات أبي فراس و ربما كان لكثرة حديث المعتمد في أسره عن ماضيه، ومقارنته بحاضره في سجنه دور في كثرة استخدامه للطباق الذي يساعده على الجمع بين المتضادين ، فيتمكن بذلك من المقارنة بين ما كان عليه في الماضي و ما أصبح عليه في حاضره بعد الأسر.

— أما عن وجود المقابلة في شعر الأسر عند أبي فراس و المعتمد فمحدود للغاية . ولكن دورها حين تأتي يكون ملوحظا و ملموسا و كبيرا في تصوير المعنى وإبرازه و تشخيصه. و نرى ذلك جليا في تلك الأبيات التي يناجي فيها أبو فراس تلك الحمامة التي سمعها تنوح على أليفها بجوارأسره. [2] فقدلجأ إلى

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٧ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٨٢ .

المقابلة اللفظية • في أحد أبيات هذه القصيدة :

أيضحَكُ مأسورٌ و تبكي طليقَةٌ
ويسكُتَ محزونٌ ويندُبُ سَالِي

بجانب المقابلة المعنوية بين حاله وحالها في بعض الأبيات الأخرى في نفس القصيدة.وقد أفادت المقابلة هنا بصورتها اللفظية والمعنوية مشاركة الشاعر تلك الحمامة حنينها وأنينها ، ومقاسمتها أحزانها وخوفها على فراخها . وقد صورت الأبيات الفارس الشاب وهو وراء قضبان السجن مهيض الجناح، ذليلا، مهانا، يسوقه العدو الآسر ألوان الهوان و الخسف. و تصوره الأبيات وهو يمسك بقبضتيه حديد سجنه وينظر إلى خارج السجن ، وكأنه يحاول أن يلوى هذا الحديد الذي يحول بينه وبين الانطلاق والحرية ، وإلى عالمه الذي كان فيه سيدا مطاعا وبطلا مهابا وينظر وكله أسى وحزن وحسرة إلى جارته الحمامة وهي تئن و تتوجع ، وتحن إلى أليفها فيخاطبها طالبا منها أن تتعزى بمصابه عن مصابها. فإذا كان أليفها قد فارقها وهي حرة طليقة ، فإن أليفه قد فارقه وهو سجين مقيد . فمصيبته أدهى وأمر ولذا يخاطبها قائلا: أنا أولى منك بالحزن و البكاء والأنين ، فتعالى نتقاسم الهموم ، فليس من الإنصاف أن تتسلى وحدك وأنت الطليقة بينما أبدو وكأنني ضاحك وأنا في خضم الأسى وذل أسرى.

يقول محمد رضا مروة معلقا على هذه القصيدة: [1]

---

١ - أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير ٩٢ .

" ولعل أفضل قصائده الوجدانية تلك التي يخاطب فيها حمامة طليقة. إذ يشخص في تلك القصيدة حالة إنسانية شاملة، ووضعا اجتماعيا يتمثل بالصراع بين الحرية و السجن و تبدو فيها معاني الغربة النفسية التي تخرجه من واقعه الضيق – السجن – إلى الأماكن الفسيحة ليخاطب الحزن البشرى والهم الإنساني. ويتم ذلك بأسلوب قصصي يتعالى فيه الحوار ويشتد ليكشف عن أزمات النفس المعذبة أينما وجدت وأنى حلت وفيها يتعالى الحزن الذي يخلفه الفراق ".

و للمعتمد قصيدة مشابهة لقصيدة أبي فراس في مخاطبة سرب القطا الذي مر على سجنه مبتهجا مسرورا مجتمع الشمل طليقا. [1] فأخذ يقارن بينه وبين هذا السرب مستخدما المقابلة المعنوية. وترى المعتمد في أبياته في مخاطبة سرب القطا يركز على بيان قيمة الحرية ، وأهميتها في حياة الكائن الحي ، فيتحسر على فقده لها هو وأولاده ، ويهنئ هذا السرب على تمتعه بها و يدعو له بدوام حالة الأمن و الطلاقة التي ينعم بها.

(وقد بارك المعتمد الحرية و المتحررين في صفاء نفس برئت من الحسد، و فاضت إنسانية نبيلة. ولذلك انسابت الأبيات انسيابا عفويا صادقا مشاكلا لانسياب المشاعر الدافقة في قرارة ذاته).[2]

بكيتُ إلى سربِ القَطَا إذ مَرَرْنَ بِي   سوارحَ لا سِجْنٌ يعوقُ ولا كَبْلُ

---

١ - ديوان المعتمد ١١٠ .

٢ - الأسر والسجن في شعر العرب ٥٠٠ .

هنيئاً لهــا أنْ لم يفــرّق جميعُــــها ... ولا ذاقَ منها البعدَ من أهلها أهــــلُ
وأنْ لم تَبِتْ مثلـــي تطــيرُ قلوبُهـــا ... إذا اهتزَّ بابُ السجن أوصَلْصَلَ القُفْلُ
ألاَ عصَمَ اللهُ القطَـــا في فراخِـــها ... فإنَّ فراخي خانَهَـــا المــاءُ و الظِّـــلُّ

أما أبو فراس فاتخذ من حديثه مع الحمامة النائحة وسيلة لإبراز المحنــــة القاسية التي يعانيها في سجنه ، فيدعو الحمامة ليقاسمها الهموم على الرغم ممـــا يعانيه هو من الضعف الذي يكتمه و يخفيه . فهو يظهره ويعترف به في قوله:

أقولُ وقد ناحتْ بقـــربي حمامَـــةٌ ... أيا جارتا هـــل تشـــعُرينَ بحــالي
معاذَ الهوَى ماذقتِ طارقةَ النَّـوَى ... و لا خَطَرتْ منكِ الهمومُ ببـــالِ

ثم يتراجع عنه و يتعالى ، ويحاول إخفاءه فيقول:

أيا جارتا ما أنصفَ الدَّهرُ بيننَـــا ... تعالَيْ أقـــاسِمْكِ الهمـــومَ تعَــالي
لقد كنتُ أولى منكِ بالدّمعِ مقلـــةً ... و لكنَّ دمعي في الحوادثِ غــــالي

إن أبا فراس أراد في هذه الأبيات أن يظهر نفسه بمظهر البطـــل الـــذي تعود على العطاء و البذل ، وعدم الخضوع والاستنجاد. عكس المعتمد الـــذي ظهرَ في أبياته إنسانا صريحا صادقا مع نفسه، ومع واقعه الذي يعيشه في أسرة، و في تفرق أولاده وأهله. [١]

، ويلجأ المعتمد إلى المقابلة في موضع آخر ليصور لنا الفرق الهـــائل بـــين ماضيه وحاضره فيقول : [٢]

---

١ - انظر المرجع السابق ٥٠٠ ، ٥٠١ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٢ .

أصبحتْ صفرًا يدى مما تجودُ بــــهِ ما أعجبَ الحادثَ المقدورَ في رجبِ
ذلٌّ وفقــرٌ أزالَا عــزةً وغــنىً نعمى الليالي من البلوى على كَثَـبِ

فالذل و الفقر اللذان يعيشهما في أسره قد أزالا عنه ماكان يعيش فيـــه قبل الأسر من العزة والغنى . وقد أوقفنا التقابل في هذا البيت علـــى حـــالي المعتمد قبل الأسر و بعده ، وأبان لنا عن الحالين المتناقضين اللذين عاشــهما في بيت واحد بمساعدة المقابلة اللفظية في هذا البيت.

ـ أما الجناس فقد أتى في شعر الأسر عند شاعرينا في عفويـــة وبســـاطة، وجاء من نوع الجناس الناقص في معظم الأحيان . ومنه في روميات أبي فـــراس في قوله : متحدثا عن الأقارب والخلان : [1]

وأنت أخٌ تصفُو و إنما الــ أقاربُ في هذا الزمانِ عَقاربُ

فقد جانس بين (الأقارب) و (العقارب). وساهم الجناس مع التشـبيه على إبراز حقيقة الأقارب في نظر الشاعر ، فصورهم بصـــورة العقـارب في تلونهم، وقوة الآلام التي تصيب الإنسان من جهتهم.

ومنه قول أبي فراس متحدثا عن حاله في الأسر: [2]

إنّ في الأسرِ لَصبًّا دمعهُ في الخدِّ صَبٌّ

ففي البيت جناس تام بين (صب) , (صب). فالأولى بمعنى عاشـــق ،

---

١ - ديوان أبي فراس ٤٣ .
٢ - ديوان أبي فراس ٤٨ .

والثاني بمعنى مصبوب. فهو يعرب عن حبه لسيف الدولة وأنه عاشق له، وبعده عنه في أسره جعل دمعه مصبوبا على خده.

والجناس في بيتي أبي فراس السابقين جاء طبيعيا لم يتكلفه الشاعر ولم يسع إليه ، فكان له في البيتين تأثيره في جمال المعنى وقوته بما يحدثه في كل منهما من موسيقى ساحرة تساعد على إبرازه ووضوحه.

ونجد الجناس في أسريات المعتمد في مثل قوله عن تحسره لعدم تمكنه من إجابة طالبي معروفه من شعراء طنجة: [١]

سَألُوا العسيرَ من الأسيرِ وإنَّهُ　　　بسؤالِهِمْ لأَحَقُّ منهُمْ فاعجَبِ

فقد جانس بين (العسير ، والأسير) ليصور الحالة الراهنة التي يعيشها في أسره.

ولجأ المعتمد مرة أخرى إلى الجناس ليبرز الحالة التي كان يعيشها قبل الأسر فقال: [٢]

وإنِّي منْ كان الرجالُ بسيبِهِ　　　ومن سيفِهِ في جنَّةٍ وجهنَّمِ

فقد جانس بين (سيبه ، وسيفه) ،ثم طابق بين (جنة، وجهنم) ليصور مدى تأثيره على غيره من الرجال في حالتي السلم والحرب أو في الرضا والغضب . فقد كان جوده يجعل من يحظى به بمثابة من يعيش في جنة بكل

---

١ - ديوان المعتمد ٩٢ -

٢ - ديوان المعتمد ١١١ -

نعيمها ورغدها. أما من يتعرض لغضبه وانتقامه فهو بمثابة من يعيش في جهنم بعذابها وبؤسها.

أما الجناس الرائع حقا فهو ما جاء في قول المعتمد على لسان زوجته وهى تصور تبدل حالها بعد الأسر وفي رده عليها في قوله: [١]

قالَتْ : لقد هُنّا هُنَا مولايَ أين جاهُنَا
قلتُ لها : إلى هُنَا صيَّرَنَا إلهُنَا

وفي كل من البيتين جناس تام بين (هُنّا) و (هُنَا) في البيت الأول ، وبين (إلى هُنا) و(إلهُنا) في البيت الثاني . وكان للجناس دوره في إيجاز الكلام وروعة المعنى لأنه جاء طبيعيا عفو الخاطر ، ولا يحس القارىء بأي نوع من التكلف أو التصنع فيه.

- هذا. وقد استمد أبو فراس و المعتمد الكثير من الصور الشعرية من عدة مصادر أهمها.

١ - الثقافة الإسلامية : ونعني بها القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة، والعلوم الإسلامية المتعلقة بفهمها كالفقه والسيرة النبوية . ولا شك في أن الروح الدينية تمثل مصدرا قويا للصورة الشعرية في شعر الأسرعامة .

لأن الشاعر حينما يقع في مأزق أو يحدث له مايفزعه فإنه يلجأ بفطرته إلى الله سبحانه وتعالى راجيا أن يكشف عنه ما هو فيه من غم وكرب.ومن

---

١ - ديوان المعتمد ١١٤ .

استلهام معنى قرآني في الصورة الشعرية قول أبي فراس مفتخرا : [١]

فكمْ يطفِئونَ المجدَ واللهُ موقِدٌ وكم يَنقصُونَ الفضلَ واللهُ واهِبُ

وفي البيت تأثر بقوله تعالى :" يُريدُونَ أن يُطفِئُوا نورَ الله بأفواهِهِمْ والله متمّ نورِه ،ولوْ كرِهَ الكافِرُون ".[٢]

وأفاد البيت أن المجد قد وهبه الله أبا فراس ، و لا يستطيع حاقد أو حاسد أن ينتقصه أو يقلل منه.

ومن اعتماد الصورة الشعرية على المعنى القرآني في أسريات المعتمد قوله في رثاء أولاده : [٣]

فمَا لِي لا أبكِي أم القلبُ صَخرةٌ
وكمْ صخرةٍ في الأرضِ يجري بها نَهرُ

فالمعنى في الشطر الثاني مستمد من قول الله - تعالى- : " وإنَّ مِن الحجارةِ لما يَتفجَّرُ منه الأنهارُ ".[٤]

ومن ذلك قول المعتمد في شعره إلى ابن زهرالإشبيلي : [٥]

سيُسلِي النفسَ عمَّنْ فاتَ علمِي بأنَّ الكلَّ يدركُه الفَنَاءُ

١- ديوان أبي فراس ٤١ .
٢ - الآية رقم ٨ من سورة الصف .
٣ - ديوان المعتمد ٦٩ .
٤ - من الآية رقم ٧٤ من سورة البقرة .
٥ - ديوان المعتمد ٩٠ .

فالشطر الثاني مستمد من قول الله — تعالى-(كُلُّ مَنْ عليها فَانٍ . ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجَلَالِ و الإكْرام) . [١]

ولا شك أن استلهام المعنى القرآني هنا أوحى باستسلام المعتمد لأمر الله، والرضا بقضائه وقدره فيما أصيب به .

ومن ذلك أيضا قول المعتمد في مدح يوسف بن تاشفين والحديث عن بلائه في معركة الزلاقة :[٢]

وللشُّهَداءِ ثناءٌ عليكَ بحسنِ مقامِكَ ذاكَ النَّهارا

وأنهُمْ بك يستبشرُو نَ ألاَّ تخافَ وألا تُضارا

فالصورة في البيت الثاني مستمدة من قول الله — تعالى — عن الشهداء في سبيله: " فَرِحينَ بما آتاهُمُ اللهُ من فضلِهِ ويستبشِرونَ بالذينَ لم يلحَقُوا بِهِمْ من خلفِهِمْ ألاَّ خوفٌ عليهِمْ ولا هُم يحزنُون ".[٣]

وصلة معنى البيت بالآية القرآنية هنا أكد معنى إثابة ابن تاشفين على جهاده في سبيل الله، وأن بلاءه في سبيل الله لن يضيع سدى.

— ووجدت في روميات أبي فراس بعض الصور التي تأثر فيها ببعض ما جاء في السنة النبوية المطهرة . ومن ذلك قوله عن أسره ، وأنه كان قدرا مقدورا:[٤]

---

١ - الأيتان رقم ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

٢ - ديوان المعتمد ٩٨ .

٣ - الأية رقم ١٧٠ من سورة آل عمران .

٤ - ديوان أبى فراس ١٦٥ .

أسِرتُ وما صَحبي بعُزْلٍ لدى الوَغى ... ولا فرَسي مُهرٌ ولا ربُّـه غُمْـرُ
ولكنْ إذا حُمّ القضاءُ على امـرئٍ ... فليسَ لـه بَرٌّ يقيـهِ ولا بَحْـرُ

فأسره كان قضاء قضى به الله عليه. وإذا قضى الله بشيء على ابـن أدم لن يستطيع أحد رده عنه . كما جاء في قول النبي ﷺ: في حديث ابن عباس الذي رواه الترمذى (... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلاّ بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشـيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبهُ الله عليك...) .[1]

واستلهم أبو فراس معنى هذا الحديث في موضع آخر فقال: [2]

ومنْ لم يـُوَدّهُ اللهُ في الأمرِ كُلِّهِ ... فليس لمخـلوقٍ إليه سبيلُ
وإن هُو لم يَدْلُلْكَ في كلِّ مَسلكٍ ... ضللتَ ولو أنَّ السِّمـاكَ دليلُ

فالبيت الأول يوحي بأن ماقدره الله كان، ومالم يشأ لم يكن،وأنـه لـن يستطيع أحد أن يرد ما قدره الله مهما كانت قوته.. أما البيت الثاني فمعنـاه متصل بقول الله ـ تعالى ـ : (ومَنْ يضلِلِ اللهُ فمالَهُ منْ هادٍ) .[3]

ـ كما استمد أبو فراس والمعتمد بعض صورهما الشعرية من مصطلحـات الفقه الإسلامي . نجد ذلك في روميات أبي فراس في مثل قوله في عتابَ سـيف

---

١ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى - ضبط وتوثيق : صدقى محمد جميل العطار - دار الفكر - بيروت - ١٩٩٥م - كتاب القيامة - حديث رقم ٢٥١٦ - ٢٢٨/٧ ، ٢٢٩ .

٢ - ديوان أبي فراس ٢٥٤ .

٣ - من الأية رقم ٣٦ من سورة الزمر .

الدولة: (١)

لا تَيَمَّمْ و السماءُ تدركُهُ غيرك يرضَى الصُّغرى و يقبلُها

فقد جعل أبو فراس نفسه بالنسبة لسيف الدولة كالماء الذي يتطهر به لأداء الفريضة، و جعل غيره ممن يستبدله سيف الدولة بالشاعر كالتراب الذي يتيمم به سيف الدولة،ولا يصح له التيمم مع وجود الماء كما هو معروف في الفقه الإسلامي . وأكد الشاعر المعنى بأن ما لجأ إليه سيف الدولة من استبدال الشاعر بغيره فعل صغير لا يليق بمكانة الأمير. فغيره — و ليس هو — يرضى بالصغرى و يقبلها .

ومن اعتماد أبي فراس على مصطلحات الفقه الإسلامي قوله في نفس القصيدة يحث سيف الدولة على الجد في افتدائه: (٢)

لا يقبلُ اللهُ قبلَ فرضِكَ ذا نافلةً عندَه تنفّلُها

فقد صور فداءه بالفريضة الواجبة على سيف الدولة ، وصور غيرها من المكارم التي يسعى إليها بالنافلة . و معروف أن الفرض مقدم على النافلة، وأن الله لا يقبل النافلة بدون أداء الفريضة.

وللمعتمد مقطوعة من أربعة أبيات يتخذ فيها من مصطلحات الفقه الإسلامي وسيلة لتصوير شجاعته في ميادين الجهاد فيقول: (٣)

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٦٤ .

٢ - ديوان أبي فراس ٢٦٦ .

٣ - ديوان المعتمد ١١١ .

لك الحمدُ من بعد السيوفِ كُبُولُ بساقيَّ منها في السجُونِ حجُولُ
وكنّا إذا حانَتْ لنحرٍ فريضَةٌ ونادَتْ بأوقاتِ الصَلاةِ طُبُولُ
شهِدنَا فكبّرنا فظلّت سُيُوفُنا تصلّي بها مـاتِ العِدَا فتُطيلُ
سجودٌ على إثرِ الركوعِ مُتَـابَعٌ هناك بأرواحِ الكُماةِ تسيلُ

فهو في الأبيات يقارن بين ذكريات الماضي ، وبين حاضره البائس في سجنه ونجده قد اختصر الصورة ، وعبر عن التناقض الشديد بين ماضيه وحاضره في البيت الأول ، ثم أفاض في الحديث عن ذكريات الماضي في الأبيات الثلاثة التالية . ويتضح هذا التناقض في المقابلة التي يؤديها الظرف الزماني (بعد) بين حالين متناقضين تماما: بين حالة الملك والمجد والعزة ، و رمز لها بالسيوف ، وحالة المهانة والأسر والذلة ، ورمز لها بالكبول . وقد فصل الحديث عن حالته الحاضرة في البيت الأول دون الحالة الماضية حتى يبلغ به الانفعال أقصاه حين يستجلى الحالة الراهنة التي أصبح عليها. لأن هذا هو مقصده الأول من هذه الصورة . خاصة بعد أن بين في الأبيات التالية ما كان يحياه في ماضيه من مجد وعزة. ومن هنا افتتح هذه الأبيات بالفعل الماضي (وكنا) حتى يجعلنا نحس بالفرق بين ما هو فيه الآن ، وبين ما كان فيه في الماضي،ثم يستخدم الشاعر مصطلحات الفقه الإسلامي لرسم الماضي في صورة من الطهر والبراءة ، وأن ما كان يمتليء به هذا الماضي من قتل ودماء إنما كان يحدث في حدود فرضية الجهاد وإعلاء كلمة الله ، و السير في حدود ما فرضه الله وأوجبه. فعبر عن قتل الأعداء بالنحر المفروض، ويعبر عن الالتحام بالأعداء – الذي يدل عليه دق الطبول – بالصلاة التي دخل وقتها فوجب

أداؤها والتكبير لها ، وعبر عن شهود المعركة بأداء الصلاة وما فيها من تكبير وركوع وسجود.ولا يؤديها في هذه الأوقات الأحياء فقط ، وإنما تؤديها معهم السيوف فتطيل حتى تحصد أكبر عدد من رؤوس الأعداء ، وتسيل أعظم كم من دمائهم.

وهكذا بعد أن يفتتح الشاعر صورته بعبارة (لك الحمد) التي توحي بالتسليم والرضا بقضاء الله وقدره ، يستلهم العقيدة الإسلامية التي تجعل الجهاد ضد أعداء الدين خير الأعمال.

- ويستلهم أبو فراس والمعتمد بعض أحداث التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية في رسم بعض الصور الشعرية. ومن ذلك استلهام أبي فراس لقصة الزبير بن العوام مع أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضى الله عنهم - في جهاده ضد الأمويين ، و لقصة صفية بنت عبد المطلب - رضى الله عنها - وحزنها الشديد على أخيها حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - بعد استشهاده في غزوة أحد ، ليسلي أمه بأحداث هاتين القصتين، و يدعوها إلى التأسي ببطلتي القصتين أسماء وصفية - رضى الله عنهما - فيقول :[1]

ويا أمتَا صبرًا فكلُّ ملمَّةٍ	تَجَلَّى على عِلاَّتها وتزولُ
أمَا لكِ في (ذاتِ النطاقيْن)أسوةٌ	بمكةَ و الحربُ العَوَانُ تجُولُ
أراد ابنُها أخذَ الأمانِ فلم تجِبْ	و تعلَمُ علمًا أنه لقتيلُ
تأسَّيْ - كفاكِ اللهُ ما تحذرينَه	فقد غالَ هذا الناسَ قبلكِ غُولُ

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٥٣ .

وكوني كما كانت بأحدٍ (صفيةٌ) ولم يشفِ منها بالبكاءِ غليلُ
ولو ردَّ يومًا (حمزةَ الخيرِ) حزنُها إذاً ما علتها رنةٌ وعويلُ

ويستلهم المعتمد جانبا من قصة حنين الجزع إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — في التعبير عن بعض أحواله في ماضيه قبل الأسر فيقول : [١]

وكم من منبرٍ حنّتْ إليه أعالي مرتقاهُ ومن سَريرِ

وقد أوجز المعتمد — كعادته — في استلهامه لهذا الحدث الإسلامي . بل لقد اكتفى بالإشارة إليه ، عكس ما رأيناه في أبيات أبي فراس الذي فصل القول — إلى حد ما — عما يتصل بغرضه من أحداث القصتين اللتين ذكر بهما والدته حتى تتأسى بالصحابيتين فيهما . وهذا ما دعاه إلى التطويل شيئا ما في تناول هذه الأحداث.

٢ — و من مصادر بعض الصور الشعرية أيضا في روميات أبي فراس وأسريات المعتمد: مصطلحات بعض الفنون وأدواتها . من مثل مصطلحات الكتابة ، وأدواتها كالورق وما يتصل به في قول أبي فراس:[٢]

ولما تخيّرتُ الأخلاءَ لم أجِدْ صبورًا على حفظِ المودةِ و العَهْدِ
سليمًا على طيِّ الزمانِ ونشرِهِ أمينًا على النَّجوَى صحيحًا على البُعدِ

فالطي و النشر من لوازم الكتاب و الورق ، استخدمهما الشاعر في يسر الزمان وعسره على الناس . وذكر أنه لم يجد بين الأخلاء في زمانه صديقا

١ - ديوان المعتمد ١٠٢ .
٢ - ديوان أبي فراس ١٠٦ .

صبورا حافظا للمودة و العهد ، مخلصا في صداقته لــــه في صــــروف الدهــــر وتقلباته. وهذا ما أسف له الشاعر وأحزنه.

ومن ذلك قول المعتمد في خطاب أبي بكر المنجم الخولاني حين دخــــل عليه البلد قبيل القضاء على ملكه : (١)

قد كنـــتَ همـــسُ إذ تخـــاطبُني ... وتخطُ كرهـــا إن عصتـــكَ يَـــدُ

فـــالآنَ لاعَـــيْنٌ ولا أثـــرُ ... أتراكَ غيـــَّبَ شـــخصَك البلـــدُ

فالهمس والخط والأثر ، ألفاظ تستعمل في ميدان الكتابة ، وما يتصل بها ، استخدمها الشاعر للدلالة من خلالها على ما كانت عليه علاقته بمخاطبـــه في الزمن الماضى ، وما آلت إليه الآن .

ومن ذلك استخدام مصطلحات الغناء في قول المعتمد في تصوير صـوت قيوده الحديدية : (٢)

يعيدُ على سمعي الحديدُ نشيدَه ... ثقيلاً فتبكي العينُ بالجسِّ و النَّقرِ

فقيوده تسمعه بصوتها المفزع نشيدا ثقيلا ، فتبكي عينه بدموع غزيرة . وقد استخدم الشاعر ألفاظا تتوافق مع هذا النشيد الشديد الوقع مثل الجـــس والنقر.

٣ – كما استمدت بعض الصور مقوماتها من بعض الأساطير والعـادات

---

١ - ديوان المعتمد ٨٧ .

٢ - ديوان المعتمد ١٠٦ .

العربية . ومن ذلك تفاؤل المعتمد بالغربان ، خلافا للمأثور عن العرب من تشاؤمهم بهذا الطائر عند سماع نعيبه. ونرى المعتمد في شعره عنها يكرر القسم بالله أنه لن ينفر واقعها ولن يتطير منها كغيره من الناس ، لأنها كانت بشير خير عليه بقدوم إحدى نسائه إليه في سجنه. يقول : [١]

غربانَ أغماتَ لا تَعْدِمْنَ طيبةً ... من الليالي وأفناناً من الشَّجَرِ
تظلُّ زُغْبَ فراخٍ تستكِنُّ بها ... من الحَرُور وتكفيها أذى المطَرِ
كما نعبتِنَّ لي بالفأل يعجبُني ... مخبِّراتٍ به عن أطيب الخَبَرِ
أنَّ النجومَ التي غابتْ قد اقتربَتْ ... منّا مطالعُها تسرى إلى القَمَرِ
عليَّ إنْ صدَّق الرحمنُ ما زَعَمَتْ ... ألاَّ يروَّعْنَ من قوسي ولا وَتَري
والله والله لانفَّرْتُ واقعَها ... ولا تطيَّرتُ للغربان بالعَوَرَ

وأراد المعتمد بتكرار القسم في البيت الأخير دفع الغرابة في هذا الأمر عن السامع ، لما يشاع بين الناس في البيئات العربية من التطير بالغربان ، والتشاؤم من رؤيتها و نعيقها .

٤ – كما قد يعتمد الشاعر في تصويره على الدلالة اللغوية لرسم الصورة الشعرية. كما في قول المعتمد في الرد على ابن اللبانة – شاعره الوفي – حينما رد عليه عطاءه لا عتقاده بأن المعتمد أحق بها وأولى في ظروفه التي يعيشها في أسره : [٢]

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٠ .

٢ - ديوان المعتمد ١٠٤ .

رَدَّ بِـرِّى بغيـاً علـىَّ وبـرَّا ... وجفَا فاستحقَّ لومـاً وشُكراَ
عافَ نزرى إذ خافَ تأكيدَ ضرِّى ... فاستحقَّ الجفاءَ إذ عـافَ نـَزْرَا
فإذَا ما طويتُ فى الحمـدِ بعضـًا ... عادَ لومْى فى البعضِ سرًّا وجَهْرَا
يا أبـَا بكـرِ الغريـبَ وفـاءً ... لا عدِمْناكَ فى المغـارِبِ ذُخْـرَا

فقد اعتمد الشاعر فى هذه الصورة على الخاصية الحركية للفعل اللغوى الذى اختاره بكل دقة . بجانب اعتماده على أسلوب التضاد ، أو الترادف ، أو الجناس كما فى (بغيا .وبرا) ، وفى (لوما .. شكرا) ، وفى (عاف .. وخاف) ، وفى (سرا جهرا)، وفى (الغريب والمغارب) . وكل ذلك يجعلنا نشعر بالحركة التى رسمها الشاعر لإبراز العلاقة بين عطاء الملك السجين ، ورد الشاعر الوفى لهذا العطاء عطفا و شفقة على حال الأسير الذى يراه الشاعر أحق منه بالعطاء .

وهكذا أمدنا شاعرانا أبو فراس و المعتمد فى شعرهما فى الأسر بالكم الهائل من الصور المعبرة عن حياتهما فى الأسر بكل ما يتعلق بها . وقد عبرا من خلال هذه الصور عن العاطفة ، و المشاعر الوجدانية التى امتلأت بها نفس كل منهما . ذلك أن العاطفة هي التى تنهض بالصورة الفنية ، وتساعد فى ابرازها قوية مؤثرة . ولذا نجد الصور تتفاوت بتفاوت العواطف التى تغذيها فى شعر كل من الشاعرين . إذ العواطف هى التى تستدعى لنا خواص الصورة الأدبية الصالحة للتعبير عنها .

كما أن للعاطفة اتصال وثيق بالتصوير والخيال . فكلما كانت العاطفة

قوية احتاجت إلى خيال قوى يعين على إيصالها إلينا وتأثرنا بها . وكلما كـانت سقيمة ، أو مصطنعة كان الخيال هزيلا سخيفا . فإذا شئنا للأدب قوة وخلودا عنينا فى أنفسنا بتهذيب الشعور و ترقيته ، ليكون إدراكـه للحيـاة صادقـا عميقا، وآثاره رائعة خالدة .[١]

وقد عبر أبو فراس والمعتمد فى شعرهما فى الأسر عن عواطف صادقـة ملتهبة كان لها أثرها فى قوة التصوير و الخيال عندهما،واستعان كـل منـهما بالعديد من الألوان البلاغية وغيرها من الوسائل التى عرضنا لمعظمها فى إبـراز الصورة فى شكل قوى مؤثر .

خامسا : اللغة و الأسلوب :

للغة والأسلوب أهمية كبرى فى العمل الأدبى،فالكلمة عنصر رئيسى مـن عناصر البناء الأدبي ، وركن أساسى فيه،وقد أدرك النقاد العرب القدامى هـذه الأهمية للغة والأسلوب ، وعرفوا قيمة الألفاظ ودورها فى تشـكيل الصـور الأدبية . وكثيرا ما تحدثوا عن هذه الأهمية ، وأبانوا عن خصائص الألفاظ التى ينبغى أن يتوخاها الأديب.

وجاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسـكرى أن العتـابي قـال : "الألفاظ أجساد والمعانى أرواح وإنما تراها بعيون القلوب فإذا قدمـت منـها مؤخرا ، أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى . كما لو حـول

---

١ - انظر: أصول النقد الأدبى د/ أحمد الشـايب / ص٢٤٣ ، النقد الأدبـى - د/ أحمد أمين - ص٦٢ .

رأس إلى موضع يد ، أو يد إلى موضع رجـــل لتحولـــت الخِلقـــة وتغـــيرت الحلية".[١] وذكر ابن خلدون : أن صناعة النظم والنثر " إنما هي في الألفـــاظ لا في المعاني وأن المعاني تبع للألفاظ وهي الأصل ".[٢] كما أدرك النقاد المحدثـــون أهمية الألفاظ في العمل الشعرى ، فذكروا أن الألفاظ هي أداة الشاعر الـــتى يتوصل بها إلى رسم الصورة الفنية ويعبر بها عن معانيه • فهو لم ينظم معـــانى مجردة بل ينسجها من الكلمات التى تؤثر في المتلقي بما تتضمنه مـــن المشـــاعر والأحاسيس والمعاني ، بل قد تؤثر فيه بإيقاعها الصوتى • فالكلمات في الشعر ليست مجرد إشارات أو علامات ، وإنما هي مجموعة من المثيرات الحسية الـــتى تثير في ذهن المتلقي صورا وإحساسات ، وتحرك انفعالاته ومشاعره .[٣]

فالكلمات ليست مجرد رموز ، وإنما هى كائنات حية يعمل فيها الشاعر عقله وفكره ليأتى بها قادرة على نقل مشاعره وعواطفه ، وترجمة أحاسيســـه ، وتصوير تجاربه تصويرا أمينا . فبالكلمة واللفظ يتكون أسلوب الشـــاعر . إذ هو طريقة يستعملها الأديب ، ومنهج يسلكه للتعبير عن شخصيته الأدبيـــة ، وموقفه مما يدور في نفسه من معان وأفكار وما يجول في خاطره مـــن صـــور وتشبيهات . فـــ " إذا كانت العاطفة واللغة والصورة من العناصر الرئيســـية للتجربة الشعريه ، فإن الأسلوب هو وسيلة الشعراء أو طريقتهم لنقل هـــذه

---

١ - كتاب الصناعتين ١٦١ •

٢ - مقدمة ابن خلدون - دار الفكر - بدون تاريخ - ص ٥٧٧ •

٣ - انظر: الصورة الفنية في التراث النقدى والبلاغى - د / جابر عصفور ص٣٦٧ •

العناصر مضافا إليها مواقف الشعراء من الحدث ".[1]

وقد عرف ابن خلدون الأسلوب بأنه " المنوال الذى تنسج فيه التراكيب أو القالب الذى يفرغ فيه ".[2] وفي النقد الحديث ، عرف الدكتور أحمد الشايب الأسلوب بأنه " طريقة الكتابة ، أو طريقة الإنشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير ، أو الضرب من النظم والطريقة فيه ".[3]

وإذا كان الأسلوب بهذه الأهمية بالنسبة للعمل الأدبي وجب أن يهتم الشاعر بسلامته في القصيدة ، لأن أهمية سلامة الأسلوب ليست أقل من سلامة الوزن واللغة . فاللغة مهما كانت قوية ، والألفاظ جزلة لابد لها من قالب تصب فيه . ومعرفة الأساليب تساعد الشاعر على الدقة والإجادة ووضع كل غرض في أسلوبه الذى يشاكله . لذا كان أول ما يحتاج إليه الشاعر : " حسن التأتي والسياسة ، وعلم مقاصد القول . فإن نسب ذل وخضع ، وإن مدح أطرى وأسمع ، وإن هجا أخل وأوجع ، وإن فخر خب ووضع ، وإن عاتب خفض ورفع ، وإن استعطف حن ورجع . ولتكن غايته معرفة المخاطب كائنا من كان ليدخل إليه من بابه ، ويداخله في ثيابه . فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذى به تفاوت الناس وبه تفاضلوا ".[4]

١- رثاء الأبناء في الشعر العربي ٢٠٨ .

٢ - مقدمة ابن خلدون ٥٧٠

٣ - الأسلوب ـ مكتبة النهضة المصرية ـ طبعة ٨ ـ ١٩٩٠ م. ص٤٤ .

٤ - العمدة ١/١٩٩ .

" ولكل فن من فنون الكلام أساليب تختص به ، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة".كما يقول ابن خلدون .[١]

وقد استطاع أبو فراس والمعتمد أن يحكما السيطرة على اللغة ، ويجعلاها معبرة عن تجاربهما الشعرية على اختلاف موضوعاتهما . كما جاءت اللغة الشعرية في شعرهما في الأسر معبرة عن إحساسهما ، ومصورة للحياة التي عاشها كل منهما في أسره ، وتأنق كل منهما في لغته وأسلوبه إلى حد بعيد .

ـ وقد امتاز الأسلوب الشعري في شعر أبي فراس والمعتمد في الأسر بميزات عدة : يأتي في مقدمتها تلك السهولة الرقيقة في الألفاظ والتراكيب ،مما جعل الأسلوب الشعرى عندهما سهلا بعيدا عن التقعر والإغراب . كما امتاز بالعفوية البعيدة إلى حد ما عن تكلف البديع والزخارف اللفظية التي كان شعراء عصريهما يكثرون منها في أشعارهم . وهذا أمر طبيعي في مثل هذا اللون من الشعر؛ فقد امتلأت نفس كل منهما بالأحاسيس والأفكار والرؤى ، فانشغل بالتعبير عنها عن التزويق والتنميق وتكلف الألفاظ . وكيف يتأتى لشاعر أن يتقعر أو يزخرف أو يغرب وهو في خضم هذه المأساة التي كان يعيشها شاعرانا في أسرهما ؟ .إن الشاعر في خضم هذه المأساة لا يخلو من إحدى حالتين :

إما أنه صادق فيما يصور ويعبر ، فيأتي أسلوبه سهلا معبرا بصدق عن إحساسه الداخلي وشعوره العميق ، وإما أنه كاذب يعبر عن تجوبة غيرحقيقية

---

١ - مقدمة ابن خلدون ٥٧١ .

فيلهو في شعره بزخارفه وتقعراته ، وألاعيبة اللفظية . وهذا مالم يكـن عليـه المعتمد وأبو فراس من قبله . فقد كان كل منهما صادقا في التعبير عن عواطفه ومشاعره التى أحس بها تجاه ما نكب به ، فانسابت الألفـاظ والأسـاليب في تجاربهما في الأسر مع حركات الشعور والأحاسيس .

لقد كان كل منهما ينظم شعره في أسره بعفوية ودون إعداد مسـبق . ولذا كان الشعر يخرج من داخلهما بمنتهى السهولة والسلاسة . وإن كان يميل كل منهما إلى إضافة بعض ألوان من المحسنات البديعية ، أو ألوان من المجـازات التى جاءت أيضا بعفوية ودون تكلف .

وهذا لا يعنى أن قصائد أبي فراس أو المعتمد في الأسر جاءت خالية مـن أي صناعة ، أو أنها قريبة من النثرية التقريرية المباشرة. فهموم كـل منـهما وشكايته وتوتراته تستلزم منه أن يغلفها بما يلائمها من بعض الطباقـات ، أو الجناسات ، أو تقديم وتأخير ، أو غير ذلك من بعض ألوان الصناعة . لكـن ذلك جاء منهما-كما قلت-طبيعيا دون تعمد أو قصد أو إكثار .

— كما امتاز أسلوب أبي فراس والمعتمد في شعر الأسر بـالميل في بعـض الأحيان إلى استخدام اللغة ذات الألفاظ الضخمة والطنين المرتفع ، التى تصور النفس الأدبية داخلهما ، وتبرز من خلالها شخصيتهما واضحة . ومن أهـم معالم هذه اللغة الميل إلى مزج الأسلوب الشـعرى بمعـانى الفخـر والتعـالى والكبرياء العربي . وخاصة لدى أبي فراس ، فهذه النغمة تبرز واضحة في كثـير

من قصائده من مثل قصيدته الرائية : (١)

أراكَ عَصِيَّ الدمعِ شيمتُكَ الصَّبْرُ   أمَا للهوَى نَهيٌ عليكَ ولا أمْرُ

وفي قصيدته في خرشنة : (٢)

إنْ زرتُ خرشنةَ أسيرًا   فلكَمْ أحطتُ بها مُغيرًا

وفي مثل قوله في إحدى رومياته : (٣)

رفعتُ علَى الحسَّادِ نفْسِيوهلْ هُمُ   وما جَمَعُوا لو شئتُ إلا فرائِــسُ؟
أيَدرِكُ ما أدركتُ إلا ابــنُ همَّــةٍ   يمارسُ في كسْبِ العُلا ما أُمَارسُ ؟
يضيقُ مكانِي عن ســوَايَ لأنــَّنِي   على قمةِ المجــدِ المؤثــَّل جــالِسُ
سبقتُ وقومِي بالمكــارِمِ والعُــلاَ   وإن رَغَمَتْ من آخرين المعَــاطِسُ

إلى غير ذلك من رومياته وأشعاره التى نلمح فيها كثيرا مــــن مظــاهر الفتوة العربية الأبية .

ونقرأ هذه اللغة في أسريات المعتمد في مثل قصيدته : (٤)

لما تماسَكَتِ الدموعُ   وتنبَّه القلبُ الصَّــديعُ
قالوا الخضوعُ سياسَةٌ   فليَبْدُ منكَ لهم خُضُوعُ

١ - ديوان أبى فراس ١٦٢ .
٢ - ديوان أبى فراس ١١٦ .
٣ - ديوان أبى فراس ١٩٨ .
٤ - ديوان المعتمد ٨٨ .

وفي مثل قوله :(١)

مَنْ عَزَا المجدَ إلينــا قــد صــدَقْ ... لم يُلِمْ مَنْ قال مهما قــالَ حَــقْ

مجدُنا الشــمسُ سنــاءً و ســنًا ... مَنْ يَرُمْ ســترَ ســناها لم يُطِــقْ

و قديمًــا كلــفَ الملــكُ بنـــا ... و رأى منـا شموسًا فعشـــقْ

قد مضَى منــا ملــوكٌ شُــهِرُوا ... شهرةَ الشمسِ تجلَّــتْ في الأفُــقْ

نحن أبنـــاءُ بـــنى مـــاءِ السَّـــما ... نحونا تطمَـــحُ ألحــاظُ الحــدَقْ

ومثل هذه اللغة قليلة فى أسريات المعتمد ، كما أنها أقل ضخامة مما هــى فى روميات أبى فراس .وربما كان مرجع ذلك طبيعة الأندلسيين ، و وضـــوح بيئتهم و ترف حياتهم . مما طبعهم بطابع الرقة و الوضوح و السهولة . ولذلك نلمح مثل هذه السمات فى أدبهم بصفة عامة .

— و من أهم سمات أسلوب شعر الأسر عند أبى فراس و المعتمد هو تمـــيزه بميزة الصدق .فهو الطابع الأول المميز لشعرهما .و لا غرو فهو وليـــد تجربــة شعورية محضة تنطلق فى صورة ألفاظ و تراكيب . لتعبر عنها في عفويـــة دون تزييف أو تكلف يعوق الحركة النفسية ، أو تدفق المشاعر .

و نستطيع أن نقرر أن " الصدق هو الذى منح شعر الحبـــوس قدرتــه الدائمة على إطلاق شحنات من الانفعال ، و نقلها إلى النفوس تنبعـــث فيـــها بألوانها و ظلالها وأبعادها الشعورية والفكرية . سواء فى ذلك كثـــير الشـــعر وقليله ، أوطويله وقصيره "(٢).

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٩ .

٢ - الأسر والسجن في شعر العرب ٦٤٦ .

و للصدق فى الأسلوب الشعرى عند شاعرينا مظاهر عديدة تدل عليها طريقة الأداء و أساليب التعبير .و من هذه الظواهر :

١ – الواقعية فى الوصف : فقد جاء الكثير من شعر الأسر عند أبى فراس و المعتمد يصف الواقع الحقيقى من خلال شعور كل منهما بالمعاناة التى يعيشها ، وصفا حقيقيا معبرا عن صور حقيقية فى حياة كل منهما فى أسره . ومن هنا جاء الوصف فيه وصفا مباشرا و صريحا فى مشاهده وألفاظه و صياغة تراكيبه.

اقرأ معى قصيدة أبى فراس فى رثاء أمه و هو فى أسره _ و التى بدأها بقوله :[١]

أَيَا أمَّ الأسيرِ سقاكِ غيثٌ   بكرهٍ منكِ مالقىَ الأسيرُ

مكررا الشطر الأول من هذا البيت فى البيتين التاليين له . وفى بدء القصيدة بعبارة (أيا أم الأسير) مع تكرارها ما يوحى برثاء نفسه مع رثاء الأم، وكأنه رثاء روح لروح . فهو فى أسره كمن مات ، و كأنه بعد موت أمه أصبح بلا وجود ."وبتكرار (أيا أم الأسير) أربع مرات دليل على أن الشاعر قد " تشيأ "داخل المأساة ، وبات لا يعى أولا يكاد يعى أنه يكرر الهتاف نفسه والمعنى نفسه .. تماما كما تفعل الثاكلات النادبات فى مآتم أموالهن حين يرحن هاتفات بهتاف واحد ، ونداء واحد ، و يذهلن عن كل عقل ....أما الصدق

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦١ .

فيتمثل في مطلع المرثاة التي بدأها الشاعر الثاكل بلا مقدمات . إذ لا حاجة في الرثاء الصادق إلى تأخير انبجاس العواطف . و لا قدرة للراثي على ذلـــك إلا إذا تعامل مع المأساة من خارج ".[١]

ثم إقرأ معي هذين البيتين اللذين نطق بهما المعتمد بـــن عبـــاد عندمـــا ارتاعت زوجته الرميكية من موضعها معه في السجن المهين :[٢]

قالتْ :لقد هُنّا هُنا   مولايَ :أينَ جاهُنا ؟
قلتَ لها :إلـــى هُنا   صيـــــــــرَنَا إلهُنا

إن القارىء لهذين البيتين يحس بصدق التجربة التي عاشها الشاعر مـــع زوجته و قد ضمهما ذل الأسر وهوان السجن فصدق أسلوبه في التعبير عنها. "فليس ثمة لفظ أوجز منه يخطف ذلة الحاضر وعز الماضي في ومضات ســاطعة كشافة عن صور لا تتناهى تنطلق من التعبيرين : "لقد هُنّا هُنَا . أين جاهُنَــا ؟ في ظلال ساكنة سكون الظلام ، هادئة هدوء اليقين ، مهيمنة هيمنة القـــدر : "إلى هنا صيرنا إلهنا " . ذلك أن التجربة الشعورية متى اتحدت بعديلــها مــن اللفظ و تخلقت عبارات متناسقة تخلق الكائن الحي ينشأ بعضها من بعض نشوء القسم و النداء ، و الاستفهام ، و التقرير في بيتي المعتمد .-متى تم ذلك لم يكن - بعد - لفظ و لا نسق أقدر منها على استيعاب التجربة و إيصالها ".[٣]

---

١ - أبو فراس الحمداني - خليل شرف الدين ١٧١.
٢ - ديوان المعتمد ١١٤ .
٣ - الأسر والسجن في شعر العرب ٦٤٧ .

٣ - ومن مظاهر الصدق الفني في أسلوب شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد : الإفصاح عن مكنون الخواطر و المشاعر في إطار حواري . فالشاعر يعرض موقفا حيا في شكل حوار يديره بينه وبين غيره حقيقة أو تخييلا . فتتوارد الأفكار في معرض تمثيلي . ومن ذلك الحوار الذي أداره أبو فراس الحمداني بينه و بين فاتنته في قصيدته الرائية . [١]

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتُكَ الصبرُ   أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرُ

فقد أطلعنا الحوار على العديد من المشاعر و العواطف التي تعتمل في نفس الشاعر فعبر عنها من خلال السؤال و الجواب ، و ذكر العلل والأسباب، و بيان المصاعب و العقبات التي تحول بينه و بين تمتعه بحبه. فقوله مثلا :

تُسائلني مَنْ أنتَ ؟ و هْيَ عليمةٌ   و هل بفتىً مثلي على حالِهِ نُكْرُ

فقلتُ كما شاءَتْ وشاءَ لها الهوَى   قتيلُكِ قالتْ : أيُّهُمْ فهُمُ كُثْرُ

فقلتُ لها : لو شئتِ لم تتعنَّتي   و لم تسألي عنِّي و عندَكِ بي خُبْرُ

فقالتْ لقد أزرَى بكَ الدهرُ بعدنا   فقلتُ : معاذَ اللهِ بل أنتِ لا الدهْرُ

وما كان للأحزانِ لولاكِ مسلكٌ   إلى القلبِ لكنَّ الهوَى للبلَى جِسْرُ

لنا - حين نقرأ هذه الأبيات - أن نتصور أبا فراس الفارس الذى فتك بالعديد من الأبطال وهو يقف خاشعا أمام هذه الفتاة و هي تسأله سؤال التائه

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٢ .

الأبي : من أنت ؟ فيرد بصوت خافت،عاشق.(كما شاءت و شاء لها الهـــوى) فتوجه إليه سؤالا آخر : أيهم ؟ فيرد في ذلة وانكسار : أنت تعلمين .

ألم نقل : إن الأسلوب هو أداة الشاعر التي يتوصل بها الى رسم الصـورة الفنية و يعبر بها عن معانيه ؟ لقد رسم الشاعر بأسلوب الحوار في هذه الأبيات الصورة التي كان عليها وهو يقف أمام فاتنته فتسأله و يجيب بأدب وخضوع .

وحين نقرأ بيتي المعتمد :[١]

خرجُوا ليستَسْقُوا فقلتُ لهمْ دمعِي ينوبُ لكمْ عن الأنوَاءِ

قالوا : حقيقٌ في دموعِك مَقْنَعٌ لكنّــــــهَا ممزوجَةٌ : بدماءِ

نجد أن المعتمد صور بهذا الأسلوب الحواري ــ على قصره ــ مـــا أراد إظهاره من غزارة الدموع الناجمة عن شدة حزنه . و تعاطف هـــؤلاء النـــاس وإحساسهم به ، و إدراكهم لما تمتلىء به نفسه من حزن وأسى ، جعل دموعـــه ممزوجة بالدماء و بالتالي لا تصلح للسقيا . فـــهم لا يستقلّون بدموعـــه ولا يقلّلون منها وإنما اعتراضهم فقط أنها ممزوجة بالدماء .

إننا حين نتأمل هذه الصورة نحس بصدق عواطف الشاعر ومشاعره . لا سيما إذا عرفنا أن الشاعر أنشد البيتين ولم يمض وقت طويل علـــى أســـره . فحداثة المصيبة مكنته من التعبير عن حزنه تعبيرا صادقا فوصف دموعه بهـــذه الغزارة التي جعلتها تنوب عن الأنواء . " وأجمل الحوار ما جاء في صورة لفظية

---

١ - ديوان المعتمد ٨٩ .

مطابقة للموقف يفيض بتصوير الحركة النفسية من خلال السؤال و الجواب ، وذكر الذرائع و الأسباب ، و المصاعب والمعوقات ".[١]

٣ — ومن مظاهر الصدق فى الأسلوب كذلك وجود ما يعــرف بظــاهرة : البوح و النجوى . وهما خاصة من خصائص الشــعر الغنــائى . وللبــوح والنجوى اتجاهات متنوعة : فقد يكون مجرد إفضاء بما فى النفس ، فيحــدث الشاعر عن نفسه أو يتحدث إليها . و التحدث إلى النفس أسلوب مشـهور فى مطالع القصائد الغنائية . وهو ما يسمى عند البلاغيين بالتجريد .[٢] أو يفضـى بذات نفسه بين يدى محبوبته . وقد يجمع بينهما فى مطلع واحد،كما فى قــول أبى فراس .[٣]

أراكَ عصيَّ الدَّمعِ شيمتُكَ الصبرُ ⁂ أمَا للهوَى نهيٌ عليكَ ولا أمْرُ

بلى أنَا مشتــاقٌ و عندِىَ لوعَةٌ ⁂ ولكــنَّ مثلى لا يُذاعُ له سِرُّ

ولكن النجوى تكون أعظم انفعالا ، وأقوى أثرا حينما يتجه الشـــاعر فيها نحو الطبيعة . ولأبى فراس و المعتمد مطالع فى نجــوى الحمــام والقطــا والغربان ، والأيك ، والديار . وقد قرأنا قبل ذلك قصيدة أبى فراس فى مناجاة الحمامة النائحة بجوار أسره .[٤] وقرأنا للمعتمد قصيدته فى مخاطبة سرب القطــا

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٦٥٧ .

٢ - التجريد:هو أن تأتى بكلام يكون ظاهره خطابا لغيرك وأنت تريده خطابا لنفسك فتكون قد جردت الخطاب عن نفسك وأخلصته لغيرك . **الطراز** . يحيى بن حمزة العلوى اليمنى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ طبعه عام ١٩٨٢م. ٣/ ٧٣ .

٣ - ديوان ابي فراس ١٦٢ .

٤ - ديوان أبي فراس ٢٨٢ .

الذى مر بأسره .[١] وقصيدته فى مخاطبة الغربان .[٢]

"والبوح أوج التجربة النفسية المشحونة هموما وآلاما ، ويتخذ الشعراء منه متفرجا يخففون به عن ذواقم المثقلة . ولهذا كان أفضل الشعر مثالا للصدق الشعورى و الفنى معا بما فيه من انطلاق عفوى يتحد فيه اللفظ بالشعور اتحاد الروح بالجسد فى بساطة ويسر . ومن طريقه ندخل على عالم الشاعر الداخلى ونسمع حسيس عواطفه الخفية ، ونتعرف على شواغله الحقيقية ، وأبعاد مأساته وأعماقها ".[٣]

وقد توقفنا قبل ذلك مع مناجاة أبى فراس للحمامة النائحة ، ومع المعتمد فى مناجاة سرب القطا.وفى شعر المعتمد مناجاة أخرى مع الجماد ؛ فقد ناجى قيده مناجاة مؤثرة تنقل قارئ الأبيات إلى تصوير جحيم المأساة التى عاشها ذلك الشاعر المقهور ، فيعيش معه مأساته فى كل موجة من موجات ألمه التى ألمت به حينما دخل عليه ولده الأصغر أبو هاشم وهو فى القيد ، فهتف مخاطبا قيده :[٤]

قيدِى أمَا تعلمُنِى مسلمَا	أبيْتَ أن تَشْفِقَ أوْ ترْحَمَا
دَمِى شرابٌ لكَ واللحْمُ قدْ	أكلتَهُ لا تهشِمِ الأعظُمَا
يبصرُنِى فيكَ أبُو هاشمٍ	فينثنِى القلبُ وقدْ هُشِّمَا

١ - ديوان المعتمد ١١٠.

٢ - ديوان المعتمد بن عباد ١٠٠.

٣ - الأسر والسجن في شعر العرب ٦٤٨.

٤ - ديوان المعتمد ١١٢.

ارحَمْ طُفَيْلاً طائشاً لُبُّـه ... لم يخشَ أن يأتيكَ مُسترحِمَا
وارحَمْ أخيَّاتٍ لـه مثلَـهُ ... جرَّعتهنَّ السُّمَّ والعلقَمَا

"وأبلغ الصدق فى هذه النجوى "الاعتراف". اعتراف الشاعر الملك أنـه بلغ من الضعف و العجز أقصاهما،فلم تبق لديه بقية للمقاومـة أو التماسـك والتحدى . وهو الموقف النفسى الصريح الذى يصدق فيه ملك مأسور مقيد ، استقبل ولده الذى كان يعهد أباه فى التاج و العزة .إن فى هـذا الاعتـراف بلحظات الضعف سرّاً من أسرار القول المؤثر،فهو يواجه بالحقيقة التى يتخفـى عليها بعض الناس فيما يشبه الخوف خشيته المعرة . فصرح الشاعر تصريحـا لاخفاء فيه أنه فى هذا الموقف قد تحطمت قواه :

يبصرُني فيكَ أبُو هاشمٍ ... فينثَنِي القلبَ وقد هُشِّمَا

و يبعث مصراعى البيت أصداء التداعى و التهشيم " أبو هاشم،هشـم " فنسمع ونرى سقوط قلبه و تهشمه كما تسقط الآنية من الزجـاج "،[1] وفى هذا الاعتراف و البوح الصادر من الشاعر تتركز حقيقة المأساة التى تكمـن فى مأساة الإنسان المقهور بين يدى الإنسان القاهر . وهى حقيقة كبرى فى الوجود الانسانى . فإذا شرب الآسر الدم ، وأكل اللحم وهـمّ بـالعظم فـانظر إلى وحشية هذه اقترفها هذا الآسر . ولذلك يمكن القول بأن هذا الاعتراف يحمل ضربا من الهجاء و التنديد بالقوة و الظلم. كما أن فى التعبير بكلمة (مسـلم) مضمونا ضخما توحى به هذه الكلمة فى البيت :

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ٦٥٠ .

قَيْدِي أَمَا تعلمُني مسلمًا   أبيْتَ أن تُشْفِقَ أو تَرْحَمَا

فليس القيد هنا إلا رمزا للآسر وصاحب القيد .وكــل مــن الآســر والمأسور مسلم.فالاستفهام الموجع هنا سؤال عن الحرمات التى استحلها المسلم من أخيه المسلم ، و عن القيم المهدورة بين الإخوان المسلمين.إذاً ليس هــذا الاعتراف نوعا من الضعف النفسى بل هو مواجهة بالحقيقة وما فيها من لــوم وعار يلحقان بالظالم . وما فيها من كارثة إنسانية مخيفة حينما يجلب الشــقاء على الأبرياء من النساء و الأولاد و البنيات.ولذا فإنــه يكمــن فى الطلــب (ارحم)،على ما فيه من لطف ورقة _ معنى التحذير من التمادى فى الظلــم والاطضهاد،و تبديد سعادة الأبرياء الذين لم يسيئوا إلى آسرهم .[1] " لقد بدح المعتمد إلى قيده بذات نفسه وصارحه فى صور تستدر الدمع وتنبه من غشــى عينيه حب التسلط و القهر بما جره عليه و على أسرته من شــقاء و دمــار . فكان من أصدق ما باح به الأسير الإنسان ". [2]

وسوف تكون لنا وقفة أخرى مع النداء فى هذه الأبيات فيما يلى مــن هذا الفصل إن شاء الله .

_ ومن سمات اللغة والأسلوب فى شعر الأسر عند أبى فــراس و المعتمــد استخدام الألفاظ والأساليب التى تتناسب مع الحالة النفسية للشاعر وتعبر عــن واقعه الذى يعيشه فى سجنه .

---

١ - الأسر والسجن في شعر العرب ص ٦٥١ ببعض التصرف .

٢ - المرجع السابق ٦٥١ .

فإذا ما قرأنا رائية أبي فراس ــ على سبيل المثال ــ:

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتُكَ الصَّبرُ   أمَا للهوَى نهيٌ عليكَ ولا أمْرُ

نجد أبا فراس قد استخدم في مقدمتها الغزلية الكثير من الألفاظ التي تتناسب مع واقعه الحزين في سجنه حتى تؤدي مهمتها في التعبير عن الحالة النفسية للشاعر ،وحنينه إلى حريته و شوقه إلى أهله ووطنه . فنجد ألفاظا مثل: مشتاق – عندي لوعة – لا يذاع له سر – الليل أضواني – أذللت دمعة – تكاد تضيء النار – مت ظمآنا – ضيعت المودة بيننا ....

كما لجأ الشاعر إلى كثير من الحكم المؤكدة للمعاني التي تكشف عن طبيعة الشاعر وطبيعة الموقف الذي يعيشه . فعن حديث الوشاه يقول :

فإنْ كانَ ما قال الوشاةُ ولم يكنْ   فقدْ يهزِمُ الإيمانُ ما شيدَّ الكفرُ

ومنها الحكمة التي جاءت في شكل حوار يديره مع صاحبته :

فقالتْ : لقد أَزْرَى بكَ الدهرُ بعدَنا
فقلتُ معاذَ الله بل أنت لا الدَّهْرُ

وتهلكُ بين الهزلِ والجدِّ مهجةٌ
إذا ما عداهَا البينُ عذَّبهَا الفِكْرُ

كما جاء في هذه المقدمة بأبيات تصور الحالة النفسية والشعورية للشاعر تجاه هذه المحبوبة ، وما يصيبه من جراء علاقته بها . فقوله :

وَفيْتُ - وفى بعضِ الوفاءِ مَذَلّةٌ - لإنسانةٍ فى الحيِّ شيمتُهَا الغَدْرُ

يصور الشطر الأول فيه ما يلقاه هو - وما يلقى غيره - فى الحب . فالحب ينال من قلب الرجل مالا ينال منه السيف الصقيل . و الوفاء فى الحب مذلة يقبل عليها الرجال وهم كارهون . والرجل لا يحب إلا وهو مخبول . ولا يدرى بما سيفعل به الحب أو يستطيع أن يملك من أمره شيئا لعرف أن نعيم الحب نعيم صغير إذا ما قورن بما يتنازل عنه الرجل المحب من عز النفس وكبريائها .[1]

وقول أبى فراس :

وقُورٌ وريعانُ الصِّبَا يستفزُّهَا فتأرَنُ أحياناً كما يأرَنَ المُهْرُ

يصور رزانة تلك الفتاة ووقارها ، والتى يستفزها الصبا أحيانا فتجنح إلى التغضب و النفور ،مما يصيبه هو بالعذاب والألم .

أما ما جاء فى القصيدة من حديث بطولى فالشاعر يقصد من ورائه أن يواجه واقعه الحزين داخل سجنه ،وأن يحقق انتصاراً عليه من خلال حواره مع صاحبته. فتغنى بفروسيته وقت النزال مستعيدا صورة الفارس العربى القديم ومتقمصا شخصيته البطولية .

وقوله:

ويارُبَّ دارٍ لم تُخفنِى منيعةٍ طلعتُ عليهَا بالرَّدَى أنا والفَجْرُ

---

١ - انظر: الموازنة بين الشاعراء/ زكى مبارك ٢٨٥

نجد فيه جملة (لم تخفنى)، وكلمة (منيعة). يؤديـــان دورا كبـــيرا فى تصوير قوة ما يواجهه الشاعر بشجاعته و بأسه . و بالتالى لهمـــا دورهمـــا فى تصوير تلك الشجاعة و البأس اللذين يتصف بهما .

وعدد أبو فراس بعض آدابه النفسية التى يتحلى بها .فذكر أنه كـــان فى ميدان الحرب يعفو ويصفح حين تأتى إليه حسناء قومها فتشفع لقومها عنده :

وساحبةِ الأذيالِ نحوى لَقيتُهَا . فلم يلقَهَا جهْمُ اللقاءِ ولا وَعْرُ
وهبتُ لها ما حازَهُ الجيشُ كلَّهُ ورحتُ ولم يُكشَفْ لأبياتِها سِتْرُ
ولا راحَ يطغِينى بأثوابِهِ الغِنَى ولا باتَ يثنِينى عن الكرمِ الفقرُ

أما قوله

أُسِرتُ وما صَحْبِى بعُزلٍ لَدَى الوَغَى
ولا فَرَسِى مُهْرٌ ولا ربُّهُ غَـــمْرُ

فيؤكد به أن أسره لم يكن نتيجة ضعف فى شخصيته ، ولا فى قوة نفسه، ولم يكن تخاذلا منه ، ولا انسحابا من قتال لأن كل هذه الصفات تتناقض مـــع بطولته وفروسيته تناقضا شديدا . فهو ينفى عن أصحابه فقدهم لأســـلحتهم ، وينفى عن فرسه الجبن وفقد التجربة فى خوض ميدان المعركة ، وينفـــى عـــن نفسه الجهل بدروب القتال وخططه .ومن هنا أخذ يحمل القدر تبعة ما وقـــع فيه من أسره وأنــ . هذا خير من كل الأمرين اللذين أشـــار بهمـــا بعـــض أصحابه عليه :

ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امرىءٍ فليسَ له بَـرٌّ يقيـه ولا بَحـرُ
وقال أُصَيْحَابي الفرارُ أو الـرَّدَى فقلتُ هما أمرانِ أحلاهُمَـا مـرٌّ
ولكنَّني أمضِـي لمـا لا يُعيبُـني وحَسْبُكَ من أمرَيْن خيرُهُمَا الأَسْـرُ

وهذه الأبيات وإن أخذ عليه فيها كثرة التبريرات لما وقع فيه إلا أنها تعبر عن ناحية نفسية لدى الشاعر وهي إحساسه بعزة نفسه التي ينتقص منها وقوعه في الأسر ، لأن ذلك لم يكن له دخل فيه . وتفيد كلمة (أصيحابي) بصيغتها هذه أن من أشاروا عليه بالفرار قلة من أصحابه وهم الضعفاء منهم .

ولم ينس أبو فراس أن يرد على الواشين الذين يحاولون الإنزال من فروسيته وبطولته فيقول :

يقولونَ لي : بعتَ السلامةَ بالرَّدَى فقلتُ : أمَا والله ما نالَني خُسْرُ [1]

"ومع استمرار إيمانه بحتمية الموت من ناحية ، واطمئنانه إلى بطولته التي لم تقهر إلا أمام القدر من ناحية أخرى ، تظل لأبي فراس إحساساته بضخامة ذاته ،وتوجهها من خلال فرديتها و انتمائها إلى قوم من السادة الشجعان أيضا.

فلا تنتهي القصيدة بالاستسلام كما يتوقع من أسير ، ولكنها تنتهي بتلك النغمة العالية التي ارتفع صداها . وفيها صور خلاصة موقفه من الحياة ثم افتخر بقومه ".[2]

تَهُونُ علينَـا في المعالي نفوسُنَا ومَنْ خَطَبَ الحسناءَ لم يغلِهَا المَهْرُ
أعزُّ بني الدنيَا وأعْلَى ذوي العُلَا وأكرَمُ من فوقِ التراب ولا فَخْرُ

---

١ - انظر: القصيدة العباسية قضايا واتجاهات - عبد الله التطاوي - ٣٣٧ ، ٣٣٨ .
٢ - المرجع السابق ٣٤٠ .

ويشيع في القصيدة كلها ، وفي أبيات الفخر خاصة أسلوب الذاتية والأنا التقريرية ، التي تعبر عن حالته النفسية . ويؤكد من خلالها أيضا مواقفه من الحياة بكل ما تأتي به .

" فصياغة القصيدة بوجه عام لا تتم إلا عن قدرات فنية واعية ، استطاع فيها الشاعر أن يحكم الصياغة تطبيقا على واقعه النفسي بعمق فكانت انتفاضة نفسية يكثر فيها التكرار ، وتعدد المشاهد والصور. ويبرز الاستطراد حسب طبيعة الدفقات الشعورية هدوءا أو عنفا ، سلبا أو إيجابا ، ليخرج علينا الشاعر في نهاية المطاف بوثيقة تاريخية لها قيمتها . لأنها إنما تضيف إلى ما بين يد المؤرخ من المعلومات السياسية بعدا توثيقيا لا تخفى أهميته حول ظروف العصر. وهي على المستوى الفني تسجل طوابع المدرسة التي ينتمي إليها الشاعر ......وهي مدرسة اكتمل لها نضجها ،وسلمت لها أدواتها حتى أصبحت سلسلة واضحة الأداء ".[1]

وفي مقدمة قصيدة أبي فراس اللامية[2]:

ياحسرةً ما أكادُ أحملُهَا   آخرُها مزعجٌ وأولُهَا

عبر الشاعر بأسلوبها وبكثير من ألفاظها عن حالته النفسية ، وصور أحاسيسه وانفعالاته وهو في الأسر .

فلفظ. (أكاد) في البيت الأول من القصيدة يعبر عن قيم الفروسية ،

---

١ - القصيدة العباسية . قضايا واتجاهات ٣٤٢ .

٢ - ديوان أبي فراس ٢٦٣ .

والنبالة في نفس الشاعر. فرغم ما يحس به الشاعر من آلام متوالية ، وهموم متتابعة في سجنه ، آخرها ما أصيب به قبيل إنشاد القصيدة من رد أمه خائبة حسرى دون أن تحظى بموافقة سيف الدولة على فداء ولدها ، ورغم ذلك فإن نفسه الأبية ، وقيم الفروسية عنده تأبى أن تعترف بانهزامها ونكوصها أمام مصائب الأيام . فاستخدم الشاعر لفظة (ما أكاد) .

وفي بداية عتابه لسيف الدولة في هذه القصيدة نراه يستخدم أداة الاستفهام (أي) حتى يوقعه في الحرج .ثم يزيد من إحراجه بتكرار السؤال بـ (كيف) التي يتبعها في كل مرة بوشيجة من وشائج القربى وبالصلات والمودات التي تربطهما طوال سنوات العمر :

بأيِّ عذرٍ رددتَ والهَةً   عليكَ - دون الورى- معوَّلُها؟
جاءتكَ تمتاحُ ردَّ واحدِها   ينتظرُ الناسُ كيفَ تقفلُها
تلك المودّاتُ كيفَ تُهملُها   تلك المواعيدُ كيف تغفلُها؟
تلك العقودَ التي عقدتَ لنا   كيف - وقد أُحكِمَتْ - تحلِّلُها؟

والدافع له إلى التذكير بوشائج القربى والمودة هو أن يحرك في سيف الدولة دوافع النخوة والمروءة حتى يجد في إطلاق سراحه . تماما كما نجد في قصيدته الداليه: [1]

دعوتُكَ للجفنِ القَريحِ المسهَّدِ   لديَّ وللنومِ القليلِ المشرَّدِ

فقد كرر دعوته لسيف الدولة ليخلصه من أسره في هذه القصيدة ،

---

١ - ديوان أبي فراس ٩٦ .

مذكرا إياه فى كل مرة بروابط المحبة والمودة والقربى ،حتى يحرك فيه الدوافع التي تدفعه لتحقيق ما دعاه إليه . فدعواته هذه وما يتبعها من تذكيره بما بينهما من روابط تأتى انعكاسا لما كان عليه أبو فراس من التسرع فى طلب افتدائه ، مع عدم تقديره أو اهتمامه بالظروف المحيطة بسيف الدولة آنذاك ، وعدم رؤيته إلا لنفسه وما هو فيه في أسره .

ومن الألفاظ الموحية المشعة المصورة لجانب نفسى لدى الشاعر فى مقدمة هذه القصيدة لفظ (تقلقلها) فى قوله :

إذا اطمأنَّتْ وأينَ أو هَدَأتْ عنَّتْ لها ذِكْرَةٌ تقلقِلُهَا

بمعنى تهتز وتضطرب لها . "لكن هذا التعبير بالفعل المضارع (تقلقل) وما يفيده من استمرارية اضطراب الأم وفقدها الراحة والاطمئنان إثر غياب وحيدها الأسير الفارس . هذا الفعل استطاع أن يجسد وجع الأم وحيرتها وتململها،بل إن تكرار حرف القاف ـو هو صوت مطبق مستعل يوحى بالضغط وقوة الجثوم ـ قد أسهم فى عملية تخييل قلقلة الأم وقلقها . وكأن القلق الداخلى استدعى قلقلة حلقية هى نوع من الصخب النفسى ، والأنين والوجع الداخلى ".[1]

فإذا ما انتقلنا إلى المعتمد بن عباد لنرى مثل هذا النوع من الأسلوب عنده لوجدناه فى العديد من قصائده ومقطوعاته فىالأسر .ومنهاقصيدته فىرثاء نفسه

١ - بين الأنا والآخر في مدحيات المتنبي ١١٨ .

التي منها قوله:[١]

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغـــادِي	حقًّا ظفوتَ بأشـــلاءِ ابـــنِ عبَّـــادِ
بالحِلم بالعلْم بالنُّعْمَى إذا اتصلَـــتْ	بالخصبِ إن أجدَبُوا بالرِّي للصَّادِي
بالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إذا اقتَتَلُوا	بالموتِ أحمرَ بالضِّرغَامَـــةِ العَـــادِي
بالدهرِ في نِقَـــمٍ بـــالبحرِ في نِعَـــمٍ	بالبدرِ في ظُلَمٍ بالصَّدرِ في النَّـــادِي
نعمْ هو الحـــقُّ وافـــانِي بـــهِ قَـــدَرٌ	مِـــنَ السَّـــماءِ فَوافَـــانِي لميعَـــادِ
ولم أكنْ قبلَ ذاكَ النعـــشِ أعلمُـــه	أنَّ الجبالَ تَهـــادَى فـــوقَ أعـــوادِ

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر قد أقام من القبر طرفا ثانيـــا في حـــوار ومخاطبة تحدث فيها الشاعر عن نفسه. وبث قبره ما يعتمل بداخله ، وما يكنـــه داخل ذاته من عواطف و انفعالات .

وفي البيت الأول يستنطق الشاعر القبر ، ويكشف عن دواخله ، ويمـــن على قبره بأشلائه التي سيضمها ، وكأنه يؤكد للقبر أنه قـــبر فريـــد في عـــزه وشموخه ، لأنه فاز بضم رفاة الشاعر إليه دون سواه من منـــاطق الأرض . وفي هذا البيت نلمس حركية الموقف في اللفظين المتضادين (الرائح الغادى) . وإذا كانت السقيا التي أشار إليها الشاعر (سقاك) قد أخذت حركيتها من ثنائيتـــها حيث يكون مصدرين للسقيا (الرائح الغادى) فإن هذه السقيا قليلة الخصـــب ؛ لأن معاني الخصب والحياة سرعان ما تغيب في ثنايا (الثناء النفسى) الـــذى أغدقه الشاعر على نفسه بقوله :

---

١ - ديوان المعتمد ٩٦ .

حقّاً ظفرتَ بأشلاءِ ابنِ عبَّادِ

ولفظ (الظفر) من الألفاظ المعبرة عن كثير مما يعتمل فى نفس الشاعر من أسى وحسرة . فالظفر هاجس قديم وحبيب إلى نفس الشاعر كثيرا ما حققه فى ماضيه ، وحال بينه وبين تحقيقه فى زمنه الحاضر قيود السجن وأغلاله، فقفز الفعل هنا موحيا بهاجسه المستبطن أعماقه . أما (الأشلاء) فهى انعكاس لحالة التمزق التى يحسها الشاعر والتى يشعر أنه منى بها فى أسرته وملكه وبلده ، وبلاد الأندلس كلها .

وفى البيتين الثانى والثالث نسمع نغمة التمجيد النفسى للشاعر حيث يعدد الصفات الخلقية التى كان يتمتع بها فى حياته والتى حجز بينها و بين استمراريتها هذا الأسر ، ثم الموت الذى يحس الشاعر بقربه من نفسه (فى البيت الثانى) . ثم يعبر عن مظاهر الشجاعة فى مواجهة الموت (فى البيت الثالث) .

إن حدة الألفاظ وقوتها ، وانطلاقها فى هذين البيتين لتعبر عن رغبة الشاعر فى التحرر من ضعفه وقيده ومرضة ، وفى الانطلاق إلى رحاب حياته الواسعة حتى يعود إلى ما كان قد تعود عليه فى حياته الماضية .

إن التقابلات بين " الخصب والجدب " وبين " الردى والصادى " بمثابة التقابلات بين معانى الموت والحياة . ولعل تقابل هذه الدلالات تعبر عن تقابل دلالة الموت والحياة فى أعماق الشاعر وصراعها فى نفسه . وكأنه يرفض هذا الواقع الذى يعيشه ويتمنى أن لو فك سجنه فعاد إلى سابق عهده بالدنيا بدلا

من القدوم على ما يشعر بأنه قادم عليه من الموت والفناء . ويكمل الشـــاعر هذا التمجيد النفسي بالبيت الرابع ويعدد صفات البطولة التى كان يتمتع بهـــا فى حياته السياسية ، وبعض الصفات الخلقية التى كان يعرفه الناس بها فى حياته الاجتماعية . ويدل تعداده لهذه الصفات على ما تمتلئ به نفسه من حـــزن وألم وعلى افتقاد الناس هذه الصفات فى الميادين السياسى والاجتماعى بسبب مـــا وضع فيه الشاعر من أسر وقيد .

أما البيت الخامس فيسجل تسليم الشاعر بحالة الموت ، وإيمانه بقـــدر الله وقضائه وأن كل شئ بميقات وموعد محدد.

ويطرح الشاعر فى البيت السادس تصويرا مستقبليا يستبطن فيه القـــادم من أيامه بعد مواجهة الموت وضم القبر لرفاته . إن (الجبال) فى هذا البيـــت رمز لحالة الثبات والعظمة التى كان عليها الشاعر فى أســـره ، ولكـــن هـــذا الصمود وتلك العظمة سرعان ما تحولا إلى انهيار يوحى به لفظ هادى . كمـــا يوحى لفظ (النعش) مع لفظ (الأعواد) بتلاشى هذه العظمة ، وهذا الثبات وتحول الجبال إلى حالة جديدة من الانهيار والتلاشى .[1]

ويأتى ذكر الخيل والسلاح والحديث عن الفروسية والشجاعة والبطولة فى شعر الأسر ، عند أبى فراس والمعتمد خاصة ، وعند غيرهما من الســـجناء الأبطال عامة كرد فعل لما يعانيه الأسير من هؤلاء الشعراء فى الأسر وللتعـــالى على واقع هذا الأسر ، وعلى الأعداء الذين ألقوا به فيه . نلحـــظ ذلـــك فى

١ - انظر كتاب . رثاء النفس في الشعر العربي د / عبد الله باقازى . المكتبة الفيصلية ١٤٥ وما بعدها .

أبيات المعتمد السالفة ، وفى غيرها فى مثل قوله :[١]

أَلاَ شَرَفٌ يرحَمُ المشوقَ ... مما به من شَمَاتِ الوتينِ
أَلاَ كرمٌ يُنعشُ السَّهرى ... ويَشفيه من كلِّ داءٍ دفينِ
أَلاَ حَنَّةٌ لابنِ محنيَّةٍ ... شديدِ الحنينِ ضعيفِ الأنينِ
يؤمِّل من صدرِهَا ضمَّةً ... تبوئُه صدرَ كفٍّ معينِ

وفى مثل قوله :[٢]

أبىَ الدهرُ أن يقنىَ الحياءَ ويندمَا ... وأن يمحُوَ الذنبَ الذى كانَ قدّمَا
ستعلمُ بعدِى مَنْ تكونُ سيوفُهُ ... إلى كل صَعْبٍ من مَراقِيكَ سُلَّمَا
سترجعُ إن حاولتَ دونِى فتكةً ... بأخجلَ من خدِّ المبارزِ أحجَمَا

أما فى شعر أبى فراس فنظفر بالعديد من أمثلة هذا الشعر الفروسى الدال على ما يعانيه الشاعر فى أسره ، وعلى تعاليه على واقعه ، وعلى أعدائه والحاقدين عليه . ومن هذه الأمثلة قوله:[٣]

ولا تصفَنَّ الحربَ عندى فإنَّهَا ... طَعَامِى مذبعتُ الصِّبا وشَرَابِى
وقد عرَفَتْ وقعَ المسامير مهجَتِى ... وشُقِّقَ عن زُرْقِ النصولِ إهابِى -

وقوله :[٤]

إذا شِئتُ جاهرتُ العدوَّ ولم أبِتْ ... أقلِّبُ فكرى فى وجوهِ المكَائِدِ

---

١ - ديوان المعتمد ١١٦ .
٢ -ديوان المعتمد ١١٤ .
٣ - ديوان أبي فراس ٥١ .
٤ - ديوان أبي فراس ١٠٠ .

صبرتُ على اللأواءِ صبرًا بن حُرّةٍ كثيرا لعدا فيــها قليــل المســاعدِ
فطاردْتُ حتى أبهرَ الجونُ أشــقرى وضاربْتُ حتى أوهنَ الضربُ ساعِدى
جمعتُ سيوفَ الهندِ من كلِّ بلــدةٍ وأعددتُ للــهيْجاءِ كــلَّ مجــالِدِ
وأكثرْتُ للغاراتِ بينى وبينَــهُمْ بناتِ البكيريــاتِ حــولَ المــزاوِدِ

وقد تعطى أسماء الأمكنة من صحارى ورياض وقصور ، وبلدان إيحــاء عاطفيا فريدا . نرى ذلك فى أسريات المعتمد وفى روميات أبى فراس ، فى شعر التشوق إلى الوطن الذى درج فيه الشاعر ، وفى تعداد أسماء الأماكن والقصور التى نعم بحلوله فيها زمنا قبل أن يعاديه الدهر . إذ يأتى كل اسم مــن هــذه الأسماء معبرا عن مقدار عظيم من الأحاسيس والعواطف الجياشة التى يحس بها الشاعر تجاه هذا المكان .

ففى وصف أبى فراس لطبيعة (منبج) يمتزج الوصف الخارجى بالظلال النفسية،وتمتزج الذكريات بالتجربة المرة التى يعيشها الشاعر فى أســره ، وإذا "بالأنا " المعبرة عن ذات الشاعر ونفسه تظل مزهوة متعالية تجمع تحت وهجها رموز عالمه الصغير ممثلة فى ألفاظ : الجوسق ، والســقيا ، والنــهر ، والمــاء السايح ، والظل ، والجسر ، وهزج الذباب،والسواجير ، والشطين ، وبســاط الوشى ...وغيرها . مما مكنه من الانتصار على الشامتين فيه ، فيقف صامدا قويا أمام شماتتهم . يقول فى هذه القصيدة بعد أن وصف طبيعة منبج ،مفصحا عــن صموده وقوته أمام أحداث حياته المؤلمة فى الأسر وأمام شماتة الأعداء : [١]

مَنْ كــانَ سُــرَّ بمــا عَــرَا نى فليمُــتْ ضُــرًّا وهَــزْلَا

---

١ - ديوان أبى فراس ٢٤١.

لم أخْلُ فيما تابني ... من أن أعزّ وأن أُجلّا
رُعتَ القلوبَ مهابةً ... وملأتَها فضلاً ونُبْلا
ما غضّ منّي حادثٌ ... والقرمُ قرمٌ حيثُ حلّا
ما كنتَ إلا السيفَ زا ... د على صروفِ الدهرِ صقْلا
ولئن قُتِلتَ فإنما ... موتُ الكرامِ الصِّيدِ قتْلا [١]

وفي حنين المعتمد لوطنه، وتعداده لقصوره ما يدل على نفسه الملتاعة التي فارقت هذه الطبيعة المزدانة الفاتنة ، لتلقى في هذا الضيق والقيد ، وتعيش حياة التشريد والآلام في قعر هذا السجن المؤلم . ولذا نراه حريصا على ترديد أسماء قصوره ،وذكر كل منها باسمه زيادة في الشوق إليها ، واستحضارا لها ،ورغبة في العودة إلى رحابها : [٢]

بكى المبارَكُ في إثرِ ابنِ عبّادِ ... بكى على أثرِ غزلانٍ وآسادِ
بكتْ ثُريّاهُ لا غُمّتْ كواكبُها ... بمثل نوءِ الثريّا الرائحِ الغادي
بكى الوحيدُ بكى الزّاهي وقبّتُه ... والنهرُ والتاجُ كلٌّ ذله بادي

ونلحظ هذه الأحاسيس النفسية ، والعواطف الجياشة في وصفه لطبيعة هذه القصور الفاتنة بقوله : [٣]

فياليتَ شعري هل أبيتنّ ليلةً ... أمامي وخلفي روضةٌ وغديرُ
بمنبتةِ الزيتونِ مورّثةِ العُلا ... تغنّي قيانٌ أو ترنُّ طيورُ

---

١ - انظر كتاب:أبو فراس الحمداني - خليل شرف الدين ص ٧٢ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٥ .
٣ - ديوان المعتمد ٩٩ .

بزاهرِها السامى الذُّرا جادَه الحيَـا ... تشيرُ الثريـــَّا نحونَــا ونشـــيرُ
ويلحظُنا الزَّاهى وسعدُ ســـعودِهِ ... غيورينِ والصَّبُّ المحبُّ غيـــورُ

— ومن سمات الأسلوب فى شعر الأسر عند أبى فراس و المعتمـــد ظـــهور بعض التراكيب التقليدية ، والألفاظ الشعرية القديمة ، التى كثر ورودهـــا فى الشعر العربى القديم . وكأنهما بذلك يعلنان تمسكهما بعروبتـــها ، وأصلـــهما العربى رغم وجود كل منهما فى سنوات أسرهما ـ فى بيئة غير عربيـــة . كمـــا أنهما بمثل هذه التراكيب يحاولان استحضار صورة البيئة العربية الـــتى عاشـــا عليها واختلطا بأهلها من العرب.

ففى قصيدة أبى فراس فى رثاء والدته نقرأ بعض الألفـــاظ والـــتراكيب التقليدية ،التى صاغها الشاعر على طريقة العرب الأقدمين. ومن ذلك دعـــاؤه باستنزال الغيث على قبرها في قوله : [1]

أيا أمَّ الأســـيرِ ســـقاكِ غيـــثٌ ... بكرهٍ منـــكِ مـــالقىَ الأســـيرُ
أيـــا أمَّ الأســـيرِ لمـــن تـُـــرَبىَّ ... وقدمُتِّ الذوائـــبُ والشـــعورُ
إذا ابنُكِ ســـارَ فِي بـــرٍّ وبحـــرٍ ... فمن يدعُـــو لـــه أو يســـتجيرُ

وكأنه بهذه العبارة ـــ مع تكرارها ـــ يعبر عن عطشها الروحي لرؤيـــة ابنها الذي ماتت وهو بعيد عنها، فدعا لها بهطول المطر على قبرهـــا لـــيروى جثتها بعد مماتها، لأنها حرمت من هذا الري في حياتها.

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦١ .

ونرى هذا الدعاء للقبر بالسقيا في رثاء المعتمد لنفسه: [١]

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغادِي
حقاً ظفرتَ بأشلاءِ ابن عبَّادِ

كما طلب من الغمام أن يبكي صنويه في الجود والكـــرم، وأن يــنزل السحاب قطره المنهمر على قبر حل فيه أخو القطر في الجود والكرم، فقــال في رثاء ولديه: [٢]

مدَى الدهرِ فليبكِ الغمامُ مُصابَهُ ... بصنوَيه يعذَر في البكاءِ مدَى الدهـرِ
بعينِ سحابٍ واكفٍ قطرُ دمعِـها ... على كلِّ قبرٍ حلَّ فيه أخُو القطـــرِ

والدعاء بالسقيا للقبر تركيب قديم ظهر التأثر فيه بالشاعر العربي القـديم عند أبي فراس أقوى من ظهوره في شعر المعتمد الملك المتحضر الـــذي كــان يعيش في الأندلس المترفة.

ومن الكلمات التي ترددت في شعر الأسر عند أبي فـــراس والمعتمـــد، وكثر استعمالها في الشعر العربي القديم – وخاصة في باب الرثـــاء – كلمــة (البكاء) بجميع اشتقاقاتها. ونجدها في قصيدة أبي فراس السالفة في رثاء أمه:

ليبكِكِ كلُّ يومٍ صمتِ فيـــه ... مصابرةً وقــد حَمِــيَ الهجــيرُ
ليبكِكِ كلُّ ليلٍ قمتِ فيـــه ... إلى أن يبتدِي الفجـــرُ المنــيرُ
ليبكِكِ كلُّ مضطهدٍ مخُــوفٍ ... أجرتِيــه وقــد قــلَّ المجــيرُ

---

١ - ديوان المعتمد ٩٦ .
٢ - ديوان المعتمد ١٠٥ .

ليبكِك كلُّ مســـكينٍ فقـــيرٍ أغثتيه ومـــا في العظـــمِ ريـــرُ

ووردت في قصيدته في رثاء أخت سيف الدولة في قوله . (١)

أبكي بدمعٍ له من حسرتي مَدَدٌ وأستريحُ إلى صبرٍ بلاد مَدَدِ

ووردت في أحد بيتي المعتمد السابقين في رثاء ولديه:

مدى الدهر فليبكِ الغمامُ مصابَه

بصنويْه يعذَر في البكاءِ مدَى الدهرِ

ويقول في رثائهما أيضا:(٢)

يا غيمُ عيني أقوَى منكَ هَتانا أبكي لحزني وما حَمَّلتَ أحزَانا

والشاعر في ذكره للبكاء مع تكراره يعبر — بواسطته — عما يشعر به من الحزن والحرقة. ويدل تعبيره بالبكاء في باب الرثاء على مكانة المرثـــي في قلبه وفي قلوب من يطلب منهم البكاء عليه، وعلى مترلته الرفيعة التي كـــان يحتلها. فكلما عم البكاء والحزن دل ذلك على عظم مكانة المفقود.

وامتلأت رائية أبي فراس الشهيرة:

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتُك الصبرُ أمَا للهوى نَهيٌ عليكَ ولا أمرُ

، بالأساليب القديمة التي بها تستعيد كثيرا من تعبيرات شعرائنا القدامـــى. فتغنيه بحبه وبفروسيته وقت الترال يعيد إلى أذهاننا صورة الفارس العربي القديم

---

١ - ديوان أبي فراس ١١١ .
٢ - ديوان المعتمد ٦٩ .

وشخصيته البطولية التي تجمع بين اللوعة في الحب، وبين الشجاعة والبسالة في الحرب. ونراه في حديثه هذا يقتفي أثر حاتم الطائي، وعنترة بن شداد، ويقتدي بهما في الفروسية والكرم ، والعفة، وصيانة الحرمات. ويتأثر ببعض شعرهما في ذلك ، ويقتبس بعض ألفاظهما في أبيات هذه الأغنية البطولية. ففي قوله:

تروغُ إلى الواشين فيَّ وإنَّ لي لأُذناً بها عن كلِّ واشيةٍ وقرُ

يتأثر بقول حاتم الطائي في رائيته متحدثا عن موقفه من نساء جيرانه:[1]

بعينيَّ عن جاراتِ قومي غفلةٌ وفي السمعِ منيِّ عن حديثهِمُ وَقْرُ

وبقول عنترة في هذا المعنى: [2]

وأغضُّ طرفي إن بدَتْ لي جارَتي حتى يُـــواري جارتي مأواها

وقول أبي فراس:

فأيقنتُ أنَّ لا عزَّ بعدي لعاشقٍ وأنَّ يَدي مما علقتُ به صِفْرُ

يقترب من قوله حاتم الطائي في خطابه لمارية. [3]

ترَىَّ أن ما أهلكتُ لم يكُ ضرَّني وأنَّ يـــدي مما بخلتُ به صِفْرُ

وقبل ذلك تأثر بحاتم الطائي في حديثه عن الوصل والهجر بينـــه وبـــين صاحبته، حينما قال:

---

١ - ديوان حاتم الطائي - شرح وتقديم أحمد رشاد - دار الكتب العلمية - بيروت طبعة أولى - ١٩٨٦ - ص٢٤ .

٢ - ديوان عنترة/طبعة دار صادر/بيروت/ص ٧٦ -

٣ - ديوان حاتم الطائى ٢٤ -

حفظتَ وضيعتِ المـودةَ بيننا
وأحسنُ من بعضِ الوفاءِ لك العذرُ

فهو فيه متأثر بحديث حاتم الطائي في عتابه لماوية في بداية قصيدته المذكورة:

أماويَّ قد طالَ التجنُّبُ والهجْرُ وقد عَذَرَتْنِي من طِلابكُمُ العذرُ

وحين يتحدث أبو فراس عن الغنى والفقر، وعدم تغيره في الحالين فيقول:

ولا راحَ يُطغيني بأثوابه الغِنَى ولا باتَ يَثنيني عن الكرمِ الفقْرُ
وما حاجتي في المالِ أبغي وُفُورَهُ إذا لم أقِرْ عرضي فلا وَفَرَ الوفْرُ

نراه يقترب من قول حاتم الطائي في حديثه عن هذا المعنى: (١)

كَسَيْنَا صُروفَ الدهرِ ليناً وغلظَةً وكلاً سقاناه بكأسَيْهِمَا الدهرُ
فما زادنا بأواً على ذي قرابَةٍ غِنانا ولا أزرَى بأحسابِنا الفَقْرُ (٢)

وعفة أبي فراس وصيانته للحرمات في بيته في هذه القصيدة:

وساحبةِ الأذيالِ نحوي لقيتُهَا فلم يلقَهَا جهمُ اللقاءِ ولا وَعْرُ
وهبتُ لها ما حازَهُ الجيشُ كلَّهُ ورحتُ ولم يُكْشَفْ لأثوابِها سِتْرُ

يذكرنا بقول عنترة بن شداد في معلقته(٣):

---

١ - ديوان حاتم الطائي ٢٤.
٢ - انظر كتاب: القصيدة العباسية قضايا واتجاهات - عبد الله التطاوي ٣٣٥، ٣٣٦.
٣ - ديوان عنترة ٢٥.

يُخبركِ من شَهِد الوقيعةَ أنني أغشَى الوَغَى وأعفُّ عندَ المغنَمِ

وفي مدح المعتمد ليوسف بن تاشفين نقرأ الكثير من التعبيرات القديمة من مثل تشبيه الغبار بالليل، والسيوف في وسطه بالنجوم، واشتجار الرماح، وتشبيه الدماء المختلطة بالرمال بالنرجس، والرماح بالقدود في لينها وتثنيها... وغيرها:

رأينا السيوفَ ضُحًى كالنجو مِ وكالليلِ ذاكَ الغبارَ المُثَارا
تزيد اجتراءً إذا ما الرِّمَا حُ عند التناجز زدنَ اشتجارا
كأنك تحسبُها نرجسًا تديرُ الدماءَ عليها عُقَارا
تريكَ الرماحُ القدودَ انثناءً وتجلو الصفاحُ الخدودَ احمرارا[1]

والبيت الأول من هذه الأبيات يذكرنا ببيت بشار بن برد الشهير: [2]

كأنَّ مُثارَ النقعِ فوقَ رؤوسنَا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبُهْ

مع الفرق في التصوير بين البيتين.

- ومن خصائص الأسلوب في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد، تأثره بالمعاني الإسلامية ، والاقتباس من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والمأثور من الشعر العربي. فقد زين كلا الشاعرين أسلوبهما الشعريَ في الأسر بالاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث النبوي ، واستمدا منهما بعض

---

١ - ديوان المعتمد ٩٨ .
٢ - ديوان بشار بن برد ـ شرح وتقديم مهدى ناصر الدين ـ دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة ١- ١٩٩٣ ص١٤٦ وفي الديوان " رءوسهم " لا رءوسنا .

الألفاظ. كما تأثر كل منهما ببعض أحداث التاريخ الإسلامي ، وعلم الفقه. وقد ذكرت شينا مما يتصل بهذه الظاهرة عند الحديث عن استعانتهما في بعض صورهما ببعض ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي والعلوم الإسلامية. ومما جاء في هذا الباب أيضا ما نجده في رثاء أبي فراس لوالدته حيث نلحظ أنه يستقى مادة رثائه لها من المعاني الإسلامية. فأمه كانت تصوم في حر الهجير وتحتسب الأجر عند الله ، وتعقب صيام النهار بقيام الليل حتى يلوح الفجر بأنواره. وكانت إلى جانب ذلك عونا لكل مسكين وضعيف، وغوثا لكل فقير معدم. يقول في رثائها: [١]

ليبكِكِ كلُّ يومٍ صمتِ فيه ... مصابرةً وقد حَمِيَ الهجيرُ
ليبكِكِ كلُّ ليلٍ قمتِ فيه ... إلى أن يبتدي الفجرُ المنيرُ
ليبكِكِ كلُّ مضطهدٍ مخُوفٍ ... أجرتيه وقد قلَّ المجيرُ
ليبكِكِ كلُّ مسكينٍ فقيرٍ ... أغثتيه وما في العظم ريرُ

ومن الألفاظ التي تحمل بعدا دينيا أو فقهيا ما جاء في قول أبي فراس في ختام قصيدته في عتاب سيف الدولة : [٢]

لا يقبلُ الله قبلَ فرضِكَ ذا ... نافلةً عنده تنفّلُها

فقد استخدم لفظي (الفرض والنافلة) لخدمة غرضه، فأفاد بهما أن فداءه بمنزلة الفرض على سيف الدولة، وغيره بمثابة النافلة. ولذا فعليه أن يقدم

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦١ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٦٦ .

فعل الفرض قبل أن يهم بأداء النافلة. فلن يقبل الله منه النافلة دون أن يقوم بأداء ما فرض عليه أولا. ومن ذلك إلقاء أبي فراس التبعة في أسره على القضاء والقدر، وأنه ليس مسئولا عن وقوعه في الأسر، وإنما هذا قدر مقدر لا فكاك منه. **يقول أبو فراس:** (١)

أُسِرتُ وما صَحْبي بُعزْلٍ لدى الوَغي ... ولا فَرَسي مُهْرٌ ولا ربُّه غَمْرُ

ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امرِيءٍ ... فليسَ له بَرٌّ يقيه ولا بَحْرُ

وربما لجأ الشاعر إلى ذلك لما يجده في التسليم بالقضاء والقدر من راحة للنفس، ورضا بالمحنة التي وقع فيها، وصبر على ما يناله من أذى في حبسه.

ومن تأثر المعتمد بالروح الإسلامية - زيادة على ما ذكر قبل ذلك - قوله في تصوير محنته: (٢)

سَيُسْلِي النفسَ عمَّنْ فاتَ علمي ... بأن الكلَّ يدركُه الفَنَاءُ

ويقول في ختام مقطوعته في وداع رفاقه في سجن أغمات: (٣)

خرجتُمْ جماعاتٍ وخُلِّفْتُ واحداً

ولله - في أمري وأمركمُ - الحمدُ

ويختم قصيدته في رثاء نفسه بقوله مخاطبا قبره: (٤)

ولا تزل صلواتُ الله دائمةً ... على دفينكَ لا تُحْصَى بتعدادِ

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٥ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٠ .
٣ - ديوان المعتمد ٩٥ .
٤ - ديوان المعتمد ٩٦ .

ويختم قصيدته إلى ابن حمديس بتمنيه عودة ملكه وتمتعه بقصوره وطبيعتها الفاتنة، وأن ذلك ليس بعزيز على الله، إذ كل ما يحدث في هذا الكون خاضع لمشيئة الله وقدرته: [١]

تراهُ عسيرًا أم يسيرًا منالُهُ ألا كلُّ ما شاءَ الإلهُ يسيرُ

قضى اللهُ في حمصَ الحِمامَ وبعثِرَتْ هُنا لِكَ منّا للنشورِ قبورُ

ومن الاقتباس من الشعر العربي قول المعتمد في نهاية قصيدة كتب بها إلى ابن الزنجاري الذي طلب منه أن يزوده بشيء من شعره : [٢]

فهاكَهَا قطعةً يطوي لها حسدًا السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتبِ

فالشطر الثاني من البيت هو أول شطر في قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ومدح المعتصم : [٣]

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتبِ في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعِبِ

ويدل اقتباس المعتمد هنا على اعتزازه بفنه والاستدلال على تفوقه الشعري حيث عمد إلى معارضة شاعر من كبار الشعراء العرب في أشهر قصائده . ولم يكتف بذلك، بل ذكر أن قصيدة أبي تمام على حسنها وشهرتها تطوي حسدا لقصيدته على قصرها. [٤]

---

١ - ديوان المعتمد ٩٩ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٢ .
٣ - ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ـ تحقيق راجي الأسمر ـ دار الكتاب العربي - ط ١ ـ ١٩٩٢م ـ ٣٢/١
٤ - انظر: شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٥١ .

ولا شك أن الاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، أو التأثر **بأسلوبهما، أو بالعلوم الدينية يجعل الأسلوب الشعري قريبا إلى العقول والأفهام، ويضفي عليه رونقا وبهاء تزيد في قوته ، وفي تقبل الناس له. " وهو بعد هذا دليل الثقافة العامة التي أخذ الشعراء بها أنفسهم . فكانوا ينظرون إلى القرآن الكريم وغيره من مصادر الثقافة الأصيلة كلما دعتهم الحاجة المعنوية والفنية في منظومهم إلى ذلك ".**[1]

ـ ومن مميزات الأسلوب الشعري في روميات أبي فراس وأسريات المعتمد: قلة الاعتماد على المحسنات البديعية في تزيين الأسلوب وتحسينه، وقله الوارد من هذه الألوان في هذا الشعر. فنحن في هذا الشعر أمام شاعرين امتلك كل منهما ناصية البيان، والسيطرة على وسائله سيطرة بارعة. ولذا فلم يلجأ أي منهما إلى الزخرف اللفظي أو المحسنات البديعية إلا قليلا. وما ورد منها في هذا الشعر جاء طبيعيا غير متكلف. فهو من باب عفو الخاطر.

ـ والطباق أكثر الألوان البديعية ورودا في الروميات والأسريات على حد سواء.فقد عبر به كل منهما عن حالة التضاد والتقابل في حياته قبل الأسر وبعده. وفي المقارنة بين حاضر الشاعر وماضيه.

وقد يطلق عليه المطابقة ، والتطبيق ، والطباق . وهو عند البلاغيين: "الجمع بين الضدين في كلام أو بيت شعر ، كالإيراد والإصدار، والليل

---

١ - اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجرى - رشيد قحطان التميمي - دار المسيرة/بيروت ص ٢٧٤ .

والنهار، والبياض والسواد ". [١]

وتكمن قيمته البلاغية في الجمع بين الضدين في مقام واحد ، فيتجلى كل منهما بمواجهته بضده . ويؤدي ذلك إلى تثبيت المعنى في النفس . فبالأضداد تتميز الأشياء.والضد يظهر حسنه الضد (كما يقال).

وقد ذكرت أمثله للطباق في الروميات والأسريات في الحديث عن الصورة الفنية.ومن غير ما ذكرت في الروميات قول أبي فراس فيما كتب به إلى أخيه أبي الهيجاء حرب بن سعيد في التشوق إليه: [٢]

وُيبقى اللبيبُ له عدةً ... لوقتِ الرِّضا في أوانِ الغَضَبْ

وقوله في المقدمة الغزلية لقصيدته البائية التي بعث بها إلى سيف الدولة بعد امتناعه عن فداء أبي فراس إلا بفداء عام: [٣]

ولكنَّني – والحمدُ لله - حازِمٌ ... أُعِزُّ إذا ذَلَّتْ لهنَّ رقابُ

وقوله في نفس القصيدة مخاطبا سيف الدولة:

فليتَك تحلُو والحياةُ مريرةٌ ... وليتكَ ترضَى والأنامُ غِضَابُ

ومنه المطابقة بين (الأول والآخر) في قول أبي فراس: [٤]

---

١ - خزانة الأدب وغاية الإرب - ابن حجة الحموي - شرح عصام شعيتو - دار ومكتبة الهلال/بيروت ط١ - ١٩٨٧م. - ١٥٦/١ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٧ .
٣ - ديوان أبي فراس ٤٥ .
٤ - ديوان أبي فراس ٢٦٣ .

ياحسرةً ما أكادُ أحمِلُها آخـــرُها مزعِجٌ وأولُها

وأفاد الطباق هنا تواصل الآلام واستمرارها على الشاعر حتى كاد يعجز على تحملها.

ومنه المطابقة بين (الإطفاء والإشعال) في قوله في نفس القصيدة:

تُمسِكَ أحشاءَها على حُرَقٍ تطفـئُها والهمومُ تشعِلُها

وتوحى المطابقة هنا بضيق الأم بهمومها وعدم قرارها.

وقد يعطي الطباق نوعا من الحركة الناجمة من اللفظين المتضادين. كمـا في قول المعتمد في رثاء نفسه: [1]

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرّائحُ الغادِي حقًّا ظفـــرتَ بأشلاءِ ابنِ عَبّادِ

فقد صور الطباق بين اللفظين (الرائح ــ الغادي) حركة الســحاب المليىء بالمطر والذي دعا الشاعر بأن يترل ماءه على قبره .

ومن الطباق قول المعتمد في نفس القصيدة:

بالطاعنِ الضاربِ الرامي إذا اقتتلوا

بالخصبِ إن أجدبوا بالري للصادِي

فقد طابق بين (الخصب – أجدبوا) وبين (الري – الصادي) . وأظهر الطباق في الموضعين هنا القيمة الكبرى لكرم الشاعر الذي كان يعم النـاس في

---

١ - ديوان المعتمد ٩٦ .

وقت الجدب، فتكون فائدته أعظم تماما كالري بعد الظمأ الشديد.

ومن الطباق في شعر المعتمد أيضا قوله في ختام حديثه عن تشوقه لقصوره: [١]

تُراهُ عسيرًا أم يسيرًا منالُهُ   أَلاَ كلُّ ما شاءَ الإلهُ يسيرُ

- ومن الألوان البديعة الواردة بقلة في روميات أبي فراس وأسريات المعتمد: المقابلة . وهي " إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة ".[٢]

وتعتمد المقابلة أساسا على " ترتيب الكلام على ما يجب.فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخرا. ويأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه).[٣]

وجمالها في أنها وسيلة إلى إعمال الفكر والخيال. وتكوين صورة مجملة كاملة، تحقق ما ينتظره السامع عندما تنتهي الجملة الأولى من طرفي المقابلة. وينبغي أن تكون طبيعية دون تكلف لها، وأن يتوافر فيها تماسك العبارة، وتناسب المعاني .

ووردت المقابلة قليلة في روميات أبي فراس وأسريات المعتمد. وربما كان ذلك لما تحتاجه من صنعة أكثر من الطباق، نظرا لتعدد الألفاظ المتطابقة فيها.

---

١ - ديوان المعتمد ٩٩ .
٢ - كتاب الصناعتين ٣٣٧ .
٣ - العمدة ٢/ ١٥ .

وهذه الصنعة لم تكن متاحة لكل من الشاعرين في مثل ظروفهما التي يعيشـــها كل منهما في أسره .

وقد أوضحت أثر المقابلة في المعنى ، وذكرت لهـــا بعـــض الأمثلـــة في الحديث عن الصورة الفنية في شعر الأسر عند الشاعرين. فلا داعي لإعادتـــه هنا.

- ومنها الجناس أو التجنيس. وهو " أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كـــل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها ". [١]

والجناس يحدث نوعا من الموسيقى التي تزيد من تأثير الكلام في النفـــس فتعطيه قوة وإيحاء. " ولعل السر في تأثير الجناس ما فيه من إيهام النفـــس أن الكلمة المكررة ذات معنى واحد فإذا أمعن المرء فيها النظر رأى أن للكلمتـــين معنيين مختلفين. فيدفع ذلك إلى الإعجاب بالشاعر الـــذي اهتـــدى إلى هـــذا الاستخدام ". [٢]

وقد سبقت بعض الأمثلة للجناس في روميات أبي فـــراس وأســـريات المعتمد عند الكلام عن الصور الفنية.

- ومنها المبالغة. وهي " أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياتـــه، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله، وأقرب مراتبه ". [٣]

---

١ - كتاب الصناعتين ٣٢١ .
٢ - أسس النقد الأدبي عند العرب - أحمد بدوي ٤٧٥ .
٣ - كتاب الصناعتين ٣٦٥ .

وترتبط درجة المبالغة بالواقع الذي يعبر عنه الشاعر. فإذا ما تعدى حدود الواقع في الصورة الفنية فقد دخل في المبالغة. وبقدر وضوح الصورة، والتحام أجزائها وقربها من الواقع تكون المبالغة مقبولة. فإذا ما تعدى مرحلة المقبول فقد كذب وغالى . وهناك جدل شديد بين النقاد في مدى قبول الكذب من الشاعر أو عدم قبوله . لا داعي لتفصيل القول فيه هنا.

والمبالغة قليلة جدا في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد . وهي مقبولة مستساغة إلى حد كبير في المواضع التي وردت فيها. ومن المبالغة في شعر الروميات قول أبي فراس في وصف زلاقه لسانه: [١]

جَنَانِي ما علمتَ ولِي لِسَانٌ ... يقدُّ الدِّرعَ والإنسانَ عَضْبُ

فلسانه عضب زليق لو سلط على درع لشقه ، أو على إنسان لقده. والمبالغة مقبولة على كل حال ، لأن العبارة يحتمل قيامها على التشبيه.

ومن المبالغة في شعر المعتمد في الأسر قوله في وصف غزارة دموعه في البكاء على ولديه: [٢]

يا غيمُ عيني أقوَى منكَ هتّانا ... أبكِي لحزنِي وما حُمِّلتَ أحزانا

فدموعه أشد انهمارا من ماء المطر. وفي هذا مبالغة للدلالة على شدة حزنه على ولديه. ونقرأ البيت فلا نحس بنبو ولا نفور في المعنى مما يجعل المبالغة مقبولة. وقد بالغ المعتمد في وصف غزارة دموعه في موضع أخر، حيث جعلها

---

١ - ديوان أبي فراس ٤٩ .

٢ - ديوان المعتمد ٦٩ .

تنوب عن ماء المطر في السقيا فقال: [١]

خرجُوا ليستَسْقُوا فقلتُ لهم   دمعِي ينوبُ لكم عن الأنْواءِ

وهي تقريبا نفس المبالغة في البيت السابق. والغرض منها أيضا الدلالـــة على شدة حزنه لما أصيب به .

- ومن الألوان البديعة التي وردت بقلة في الروميات ما يعرف بـالتعليل أو بحسن التعليل . وهو الطريقة الفنية التي يبين بها الشاعر علة وقوع الحـــدث، والأسباب التي أدت به إلى ما لجأ إليه أو وقع فيه، وتبرر وقوع الحـدث مـن وجهة نظر الشاعر. وعرفه ابن حجة الحموي بقوله: " هو أن يريد المتكلم ذكـر حكم واقع أو متوقع. فيقدم قبل ذكره علة وقوعه، لكون رتبة العلة تتقـــدم على المعلول ": [٢]

ومن ذلك قول أبي فراس في قصيدته إلى أمه: [٣]

لولا العجُـــوزُ بمنـــبجٍ   ما خِـفْتُ أســبابَ المنيَّةْ
ولكان لي عمَّـــا سألْـ   ـتُ من الفِـدا نفسٌ أبيَّةْ

فقد علل أبو فراس طلبه الفداء وإلحاحه فيه من سيف الدولة بخوفه علـى أمه العجوز المريضة. ولولا ذلك لما طاوعته نفسه أن يطلب من غيره الخـلاص من محنة وقع فيها .

---

١ - ديوان المعتمد ٨٩
٢ - خزانة الأدب وغاية الإرب ٣٩١/٢ .
٣ - ديوان أبي فراس ٣٥٥ .

أما حسن التعليل فهي طرافة تعليل الشاعر في وقوع ما حدث له، وإضفاء صفة الاستظراف والإغراب اللطيف على علة وقوع الحدث[١] . ومنه قول أبي فراس في التعليل لطلب الفداء من سيف الدولة:[٢]

دعوتكَ للجفنِ القريحِ المسهَّدِ   لديَّ وللنومِ القليلِ المشرَّدِ
وماذاكَ بخلاً بالحياةِ وإنها   لأولُ مبذولٍ لأولِ مجتدِ
ولكنّني أختارُ موتَ بني أبي   على صَهَواتِ الخيلِ غيرَ موسَّدِ
وتأبيَ وآبى أن أموتَ موسَّدًا   بأيدي النصارَى موتَ أكمدَ أكبدِ

وقوله مبررا لنفس الطلب في القصيدة ذاتها:

أناديكَ لا أنيِّ أخافُ من الرَّدَى   ولا أرتجي تأخيرَ يومٍ إلى غَدِ
ولكنْ أنفتُ الموتَ في دارِ غُرْبَةٍ   بأيدي النصارَى الغلفِ ميتةَ أكمدِ

فقد علل – وأحسن التعليل – لطلب الفداء من سيف الدولة ، وأنه يطلبه لا حرصا ولا خوفا على حياته، ولا بخلا بها – وإنما يريد أن يموت ميتة آبائه تحت بروق السيوف،ولا يرضى لنفسه أن يموت ذليلا بين أيدي النصارى.ومن ألوان البديع: مراعاة النظير. وهو " أن يجمع الناظم أو الناثر أمرا وما يناسبه مع إلغاء ذكر التضاد لتخرج المطابقة " . [٣] ونجده في قول المعتمد:[٤]

---

١ - إنظر،شعر الأسر والسجن في الأندلس ٢٢٩ .
٢ - ديوان أبي فراس ٩٦ .
٣ - خزانة الأدب وغاية الإرب ١/ ٢٩٣ .
٤ - ديوان المعتمد ١١١ .

وكُنّا إذا حـانَتْ لنحرٍ فريضةٌ ... ونادتْ بأوقاتِ الصّلاةِ طُبُولُ

شَهِدنا فكَبَّرنا فظلّتْ سُيوفُنا ... تُصلّي بها ماتِ العِدا فتُطِيلُ

سجودٌ على إثرِ الركوعِ متابعٌ ... هناك بأرواحِ الكُماةِ تسيلُ

فقد أطلق على الجهاد في سبيل الله وضرب رقاب الأعداء نحرا. وجعله فريضة ثم ذكر معها ما يناسبها من فرائض الإسلام. فأطلق على الاتصال بالأعدء - قتلا وجهادا - صلاة، وذكر ما يتناسب مع ذلك من أركان الصلاة مثل التكبير. ويقصد تكبير الله في ميدان المعركة. وصلاة السيوف - ويقصد بها اتصال سيوفهم برقاب الأعداء - والسجود والركوع - ويقصد بهما اتصال رؤوس الأعداء بالأرض بعد قطعها بسيوف المسلمين. وفي هذا ما يسمى بمراعاة النظير.

- ومن الألوان البديعة التي وردت في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد ما يعرف ب (التتميم) ومعناه " أن يحاول الشاعر معنى فلا يدع شيئا يتم به حسنه إلا أورده وأتى به. إما مبالغة، وإما احتياطا ، واحتراسا من التقصير".[1]

ومنه في روميات أبي فراس: [2]

وحاربتُ قومي في هواكِ وإنّهمْ
وإيّايَ - لولا حبّكِ - الماءُ والخمرُ

فعبارة (لولا حبك) تتميم للمعنى، وأتى بها الشاعر ليبالغ في مدى حبه

١ - العمدة ٢/٥٠ .
٢ - ديوان أبي فراس ١٦٣ .

لها وشغفه بها، مما أدى به إلى محاربة قومه، مع أنه وقومه كالشيئين الممزوجين بعضهما. فصارا شيئا واحدا كالماء والخمر.

وقوله في نفس القصيدة:

وَفَيْتُ – وفي بعضِ الوفاء مذلَّةٌ –
لإنسانةٍ في الحيِّ شيمتُها الغَدْرُ

فقوله (وفي بعض الوفاء مذلة) تتميم جيء به احتراسا يدفع به الشاعر ما قد يقع في الذهن من وجوب الوفاء، والالتزام به في جميع الأحوال. فاحترس بهذه العبارة ليبين أن الوفاء مع الغادر ذلة ومنقصة، لا عزة ومحمدة. وقوله في نفس القصيدة:

فقلتُ – كما شاءتْ وشاءَ لها الهَوَى -
قتيلُكِ. قالت: أيهُمْ؟ فهمْ كثرُ

فقوله: (كما شاءت وشاء لها الهوى) تتميم للمعنى أتى به الشاعر للمبالغة في حبه لها، وبيان مدى وقوعه تحت تأثيرها ونفوذها فأجابها عن أسئلتها بما تحب وتهوى إرضاء لغرورها، وإشباعا لدلالها.

ومن التتميم في أسريات المعتمد قوله: [١]

ولم تكُ – واللهُ المعيذُ – حسادَةً
ولكن حنيناً أن شكْلي لها شَكْلُ

١ - ديوان المعتمد ١١٠ .

فعبارة (والله المعيذ) تتميم للمعنى أتى به الشاعر احتراسا يدفع به ما قد يقع في الذهن أنه يحسد سرب القطا على ما أنعم به الله عليها من الحرية، واجتماع الشمل.

ومنه قوله في أول قصيدته في الاعتذار إلى ابن حمديس: [1]

حجبتُ فلا واللهِ ما ذاكَ عن أمرِي

فأصغِ – فدتك النفسُ – سمعًا إلى عُذْرِي

فعبارة (فدتك النفس) تتميم للمعنى أتى به الشاعر احتراسا ليدفع به ما قد يقع في ذهن ابن حمديس أنه يأمره بالإصغاء إليه ، فأبان بهذا أنه يلتمس منه الإصغاء إلى عذره ليبين له سبب حجبه عنه.

ونلحظ أن الألوان البديعية الواردة في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد – على قلتها – جاءت طبيعية غير متكلفة، ولا مستكرهة. فأدت دورها في تحسين الأسلوب وتقوية المعنى .

هذا وقد تعددت الأساليب في شعر الأسر عند الشاعرين ، وظهرت فيه عدة أنواع منها استقام بها، وأصبح على درجة كبيرة من الرقي . وأهم هذه الأساليب هي:

١ ـــ أسلوب القصر: و " القصر في اللغة: الحبس . وفي الاصطلاح: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص. والأول هو المقصور. والثاني هو

---

١ - ديوان المعتمد ١٠١ .

المقصور عليه. والطريق المخصوص هو أدوات القصر. والمـــراد بتخصيـــص الشيء بالشيء إثبات أحدهما للآخر ونفيه عن غيره ". [١]

وقد استخدم أبو فراس أسلوب القصر مرات عديدة في رومياته، كمـــا جاء أكثر من مرة في أسريات المعتمد. وجعله كل منهما وسيلة لأداء المعـــنى بلفظ موجز بليغ.فمن المعروف عند البلاغيين أن القصر من أساليب الإيجـــاز، وأن جملة القصر في قوة جملتين، وأنه غالبا ما يفيد التوكيد ، وتمكين الكـــلام وتقريره في الذهن لدفع ما قد يكون فيه من إنكار أوشك . [٢]

ومن هذا الأسلوب في روميات أبي فراس قوله في لوم الحاقدين عليه: [٣]

فلستُ أرَى إلاَّ عدوًا محارِبًا   وآخرَ خيرٌ منه عندِي المحارِبُ

فلم يعد يرى في الناس إلا العدو المحارب، أو من هو أشد منـــه عـــداوة وبغضا.

وقد أفاد أسلوب القصر هنا المبالغة في نظرة الشـــاعر الســـوداوية إلى الناس . ومنه قوله: [٤]

إلى اللهِ أشكُو عصبةً من عشيرَتِي

يُسيئُون لي في القولِ غيبًا ومشهَدَا

---

١ - بغية الايضاح لتلخيص المفتاح - عبد المتعال الصعيدي - مكتبة محمد على صبيح ط ٨ ٣/٢ .

٢ - انظر: المرجع السابق ٣/٢

٣ - ديوان أبي فراس ٤١ .

٤ - ديوان أبي فراس ٨٥ .

وقوله: [١]

إلى اللهِ أشكو أنّنا بمنازلٍ تحكّمُ في آسادِهنّ كِلابُ

وأفاد الأسلوب هنا أنه يتوجه بشكواه إلى الله وحده لا إلى غيره ، بعد أن عجز غير الله عن تخليصه مما هو فيه .

ومنه قوله في رثاء أخت سيف الدولة: [٢]

أوصيكَ بالحزنِ لا أوصيك بالجَلَدِ

جَلَّ المصابُ عن التعنيفِ والفَنَدِ

فقد أثبت بهذا الأسلوب وصيته إياه بالحزن ، ونفى وصيته بالتجلد والصبر أمام ما أصيب به. وهذا يدل على أن ما أصيب به سيف الدولة شيء يستحق الحزن ، ولا يلام عليه . وطريق القصر هنا: العطف بلا.

ومنه أيضا قوله: [٣]

ولئنْ قُتِلتُ فإنّما موتُ الكرامِ الصيدِ قتلا

فقد قصر ميتة الكرام الأبطال المغاوير على القتل والاستشهاد في سبيل الله – وهو منهم – لأن حياتهم قتال دائم لا ينتهون من حرب إلا للاستعداد لأخرى. ومن كان هذا كانت ميتته القتل والشهادة في سبيل الله.

---

١ - ديوان أبي فراس ٤٦ .
٢ - ديوان أبي فراس ١١١ .
٣ - ديوان أبي فراس ٢٤٢ .

ومنه قوله مفتخرا: [١]

مَنْ كانَ مثلي لم يبتْ　　　إلَّا أسيرًا أو أميرَا

وأفاد أسلوب القصر هنا اتصاف الشاعر ومن كان مثله بأحد أمرين: إما أن يكون أميرا حاكما، أو أسيرا بعد الجهاد ضد الأعداء .

ومن أسلوب القصر في أسريات المعتمد قوله مفتخرا بنفسه راثيا حاله: [٢]

أذلَّ بني ماءِ السماءِ زمانُهمْ　　　وذُلُّ بني ماءِ السماءِ كثيرُ

فما ماؤُها إلا بكاءٌ عليهِمُ　　　يفيضُ على الأكْبادِ منهُ نُحورُ

فقد زعم الشاعر أن ماء المطر لا ينزل من السماء إلا لغاية واحدة وهي البكاء على قومه بني ماء السماء ليس غير .

ومنه قوله في حديثه عن سرب القطا: [٣]

وما ذاكَ مما يعتَريني وإنَّما

وصفتُ الذي في جبلةِ الخلقِ من قبلُ

فحديثه عن انطلاق سرب القطا، وتمتعه بالحرية وشوقه إلى أن يكون مثلها ما هو إلا تعبير عن شعور الإنسان المقيد الذي تهفو نفسه إلى حريتها

---

١ - ديوان أبي فراس ١١٦ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٩ .
٣ - ديوان المعتمد ١١١ .

وانطلاقها. وهذا شيء جبل عليه الإنسان. أن يصبو إلى ما فيه خيره وســعادته ونجاته من الشرور والآثام.

٢ - أسلوب النداء: واستخدمه الشاعر ليساعده - أحيانا - علـــى رسم المفارقات بينه وبين من هو حر طليق خارج نطاق الأسر. كما في قول أبي فراس: (١)

يا واسعَ الدارِ كيفَ توسِـــعُهَا ... ونحـــنُ في صخـــرةٍ نزلزلُهَـــا ؟
يا ناعمَ الثوبِ كيــــفَ تبدلُــه ... ثيابُنا الصـــوفُ مـــا نبدِّلُهَـــا؟
يا راكبَ الخيلِ لو بَصُرْتَ بنَـــا ... نحمـــلُ أقيادَنَـــا وننقلُـــهَا

فالشاعر هنا يقارن بين حاله داخل سجنه مضيقا عليه، يلبس الخشن من الثياب، ويكلف بالجهد الشاق من الأعمال، وبين حال سيف الدولة متمرغا في ترف العيش ونعيمه، ويمضي حرا طليقا يمتطي صهوة الخيل، ويختال في الثيـلب الناعمة الموشاة. ولقد " استطاع أسلوب النداء المتكرر - ثلاث مــرات - أن يؤسس لهذه الصورة المتقابلة التي تعكس جفاف الحيـــاة هنـــا، وخصوبتـــها، واخضرارها هناك. ومن ثم فأنت أمام عالمين متناقضين تماما. أحدهما ممرع مبهج مشرق خصيب، والآخر محل جديب. مما يجسد لك معانـــاة الشـــاعر أولا، وتباين القمم النفسية ثانيا، واشتجار العواطف بحيث تكون مشـــرقة وغائمـــة ثالثا". (٢)

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٦٥.
٢ - بين الأنا والآخر . في مدحيات المتنبي ١٢١.

ومن أسلوب النداء الذي حاول به الشاعر أن يرحمه آسره من سجنه وعذابه قول المعتمد: [١]

قيدي أَمَا تعلمُني مسلمَا ... أبيتَ أن تُشفِقَ أوترحَمَا

وقد يتآزر أسلوب النداء مع أسلوب الأمر للتعبير عن معاناة الشاعر، وتلهفه إلى نيل راحته، وفك قيود أسره. من مثل قول أبي فراس: [٢]

يا أيهَا الراكِبَانِ هل لكُمَا ... في حمل نجْوَى يخفُّ محملُهَا

قولا لهـا إنْ وعَتْ مقالَكُمَا ... وإن ذكْرِي لها لَيُذهِلُهَا

واستخدم المعتمد النداء في رثاء ولديه كوسيلة للتعبير عن صدق عاطفته. فقد أفرد كلا منهما بخطاب مستقل بعد الحديث عنهما حديثا مجملا في أول القصيدة . وذلك إمعانا منه في تذكر كل منهما، وحبا في ترديد إسمهما على لسانه. كما نجده يستخدم في ندائهما أداة النداء التي للبعيد(يا) لإحساسه ببعدهما عنه ، حيث ماتا في الأندلس وهو أسير بأغمات. كما أن هذه الأداة بما فيها من مد تمكنه من أن ينفث همومه، ويخرج ما في صدره من ألم. ثم يلجأ إلى الجناس – في غير افتعال أو تكلف – بين (فتح وفتحت) وبين (يزيد – وزادت).فوفر لشعره عنصرا موسيقيا يؤدي إلى زيادة التأثير في نفس المتلقي. [٣]

---

١ - ديوان المعتمد ١١٢ .

٢ - ديوان أبي فراس ٢٦٣ .

٣ - انظر: شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٥٨ .

يقول المعتمد: [١]

أفتحُ لقد فتَّحتَ لي بابَ رحمةٍ كما بيزيدَ اللهُ قد زادَ في أجْرِي

ويقول: [٢]

يا فتحُ قد فتَحَتْ تلك الشهادةُ لي بابَ الطماعةِ في لُقيَـاكَ جَذلانـا
ويا يزيدُ لقد زادَ الرَّجَـا بكمـا أن يشفعَ اللهُ بالاحسانِ إحسـانَا

أما تقدير أداة النداء في قول المعتمد (قيدي أما تعلمني مسلما) فللدلالة على قرب قيده منه، بل التصاقة بجسده،ولذا لم يأت بأي أداة للنـداء، ولـو بالأداة التي ينادي بها القريب. فكأنه في البيت يناجي نفسه لأنه يتحدث مـع ما التصق به ، وأحاطه من جميع الجهات.

٣ – ومن الأساليب التي شاعت في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد أسلوب الاستفهام. ولا يقصد منه في الغالب الاستفهام بالمعنى المقصود، ولكن يقصد به ما يسميه أبو هلال العسكري " بتجاهل العارف ، ومـزج الشـك باليقين " [٣].

وقد استخدمه أبو فراس والمعتمد للتعبير عن الدهشة لما أصابهمـا، أو حدث لهما في أسرهما ، أو بغرض الاستعطاف والعتاب، أو الحث على السرعة في تخليص الشاعر من الأسر. وقد نوع كل منهما في أدواته ليعبر لنـا عـن

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٦ .
٢ - ديوان المعتمد ٧٠ .
٣ - كتاب الصناعتين ٣٩٦ .

أحواله وأغراضه المختلفة. ففي قصيدة أبي فراس اللامية: [١]

يا حسرةً ما أكادُ أحملُهَا　　　آخرُها مزعجٌ وأولُهَا

استخدم أبو فراس الاستفهام أكثر من مرة، ونوع في أدواته ليعبر عن الحيرة والقلق، وفقدان الطمأنينة لديه ولدى أمه المريضة الوحيدة . كقوله على لسان الأم:

يا مَنْ رأى لي بحصنِ خَرْشَنَةٍ　　　أُسْدُ شرًى في القيودِ أرجلُها؟
يا مَنْ رأى لي الدروبَ شامخةً　　　دونَ لقاءِ الحبيبِ أطولُهَا؟
يا مَنْ رأى لي القيودَ موثَقَةً　　　على حبيبِ الفؤادِ أثقلُها؟

وقد يخلط الاستفهام بالعتاب الرقيق كقوله:

بأيِّ عذرٍ تركتَ والهَةً　　　عليكَ دونَ الورَى معوَّلُها؟
تلك المودات كيفَ تهملُهَا　　　تلك المواعيدُ كيفَ تُغفلُها؟
تلك العقودُ التي عقدتَ لنا　　　كيف - وقد أُحْكِمَتْ- تحلِّلُهَا؟

كما كرر السؤال ب (أين) بقصد إحراج سيف الدولة ودفعه إلى تأدية حقوق القرابة والإسراع إلى مفاداته وتخليصه من أسره.

أينَ المعالي التي عُرِفْتَ بها　　　تقولُها دائماً وتفعَلُهَا؟
نحنُ أحقُّ الورَى برأفتِهِ　　　فأين عنَّا؟ وأينَ مَعدِلُها؟

ويأتي الاستفهام للتهكم أحيانا. كما في قول أبي فراس في هجاء

١ - ديوان أبي فراس ٢٦٣ .

الدمستق في المناظرة التي جرت بينهما: [١]

أتزعُمُ يـــا ضَخْـــمَ اللغـــاديد أنَّنَـــا ... ونحنُ أسودُ الحرب لا تعرفُ الحربَـــا؟
فويلكَ مَنْ للحرب إن لم نكُـــنْ لهَـــا ... ومن ذا الذي يُمسِي ويُضحِي لها تِربا؟
ومن ذا يَلُفُّ الجيشَ مِـــن جَنَبَاتـــه؟ ... ومن ذا يقودُ الشمَّ أو يصدمُ القلبَـــا؟
وويلكَ مَنْ أردَى أخـــاك بمرعَـــش ... وجلَّلَ ضربًا وجهَ والـــدك العضْبَـــا؟
وويلكَ من خلَّى ابنَ أختـــك موثَقَـــا ... وخلاَّك باللَّقَّـــان تبتـــدرُ الشِّـــعبَا؟
بأقلامنـــا أُجْحِـــرتَ أم بسُـــيوفنا؟ ... وأسدَ الشرى قُدْنا إليك أم الكُتْبَـــا؟

ومن الاستفهام الذي قصد به الشاعر الحث على السرعة في تخليصه من الأسر قول أبي فراس في قصيدته التي بعث بها إلى سيف الدولة بعـــد أن سمـــع رفضه بتخليصه إلا بفداء عام: [٢]

بني عمِّنا ما يصنَعُ السيفُ في الوَغَى ... إذا فُلَّ منه مضـــربٌ وذُبَـــابُ؟
فَعنْ أيِّ عذرٍ إن دُعُـــوا ودعيتُـــمُ ... أبيتُمْ بَـــني أعمامنَـــا وأجَـــابُوا؟
أمنْ بعد بذل النفس فيمـــا تريـــدُهُ ... أُثابُ بمر العَتْـــب حـــين أُثَـــابُ؟

ومن ذلك قوله في قصيدته الدالية التي كرر فيها دعوته لسيف الدولـــة لتخليصه من الأسر: [٣]

أأضحَوْا على أسراهُمُ بي عُـــوَّدًا ... وأنتمْ على أسْراكُمُ غـــيرُ عـــوَّدِ؟
متى تخلُفُ الأيامُ مثلي لكمْ فَـــتًى ... طويلَ نجاد السيف رحبَ المقلَّـــدِ؟

---

١ - ديوان أبي فراس ٣١ .
٢ - ديوان أبي فراس ٤٥ .
٣ - ديوان أبي فراس ٩٦ .

متى تند الأيامُ مثلي لكــــم فــتىً شديداً على البأساءِ غيرَ مُــلـهَّدِ؟

وقد أكثر أبو فراس من استخدام أسلوب الاستفهام في رومياته في جميع الأغراض المذكورة، وفي أغراض أخرى . فاستعمله في العتـــاب، والفخـــر، والاستبعاد، والتكثير ...وغير ذلك من المعاني التي قد يأتي لأجلها الاستفهام.

أما أسلوب الاستفهام في أسريات المعتمد فيأتي بدرجة أقل مما نجـــده في الروميات.وقد يكون سبب ذلك خضوع المعتمد في سجنه، وانطوائـــه علـــى نفسه، وانشغاله بوصف حاله عن التعالي والشموخ الذي يستدعي اللجـوء إلى الاستفهامات الكثيرة كما نلحظ ذلك عند أبي فراس.

ومن أسلوب الاستفهام في أسريات المعتمد للدلالة علىالدهشة لما أصابه بموت ولديه قوله في رثائهما: [١]

فمالِيَ لا أبكِي؟ أم القلبُ صخرةٌ؟

وكم صخرةٍ في الأرض يجرِي بها نَهَرُ

ومنه للدلالة على الدهشة لما أصابه في أسره: [٢]

دعَا لِي بالبقاءِ وكيــــف يــهْوَى أسـيرٌ أن يطـولَ بــه البقَــاءُ؟

أليسَ المـوتُ أروحُ مــن حيــاةٍ يطولُ على الشقيِّ بها الشَّــقَاءُ؟

أأرغَـبُ أن أعيـشَ أرَى بنــاتِيَ عوارِيَ قد أضـرَّ بهــا الحَفَــاءُ؟

---

١ - ديوان المعتمد ٦٩ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٠ .

ومن ذلك أيضا قوله مخاطبا نفسه. [١]

أبِنَّ غلبتَ وكنتَ الدهر ذا غَلَبٍ للغـــــالبينَ وللسُّبَّاق سَبَّاقا؟

وقد أجاب على نفسه باستفهام آخر فقال:

قلتُ الخطوبُ أذلّتــني طوارقُــها وكان عزمِــيَ للأعــداءِ طرّاقــا

متى رأيتَ صروفَ الدهر تاركــةً إذا انبرتْ لذوى الأخطارِ أرمَاقا ؟

ومنه قوله معاتبا: [٢]

أما يُخجلُ المجدَ أن يُرْحلُــو ك ولم يُصحبُوك خباءً مُعارَا؟

ومنه للدلالة على التمنى: [٣]

فياليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً أمامي وخلفي روضةٌ وغديرُ؟

تُراه عسيراً أم يســيراً منالُهُ؟ ألا كلُّ ما شــاءَ الإلهُ يسيرُ

ومنه للدلالة على الاستعطاف والعتاب معا: [٤]

قيدي أمَا تعلمُني مسلمًا ؟ - أبيتَ أن تُشفقَ أو ترحمَا.

٤ ـ ومن الأساليب التي وردت في شعر الأسر عند أبى فراس والمعتمد أسلوب الحوار. سواء كان حوارا مع النفس، أم حوارا مع أشخاص آخريـن،

---

١ - ديوان المعتمد ١١٠ .
٢ ديوان المعتمد ٩٧ .
٣ - ديوان المعتمد ٩٩ .
٤ - ديوان المعتمد ١١٢ .

أم حوارا مع أحد مظاهر الطبيعة. وهذا الأسلوب أكثر وقعا من أسلوب الخطاب الذي يكون من طرف واحد .

ومن أسلوب الحوار مع النفس في روميات أبي فراس قوله: [١]

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتُك الصَّبْرُ أمَا للهوَى نهيٌ عليكَ ولا أمْرُ
بلى أنَا مشتاقٌ وعنديَ لوعَةٌ ولكنَّ مثلي لا يُذاعُ لهُ سِرُّ

على أن الخطاب في البيت الأول لنفسه، وليس لفتاته.

ومن الحوار مع أشخاص آخرين حواره مع فتاته في هذه القصيدة في قوله:

تسائلني منْ أنتَ؟ وهي عليمَةٌ وهل بفتىً مثلي على حالِهِ نُكْرُ
فقلتُ -كما شاءتْ وشاءَ لها الهوَى- قتيلُكِ. قالتْ: أيُّهُمْ؟ فهُمْ كُثْرُ
فقلتُ لها لو شئتِ لم تتعنَّتي ولم تسألي عنِّي وعندك بي خُبْرُ
فقالت: لقد أزرَى بكَ الدهرُ بعدَنا فقلتُ معاذَ اللهِ بل أنتِ لا الدَّهْرُ

ومنه قول أبي فراس: [٢]

يقولونَ (جَنِّبْ) عادةٌ ما عرفتُها شديدٌ على الإنسانِ ما لمْ يعوَّدِ
فقلتُ: أمَا واللهِ لا قالَ قائلٌ شهدتُ له في الحربِ ألأمَ مشهَدِ

ومن الحوار مع أحد مظاهر الطبيعة في الروميات حوار أبي فراس مع الحمامة التي ناحت بجوار سجنه . وإن كان الحوار هنا حوارا من جانب واحد.[٣]

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٢ .
٢ - ديوان أبي فراس ٩٨ .
٣ - انظر ديوان أبي فراس ٢٨٢ .

ومن أسلوب الحوار مع النفس في أسريات المعتمد حواره مع نفسه في **مقطوعته التي يسلي فيها نفسه عن مفارقة أوطانه:** [١]

اقنعْ بحظِّكَ من دنياكَ ما كانَا　　وعزِّ نفسَكَ إن فارقْتَ أوطانَا

أكلّمَا سنَحَتْ ذكرَى طربتَ لها　　مجّت دموعَك في خديْك طوفَانَا

أما سمعتَ بسلطانٍ شبيهك قد　　بزّته سودُ خُطوب الدهرِ سُلطانا

وطِّنْ على الكرهِ وارقُبْ إثره فَرَجًا　　واستغنِم الله تَغنَمْ منه غفرَانَا

ومن الحوار مع الآخرين حواره مع زوجته الرميكية: [٢]

قالت : لقد هُنَّا هُنا　　مولايَ أين جاهُنا

قلتُ لها: إلى هُنا　　صيَّرَنا إلهُنَا

ومن الحوار مع مظاهر الطبيعة التي شخصها الشاعر، وبث فيها الحياة: حوار المعتمد مع قيده، وإن كان حوارا من جانب واحد: [٣]

قيدِي أما تعلمُنِي مسلمَا　　أبيْتَ أن تُشفِقَ أو تَرْحَمَا

وحواره مع سرب القطا. [٤] وحواره مع القمرية التي سمعها تبكي على أليفها. [٥]

---

١ - ديوان المعتمد ١١٤ .
٢ - ديوان المعتمد ١١٤ .
٣ - انظر: ديوان المعتمد ١١٢ .
٤ - انظر: ديوان المعتمد ١١٠ .
٥ -انظر: ديوان المعتمد ٦٨ .

٥ - ومن الأساليب الواضحة في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد: أسلوب التكرار، وللتكرار دور مؤثر في موسيقى الشعر بصفة عامة ، بما يوفره من ظلال وإيحاءات تضيف إلى المعنى بهاء ورونقا وروعة، وتؤثر في نفس السامع أو القاريء بما تنقله من شعور الشاعر. كما أن التكرار وسيلة من وسائل توكيد المعنى وتقويته في ذهن المتلقى.

وذكر النقاد أن التكرار ينبغي أن يكون في الألفاظ لا في المعاني ، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني وهو في المعاني دون الألفاظ أقل . فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعا فذلك الخذلان بعينه. ولا يجب للشاعر أن يكرر اسما إلا على جهة التشوق والاستعذاب، إذا كان في تغزل أو نسيب... أو على سبيل التنويه به، والإشارة إليه بذكر إن كان في مدح... أو على سبيل التقرير والتوبيخ... أو على سبيل التعظيم للمحكى عنه...أو على جهة الوعيد والتهديد إن كان عتاب موجع... أو على وجه التوجع إن كان رثاء وتأبينا...

وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء لمكان الفجيعة، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع... أو على سبيل الاستغاثة ، وهي في باب المديح... ويقع التكرار في الهجاء على سبيل الشهرة وشدة التوضيع بالمهجو... ويقع أيضا على سبيل الازدراء و التهكم والتنقيص ". [١]

وقد يكون التكرار لشطر كامل من شطرى البيت ، وقد يكون تكرارا لعبارة دون شطر، وقد يكون تكرارا لكلمة واحدة. وقد وردت هذه الأنواع

---

١ - العمدة ٧٣/٢ : ٧٦ .

الثلاثة من التكرار في روميات أبي فراس، ووجد نوع واحد منــــها فقــط في أسريات المعتمد .

فمن تكرار شطر كامل في روميات أبي فراس قوله أول قصيدته في رثـاء أمه: [١]

أَيَا أمَّ الأســيرِ سـقاكِ غيْثٌ   بكرهٍ منــكِ مـالقِي الأســيرُ
أيا أمَّ الأســيرِ ســقاكِ غيْثٌ   تحــيَّرَ لا يقيــمُ ولا يَســيرُ
أيا أمَّ الأســيرِ ســقاكِ غيْثٌ   إلى مَنْ بــالفِدا يــأتِي البشــيرُ

فالشاعر هنا يخاطب أمه ويناديها بأم الأسير ، حتى يبين عن المصيبة الـتي نزلت به بوفاة أمه، والتي أضيفت إلى مصيبته الأولى وهي أسره ووجوده بعيدا عن أمه التي ماتت وخلفته وحيدا في الحياة بعد وحدته في سجنه وعذابــه.إنه من خلال هذا النداء يشعرنا بثقل مضاعف من العناء والآلام بعد أن وصله نبأ وفاة والدته.أما تكرار الشطر الأول فينبئنا بمعنين بارزين :

"الأول فجيعة الأم بابنها الدائم الغياب عنها ، وانتقــال روحــها إلى خالقها وهو على ذلك الحال من الأسر.والثاني فجيعته هو الأسير بموت أمــه داخل سجنه يذيقه العذاب مرتين :مرة في خروج الروح من الجسد،ومرة مــن قصوره عن بلوغ واجب تشييع تلك الروح .وهذا ما أوحى إليه بترديد(أيـا أم الأسير)المعبرة عن واقع الحال الثقيل على الجسد والروح في آن ".[٢]

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦١ .
٢ - أبو فراس الحمداني شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية ١١٣ .

أما تكرار الدعاء لها بالسقيا فيفيد توكيد حبه لها وإشفاقه عليها ، وتوكيد حزنه عليها ، بعد أن ماتت وحيدة بعيدة عن ولدها ليس معها من عشيرتها من يروى ظمأها قبيل وفاتها.

ومن تكرار شطر كامل أيضا ما جاء فى قول أبى فراس.[1]

متَى تخلفُ الأيامُ مثلِى لكمْ فَتًى … طويلَ نجادِ السيف رحبَ المقلَّدِ ؟
متى تلدُ الأيامَ مثلى لكُمْ فتًى … شديدًا على البأساءِ غير ملهَّدِ ؟

وتكرار السؤال بالشطر الأول وإن كان قد خالف فى كلمة واحدة للدلالة على ندرة وجود أمثاله . وأنه ليس من السهل أن يأتيهم الدهر بمثله . فمثله لايكرر فى كل زمن . وفى هذا حث لأهله على سرعة افتدائه للاستعانة به على ما يقع بهم من الملمات . ولذا أتبع ذلك بتكرار طلب الفداء فى البيتين التاليين.

وهذا النوع من التكرار قليل فى روميات أبى فراس ويكاد ينحصر فى الموضعين المذكورين . ومن تكرار عبارة دون شطر كامل فى روميات أبى فراس قوله :[2]

بنى عمِّنا ما يصنعُ السيفُ فى الوَغَى … إذا فلَّ منه مضربٌ وذُبَابُ
بنىْ عمِّنا لا تنكرُوا الودَّ إننا … شدادٌ على غير الهوانِ صِلابُ
بنى عمِّنا نحنُ السواعدُ والظُّبَا … ويوشكُ يوما أن يكونَ ضِرابُ

---

١ - ديوان أبي فراس ٩٨ .
٢ - ديوان أبي فراس ٤٦ .

فلقد كرر النداء بعبارة (بنى عمنا) ليثير فيهم نخوة القربى ، ويذكرهم بصلة الرحم التى تستوجب منهم أن يجدوا فى تخليصه من الأسر .

ومن هذا النوع من التكرار تكرار دعائه لسيف الدولة بقوله : [١]

بقيتَ ابنَ عبد الله تُحمَى من الرَّدَى ويفديك منّا سيّدٌ بعد سيّدِ
بقيتَ ابنَ عبد الله ماذرّ شارقٌ تروحُ إلى العزّ المبين وتغتدى

وقوله فى نفس القصيدة :

فلا يحرمَنّى اللهُ رؤياك إنها نهاية آمالى وغايةُ مقصدى
ولا يحرمَنّى اللهُ قربَك إنّهُ مرادى من الدنيا وحظّى وسؤددى

وتكرار الدعاء هنا توكيد لحب الشاعر لسيف الدولة وحرصه على دوام بقائه مع سلامته فى هذه الدنيا .

وهذا النوع من التكرار جاء فى مواضع عديدة من روميات أبى فراس.

ومن تكرار اللفظة الواحدة فى روميات أبى فراس قوله فى هجاء الدمستق :[٢]

فويلكَ مَنْ للحربِ إن لم نكُنْ لها ومنْ ذا الذى يمسى ويُضْحى لها تِرْبَا
وويلكَ من أردَى أخاكَ بمرعَشٍ وجلّل ضرباً وجهَ والدك العضْبَا
ويلكَ من خلّى ابنَ أختِك موثَقاً وخلاّك باللّقّان تبتدر الشّعْبَا

فكرر الشاعر الدعاء على الدمستق بالويل والهلاك حتى يؤكد هجاءه له وتحقيره لشأنه مع كل حدث يذكره به ، كما كرر الشاعر فعل الأمر (سل)

---

١ - ديوان أبى فراس ٩٩ ،
٢ - ديوان أبي فراس ٣١ -

عشر مرات فى خمسة أبيات متوالية فى هذه القصيدة حتى يؤكد له أنه مستعد للمواجهة والتحدى ، وأن كل ما يقوله صدق وواقع لا جدال فيه وهناك شهود على ذلك يمكنه الرجوع إليهم لسؤالهم .

ومن تكرار اللفظة الواحدة أيضا تكرار لفظ (ليبكك) فى أربعة أبيات متوالية فى قصيدة أبى فراس فى رثاء أمه [١].ويعبر الشاعر من خلال تكرار هذه الكلمة عما يشعر به من الحزن والحرقه ، ويشير في الوقت ذاته إلى مكانة المرثية في قلوب الناس ، والمترلة الرفيعة التى كانت تحتلها ، وليشرك معه كل من طلب منه البكاء في الحزن عليها ، وفى هذا رفعة لمترلتها لأنه كلما عم البكاء والحزن دل ذلك على عظم مكانة المفقود .

وهذا اللون من التكرار كثير فى روميات أبى فراس ويكاد يتساوى فى كثرته مع سابقه .

وإذا كان تكرار شطر كامل قليل الورود فى روميات أبى فراس فهو معدوم تماما فى أسريات المعتمد ، فلم يأت منه شئ فى شعر المعتمد فى الأسر ، كما لم أجد شيئا من تكرار عبارة دون شطر فى شعر المعتمد فى الأسر أيضا . واقتصر التكرار عنده على النوع الثالث وهو تكرار لفظة واحدة وجاء فى مواضع كثيرة من أسرياته.ومنها تكرار لفظ (بكت) فى حديثه عن القمرية التى تنوح على أليفها فقد كرر هذا الفعل ومضارعه خمس مرات فى هذه القصيدة القصيرة .[٢] ليعرب عن شدة حزنه على ولديه اللذين تذكرهما عندما

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦١ .
٢ - ديوان المعتمد ٦٨ .

سمع نواحها ، وليؤكد أن حزن هذه القمرية على أليفها لا يضاهي بحزنه على ولديه مهما طال بكاؤها لأنها تبكي واحدا، وهو يبكي لآلاف كثيرين ، وهي تبكي دون أن تذرف دمعا وهو يبكي بدمع أشد غزارة من ماء المطر:

بكتْ أن رأتْ إلفَينِ ضمهمَا وَكْرُ مساءً وقد أخنَى على إلفِهَا الدهرُ

بكَتْ لم تُرقْ دمعًا وأسبلت عَبْرةً يقصِّرُ عنها القطرُ مهمَا همَى القَطْرُ

بكَتْ واحداً لم يشجِهَا غيرُ فقدِهِ وأبكى لألاّفٍ عديدُهُمُ كُثْرُ

وقد كرر المعتمد نفس الفعل (بكى) و(بكت) في حديثه عن قصوره التي تذكرها في أسره للدلالة على حزن كل منها منفردا لفراقه لها وانقطاع أنسها به.[١]

ومن التكرار في أسريات المعتمد تكرار الفعل (ارحم) في خطابه لقيده:[٢]

ارحَمْ طفيلاً طائشًا لبه لم يخشَ أن يأتيكَ مُسترحِمَا

وارحَمْ أخيَّاتٍ لـه مثلَهُ جرَّعتَهُنَّ السَّمَّ والعلقَمَا

وتكرار الشاعر لهذا الفعل بمثابة التوكيد لطلب الرحمة لتعدد من يستحقها من أولاده . فهو لا يطلبها لمجرد الرحمة بواحد فقط من أولاده ، وإنما يطلبها لولده الصغير ويطلبها لأخياته الصغار.

ونلحظ أن أسلوب التكرار أحسن وأبهى في روميات أبي فراس وأقوى دلاله على المعنى الذى هدف إليه الشاعر من وراء إتيانه به .

---

١ - ديوان المعتمد ٩٥ .

٢ - ديوان المعتمد ١١٢ .

٦- وأسلوب النهى من الأساليب التى لوحظت بكثرة فى شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد. وغالبا ما يأتى لطلب الكف عن تعذيب الشاعر في سجنه من قبل الآسر، أو من قبل من يستطيع تخليصه من الأسر. كما في قول أبي فراس مخاطبا سيف الدولة: (١)

فلا تَكِلْنَا فيها إلى أحَدٍ   معلُّها محسنٌ يعلِّلُها

وقوله في نفس القصيدة ينهاه عن استبداله بغيره:

لا تَتَيَمَّمْ والماءُ تدركُهُ   غيرُكَ يرضَى الصُّغرى ويقبلُها

وقوله يخاطب سيف الدولة ينهاه عن سوء ظنه به وتركه في أسره: (٢)

فلا تعدِلَنْ - فداك ابنُ عمِّـ   ـك لا بل غلامُك - عما يجبْ

ونلحظ لين الشاعر ورقة لغته في نهى سيف الدولة عن ترك فدانه حتى يكون كلامه أدعى للقبول من قبل الأمير. اقرأ معي قوله في خطاب سيف الدولة: (٣)

فلا تتركِ الأعداءَ حولي ليفرَحُوا   ولا تقطعِ التسآلَ عنيَّ وتقعُدِ

ولا تقعُدَنْ عني -وقد سِيمَ فدْيَتي-   فلستَ عن الفعلِ الكريم بمقعَدِ

فهو يمزج نهيه إياه بمدحه له، مراعاة لمقام الأمير من جهة، وأملا في إجابة مطلبه بالخلاص من أسره من جهة ثانية. أما في نهى غير سيف الدولة فيمزج نهيه بالفخر فيقول - مثلا - ينهى فتاته عن إنكارها له ولفروسيته: (٤)

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٦٥ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٦ .
٣ - ديوان أبي فراس ٩٧ .
٤ - ديوان أبي فراس ١٦٤ .

فلا تنكريني يا ابنةَ العمِّ إنَّهُ   ليعرفُ من أنكرتِهِ البدوُ والحَضَرُ
ولا تنكريني إنّي غيرُ منكَرٍ   إذا زلَّتِ الأقدامُ واستنزل النَّصْرُ

إلى غير ذلك من أمثلة هذا الأسلوب. وهي كثيرة في روميات أبي فراس، والتي ترفق فيها الشاعر وصاغها بأسلوب لين حتى يستجاب له من قبل المخاطب، وخاصة في خطابه لسيف الدولة.

ومن أمثلة هذا الأسلوب في أسريات المعتمد قوله مخاطبا قيده ينهاه عن تهشيم عظامه بعد أن شرب دمه، وأكل لحمه:[1]

دَمي شرابٌ لكَ واللحمَ قد   أكلتَه لا تهشِمُ الأعظُمَا

وقوله ينهى مخاطبه عن التعجب مما حدث له في ملكه وأهله:[2]

ولا تعجَبْ لخطْبٍ غضَّ منه   أليسَ الخسفُ ملتزمَ البدورِ ؟

وهذا الأسلوب قليل نادر في أسريات المعتمد. ويرجع ذلك إلى انكسار المعتمد وخضوعه في أسره. فانطوى على نفسه ، وكف عن أمر أو نهي من يلتقي بهم بعد أن كان ذلك شأنه قبل الأسر. أما أبو فراس فجرأته، واندفاع شبابه ، وإحساسه بفروسيته ، جعله يستخدم أسلوب الأمر والنهي بكثرة.

٧ - ومن الأساليب التي لجأ إليها كثيرا كل من أبي فراس والمعتمد في شعرهما في الأسر أسلوب الحكاية والسرد القصصي. فقد قص علينا أبو فراس ما دار بينه وبين قائد الروم الذي اتهم الشاعر والعرب بأنهم أهل أقلام ،

---

١ - ديوان المعتمد ١١٢ .
٢ - ديوان المعتمد ١٠٢ .

وليسوا أرباب حرب. [١] وسرد علينا حكايته مع الحمامة التي ناحت قـــرب سجنه، ودعاها إلى مقاسمة الهموم. [٢]

وقص على أمه جانبا من قصة الزبير بن العوام مع أمه أسمــاء بنـــت أبي بكر الصديق – رضى الله عنهم – وجانبا من قصة صفية بنت عبد المطلــــب، وحزنها على أخيها حمزة – رضى الله عنهما – داعيا أمه إلى التأســـي بهـــاتين الصحابيتين في صبرهما وتجلدهما أمام ما أصيبتا به. [٣] وسرد علينا حكايته مـــع فتاته التي تتجاهله وتنكر وده مما يزيد في عذابه وآلامه.. [٤]

كما رأينا هذا الأسلوب في أسريات المعتمد حينما سرد علينـــا قصتـــه وبناته يوم العيد مصورا حالهن تصويرا مؤثرا. [٥]وقصته مع سرب القطا الـــذي مر عليه وهو في الأسر حرا طليقا مجتمع الشمل. [٦] وقصة بناته مـــع البـــؤس والفقر الذي أصابهن بعد أسره حتى اضطرت إحداهن إلي أن تعمـــل بـــالغزل لبنت من كان يعمل بين يدى المعتمد قبل أسره.. [٧]

٨ – ومن الأساليب البارزة في شعر الأسر عند الشـــاعرين أســـلوب الحكمة التي يتوج بها الشعراء أساليبهم في كل الأغراض تقريبـــا. فقـــد درج

---

١ - ديوان أبي فراس ٣١ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٨٢ .
٣ - ديوان أبي فراس ٢٥٤ .
٤ - ديوان أبي فراس ١٦٢ .
٥ - ديوان المعتمد ١٠٠ .
٦ - ديوان المعتمد ١١٠ .
٧ - ديوان المعتمد ٩٠ .

الشعراء على أن يتوجوا قصائدهم بالحكمة يزينون بها أسلوبهم، ويعبرون بها عن خلاصة تجاربهم في الحياة ، وموقفهم من بعض أحداثها. ولم يقف النقاد طويلا عند شعر الحكمة. " لأنه لم يكن غرضا خاصا من أغراض الشعراء يقصدون إليه، وإنما كانوا يصنعون الحكمة في أثناء شعرهم ، أو آخر قصيدهم. ودرجوا على هذا المنوال فضمنوا قصائدهم نظراقم في الحياة مركزة في جمل قصيرة ".[١]

وجاءت الحكمة في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد معبرة عن نفس حزينة ، فترجمت عن خوالج الشاعر وانفعالاته. وهى حكم نابعة عن موقف الشاعر الحزين ومستخلصة من ظروف أسره وتقلب الدنيا والناس به.وقد أداها كل من الشاعرين أداء صادقا فجعلاها تخرج من هذا الإطار المعبر عن موقف الشاعر وتجاربه الذاتية إلى إطار أوسع ، بحيث يجد فيها كل ذي ألم ضالته وتعبر عن نفسه الجريحة ، ومن الحكم الواردة في روميات أبي فراس قوله: [٢]

إذا اللهُ لم يحرُسْكَ مما تخافُهُ
فلا الدِّرعُ منّاعٌ ولا السيفُ قاضِبُ

وقوله: [٣]

وأنت أخٌ تصفُو ونصفُو وإنما الـ
أقارِبُ في هذا الزمانِ عَقَارِبُ

---

١ - أسس النقد الأدبي عند العرب - أحمد بدوى ٢٨٦ .
٢ - ديوان أبي فراس ٤١ .
٣ - ديوان أبي فراس ٤٣ .

والحكمة في البيت تصور حال كثير من الأقارب في هذا الزمان لا كلهم

وقوله: (١)

يقولون: (جَنَّبْ) عادةٌ ماعرفتَهَا   شديدٌ على الإنسانِ مالم يعودِ

فهو هنا يرد على من حرضوه على سيف الدولة، وطلبوا منه أن يتجنبه وينتهى عن مصاحبته بقوله: عادة ما عرفتها. ثم يؤكد صعوبة هذا الأمر على نفسه بأن الإنسان يصعب عليه الشيء الذي لم يتعود عليه.

وقوله: (٢)

إذا كانَ غيرُ الله للمرءِ عدةً   أتتهُ الرَّزَايا من وجوهِ الفَوَائدِ

وقوله: (٣)

وما هذه الأيامُ إلا صَحَائِفٌ   لأحرُفِهَا من كفِّ كاتِبِهَا بشْرُ

وقوله: (٤)

سيذكرني قومي إذا جدَّ جِدهُمْ   وفي الليلـةِ الظلماءِ يفتقدُ البدرُ

هُونَ علينا في المعالي نفوسُـنا   ومن خَطَبَ الحسناءَ لم يغلِهَا المَهْرُ

وقوله: (٥) ولا تقبلَنَّ القـولَ من كلِّ قائلٍ

سأرضيكَ مرأىً لستُ أرضيكَ مسمَعَا

---

١ - ديوان أبي فراس ٩٨ .
٢ - ديوان أبي فراس ١٠١ .
٣ - ديوان أبي فراس ١٦٢ .
٤ - ديوان أبي فراس ١٦٥ .
٥ - ديوان أبي فراس ٢١٠ .

والحكمة هنا تلخيص للمثل القائل: (فمن راء كمن سمعا) .

وقوله:[١]

يغتـــرّ بالدنيا الجـــــهو ل وليـــــس في الدّنيا مملا

وقوله: [٢]

تطولُ بي الساعاتُ وهي قصيرةٌ وفي كلِّ دهرٍ لا يسرُّكَ طولُ

وقوله: [٣]

بنو الدنيا إذا ماتوا سواءٌ ولو عَمَرَ المعمَّرُ ألفَ عامِ

وقوله: [٤]

ألبغيُ أكـــثرُ ما تقِلُ خيولُهُمْ والبغيُ شرُّ مُصَاحِبِ الإنسانِ

ومن الحكم الواردة في أسريات المعتمد قوله ملخصا حال الدنيا وحقيقتها: [٥]

فأولُهَا رجاءٌ من سَرَابٍ وآخرُها رداءٌ من تُرابِ

وقوله: [٦]

تراه عسيراً أم يسيراً منالُه ألا كلُّ ما شاءَ الإله قديرُ

وقوله: [٧]

نحوسٌ كنَّ في عقبى سعودٍ كذاكَ تدورُ أقدارُ القديرِ

١ - ديوان أبي فراس ٢٤٢ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٥٣ .
٣ - ديوان أبي فراس ٣١٩ .
٤ - ديوان أبي فراس ٣٤٢ .
٥ - ديوان المعتمد ٩٣ .
٦ - ديوان المعتمد ٩٩ .
٧ - ديوان المعتمد ١٠٣ .

وقوله: (١)

مَنْ يصحبُ الدهرَ لم يعـــدَمْ تقلّبهُ والشوكُ ينبتُ فيه الوردُ والآسُ

وقوله: (٢)

قلبي إلى الرحمنِ يشكُو بثّهُ ما خابَ من يشكُو إلى الرّحمنِ

وقوله: (٣)

الملكُ لا يَبقى على أحَدٍ والموتُ لا يَبقى له أحَدُ

والمعنى في هذا البيت ليس واضحا كل الوضوح. ولو كان هكذا:

الملكُ لا يَبقَى له أحَدٌ والموتُ لا يبقَى به أحَدُ

لكان أوضح.

ويرى المعتمد أن الدهر كلما أعطى نفيسا نزعه، فهو لا يبقى على أحـد فيقول: (٤)

قبّحَ الدهرُ فماذا صنعا كلّما أعطَى نفيساً نزعَا

ويسلي نفسه عن ضياع ملكه بأن كل ملك إلى زوال، وكل شـــيء إلى فناء فيقول: (٥)

مَنْ باتَ بعدَك في مُلكٍ يسرُّ به فإنما بـَـاتَ بالأحلام مغرُورَا

ويردد المعنى ذاته بأسلوب آخر فيقول: (٦)

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٧ .
٢ - ديوان المعتمد ١١٥ .
٣ - ديوان المعتمد ٨٧ .
٤ - ديوان المعتمد ١٠٨ .
٥ - ديوان المعتمد ١٠١ .
٦ - ديوان المعتمد ١١٠ .

متى رأيتَ صروفَ الدهرِ تاركةً   إذا انبرَتْ لذوي الأخطارِ أرمَاقَا

ومع عمق الحكمة في شعر المعتمد ، وقوة تعبيره عن مضمونها بيسر وسهولة ، فإني أرى أن الحكمة في روميات أبي فراس أعمق وأوسع مدى من الحكمة في أسريات المعتمد. كما أن الحكمة في شعر المعتمد قد جاءت مجللة بالحزن والألم، ومعبرة عن النظرة الانقلابية للأحوال والأوضاع التي عاشها في حياته. لذا تدور حكم المعتمد ومعظمها حول التسليم لقضاء الله وقدره والرضا بحكمه . ويرجع ذلك كله إلى المحنة التي عاشها المعتمد في سجنه وشدتها على نفسه. فقد " صنعت المحنة من المعتمد ذلك الملك المترف العابث رجلا حكيما، تتدفق الحكمة في أشعاره في غير تكلف أو افتعال. لأنها حكمة عملية ناتجة من صدق التجربة ، وليس حكمة تعليمية".[١]

كما اتسم أسلوب الحكمة في الروميات والأسريات معا بالسهولة في لغتها، والوضوح في تراكيبها. فليس فيه خشونة أو تقعر. وتأثر الشاعران في كثير من حكمهما بأسلوب القرآن الكريم ، أو الحديث النبوي الشريف.

وهناك أساليب أخرى في شعر الأسر عند الشاعرين ، كأسلوب الدعاء أو الأمر، أو القسم ... وغيرها . وهي واضحة ، والوقوف عليها سهل يسير. وقد ظهرت في مواضع متفرقة من أشعارهما .

---

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٦٨ .

سادسا : الموسيقى :

تعد الموسيقى أبرز صفات الشعر. وهى أهم ما يفرق بين الشعر والنثر. وهى تلازم الصورة الشعرية في إقامة بناء القصيدة. " وكان القدماء من علماء العربية لا يرون في الشعر أمرا جديدا يميزه من النثر إلا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافي ، وكان قبلهم أرسطو في كتاب الشعر يرى أن الدافع الأساسي للشعر يرجع إلى علتين: أولاهما غريزة المحاكاه أو التقليد. والثانية غريزة الموسيقى أو الإحساس بالنغم .ثم بدأ النقاد في العصور المتأخرة يرون في الشعر أمورا أخرى يعبرون عنها بالصور والأخيلة حينا، ويصفونها بالعاطفة والانفعال النفسي حينا آخر".[1]

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الموسيقى في الشعر تقوم مقام اللون في الصورة. ولذلك لا يمكن الاستغناء عنها في الشعر .[2]

ويزيد في أهمية الموسيقى في الشعر أنها تؤثر في وجدان المتلقي، وتثير انفعاله، وتحرك مشاعره.ولذلك يهتم بها الشاعر ، وقد يستغنى عن الخيال في بعض أجزاء قصيدته ، ولكنه لا يستغنى عن الموسيقى أو الإيقاع . وإلا لفقد الشعر أهم عنصر من عناصره.

، والموسيقى في الشعر هى " ذلك التوقيع المنتظم الذي تحسه في كلمات

---

١ - موسيقى الشعر - ابراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - ط ٧ - ١٩٩٧ م. ص١٤ .

٢ - انظر: في النقد الأدبي ٩٣ وما بعدها .

البيت ، أي نظام الكلمات مراعي فيها التماثل والتكرار. فالوزن والإيقاع الشعري يحصل نتيجة تلاقي مجموعة من أصوات الحروف وتناسقها على اختلاف درجاتها الصوتية. فتحدث وحدات تتكرر، فيحدث منها الوزن في البيت ثم في القصيدة. وأي إخلال في الإيقاع هو إخلال بموسيقى الشعر ".[1]

وتختلف موسيقى الشعر من شاعر لآخر. بحيث نستطيع أن نفرق بين شاعر وآخر من خلال الموسيقى أو الإيقاع . فلكل شاعر موسيقاه الخاصة به. فموسيقى المتنبي غير موسيقي البحتري، غير موسيقى أبي تمام، غير موسيقى ابن الرومي. وموسيقى شوقي غير موسيقي البارودي، غير موسيقى حافظ ابراهيم... صحيح أنهم جميعا يعزفون على أوتار قيثارة واحد وهى القصيدة ، ولكنهم يختلفون في الأنغام التي تحتويها هذه القيثارة.

وهناك العديد من الظواهر التي تؤثر في موسيقى الشعر. منها ما يتصل بعلم البديع البلاغي ، ومنها ما يتصل بعلم العروض والقافية، ومنها ما يتصل باختيار ألفاظ ووسائل فنية معينة . وقد لجأ أبو فراس والمعتمد بن عباد فى شعرهما فى الأسر إلى الاعتماد على هذه الظواهر ، والمؤثرات . فحققت فى شعرهما الموسيقى والإيقاع الملائمين للأغراض التى تناولاها فى شعرهما . ومن أبرز هذه الظواهر ما يلى :

١- السجع أو الترصيع :

وهو من العوامل المهمة التى لجأ إليها أبو فراس والمعتمد فى إقامة

---

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٩١ .

موسيقى الشعر . لأنه يضفى على الموسيقى الشعرية جمالا وروعة . والمراد بالسجع أو الترصيع فى الشعر أن يهتم الشاعر بـ " تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد فى التصريف ".[١]

وأفضل السجع ما تساوت جمله ، وجاء طبيعيا بعيدا عن التكلف أو التكرار بغير داع إليه . وإذا تحقق فيه ذلك كان مستملحا جميلا ، مؤديا إلى تحقيق نغم موسيقى مطرب ، له أثره الكبير فى النفس ، وفى توضيح الفكرة التى يقصد إليها الشاعر . ومن أمثلة السجع أو الترصيع فى روميات أبى فراس قوله فى سيف الدولة :[٢]

وأنتَ الكريمُ وأنت الحليمُ ... وأنتَ العطوفُ وأنتَ الحَدِبْ

وقوله فيه فى نفس القصيدة :

عَلَيَّ تُستَفادُ ، وعافٍ يُقادُ ... وعزٌّ يشادُ ، ونعْمَى تربْ

ومنه قوله :[٣]

وهل لقضاءِ اللهِ فى القولِ غالبٌ ... وهلْ لقضاءِ اللهِ فى الخَلْقِ هاربُ

وقوله :[٤]

وإنك للمَوْلَى الذى بك أقتدِى ... وإنك النَّجمُ الذى بكَ أهتدِى

---

١ - أسس النقد الأدبي عند العرب ٣٣٤ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٤ .
٣ - ديوان أبي فراس ٤١ .
٤ - ديوان أبي فراس ٩٨ .

وقوله : (١)

مغرمٌ ، مؤلَمٌ ، جريحٌ أسيرٌ　　　إن قلباً يطيق ذا لصبورُ

وقوله : (٢)

جَنَى جانٍ وأنتَ عليه حانٍ　　　وعادَ فعدتَّ بالكرم الغزيرِ

وقوله فى سيف الدولة : (٣)

لا بالغَضُوبِ ولا الكَذُو　　　بِ ولا القطوبِ ولا الملولِ

وقوله عن وطنه : (٤)

ولقد أراهُ قُبيلَ طارقةِ النَّوَى　　　مأوَى الحسانِ ومنزلَ الضيفانِ

وفى أسريات المعتمد نجد السجع أو الترصيع فى قوله : (٥)

اقنعْ بحظكَ فى دنياكَ ماكانَا　　　وعزِّ نفسَكَ إن فارقتَ أوطَانَا

وفى قوله : (٦)

الملكُ لا يبقَى على أحدٍ　　　والموتُ لا يبقى له أحدُ

---

١ - ديوان أبي فراس ١٦٧ .
٢ - ديوان أبي فراس ١٩١ .
٣ - ديوان أبي فراس ٢٧٤ .
٤ - ديوان أبي فراس ٣٣٩ .
٥ - ديوان المعتمد ١١٤ .
٦ - ديوان المعتمد ٨٧ .

وفى قوله : [١]

فأحرَقَ الفجْعُ أكباداً وأفئِدَةً   وأغرَقَ الدمعُ آماقاً وأحداقَا

وفى قوله : [٢]

فأولُهَا رجاءٌ من سَرَابٍ   وآخرُها رداءٌ من تُرابِ

وفى قوله : [٣]

بالحِلم بالعِلم بالنعمى إذا اتصلَتْ

بالخصب إن أجدبوا بالرِّى للصَّادِى

بالدهرِ فى نِقَمٍ بالبـــحرِ فى نِعَمٍ

بالبدرِ فى ظُلَمٍ بالصَّــدرِ فى النَّادِى

٢- الجناس

وهو من الظواهر البلاغية التى تثرى موسيقى الشعر . والجنـــاس هـــو إتفاق الكلمتين فى كل أو فى معظم حروفهما مع اختلافهما فى المعنى .ويعدمـــن أهم ألوان البديع تأثيرا فى إيقاع الشعر شريطة أن يكون مكملا للمعنى غـــير مقصود لذاته . بل يأتى طبيعيا يتطلبه المعنى غير متكلف . وقد عاب النقاد من أكثر منه من الشعراء . لأن الإكثار منه دليل على تكلفه . [٤]

---

١ - ديوان المعتمد ١١٠ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٣ .
٣ - ديوان المعتمد ٩٦ .
٤ - انظر: أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجانى ص٧ وما بعدها .

" ومن أسباب جمال الجناس تناسب الألفاظ في الصورة ".[1] كما أن الجناس في الشعر يضيف عنصرا موسيقيا جديدا يلفت الانتباه إلى ما يقوله الشاعر ، فتصغي إليه الآذان ، وتتفتح له القلوب .

وقد ذكرت فيما سبق أمثلة للجناس في روميات أبي فراس وأسريات المعتمد . وهذا مزيد من الأمثلة . فمن روميات أبي فراس قوله :[2]

وإنَّ عليكَ لجاري الدموعَ ... وإنَّ عليكَ لَصَبٌّ وَصِبْ

فالصبّ : العاشق ، والوصب : المتعب العليل .

وقوله :[3]

وما أدَّعي ما يعلمُ اللهُ غيرَه ... رحابُ عليٍّ للعفاةِ رحابُ

فالرحاب الأولى : بمعنى الساحات . والرحاب الثانية بمعنى : الواسعة .

وقوله :[4]

وتأبَى وآبَى أنْ أموتَ موسَّداً ... بأيدي النصارَى موتَ أكمدِ أكبَدِ

فالأكمد : المحزون ، والأكبد : المصاب في كبده ،

وقوله:[5]

ياخليليَّ بالشآم أفيقَا ... هل تحسَّانِ لي رفيقاً رفيقَا

كثُرَ الغدرُ والخيانةُ في النا ... سِ فَمَا إنْ أرَى صَديقاً صدوقَا

---

١ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ١٩٥ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٧ .
٣ - ديوان أبي فراس ٤٧ .
٤ - ديوان أبي فراس ٩٦ .
٥ - ديوان أبي فراس ٢٢٥ .

فالرفيق الأولى : بمعنى الصاحب . والرفيق الثانية بمعنى الرحيم العطوف .
والصديق بمعنى : الخليل المصاحب ، والصدوق : من المبالغة فى الصدق .

ومن الجناس فى أسريات المعتمد غير ما ذكرته فيما سبق قوله :[1]

وناحَتْ وباحَتْ واستراحَتْ بسرِّها   وما نطقَتْ حرفاً يبوحُ به سِرُّ

وقوله :[2]

باحِلمِ بالعِلْم بالنُّعمى إذا اتصلَتْ
بالخصبِ إن أجدبوا بالرِّى للصَّادى

وقوله :[3]

أسرٌ وعسرٌ ولا يسرٌ أؤمله   أستغفرُ اللهَ كم للهِ من نظَرِ

وقوله :[4]

يا آملِي العاداتِ من نفحاتِنا   كفُّوا فإنَّ الدهرَ كفَّ أكفَّنَا

٣- التصريع

وهو من الظواهر المهمة المؤثرة فى موسيقى الشعر . فمطلع القصيدة هو أول ما يقرع سمع المتلقى للشعر . ولذلك اهتم الشعراء بمفتتح القصيدة

---

١ - ديوان المعتمد ٦٩ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٦ .
٣ - ديوان المعتمد ١٠٠.
٤ - ديوان المعتمد ١١٥.

حتى يصلوا به الى ما يقصدون إليه من جذب الانتباه ، وشد الآذان والقلوب إلى ما سيأتى بعد مطلع القصيدة. فأضافوا إلى حسن الاستهلال ظاهرة التصريع . وهو ختام شطرى البيت الأول من القصيدة بحرف واحد ، بحيث تكون حركته وحركة ما قبله واحدة فى الموضعين . وعرفه ابن رشيق بأنه." ما كانت عروض البيت الأول فيه تابعة لضربه تنقص بنقصه وتزيد بزيادته ".[١] وقد اهتم به النقاد ، ووضعوا له شروطا تتصل بلفظه ومعناه .[٢] ورأى النقاد أن حسن التصريع منوط بأن يستوى آخر جزء فى صدر البيت ، وآخر جزء فى عجزه وزنا ، ورويا ، وإعرابا . وأن ياتى ذلك طبيعيا بحيث يترقبه السامع ويتشوف إليه .

ويحسن التصريع فى مطلع القصيدة . وقد يلجأ إليه الشاعر فى أبيات أخرى بعد المطلع مباشرة ، أو فى ثنايا القصيدة ، وخاصة " إذا خرج من قصة إلى قصة ، أو من وصف شئ إلى وصف شئ آخر . فيأتى حينئذ بالتصريع إخبارا بذلك وتنبيها عليه " .[٣]

وجاء التصريع كثيرا فى روميات أبى فراس ، وفى أسريات المعتمد . وجاء معظمه فى مطالع القصائد ولم يأت في غير المطلع إلا نادرا .

ومن أمثلة التصريع فى روميات أبى فراس قوله فى مطلع قصيدته إلى سيف الدولة لما تأخرت عنه كتبه وهو في الأسر : [٤]

---

١ - العمدة ١٧٣/١ .

٢ - انظر العمدة ١٧٣/١ وما بعدها .

٣ - العمدة ١٧٤/١ .

٤ - ديوان أبي فراس ٢٤ .

أسيفَ العِدَا وقريعَ العَرَبْ علامَ الجفاءُ وفيمَ الغَضَبْ

وقوله في مطلع قصيدته إلى أخيه أبي الهيجاء حرب بن سعيد : [١]

أَبيتُ كأنّي للصَبابَةِ صاحِبُ وللنَّومِ مُذْ بانَ الخليطُ مجَانِبُ

وقوله في مطلع قصيدته في عتاب سيف الدولة : [٢]

أَمَا لجميلٍ عندَكُنّ ثوابُ ولا لِمُسيءٍ عندكُنّ متابُ

ومنه في مطلع قصيدته إلى سيف الدولة يدعوه لافتدائه : [٣]

دعوتُكَ للجفنِ القَريحِ المسهَّدِ لدَيَّ وللنَّوْمِ القليلِ المشرَّدِ

ومن التصريع الذي جاء في غير المطلع قول أبي فراس في القصيدة السابقة :

فمِن حُسنِ صبرٍ بالسلامَةِ واعِدِي ومن ريبِ دهرٍ بالرَّدى مُتوعّدِي

وقوله : [٤]

إنكَ للمَولى الذى بكَ أقتدِي وإنّكَ للنجمُ الذى بكَ أهتدِي

وقد جاءت معظم مطالع قصائد الروميات مصرعة ، إضافة إلى مطالع بعض مقطوعاتها كما في مطلع مقطوعته في الحديث عن العيد في الأسر : [٥]

يا عيدُ ماعدتَ بمحبوبِ على مُعَنَّى القلبِ مكروبِ

---

١ - ديوان أبي فراس ٤٠ .
٢ - ديوان أبي فراس ٤٥ .
٣ - ديوان أبي فراس ٩٦ .
٤ - ديوان أبي فراس ٩٨ .
٥ - ديوان أبي فراس ٥٤ .

وقوله في مطلع مقطوعة يتشوق فيها إلى أهله ووطنه وأحبابه : [١]

يا ليلُ ما أغفلَ عمَّا بي حبائبي فيكَ وأحبابي

وقوله في تعزية سيف الدولة في وفاة أخته : [٢]

قُولا لهذا السيِّدِ الماجدِ قولَ حزينٍ مثلهِ فاقدِ

ومن التصريع في أسريات المعتمد قوله في مطلع قصيدته في رثاء ولديه من خلال المقارنة بين حاله وحال القمرية النائحة على إلفها : [٣]

بكَتْ أنْ رأَتْ إلفيْن ضمَّهُمَا وكرُ

مساءً وقد أخنَى على إلفهَا الدَّهْرُ

وقوله في مطلع قصيدته النونية في رثاء ولديه : [٤]

ياغيمُ عيني أقوَى منكَ همَتانَا أبكِي لحزني وما حُمِّلتَ أحزَانا

وقوله في مطلع قصيدته التي يفتخر فيها بشجاعته أمام جيش ابن تاشفين قبل أسره : [٥]

لمَّا تماسَكتِ الدموعُ وتنبَّه القلبُ الصَّديعُ

---

١ - ديوان أبي فراس ٥٧ .
٢ - ديوان أبي فراس ١١٠ .
٣ - ديوان المعتمد ٦٨ .
٤ - ديوان المعتمد ٦٩ .
٥ - ديوان المعتمد ٨٨ .

وقوله فى مطلع قصيدته إلى ابن الزنجارى: [١]

لو أستطيعُ على التزويدِ بالذَّهَبِ فعلتُ لكنْ عَدَانِي طارقُ النُّوَبِ

وقوله فى مطلع قصيدته فى رثاء نفسه: [٢]

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغَادِى حقًّا ظفرتَ بأشلاءِ ابن عَبَّادِ

وقد جاءت أيضا معظم قصائد المعتمد مصرعة المطلع إضافة إلى العديد من مطالع مقطوعاته الشعرية.ومنها مقطوعته فى الشكوى من قيوده : [٣]

تبدَّلْتُ من عزِّ ظِلِّ البُنُودِ بذلِّ الحديدِ وثقلِ القُيودِ

ومقطوعته فى تذكر قصوره فى الأندلس بعد أسره : [٤]

بكى المبارَكُ فى إثرِ ابنِ عَبَّادِ بكَى على إثرِ غزلانٍ وآسَادِ

ومقطوعة فى البكاء على حاله فى الأسر : [٥]

لكَ الحمدُ من بعدِ السُّيُوفِ كُبُولُ بساقَيَّ منها فى السجُونِ حجُولُ

٤ - ومن الظواهر المؤثرة فى موسيقى الشعر ما يعرف فى البديع برد العجز على الصدر - " وهو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره ، فيدل بعضه على بعض ، ويسهل استخراج قوافى الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة

١ - ديوان المعتمد ٩٢ .
٢ - ديوان المعتمد ٩٦ .
٣ - ديوان المعتمد ٩٤ .
٤ - ديوان المعتمد ٩٥ .
٥ - ديوان المعتمد ١١١ .

ويكسب البيت الذى يكون فيه أبهة ويكسوه رونقا وديباجة ، ويزيده مائية وطلاوة ".[1] وذكر ابن رشيق أن ابن المعتز قسم هذا النوع من البديع ثلاثة أقسام : " أحدها ما يوافق آخر كلمة من البيت آخر كلمة من النصف الأول ....والآخر ما يوافق آخر كلمة من البيت أول كلمة منه ... والثالث : ما يوافق آخر كلمة من البيت بعض ما فيه ." [2]

ورد العجز على الصدر يضيف إلى الشعر عنصراً موسيقيا جديدا يلفت الانتباه إلى ما يقوله الشاعر إذا جاء طبيعيا ولم يفرط الشاعر فى استخدامه.

ومن النوع الأول فى روميات أبى فراس قوله : [3]

فلستُ أرَى إلا عدوًّا محارِبًا وآخرَ خيرٌ منه عندِى المحارِبُ

وقوله مخاطبا سيف الدولة : [4]

وأنتَ - وأنتَ دافِعُ كل خَطْبٍ - مع الخطبِ المُلِمِّ علىَّ خطْبُ

وقوله مفتخرا : [5]

وما حَاجَتِى بالمال أبغِى وُفُورَه ؟ إذا لم أفِرْ عِرْضِى فلا وَفَرَ الوفْرُ

وقوله فى رثاء ابن سيف الدولة : [6]

مَنْ كان عن كلِّ مفقودٍ لنا بَدَلاً فليسَ منه على حالاته بَدَلُ

---

١ - العمدة ٣/٢ .
٢ - العمدة ٣/٢ .
٣ - ديوان أبي فراس ٤١ .
٤ - ديوان أبي فراس ٤٩ .
٥ - ديوان أبي فراس ١٦٥ .
٦ - ديوان أبي فراس ٢٤٥ .

ومن النوع الثاني قوله : [١]

صبرتَ عليه حتى جاءَ طوعاً   إليكَ وتلك عاقبةُ الصَّبُورِ

وقوله : [٢]

تطولُ بي الساعاتُ وهْيَ قصيرةٌ   وفي كلِّ دهرٍ لا يسُرُّكَ طولُ

وقوله : [٣]

حللتُ عقودًا أعجزَ الناسَ حلُّهَا   وَمَازالَ عقدِي لا يُذَمُّ ولا حَلِّي

وقوله : [٤]

ياواقِفَانِ معي على الدَّارِ اطلُبَا   غيري لها إنْ كنتما تَقِفَانِ

ومن النوع الثالث قوله : [٥]

رجالٌ يذيعُونَ العيونَ وعندَنَا   أمورٌ لهُمْ مخزونةٌ ومعايبُ

وقوله : [٦]

إن كنتَ لم تبذُلِ الفداءَ لها   فلَمْ أزَلْ في رضاك أبذُلُها

ومن أسريات المعتمد نجد هذا اللون في قوله من النوع الأول : [٧]

ناحَتْ وباحَتْ واستراحَتْ بسرِّهَا   وما نطقَتْ حرفًا يبوحُ به سِرٌّ

---

١ - ديوان أبي فراس ١٩١ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٥٣ .
٣ - ديوان أبي فراس ٢٨٣ .
٤ - ديوان أبي فراس ٣٤٠ .
٥ - ديوان أبي فراس ٤٠ .
٦ - ديوان أبي فراس ٢٦٤ .
٧ - ديوان المعتمد ٦٩ .

وقوله : [١]

الملكُ لا يَبْقَى على أَحَدٍ والموتُ لا يَبْقَى له أَحَدُ

وقوله: [٢]

فالقَلْبُ بين ضلـــوعهِ لم تُسْلِم القلبَ الضلوعُ

ومن النوع الثاني قوله : [٣]

عافَ نزرِى إذْ خافَ تأكيدَ ضرِّى

فما استحـــقَّ الجفاءَ إذ عافَ نزْرَا

وقوله : [٤]

حَنِقَ الدهرُ عليـــنا فسَطَا وكـــذا الدهرُ على الحرِّ حَنِقْ

وقوله : [٥]

مدَى الدهرِ فليبكِ الغمامُ مُصابَه

بصنوْيه يعذَرْ فى البكاءِ مدَى الدهرِ

ومن النوع الثالث قوله : [٦] -

دَعَا لى بالبقاءِ وكيفَ يهوَى أسيرٌ أن يطولَ به البقاءُ

---

١ - ديوان المعتمد ٨٧ .

٢ - ديوان المعتمد ٨٨ .

٣ - ديوان المعتمد ١٠٤ .

٤ - ديوان المعتمد ١٠٩ .

٥ - ديوان المعتمد ١٠٥ .

٦ - ديوان المعتمد ٩٠ .

وقوله فى نفس القصيدة :

ولكنَّ الدعاءَ إذا دَعَـــاهُ   ضميرٌ خالصٌ نفعَ الدعاءُ
جُزيتَ أبَا العلاءِ جزاءَ برٍّ   نَوى برًّا وصاحَبكَ العَلاءُ

ومنه قوله : [١]

أىَّ نفعٍ يُجدِى احتياطُ شفيقٍ   مُتُّ ضرًّا فكيفَ أرهَبُ ضُرًّا

٥ - البحور أو الأوزان :

تمثل الأوزان أهمية كبيرة فى التصوير الشعرى ، وفى تشكيل الموسيقى الشعرية." فالوزن هو ضابط الإيقاع الذى يحكم التوقيت الزمنى للمترددات الموسيقية ".[٢] وتعبر نازك الملائكة عن أهمية الوزن بالنسبة للصورة وللمعنى الشعرى فتقول : "والسبب المنطقى فى فضيلة الوزن هو أنه بطبعه يزيد الصورة حدة ، ويعمق المشاعر ، ويلهب الأخيلة . لا بل إنه يعطى الشاعر نفسه خلال عملية النظم نشوة تجعله يتدفق بالصور الحارة ، والتعابير المبتكرة الملهمة . إن للوزن هزة كالسحر فى مقاطع العبارات ، وتكهر بها بتيار خفى من الموسيقى الملهمة . وهو لا يعطى الشعر الإيقاع فحسب ، وإنما يجعل كل نبرة فيه أعمق وأكثر إثارة وفنية ".[٣]

---

١ - ديوان المعتمد ١٠٤.
٢ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ٢٠٣.
٣ - الصورة والبناء الشعرى - محمد حسن عبد الله - طبعة دار المعارف - ١٩٨١ ص ١٠ ، ١١ .

وبالنظر فى الجدولين (١) ، (٢) نلحظ أن شعر الأسر عند أبى فـــراس والمعتمد قد جاء على نفس القوالب والأوزان العروضية والتقليدية القديمـــة - فلم يخرج أحدهما عن طرائق النظم العروضية الخليليـــة . ولم يســـتحدث أى منهما أساليب أو أشكالا جديدة عما كان يعرفه الشـــاعر العـــربى القـــديم . واستخدم كل منهما البحور العروضية الملائمة لموضوعات قصائدهم وللمعـانى التى أنشدت من أجل توضيحها . ومال كل منـــهما إلى اســـتخدام البحـــور الطويلة الكثيرة المقاطع كالطويل ، والبسيط، والكامل . والوافر .

ويأتى بحر الطويل فى مقدمة بحور الشعر العربى من حيث عدد القصـــائد والمقطوعات التى نظمت عليه فى روميات أبى فراس وأسريات المعتمد،ومـــن حيث عدد الأبيات فى روميات أبى فراس . ويزيد عنه قليلا بحر البسيط مـــن حيث عدد الأبيات فى أسريات المعتمد . حيث جاء بحر الطويل وزنا لثـــلاث عشرة قصيدة وسبع مقطوعات فى روميات أبى فراس بلغ مجموع أبياتهـا ٢٢٤ بيتاً . أى ما يزيد قليلا عن نصف مجموع أبيات الروميات . وجاء وزنا لخمس قصائد ، وست مقطوعات فى أسريات المعتمد بلغ مجموع أبياتها ٨١ بيتـا . أى ما يزيد عن ربع عدد أبيات الأسريات .

أما بحر البسيط فيأتى فى المرتبة الأولى فى أسريات المعتمد من حيث عدد الأبيات ، وفى المرتبة الثانية من حيث عدد القصائد والمقطوعات ، ويـــأتى فى المرتبة السابعة فى روميات أبى فراس .

ثم يأتى بحر الكامل فى المرتبة الثانية فى روميات أبى فراس من حيث عدد

الأبيات . وفى المرتبة الخامسة فى أسريات المعتمد . ثم بحر الوافـــر فى المرتبـــة الرابعة فى أسريات المعتمد . وفى المرتبة الرابعة أيضا فى روميات أبى فـــراس . ويأتى بحر المتقارب فى المرتبة الثالثة فى أسريات المعتمد وفى المرتبة السادســـة فى روميات أبى فراس .

وهكذا نجد البحور ذات الأوزان الطويلة . كـــالطويل ، والكـــامل ، والبسيط ، والمتقارب ، والوافر تحتل المراتب المتقدمة فى شعر الأسر عنـــد أبى فراس والمعتمد . وتكاد تختفى البحور القصيرة والمجزوءة فيما عـــدا مجـــزوء الكامل الذى برز وجوده فى روميات أبى فراس ، وظهر نادرا كل من مجـــزوء المتقارب ، ومجزوء الرمل، فى روميات أبى فراس ، ومجزوء الرجـــز ومجـــزوء البسيط فى أسريات المعتمد . والمجزوء من هذه البحور ليـــس قصـــير الأوزان بالشكل الذى نجده فى المضارع ، أو المجتث ، أو مشطور الرجز ، أو منهوكـــة مثلا .

ولعل ميل شاعرينا إلى الأوزان الطويلة راجع عند كل منهما إلى غلبـــة التعبير الوجدانى بعواطفه الحزينة كالشكوى والأنين والفخر والحماسة . كمـــا كان يقتضى منها تمهلا وأناة وطول نفس تتفق مع صفات هذه البحور الـــتى تتسع موسيقاها لمثل هذا التعبير.فبحرا " الطويل ، والبسيط أطولا بحور الشـــعر العربى ، وأعظمها أبهة وجلالة،وإليهما يعهد أصحاب الرصانة ، وفيهما يفتضح أهل الركاكة والهجنة .... والطويل أفضلهما وأجلهما . وهو أرحب صدرا من

البسيط ، وأطلق عنانا ، وألطف نغما "[١]

جدول رقم (١)

البحور ونسبة وجودها في روميات أبي فراس

م	البحر	قصائد	مقطوعات	عدد الأبيات	النسبة المئوية %
١	الطويل	١٣	٧	٤٢٢	٥١ % تقريبا
٢	الكامل	٢	٢	٨٨	١٠ ٢/٣ % تقريبا
٣	مجزوء الكامل	٥	٢	٨٢	٩ ٢/٣ % تقريبا
٤	الوافر	٣	٣	٧٧	٩ ½ % تقريبا
٥	المنسرح	١	١	٤٨	٥ ½ % تقريبا
٦	المتقارب	١	١	٣٣	٤ % تقريبا
٧	البسيط	٢	١	٢٥	٣ % تقريبا
٨	السريع	-	٦	١٩	٢ ١/٣ % تقريبا
٩	مجزوء المتقارب	١	-	١٩	٢ ١/٣ % تقريبا
١٠	الخفيف	١	٢	١٥	١ ٢/٣ % تقريبا
١١	مجزوء الرمل	-	١	٣	١/٣ % تقريبا
	الجملة	٢٩	٢٥	٨٣١	١٠٠ % تقريبا

---

١ - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها - د / عبد الله الطيب المجذوب - مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي/ط ١ - ١٩٥٥ - ١/٣٩٢ -

جدول رقم (٢)

البحور ونسبة وجودها فى أسريات المعتمد

م	البحر	قصائد	مقطوعات	عدد الأبيات	النسبة المئوية %
١	البسيط	٧	٣	٨٣	١/٣ ٢٧ % تقريبا
٢	**الطويل**	٥	٦	٨١	**٢٧ % تقريبا**
٣	المتقارب	٢	١	٣١	١٠ % تقريبا
٤	الوافر	٢	١	٢٦	٢/٣ ٨ % تقريبا
٥	الكامل	١	٤	٢٢	١/٣ ٧ % تقريبا
٦	الرمل	٢	١	٢١	٧ % تقريبا
٧	مجزوء الكامل	١	-	١٣	١/٣ ٤ % تقريبا
٨	الخفيف	١	١	١٢	٤ % تقريبا
٩	السريع	١	١	٨	١/٣ ٢ % تقريبا
١٠	مجزوء الرجز	-	١	٣	١ % تقريبا
١١	الرجز	-	١	٢	٢/٣ % تقريبا
١٢	مجزوء البسيط	-	١	١	١/٣ % تقريبا
	الجملة	٢٢	٢١	٣٠٣	١٠٠ % تقريبا

أما بحر الكامل فهو " أكثر بحور الشعر العربى جلجلة وحركات ، وفيه لون خاص من الموسيقى يجعله إن أريد به الجد - فخما جليلا مع عنصر ترغى ظاهر، ويجعله إن أريد به إلى الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة حلوا

عذبا ، مع صلصلة كصلصلة الأجراس . ونوع من الأبهة يمنعه أن يكون نزقـا أو خفيفا شهوانيا . وهو بحر كأنما خلق للتغني المحض . سواء أأريد به جـد أم هزل.ودندنة تفعيلاته من النوع الجهير الواضح الذى يهجم على السامع مـع المعنى ، والعواطف والصور ، حتى لا يمكن فصله عنها بحال من الأحوال " (١).

أما بحر الوافر فهو من البحور المناسبة فى أشعار الاستعطاف ، والحنين ، وإظهار الغضب فى معرض الفخر والحماسة ، والهجاء . وللتفخيم فى معـرض المدح.وهذا ما يجعله ملائما لشعر الأسر و التعبير عن عواطـف وانفعـالات الأسرى من الشعراء . (٢)

أما بحر المتقارب فهو بحر فيه رقة ، ونغمة مطربة . وتعد نغماته من أيسر النغمات . وهو أصلح للعنف والسير السريع . (٣)

وهكذا يمكننا القول بأن أبا فراس والمعتمد استطاعا أن يستثمر الطاقات النغمية التى تحملها الألفاظ ، بحيث تتفق مع مضمون الصورة الشعرية . فنجح كل منهما فى تحقيق التوافق بين الإيقاع والوزن والدلالة الكلية للفن الشعرى. حيث جاءت الموسيقى فى الروميات والأسريات متناسبة ومتناغمة مع مشاعر الشاعرين وعواطفهما ، من حيث استخدامهما للبحور الشعرية فى التعبير عن أغراض شعرهما المختلفة . فجاءت الموسيقى بنوعيها الخارجية العروضية ، والداخلية عن طريق اختيار الألفاظ الموحية بما يرمى إليه الشاعر شاهدةً على

---

١ - المرجع السابق ١/٢٦٤ .
٢ - انظر، المرجع السابق ١/٣٥٨ ، ٣٥٩ .
٣ - انظر: أسس النقد الأدبي عند العرب/أحمد بدوى - ٣٤٤ .

الحس الموسيقى والوعى الفنى ، وإيمان كل منهما بدور الموسيقى فى عملية البناء الشعرى.ولا غرو فهما شاعران من كبار الشعراء العرب .

٦ - القافية والروى:

والقافية من الظواهر التي تؤثر بشكل قوى في موسيقى الشعر.والمـــراد بالقافية هنا تلك الأصوات التي " تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيـــات مـــن القصيدة. وتكررها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية. فهى بمثابـــة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها، ويستمتع بمثل هذا الـــتردد الـــذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة ، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظـام خاص يسمى بالوزن ". [١]

أما الروى فهو صوت يراعى تكرره ، ويشترك في كل قوافى القصيـدة : " فلا يكون الشعر مقفى إلا بأن يشتمل على ذلك الصوت المكرر في أواخـــر الأبيات. وإذا تكرر وحده ولم يشترك معه غيره من الأصوات عدت القافيـــة حينئذ أصغر صورة ممكنة للقافية الشعرية ". [٢]

وترجع أهمية القافية بالنسبة للشعر في كونها تمثـــل القـــرار والإيقـــاع لأمواج النغم. كما أنها تمثل أهمية كبيرة بالنسبة للصور الشعرية. ووضع النقاد عدة شروط للقافية الجيدة. أولها مشاكلة اللفظ للمعنى، وشـــدة اقتضائـــهما للقافية بما يجعل السامع يتشوف إليها وينتظرها ـــ كما يتوقف تمـــام المعـــنى

---

١ - موسيقى الشعر - ابراهيم أنيس ٢٤٦ .
٢ - المرجع السابق ٢٤٧ .

عليها. واقتضاء اللفظ والمعنى لها يجعلها غير قلقة أو مستكرهة. كما اشترطوا أن تكون عذبة الحرف، سلسلة المخرج. [١]

أما الروى فهو يلعب دورا بارزا في إشاعة النغم في القصيدة كلها." فإن الأذن تقبل على الشعر وتسيغه إذا حسن وقع قافيته، وتنفر منه إذا قبح لضعف قافيته ، وسوء وقع رويه. وتختلف الحروف من حيث نسبة شيوعها في الشعر العربي. ولعل ذلك راجع إلى خفة هذه الحروف، وكثرة شيوعها في نسيج اللغة عموما. بحيث تكثر الكلمات التي تنتهي بها مما يتيح للشاعر فرصة استخدامها والمفاضلة بينها ". [٢]

وقد نجح أبو فراس والمعتمد في توظيف القافية والروى لخدمة المعاني والصور التي حشدها كل منهما في الروميات والأسريات. فأضافت إلى موسيقى البحر العروضى موسيقى أثرت كثيرا في حسن الصورة.

وبالنظر في قوافي شعر الروميات والأسريات من خلال الجدول رقم(٣) نجد أن الروى في هذا الشعر قد جاء في أغلبه من الحروف المجهورة مثل: الباء،واللام، والراء، والدال، والميم، والنون، والعين. ولعل ذلك يرجع إلى رغبة الشاعر الأسير في تبليغ رسالته من أعماق سجنه، فيعمد إلى الحروف المجهورة دون وعى لينقل إحساسه بالقهر والظلم، وتصل شكواه بذلك إلى كل الناس خارج الأسر: [٣]

---

١ - انظر العمدة ١ / ١٥١ ، وما بعدها ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ٨٦ .
٢ - شعر الأسر والسجن في الأندلس ٢٠٨ .
٣ - انظر : شعر الأسر والسجن في الأندلس ٢٠٨ .

جدول رقم (٣)

حروف الروى في الروميات والأسريات.

الحرف	أبو فراس		المعتمد	
	قصائد	مقطوعات	قصائد	مقطوعات
الباء	٦	٧	١	٣
اللام	٧	٣	١	١
الراء	٥	٣	٨	١
الدال	٤	٤	١	٤
الميم	٢	-	٢	٢
النون	١	١	٣	٤
العين	١	٢	٢	-
الياء	١	-	-	١
القاف	١	-	٢	-
الهمزة	-	-	١	١
السين	١	-	-	١
الحاء	-	١	١	١
الكاف	-	٢	-	-
الجيم	-	١	-	-
الثاء	-	١	-	-
الألف المقصورة	-	-	-	١
الفاء	-	-	-	١
الجملة	٢٩	٢٥	٢٢	٢١

وبالنظر إلى الجدول رقم (٤) نلحظ أن القوافي المطلقة أكـــثر وروداً في

الروميات والأسريات من القوافي المقيدة.[1] وهذه سمة عامة في الشعر العربي كله. " لأن القافية المطلقة أوضح في السمع، وأشد أسرا للأذن. لأن الروى فيها يعتمد على حركة بعده قد تستطيل في الإنشاد ، وتشبه حينئذ حرف مد".[2] أما القوافي المقيدة فهى تنتهى بحرف ساكن ، وهو حرف إذا وقع في نهاية الكلمة وأريد الوقف على كلمته فإنه قد يتعرض للغموض أو الإبهام فيقل وضوحه في السمع . أو قد يسقط في النطق، ولا يكاد السامع يقف على حقيقته ولا يحس بموسيقاه. [3]

أما بالنسبة لحركة حرف الروى فبالنظر إلى الجدول رقم(٤) نلحظ أن الروى المكسور قد غلب في مجموع القوافي المطلقةفي القصائد والمقطوعات عند الشاعرين – وإن كان الروى المضموم قد تغلب عليه عند أبي فراس وحده – وقد يرجع ذلك إلى ما يشعر به الأسير من لين وانكسار في عواطفه وإحاسيسه المنكسرة. ويليه الروى المضموم لما يتبع الضم من ضم الشفتين ومدهما. وهذا راجع إلى إحساس الشاعر الأسير بأن ذلك يمكنه من توصيل صوته إلى أكبر جمع من الناس. أما الفتح فيتبعه انفتاح الشفتين، وانقطاع الصوت سريعا. فلا تكون الفرصة مهيأة لوصول شكواه إلى كم كبير من الناس. ومن هنا كان الروى المفتوح أقل في مجموع قوافي هذا الشعر عند الشاعرين.

---

١ - القافية المطلقة ما كان رويها متحركا ، والمقيدة ما كان رويها ساكنا .
٢ - موسيقى الشعر ـ ابراهيم أنيس ٢٨٠ .
٣ - انظر؛ المرجع السابق ٢٨٤ .

جدول رقم (٤)

حركة حرف الروى في قوافي الروميات والأسريات

القافية	أبو فراس		المعتمد	
	قصائد	مقطوعات	قصائد	مقطوعات
مقيدة	١	٢	١	١
مطلقة مضمومة	١١	٩	٦	٤
مطلقة مفتوحة	٩	٤	٦	٧
مطلقة مكسورة	٨	١٠	٩	٩
الجملة	٢٩	٢٥	٢٢	٢١

٧ - التدوير:

وهو من الظواهر التي تساهم في تشكيل الموسيقى الشعرية في القصيدة. والتدوير هو اشتراك شطري البيت الواحد في كلمة يكون بعضها في نهاية الشطر الأول وبعضها في بداية الشطر الثاني. وهو من الظواهر الموسيقية البارزة في شعر الأسر والسجن عند أبي فراس والمعتمد.

وقد يدل التدوير على العفوية والبساطة في إنشاء القصيدة، واعتماد الشاعر فيها على الأصوات اللغوية أكثر من اعتماده على إيقاع الوزن ذات الحدود المنضبطة . وقد يعد هذا علامة من علامات الصدق الفني عند الشاعرالذي أنشأ قصيدته كما انفعلت بها نفسه، وجادت بها قريحته، بعيدا عن

التعقيد والتقنين.

ومن ذلك قصيدة أبي فراس إلى سيف الدولة يشكو من همومه وآلام سجنه :[١]

هلْ تعطفَانِ على العليلِ؟ لا بالأسيرِ ولا القتيلِ
باتَتْ تقلّبُه الأكُفُّ سحابةَ الليلِ الطويلِ
يرعَى النجومَ السّائرا تِ من الطلوعِ إلى الأفُولِ

حيث جاء التدوير في ثلاثة عشر بيتا. وقصيدته في وصف أيامه ومنازله في منبج :[٢]

قفْ في رسوم المستجَا بِ وحيِّ أكنافَ المصَلّى
فالجوسقِ الميمونِ فالسُّقيا بها فالنَّهرُ أعلَى
تلكَ المنازلُ والملاعِبُ لا أراهَا اللهُ محْلّا

حيث جاء التدوير بها في اثنى عشر بيتا. وقصيدته التي بعث بها إلى أمه يحثها على الصبر: [٣]

لولا العجوزُ بمنبجٍ ما خفتُ أسبابَ المنيّةْ
ولكان لي عمّا سألْتُ من الفِدَا نفسٌ أبيَّةْ

حيث جاء التدوير بها في سبعة أبيات. وقصيدته في الحديث عن خرشنة

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٧٣ .
٢ - ديوان أبي فراس ٢٤٠ .
٣ - ديوان أبي فراس ٣٥٥ .

التي سجن بها: (١)

إنْ زرتَ خرشــنةَ أســـيرًا ... فلكَمْ أحطــتُ بهــا مُغــيرًا

ولقد رأيــتُ النــارَ تنـــ ... ـــتَهبُ المنازِلَ والقصُـــورَا

ولقد رأيتَ الســَّبْيَ يُجــ ... ــلَبُ نحوَنا حُــوًّا وحُــورا

فقد ورد التدوير بها في ستة أبيات.

وفي أسريات المعتمد قل التدوير في المقطوعات والقصائد علــى حــد سواء. وأكثر قصائده في ذلك قصيدته التي يعاتب فيها حواء بنــت تاشــفين، ويمدح أخاها يوسف، ويتحدث عن موقفه في يوم الزلاقة: (٢)

هُمُ أوقدُوا بين جنبَيْكَ نـــارَا ... أطالُوا بها في حشَــاك اســتِعارا

أما يَخجلُ المجـــدَ أن يُرْحِلَــو ... ك ولم يصْحبُوك خبـــاءً مُعَــارا

فقد قنَعُوا المجــدَ إن كــان ذا ... كَ وحاشاهُمُ - منك خزيًا وعارًا

حيث جاء التدوير بها في سبعة أبيات. وتليها قصيدته التي قالها مفتخــرا بشجاعته أمام جيوش المرابطين قبيل أسره: (٣)

لمَّــا تماسَكتِ الدمـــوعُ ... وتنبَّــه القلــبُ الصَّديـــعُ

قالوا: الخضــوعُ سياســةٌ ... فليَبْدُ منكَ لهـــم خضــوعُ

وألذُّ مــن طعــم الخضــو ... ع على فَمي السمُّ النقيـــعُ

حيث جاء التدوير بها خمس مرات.

---

١ - ديوان أبي فراس ١١٦.

٢ - ديوان المعتمد ٩٧.

٣ - ديوان المعتمد ٨٨.

أما في غير هاتين القصيدتين فلم يأت التدوير في شعر الأسر عند المعتمد إلا قليلا. وقد يدل هذا على تأني المعتمد في إنشاد شعره، وعلى هدوء نفسه في سجنه واستسلامه لما نزل به. أما أبو فراس فكان في سجنه مضطربا هائجا ينشد شعره دون روية ولا تفكير، فلجأ إلى التدوير كثيرا .

ويلاحظ أن مظم الأشعار التي جاء فيها التدوير كانت في الاستعطاف، والاعتذار وما يتصل بهما من الفخر والتمني. وهذا ما يؤيد دلالة التدوير على التمزق النفسي عند الشاعر، وعلى الحيرة والانقسام بين الندم والرغبة في الخلاص من أسره. [١]

كما يلاحظ على القصائد التي ورد بها التدوير كثيرا في شعر أبي فراس والمعتمد أن معظمها جاء على وزن من الأوزان القصيرة أو المجزوءة . وهذا يدل على أن قصر الوزن له دخل في كثرة لجوء الشاعر إلى التدوير ، لأنه يعوقه عن الحرية الكاملة فى التعبير عن المعنى فى الشطر الواحد من البيت ، فيضطرإلى ضم الكلمات فى البيت حتى يتمكن من التعبير عما يريد من معنى.

هذا وقد اعتمد أبو فراس فى رومياته والمعتمد أسرياته على جميع الظواهر السابقة فى تحقيق الموسيقى الملائمة لموضوعات قصائدهما ، وللمعانى التى أنشدت من أجلها. فجاءت موسيقى أشعارهما معبرة تمام التعبير عن الحالة التى عاشها كل منهما فى أسره . فاستخدما البحور الملائمة لموضوع ومعانى أشعارهما ، واختار كل منهما القافية التى تتمشى مع الوزن العروضى وتتفاعل

---

١ - انظر : شعر الأسر والسجن في الأندلس ٢١٢ .

معه ، وتساعده على إيجاد نغم موسيقى معبر عما يعتمل فى نفس كل منهما من أحاسيس وانفعالات . واستخدما كل الوسائل الأخــرى المســاعدة للــوزن والقافية فى تحقيق هذه الأنغام الموسيقية المعبرة .

وعلى سبيل المثال : لو تأملنا قصيدة أبي فراس اللامية : (١)

يا حسرةً ما أكادُ أحمِلُهَا   آخـــرُها مزعِجٌ وأولُها

لرأينا الشاعر قد أوجد فيها مصدرين للموسيقى، أســهما في تســهيل مهمة البوح العاطفي ، وتفريغ الشحنات النفسية على نحو منتظم ومســتمر. أحدهما: ظاهري ممثل في وحدة الوزن والقافية (وزن المنسرج التام الذي التزم فيه طي تفعيلته الوسطى (مَفْعُلاتُ) بدل من(مَفْعُولَاتُ) ، والقافية المطلقــة الممتدة المفتوحة). ووزن المسرح من الأوزان الطويلة التي تساعد الشاعر علــى حشدكم هائل من المعاني في أبيات قليلة. كما أن القافية المطلقة تساعد الشاعر على إسماع صوته بالشكوى والعتاب لعدد كبير من الناس. ثم جـــاء حــرف الروى باللام المضمومة ــ وهو حرف مجهور ــ يليه هاء مفتوحة يأتي بعدهـــا ألف مد تساعد الشاعر على مد صوته والجهر به.

-وأضاف الشاعر إلى الوزن والقافية التصريع في مطلع القصيدة. ثم بعض الطباقات المنغومة مثل (تطفئها – تشعلها) و(آخرها ــ أولها) و(تتركــها - ونترلها) أو (تعرفها - ونجهلها).وأضاف إلى ذلك كلــه تلــك التموجــات الصوتية والإيقاعات النغيمة المتباينة الجرس من مثل(أحملها ــ مزعج ــ عليلة

---

١ - ديوان أبي فراس ٢٦٣ .

ـــ معللها... الخ). إذ في انتقال الصوت من حالة إلى أخرى ، ومن حركة مـــا إلى حركة مغايرة، ومن صوت ذي حركة معينة إلى صوت ساكن، ثم الانتقـــال إلى صوت صامت ذي نغمة وحركة مغايرة. وهكذا... كل ذلـــك يـــؤدي إلى إيقاعات موسيقية متباينة ، وتموجات صوتية متغـــايرة ، تطـــرب لهـــا الأذن، وتستطيبها النفس.

وقد أضاف إلى ذلك كله الكثير من الظواهر التي تساعد علـــى كمـــال الموسيقي، وعذوبة النغم. فإضافة إلى التصريع في مطلع القصيدة نجد الشـــاعر يأتي به في ثنايا القصيدة كما في الأبيات:

أنتَ سمـــاءٌ ونحـــنُ أنجمُـــهَا ... أنتَ بـــلادٌ ونحـــنُ أجبُلُـــهَا

تلك المودات كيف تمهلُـــهَا ... تلك المواعيدُ كيف تغفلُـــهَا

أرحامُنا منـــكَ لِمْ تقطعُـــهَا ... ولَمْ تـــزَلْ دائمـــاً توصِّلُـــها

يا واسعَ الدار كيف توسِعُهَا ... ونحنُ في صخـــرةٍ نزلزلُهَـــا

منك تردّى بالفضلِ أفضَلُـــهَا ... منك أفـــادَ النَّـــوالَ أنولُهَـــا

فأضاف إلى موسيقى القصيدة عنصراً من عناصر التشوق والإثارة. كما نجد رد العجز على الصدر في قوله:

عليلةٌ بالشَّام مفـــــــردةٌ ... باتَ بأيدي العِدى معلَّلها

وفي قوله:

يا ناعِمَ الثوبِ كيفَ تبدلُهُ ... أثوابنا الصوفُ ما نبدِّلُها

وفي قوله:

فإنْ سألنَا سواكَ عارِفةً　　　فبعدَ قطعِ الرَّجَاءِ نسألُها

وفي قوله:

أصبحتَ تشرِي مكارمًا فُضُلاً　　　فداوُنا قد علـــمتَ أفضَلُهَا

لا يقـــبَلِ اللهُ قبلَ فرضِكَ ذا　　　نافـــــلةً عنـــدَه تنقُّلُها

والمصدر الآخر: نلمسه في حسن تجاور الأصوات، وهمسها أو جـهرها. مع الانسجام في الحركات والحروف. فضلا عما تحمله بعض الألفـــاظ مـــن إيحاءات ودلالات. مثل لفظة(تقلقلها) مثلا التي تنهض بتصويرا نزعـــاج الأم وحيرتها واضطرابها وعدم قرارها. ولفظة(تقفلها) التي تصور ترقب الناس نتيجة الزيارة التي قامت بها الأم للأمير. ولفظة(تحللها) التي تصور خطـــورة نقـــض العهود والمواثيق بين الأمير وأقاربه، وكأنه يميتها ويفنيها.ويضـــاف إلى ذلـــك طباقات السلب التي تساعد في تكثيف عنصر الموسيقى الداخليـــة، مثـــل: (لم تبذل ــ أبذلها) و(لم تقطعها ــ توصلها). مع بعض المقـــابلات الموجـــودة في بعض الأبيات من مثل:

يا ناعِمَ الثوبِ كيف تبدِلَـــهُ　　　ثيابُنا الصوفُ مـــا نبدِّلُهَـــا

يا راكِبَ الخيلِ لو بَصُرْتَ بنا　　　نحملُ أقيادَنَـــا وننقُلُـــها[1]

وإذا قرأنا قصيدة المعتمد في رثاء نفسه: [2]

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرائحُ الغادي　　　حقًّا ظفــرتَ بأشلاءِ ابنِ عبَّادِ

١ - انظر: كتاب بين الأنا والآخر في مدحيات المتنبي ١٢٨ وما بعدها .
٢ - ديوان المعتمد بن عباد ٩٦ .

لوجدنا فيها الكثير من الظواهر التي تعاونت على إيجاد نغم موسيقى حزين يلف أبيات القصيدة ، ويعبر عن جو الحزن والألم الذي يعيشه الشاعر وهو ينشد قصيدته .

ففي البيت الأول نجد التصريع الذي يجذب الانتباه، ويشد الآذان والقلوب إلى ما يأتي به الشاعر في الأبيات التالية. وفيه أيضا نجد الطباق بين (الرائح والغادي) الذي يصور حركة السحاب الذي يحمله ماء المطر الذي طلبه الشاعر سقيا لقبره.

وفي البيت الثاني يأتي الجناس بين(الحلم والعلم) الذي يضيف إلى البيت عنصرا موسيقيا جديدا عن طريق تناسب الألفاظ في الصورة. ويضاف إليه الطباق في الشطر الثاني الذي يضفي على البيت رونقا وبهاء، بالجمع بين المتضادين المصورين لحالتين متناقضتين في حياة الشاعر. ثم نجد السجع أو الترصيع في البيت الرابع:

بالدَّهرِ في نِقَمٍ بالبَحْرِ في نِعَمٍ بالبدرِ في ظُلَمٍ بالصَّدرِ في النَّادي

وهو يضيف إلى موسيقى البيت نغما موسيقيا جديدا مطربا له أثره الكبير في النفس . ثم يأتي البحر الذي اختاره الشاعر وزنا لقصيدة، فيؤدي دوره الهام في تشكيل الموسيقى الملائمة للجو الذي يعيشه الشاعر، وهو بحر البسيط المنبسط الممتد الذي يساعد الشاعر على حشدكم كبير من المعاني في كل بيت، وعلى أن ينفث هذا الكم الهائل من زفراته في هذه القصيدة. إضافة إلى ما يضفيه هذا الوزن على الأبيات من أبهة وجلال، فهو وزن يحمل الكثير

من الشجن، ويتمشى مع معاني الحنين والألم والتحسر على الماضي، مما يجعلـــه متناسبا مع أفكار القصيدة.

ثم يأتي حرف الروى وهو الدال المكسورة التي اختارها الشاعر رويـــــا لهذه القصيدة ليعبر عن حالة المعاناة الشديدة التي يحس بها الشاعر في مثل هــذا الموقف الذي اجتمع عليه فيه الأسر، والغربة، وفراق الأهل والوطن ، وترقــب الموت. وقد ساهم هذا الحرف بما يتصف به من الجهر والقوة، وبما أتى قبله من حرف المد (الردف) بالألف الممدودة، في الإفصاح بوضوح وقوة عن حالـــة الشاعر ومعاناته وآهاته وآلامه.

وهكذا ترى اهتمام شاعرينا بالموسيقى الشعرية، باعتبارها جزءا مهما في عملية البناء الشعري، وركنا من أركانه الأساسية، وإيمانا منهما بدورها البـــارز في إثارة العواطف والمشاعر. فحشد لها كل منهما العديد من الظواهـــر الـــتي أدت إلى حسن موسيقي شعرهما، وعذوبة أنغامه، وملاءمتها للحالة النفســـية التي يعيشها كل منهما في سجنه.

مراجع البحث

١ ــ القرآن الكريم.

٢ ــ أبو فراس الحمداني.
د/ خليل شرف الدين ــ منشورات دار ومكتبة الهلال ــ بيروت ١٩٨٧م.

٣ ــ أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير.
محمد رضا مروة ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٩٠م.

٤ ــ أبو فراس الحمداني شاعر الوجدانية والبطولة والفروسية.
د/ عبد المجيد الحر – دار الفكر العربي-بيروت - الطبعة الأولى – ١٩٩٦م.

٥ ــ اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجرى.
د/ رشيد قحطان التميمي – دار المسيرة – بيروت – بدون تأريخ.

٦ ــ الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر.
د/ عبد القادر القط ــ مكتبة الشباب بالقاهرة ــ طبعة عام ١٩٧٨م.

٧ ــ الأدب الأندلسي – موضوعاته وفنونه.
د/ مصطفى الشكعة – دار العلم للملايين – الطبعة السادسة – ١٩٨٦ م.

٨ ــ الأدب العربي في الأندلس.

د/ عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربيـــــة – بـــيروت – الطبعة الأولى – ١٩٧٦ م .

٩ ــ أسرار البلاغة.

عبد القاهر الجرجاني – تحقيق وتعليق : محمد رشيد رضـــا – دار المعرفة-بيروت – بدون تأريخ .

١٠ ــ الأسر والسجن في الشعر العرب .

د/ أحمد مختار البرزة – مؤسسة علـــوم القـــرآن – دمشـــق وبيروت – الطبعة الأولى – ١٩٨٥ م.

١١ ــ أسس النقد الأدبي عند العرب.

د/ أحمد أحمد بدوي – دار نهضة مصر للطبـــــع والنشـــر – ١٩٧٩ م.

١٢ ــ الأسلوب.

د/ أحمد الشايب – مكتبة النهضة المصرية – الطبعة الثامنة ـــ ١٩٩٠ م.

١٣ــ الأشباه والنظائر.

الخالديان – تحقيق: السيد محمد يوسف – لجنـــــة التـــأليف والترجمة والنشر – ١٩٦٥ م .

١٤ ــ أصول النقد الأدبي.

د/أحمد الشايب—مكتبة نهضة مصر—الطبعة العاشرة—١٩٩م.

١٥- الأعلام :
خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - الطبعة السابعة - ١٩٨٦م.

١٦- أعلام الكلام :
محمد بن شرف القيرواني - تصحيح وضبط : عبد العزيز أمين الخانجي - مطبعة النهضة ومكتبة النهضة بمصر - الطبعة الأولى -١٩٣٦م.

١٧- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح .
د/عبد المتعال الصعيدي - مكتبة محمد علي صبيح - الطبعة الثامنة - بدون تأريخ .

١٨- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر .
د/سعد إسماعيل شلبي - دار نهضة مصر للطبع والنشر - بدون تأريخ .

١٩- بين الأنا والآخر في مدحيات المتنبي .
د/عبد اللطيف الحديدي - دار السعادة للطباعة - الطبعة الأولى - ١٩٩٨م.

٢٠- تاريخ الأدب العربي .
د/ عمر فروخ - دار العلم للملايين - الطبعة السادسة - ١٩٩٢ م .

٢١ - تاريخ الفكر الأندلسي .

آنخل بالنثث - ترجمة د/ حسين مؤنس - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الأولى ١٩٥٥م.

٢٢ - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي .

ضبط وتوثيق : صدقي محمد العطار -دار الفكر - بيروت - ١٩٩٥م .

٢٣ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

آدم ميتز - ترجمة د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر -١٩٤٠م .

٢٤ - الحلة السيراء .

ابن الأبار القضاعي - تحقيق د/ حسين مؤنس - دار المعارف - الطبعة الثامنة/ ١٩٨٥م.

٢٥ - خزانة الأدب وغاية الأرب .

ابن حجة الحموي- شرح : عصام شعيتو -دار ومكتبة الهلال - بيروت - الطبعة الأولى -١٩٨٧م.

٢٦ - دراسة في لغة الشعر

د / رجاء عيد - منشأة المعارف بالإسكندرية - طبعة عام ١٩٧٩م .

٢٧ - ديوان بن حمديس .
تحقيق د/ إحسان عباس -دار صادر ودار بيروت،بيروت -
١٩٦٠م .
٢٨- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزى .
تحقيق راجي الأسمر - دار الكتاب العربي - الطبعة الأولى -
١٩٩٢م.
٢٩ - ديوان أبي فراس الحمداني .
شرح د/ خليل الدويهى - دار الكتاب العربي - بيروت -
الطبعة الأولى -١٩٩١م.
٣٠- ديوان بشار بن برد .
شرح وتقديم مهدى محمد ناصر الدين - دار الكتب العلمية
- بيروت/الطبعة الأولى/١٩٩٣ م.
٣١ - ديوان حاتم الطائى .
شرح وتقديم : أحمد رشاد - دار الكتب العلمية - بيروت
-الطبعة الأولى - ١٩٨٦م.
٣٢- ديوان عنترة .
شرح وتقديم : كرم البستاني - طبعة دار صادر - بدون
تأريخ .

٣٣ - ديوان المعتمد بن عباد .

تحقيق : حامد عبد المجيد - وأحمد أحمد بدوى - دار الكتب المصرية - الطبعة الثانية-١٩٩٧م .

٣٤- ديوان المعتمد بن عباد :

تحقيق : رضا الحبيب السويسى - الدار التونسية للنشر - ١٩٧٥م.

٣٥ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .

ابن بسام - تحقيق :د/إحسان عباس - الدار العربية للكتاب - ليبيا وتونس ١٩٧٨م .

٣٦ - الرثاء .

د/ شوقى ضيف - سلسلة فنون الأدب العربى - دار المعارف _ الطبعة الثالثة-بدون تأريخ

٣٧ - رثاء الأبناء فى الشعر العربى .

د/ مخيمر صالح موسى - مكتبة المنار - الأردن/الطبعة الأولى - بدون تأريخ .

٣٨ - رثاء المدن والممالك الزائلة فى الشعر العربى حتى سقوط غرناطة .

د/ عبد الرحمن حسين محمد - الطبعة الأولى -١٩٨٣م.

٣٩- رثاء النفس فى الشعر العربى .

د/ عبد الله باقازى - المكتبة الفيصلية - بدون تأريخ .

٤٠ - سير أعلام النبلاء .

الذهبي - تحقيق : أكرم البوسي - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية - ١٩٨٤ م.

٤١ - سيف الدولة الحمداني - أو مملكة السيف ودولة الأقلام .

د/ مصطفى الشكعة - عالم الكتب - بيروت - ومكتبة المتنبي بالقاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٧٧م.

٤٢ - شعر الأسر والسجن في الأندلس - جمع وتوثيق ودراسة .

د/ بسيم عبد العظيم إبراهيم - مكتبة الخانجي بالقاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٩٥م .

٤٣ - الشعر المصري بعد شوقي - الحلقة الأولى .

د / محمد مندور - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - بدون تاريخ .

٤٤ - الشعر والشعراء أوطبقات الشعراء .

ابن قتيبة - تحقيق د / مفيد قميحة - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

٤٥ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي .

د/ جابر أحمد عصفور - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٧٤م

٤٦ - الصورة والبناء الشعري.

د / محمد حسن عبد الله - دار المعارف - ١٩٨١م.

٤٧- الطراز.

يحى بن حمزة العلوى اليمنى - دار الكتب العلمية - بـيروت - طبعة عام ١٩٨٢م.

٤٨- ظهر الإسلام.

د / أحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية - الطبعة السادسـة - بدون تأريخ .

٤٩- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده .

ابن شيق القيروانى - تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميـد - دار الجيل- بيروت - الطبعةالرابعة- ١٩٧٢م.

٥٠- عناصر الإبداع فى رائية أبى فراس.

د / محمد عارف محمود حسين- مطبعة الأمانـة بالقـاهرة- الطبعة الأولى-١٩٨٨م.

٥١-الفخر والحماسة .

حنا الفاخورى - مجموعة فنون الأدب العربى- دار المعـارف - الطبعة الرابعة - بدون تأريخ.

٥٢- فن الزهد فى شعر البارودى .

مصطفى مصطفى عطا- دار الشـروق- الطبعـة الأولى- ١٩٨٨م.

٥٣- فن الشعر.

د/إحسان عباس- دارالشروق - الطبعة الخامسة-١٩٩٢م.

٥٤-في النقد الأدبي.

د/شوقي ضيف- دار المعارف- الطبعة الخامسة- ١٩٦٢م.

٥٥- القصيدة العباسية - قضايا واتجاهات.

د / عبد الله التطاوى- دار غريب للطباعة والنشر- الطبعة الثانية- بدون تأريخ.

٥٦- قضايا النقد الأدبي الحديث.

د / محمد السعدي فرهود - دار الطباعة المحمدية - الطبعة الثانية -١٩٧٩م.

٥٧- قلائد العقيان .

الفتح بن خاقان - مطبعة التقدم العلمية بمصر - الطبعة الأولى-١٣٢٠هـ.

٥٨- الكامل في التاريخ .

ابن الأثير - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة السادسة - ١٩٨٦م.

٥٩- كتاب الصناعتين .

أبو هلال العسكري - تحقيق علي محمد البجاوي - ومحمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت -١٩٨٦م.

٦٠ -كتاب الوزراء والكتاب.

أبو عبد الله الجهشيارى- تحقيق: مصطفى السقا- وإبراهيم الإبيارى ،وعبد الحفيظ شلبى- مطبعة مصطفى البابى الحلبى- الطبعة الأولى- ١٩٣٨م.

٦١- لسان العرب.

ابن منظور المصرى - طبعة دار المعارف.

٦٢-المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها.

د / عبد الله الطيب المجذوب- مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى- الطبعة الأولى-١٩٥٥م.

٦٣- المطرب من أشعار أهل المغرب .

ابن دحية الكلبى - تحقيق :ابراهيم الإبيارى وحامد عبد المجيد- طبعة عام١٩٩٣م.

٦٤- مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس.

الفتح بن خاقان - مطبعة الجوائب بالآستانة - الطبعة الأولى- ١٣٠٢ هـ.

٦٥- المعتمد بن عباد.

د / على أدهم - سلسلة الخالدون العرب - دار القدس للطباعة والنشر - بيروت - بدون تأريخ.

٦٦- المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ.

د/ عبد الوهاب عزام - دار المعارف بمصر - ١٩٥٩م.

٦٧-المعجب في تلخيص أخبار المغرب .

عبد الواحد المراكشي - تحقيق:محمد سعيد العريان.ومحمد العربي العلمي- مطبعة الاستقامة بالقاهرة - الطبعة الأولى- ١٩٤٩م.

٦٨- مقدمة ابن خلدون :

عبد الرحمن بن خلدون- طبعة دار الفكر العربي - بدون تأريخ.

٦٩- الموازنة بين الشعراء.

د / زكي مبارك-دار الجيل - بيروت - الطبعة الاولى - ١٩٩٣م..

٧٠- موسيقى الشعر .

د / إبراهيم أنيس- مكتبة الإنجلو المصرية - الطبعة السابعة - ١٩٩٧م.

٧١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب..

المقرى التلمساني - تحقيق د/ إحسان عباس- دار صادر بيروت- ١٩٨٨م.

٧٢ - النقد الأدبي

د/ أحمد أمين - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الرابعة - ١٩٦٧م.

٧٣ – النقد الأدبي الحديث .

د / محمد غنيمي هلال – دار الثقافة ودار العودة – بيروت – طبعة عام ١٩٧٣م.

٧٤ – نقد الشعر.

قدامة بن جعفر – تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي –مكتبة الكليات الأزهرية–الطبعة الأولى–١٩٧٨ م.

٧٥ – وفيات الأعيان.

ابن خلكان – تحقيق: يوسف علي الطويل – ومريم قاسم طويل – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٨م.

٧٦– يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر.

أبو منصور الثعالبي – تحقيق د/ مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٨٣م.

الفهرس

الفصل الثاني

أغراض شعر الأسر عند الشاعرين

(١٣٠ : ٣٠٠)

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر الأسر عند الشاعرين

(٣٠١ - ٥٢٥)

رقم الايداع بدار الكتب
٢٠٠٠ / ١٤١٥٩

مكتب الإيمان
للطباعة والكمبيوتر
٣ش طلعت حرب - توريل
المنصورة
أحمد فتحي عبد الكريم